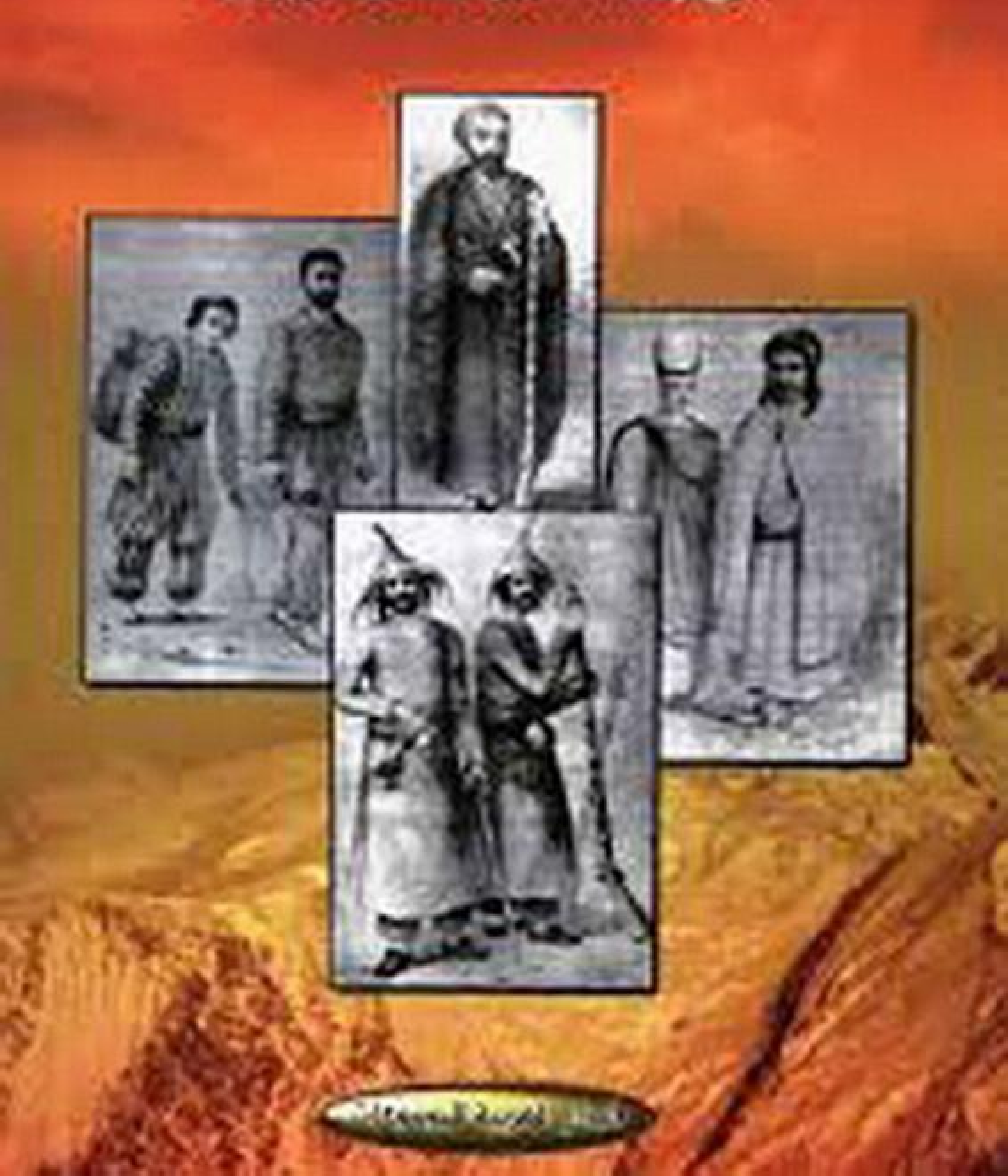
رحلة ريج

المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠

الى بغداد - كردستان - ايران




منتدى إقراء الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى , عربي , فارسي)

رحلة ريج

المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠

إلى بغداد - كردستان - إيران


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلة ريج

المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠

إلى بغداد ـ كردستان ـ إيران

مع ملحق عن: سلسلة العائلة البابانية
من سليمان بابا حتى باشا السليمانية

تأليف

كلوديوس جيمس ريج

ممثل شركة الهند الشرقية، والمقيم البريطاني في بغداد
في أوائل القرن التاسع عشر

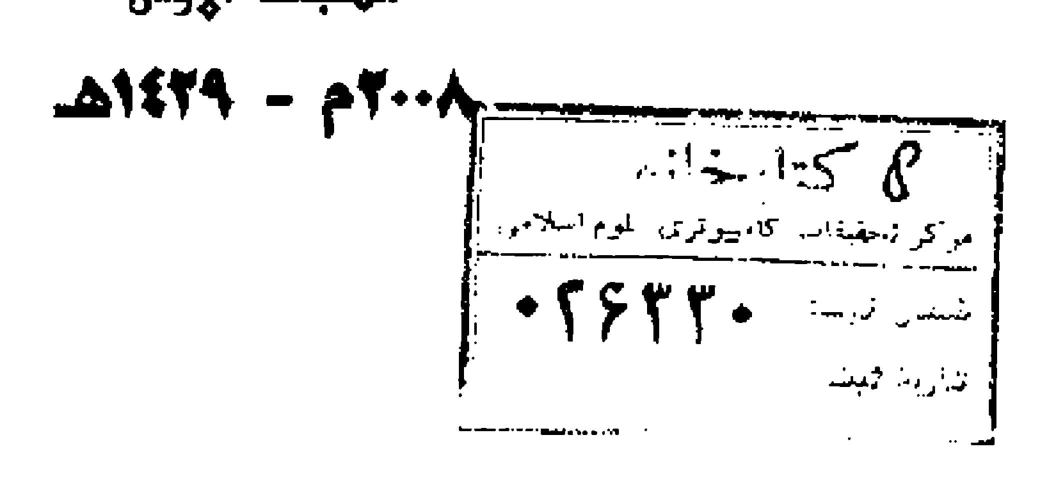
ترجمة

اللواء بهاء الدين نوري

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ



طبعته أرملته عام ١٨٣٦م

الدار العربية للموسوعات
الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر هكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

حياة المستر ريج

ولد (كلوديوس جيمس ريج) كاتب هذه اليوميات في ٢٨ آذار سنة ١٧٨٧م. على مقربة من (ديجون) من أعمال (بورغوندي) في فرنسا. ثم نقل وهو طفل إلى (بريستول) في إنكلترا حيث قضى السنوات الأولى من حياته برعاية والديه.

ولقد ظهرت عليه أمارات النبوغ الفائق منذ نعومة أظفاره. فإنه عندما كان يجتاز مراحل الدراسة الاعتيادية ويتلقى مبادىء اللغتين اللاتينية واليونانية على يد أحد أقربائه، ساقه حب الاطلاع الموفق إلى تعلم لغات عصرية متعددة بدون معلم، مستعيناً بالكتب. ولما بلغ الثامنة أو التاسعة من عمره عثر على مخطوط عربي في خزانة أحد وجهاء (بريستول)، فساورته رغبة شديدة بالوقوف على هذه اللغة. فكان ذلك الحافز الذي وجه الرغبة الملحة التي كانت تختمر في ذهنه، والتي وطَّد العزم على تحقيقها أكثر من أي شيء آخر، وهي ميله إلى دراسة العلوم الشرقية التي كان لها الأثر الفعال في توجيه حياته المقبلة. فقد تمكن بواسطة كتاب في النحو، وقاموس وبعض المخطوطات التي استعارها من المستر (فوكس) في (بريستول) من إتقان هذه اللُّغة العسيرة قراءةً وكتابةً، وأن يتخاطب بها بسهولة وذلاقة كبيرتين، حتى إذا ما بلغ الخامسة عشرة من عمره، قاده هذا التوجيه الفكري الراسخ في ذهنه إلى

المثابرة على تحقيقه بلا ملل، وإلى أن يحرز تقدُّماً بارزاً في لغات شرقية عديدة بينها العبرية والكلدانية والفارسية والتركية.

وحدث في تلك الأثناء أنه بينما كان يتنزه ذات مساء في (كينكزدن) من ضواحي (بريستول)، أن صادف رجلاً تركيًّا، فساقته الرغبة باختيار مدى إتقانه النطق باللُّغة التركية بحيث يفهمها منه أحد أبنائها، فتقدم من الرجل وخاطبه بهذه اللُّغة. وبعد أن أظهر التركي سروره ودهشته من أن يخاطب بلغته على غير انتظار، أعلم محدثه بأنه يحترف التجارة وأنه الآن في مأزق لأن السفينة التي كان يركبها قد تحطمت عند شواطىء إيرلندا. وإلى جانب سرور المستر ريج بنجاح تجربته أراد أن يظهر امتنانه من هذا الغريب فانبرى لإسعافه.

ثم لم تلبث براعته الفائقة في هذا المسلك الدراسي غير المطروق أن أثارت اهتمام معارفه الأقربين. فقدمه المستر ـ الدكتور فيما بعد ـ (مارشمان) إلى الدكتور (رايلند) وهو يومئذٍ من أعلام رجال اللاهوت في ذلك البلد. فتمكن بذلك من إنماء علاقته بعدد آخر من رجال الأدب في (بريستول)، كان أخصهم المستر (فوكس) الذي ظل المستر ريج يذكره على الدوام بودٍ خاص وعرفان الجميل، والذي بفضل إرشاده والرجوع إلى مكتبته تمكَّن من إحراز التقدم الذي بلغه يومئذٍ في دراساته الشرقية المحببة.

على أنه بالرغم من استلفاته الأنظار إلى اتجاه دراساته غير الاعتيادية، فإنه لم يكن أقل مباشرة على تهذيب نفسه بوجه عام. فقد امتاز في هذا العهد المبكر من حياته بخلَّته العالية السَّخية الأبية، والهمة التي أظهرها في شتى صفات الرجولة والكمال.

وقد دلَّه الاتجاه الذي انصرفت إليه دراسته مثلما دل غيره على أن الهند ستكون خير مرشح لإظهار نبوغه في المستقبل. ففي عام ١٨٠٣ تمكَّن أحد أصدقائه المهتمين به من التوسط له لدى شركة الهند الشرقية

لتعيينه طالباً حربيًّا في الخدمة العسكرية. وعندما أعلمه هذا الصديق بتعيينه، مبدياً أسفه لأنه لم يتمكَّن من أن يجد له منصباً خيراً من هذا، أظهر المستر ريج شدة اعتماده على نفسه فاندفع يقول بسرور: «دعني فقط أصل إلى الهند، واترك الباقي إليّ».

هكذا أصبح ميدان العمل الواسع الذي كان حتى الآن يجول في مخيلته، وبالأحرى بعيداً عنه، في متناول يديه. وراحت تملأ ذهنه كل الخيالات النيرة التي تلوح عادة لأنظار آمال الشباب، فأسرع إلى لندن، وراجع دائرة الهند لإتمام الإجراءات الضرورية التي كان عليه أن يتمها قبل تسلمه مهام وظيفته.

وفي هذه الفترة كتب (روبرت هول) المشهور الرسالة التي نقتطف منها العبارات التالية إلى صديقه (السير جيمس ماكنتوش)، حيث يظهر فيها أكثر من أي شيء آخر ما كان المستر ريج يتركه في نفوس المتصلين به حتى في هذه الحقبة المبكرة من حياته.

«شيفورد، بالقرب من كمبرج ٣٠ كانون الأول ١٨٠٣».

«اسمحوا لي قبل أن أختتم رسالتي، أن ألفت اهتمامكم إلى سيد شاب يدعى المستر ريج، الذي سيرافقكم في نفس الأسطول الذي سيقلكم إلى بومباي، كطالب حربي».

«إنه من أهالي (بريستول) وقد كان لي السرور بمقابلته مؤخراً، وهو شاب فوق المستوى المعتاد، تمكَّن بدون مساعدة أو بالقليل منها من تعلم لغات الشرق، فأتقن العبرية والكلدانية والفارسية والعربية وبالإضافة إلى اللاتينية والفرنسية مع بعض الوقوف على اللُّغة الصينية التي بدأ يحل رموزها وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره».

«وهو اليوم في السابعة عشرة من العمر، تساوره رغبة ملحة للسفر إلى الهند ليتاح له الانغمار في ميله الشديد إلى الآداب الشرقية، ولذلك

وبعد مشاق عديدة تمكَّن بالأخير من الحصول على منصب طالب حربي».

«إنه شاب من عائلة كريمة، ذو شخصية وحذق عظيمين، ويدعى كما بيّنته لكم على ما أظن المستر ريج. وإذا وجدتم من المناسب منحه شرف التعرف إليكم، فإني على ثقة من أنه سوف لا يجعلكم تندمون على عطفكم وتلطفكم».

هذا وبينما كان المستر ريج ينتظر في دائرة الهند، إذ اتجهت أنظار المستر ـ والآن السير تشارلس ويلكس ـ المعروف بعلو كعبه في لغات الشرق إلى مقدرة هذا الطالب العسكري في اللغات الشرقية، فقد وجده بعد الاختبار أعظم مما كان يتوقع، وأن حذقه كان غير اعتيادي إذا قورن بالوسائل التي تمكّن بها من تعلم هذه اللغات. ولذلك فإنه لم يلبث أن عرضه على أعضاء مجلس الإدارة كشاب يحمل من النبوغ الفريد النادر مما يجعله يشرِّف أية مهمة يضطلع بها تحت رعايتهم.

وبناء على هذه التوصيات التي عرضت بشأن مؤهلات المستر ريج فقد عينه المرحوم (إدوار باري) بتقدير كلّي لوظيفة كاتب تحريرات في مؤسسة بومباي وهكذا تغيرت وجهته من الخدمة العسكرية إلى الخدمة المدنية في تلك المصلحة. ولأجل أن يتمكن من إتقان اللغتين العربية والتركية اللتين سبق أن أحرز فيهما تقدماً غير منتظر، ألحق بسكرتارية المستر (لوك) الذي كان يومئذٍ في طريقه إلى مصر كقنصل عام للحكومة البريطانية. وقد حفظت له وظيفته خلافاً لما اعتادته الشركة خلال اضطلاعه بهذه المهمة كمن قد تسلمها فعلاً في الهند.

أقلع المستر ريج في مطلع عام ١٨٠٤ على ظهر سفينة شحن تدعى هندستان للالتحاق بالمستر (لوك) في البحر الأبيض المتوسط ولكن النار شبت في هذه السفينة لسبب ما في خليج (روماس) في إيطاليا فالتجأ المستر ريج إلى شاطيء (قاتالونيا) مع الملّاحين، ومن هناك استأنف

سفره إلى (مالطة) بمعاونة صديق له من (بريستول) ينتمي إلى فرقة الارتجافيين[١]. وبعد إقامة طويلة في إيطاليا أتقن اللّغة الإيطالية الجميلة وانكب على دراسة الموسيقى، وذلك الفن الذي ظل يتوسع به في كل أدوار حياته بكل حماس ولذة.

ولقد لاءمت إيطاليا اتجاهه الفكري أكثر من أي قطر آخر زاره، فكان يرجع بذاكرته إليها بسرور عظيم. وحدث أن توفي صديقه المحبوب المهذب المستر (لوك) قبل تسلمه مهام منصبه، وعندئذٍ سمح مجلس المدراء للمستر ريج أن يتجه في سفرته الوجهة التي يظنها أكثر موافقة لبلوغ هدفه المنشود، مسترشداً بآراء المستر (ويلكنس) القيمة، وعلى هذا فقد توجه من (مالطة) إلى (إستانبول) مارًّا في طريقه بجزائر يونانية عديدة.

وحدث أنه بينما كانت السفينة التي استقلها مارَّة بالأرخبيل، أن ظهرت ذات يوم سفينة ذات مظهر مريب تتجه نحو السفينة التي كان هو أحد ركابها. فحسبوا أنها كانت سفينة قرصان فاتخذت كافة التدابير الدفاعية ضدها. لكنهم وجدوا عند اقترابها منهم أنها كانت سفينة تجارية تركية فانتقل إليها المستر ريج مع جماعة أخرى. وقبل أن يمر عليه وقت طويل فوق سطح السفينة شاهد تركيًّا أنيق البزة يتطلع إليه بإمعان، الأمر الذي استرعى انتباهه. وأخيراً تقدم التركي منه وقال له:

ـ سيدي، إني أعرفك.

فأجاب المستر ريج: وأنا أيضاً قد رأيتك قبل هذا.

---

(١) الارتجافيون: زمرة بروتستانتية محصورة في سكان إنكلترة وأميركا، يعتقدون بإنزال الوحي عليهم أثناء القيام بفروضهم الدينية، وهم تهيباً لاقتبال الوحي يرجفون أجسامهم، ولذلك أطلق الإفرنسيون عليهم اسم Les Trembleurs، وتعتهم الإنكليز بـ The Qualsers. ـالمترجمـ.

أعقب ذلك تفاهم تبين منه أنه هو ذلك الرجل الذي كان قد انبرى المستر ريج إلى نجدته في (بريستول).

وقد أقام المستر ريج مدة في إستانبول ومنها انتقل إلى إزمير. وهناك انخرط في مدرسة مع أترابه من الشبان الأتراك لإتقان خصائص اللُّغة التركية ودقائقها قراءة وكتابة، والتعمق في اكتساب مختلف أنواع العلوم الإسلامية. وقام خلال هذه المدة بسفرات مهمة متعددة في آسيا الصغرى، ثم عين معاوناً للكولونيل (ميسيت) القنصل العام البريطاني بمصر، فسافر إلى الإسكندرية بطريق (قبرص).

واستفاد من إقامته بمصر في إتقان اللُّغة العربية ولهجاتها المختلفة، وفي الوقت نفسه كان يقضي أوقات فراغه بالتمرن على الفروسية واستعمال السيف والرمح، وهما السلاحان اللذان اشتهر المماليك باستعمالهما. فلا غرابة أن يكتسب شخص مثله جمع إلى صفات الرجولة أخلاقاً رقيقة وذكاء متوقداً مع خفة في الروح، احترام واهتمام الكولونيل (ميسيت) أكثر من كل معارفه الآخرين من الإفرنج، وأن يشعر جميعهم بالأسف لفراقه عندما انتهت المهمة التي زار من أجلها مصر، وأزفت ساعة رحيله عنها.

ولقد قرر أن يكون سفره إلى الخليج برًّا، فبارح مصر متنكراً بزي مملوك، فتجول في معظم أنحاء فلسطين وسوريا. واعتماداً على براعته بلغة الترك وأطوارهم، خاطر بزيارة دمشق عندما كانت معظم قوافل الحجاج محتشدة فيها بطريقها إلى مكة، فدخل المسجد الكبير وهذا عمل كان يومئذٍ يكلفه حياته لو انكشف أمره بأنه مسيحي.

وكان مضيفه، وهو تركي مستقيم، قد سحرته شخصيته وبذل قصاراه لإقناعه على البقاء بدمشق عارضاً عليه مصالحه والزواج من ابنته. ومن حلب قصد البصرة عن طريق ماردين وبغداد، ومنها أقلع إلى بومباي فبلغها في أوائل أيلول سنة ١٨٠٧.

ولقد مر بنا أن القس المحترم (روبرت هول) كان قد قدم المستر ريج للسير (ج.جيمس ماكنتوش) بصورة خاصة في الوقت الذي كان يتوقع أن يسافر معه إلى الهند بنفس الأسطول. فلما تغيرت وجهه المستر ريج، أتيح له قبل إقلاعه في السفينة (هندستان) بمدة وجيزة أن يزور السير (جيمس) في مقره يومئذٍ في (رايد) انتظاراً للإقلاع إلى الهند. وقد نشأت بين الاثنين مناسبات حتى إن المستر ريج أقام عنده عند وصوله إلى (بومباي). أما نتيجة هذه العلاقة فيمكن استخلاصها من عبارات السير (جيمس) نفسه في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه:

«لعلك تتذكر ما كنت قد طالعته في الصحف في سنة ١٨٠٣ أن المستر باري مدير إدارة الشركة الحالي كان قد أسند منصب كاتب تحريرات إلى شاب يدعى ريج لمجرد تقرير قدمه إليه المستر (ويلكنس) عن براعته العجيبة باللغات الشرقية، لا لغرض خاص أو لمجرد معرفة شخصية. وقد سافر هذا الشاب كمعاون للمستر (لوك) الذي كان قد عين قنصلاً في الإسكندرية، ومنذ أن توفي هذا، سافر المستر ريج في معظم أنحاء آسيا التركية باتجاهات عديدة، وهو مجهز بقلمه وبعين فنان وبالشخصية والشجاعة اللتين يحتاج إليهما المسافر في بلاد «بربرية».

فلقد اكتسب من البراعة بلغات الشرق وعاداته قدراً، بحيث تنكر بزي تركي من كرجستان وأقام بدمشق عدة أسابيع بين الألوف المؤلفة من الحجاج الذين كانوا بطريقهم إلى مكة، دون أن يرتاب به أشد المتعصبين المسلمين يقظة وشراسة.

وقد قدمه إلى صديقي المستر (هول) وتلقيت رسائل عديدة منه، فدعوته لزيارتي في بيتي فأقام معنا عند وصوله هذه الجزيرة (بومباي) في أوائل أيلول سنة ١٨٠٧.

ولقد وجدنا فيه أكثر مما كنا نتوقع، وشعرنا بأن اطلاعه العجيب على العلوم الشرقية لا يمثل إلا جانباً صغيراً من مؤهلاته. فقد وجدته

أديباً بارعاً في اللغات الكلاسيكية، يجيد الفرنسية والإيطالية قراءة وكتابة كأحسن المثقفين من أبناء هاتين اللغتين. وقد جمع إلى شخصيته القوية ومظهره وسلوكه كمالاً وظرفاً في جميع تصرفاته؛ ورجولة مع ذكاء ودعابة ومشاعر. وقد بلغ من سروري بعلمه وبراعته ما جعلني أعدّه من الفلاسفة، وحسبته جديراً بأن يرشح للانتماء إلى «هيكل الحكمة» من جانب صديقنا (دوغلاس ستيوارت). وعندما سافرت إلى (ملبار) تركته في بيت صديقي الفيلسوف (ارسكين) المنهمك بوضع كتابه «فلسفة الفكر البشري». فلما عدت من سفري وجدت أن هذا الطالب في الفلسفة يرغب في أن يكون صهري. ومع أنه كان غير مثرٍ وحتى بدون وظيفة، فلا أخالك تشك في أنني وافقت على زواجه من ابنتي الكبرى بكل امتنان. لأنه استطاع هذا أن يكتشف بفطنته ويقدر بصفاته شعور هذه الفتاة الفياض وتواضعها وطهارتها وطبيعتها الرقيقة تلك الصفات التي أؤمل أن تجعل منها مصدر سعادة له مدى الحياة.

وبعد ذلك بقليل دعت المصلحة العامة الملحة تعيين مقيم لنا ببغداد، فأجمعت آراء الكل على أن المستر ريج هو الشخص الوحيد الجدير بهذا المنصب، وقد تم تعيينه فعلاً. وبذلك حصل على الترفيع مرتين قبل بلوغه الرابعة والعشرين من عمره لمجرد كفاءته، ولقد تزوج من ابنتي وسافرا معاً إلى بغداد».

أما في رسالة إلى المستر هول في حوالي ذلك الوقت فقد قال:

«لقد أصبح ريج الذي رشحته لي صهري، وإنه لصهر لا يتردد أشد الأبوين حبًّا لابنتهما عن وضع مقدراتها في يده».

أما ريج فبعد احتفاله بزواجه في ٢٢ كانون الثاني ١٨٠٨ بمدة وجيزة سافر إلى مقر مقيميته التي كانت تضم بغداد والبصرة، فأقام ببغداد حيث مقر الباشا، وحيث يمكنه موقعها المتوسط من إدارة شؤونه

السياسيَّة مع الباشوية والحصول على أنباء ما كان يدور في أوروبا في تلك الحقبة المليئة بالحوادث التي كان ينتظر أن يغزو فيها (نابوليون) إنكلترا والهند؛ وبفضل روحيته العالية وبعد نظره في الشؤون السياسية ووقوفه التام على العادات الأهلية ووافر كرمه، اكتسب بسرعة فائقة الاحترام العميق من الحكومة المحلية والأهلين معاً.

وجرياً على ما كان معتاداً في الحكم التركي نشبت في عهد مقيميته ثورات حكومية وحصلت تبديلات بين الباشوات وقد تمكن المستر ريج بفضل أخلاقه العالية أن يمنح الحماية في بيته لكثير ممن كانت حياتهم في خطر من جراء الانقلابات السياسية، في ظروف غير اعتيادية أحياناً، وحتى أنه كان من حين إلى آخر يمنح هذه الحماية لعائلات الجانب المخذول التي ما كانت لتتخلص لولا هذا الملجأ الذي لم يكن يجرؤ أحد على خرق حرمته. وكان من دواعي ارتياحه أن يرى حوله مفعول عدالته الرسمية هذه، وحسن نيته؛ وأحياناً لم يكن الناس يقيمون وزناً لوعود باشواتهم وأعيانهم إلا إذا كانت مدعومة بضمانه.

ولقد قضى حوالي ست سنوات ببغداد ولا رفيق أوروبي له سوى زوجه والمستر (هاين) جراح المقيمية الذي كان معاوناً له أيضاً. فكان يقضي أوقات فراغه من أعماله الرسمية في تتبع دراساته المحببة له. فجمع المصادر الملازمة لكتاب في تاريخ باشوية بغداد وأحوالها الجغرافية والإحصائية، وابتدأ بجمع مجموعته من المخطوطات الشرقية التي لم يدَّخر من أجل جمعها مجهوداً أو نفقات. وقد نشرت فهارس هذه المجموعة كما كانت عليها في حينه في بضعة أعداد من مجلة «مناجم الشرق» التي كانت تصدر في (فينا) وفيها أصدق برهان على مدى النجاح الذي أحرزه في مباحثه.

وقد نظم كذلك مجموعة غنية بالأنواط والمسكوكات

والمجوهرات والأحجار المنقوشة التي عثر عليها في بابل ونينوى وطيسفون وبغداد. وقام برحلة إلى بابل لدراسة آثار تلك المدينة القديمة، فجمع نتاج ملاحظاته في كتابه «مذكرات في خرائب بابل» الذي طبع لأول مرة في (فينا) في مجلة «مناجم الشرق» ومن ثم تم طبعها في إنكلترا. وقد وصفت مجلة «أدن يه ره رفيو» هذا الكتاب حق الوصف بقولها: «إنه رواية متواضعة وصريحة في مشاهداته خلال زيارته القصيرة، ويكفيها اعتباراً ما تمتاز به من خلوها من التحقيقات التي لا طائل تحتها أو التخمينات الارتجالية، إذ كانت خير برهان على براعة المؤلف في العلوم الشرقية والكلاسيكية، وابتعاده عن الادّعاء الفارغ والمباهاة الفظة، وذلك نتيجة طبيعية لعلمه المكين».

وبعد سنة ١٨١٦ بقليل أصدر الميجر (ره نل) صحيفته المسماة «اركيئولوجيا» فنشر فيها ملاحظات في تخطيط بابل القديمة مستندة على مشاهدات واكتشافات كلوديوس جيمس ريج، وقد أظهر الشك في بعض آرائه. وعلى هذا قام المستر ريج برحلة أخرى إلى بابل لدرس مواقعها، فنشر في لندن عام ١٨١٨ كتابه «مذكرات ثانية في بابل» تحتوي على تحقيقات في المقارنة بين الأوصاف القديمة لبابل والآثار التي لا تزال تشاهد في مواقعها مبنية على ملاحظات الميجر ره نل». وقد أيد في مذكراته الثانية هذه، استنتاجاته الأولى وأضاف فهرساً قيماً في عاديات بابل مزيناً بالصور المحفورة، فقوبلت هذه المذكرات الثانية باهتمام عظيم في جميع أنحاء أوروبا لأنها ألقت ضوءاً جديداً على هذا الموضوع الذي يهم كل قراء التاريخ المقدس أو القديم.

وفي أواخر عام ١٨١٣ اضطر المستر ريج لأسباب صحية أن يترك مقيمية بغداد في رعاية معاونه المستر (هاين) ويسافر إلى استانبول برفقة زوجه، فقضى فيها مدة بضيافة صديقه المستر والان (السير روبرت لستن) الذي كان يومئذٍ سفيراً لبريطانيا لدى الباب العالي. وقد حملته اعتبارات

شتى في أوائل عام ١٨١٤ على إطالة سفرته مارًّا ببلغاريا وبلاد الإفلاق والمجر حتى (فيَنّا)، ومن ثم وصل إلى باريس، وكانت جيوش الحلفاء قد احتلتها توًّا.

كانت تلك الأيام مليئة بالأحداث المثيرة. وباستثناء سفرة قصيرة قام بها إلى (بازل) حيث التقى مع صديقه وحميه السير (جيمس ماكنتوش) فإنه بقي في هذه العاصمة (باريس) حيث أتيحت له الفرص لمقابلة الشخصيات المهمة التي كانت محتشدة فيها في الأيام الخطيرة، إلى أن رجع (بونابارت) ففرق شملهم وجعلهم يعودون كل إلى جيشه أو بلاده.

وبطريق عودته إلى بغداد مر المستر ريج (بسويسرا) و(ميلان) ومنها إلى (البندقية) حيث ودع مكرهاً البلاد الإيطالية الوداع الأخير. فعبر إلى (تريه سته) ومنها سافر بطريق (كورفو) والأرخبيل إلى استانبول، وقد مر بطريقه على عدد من تلك الجزائر فنزل إليها لارتياد موقع (طروادة) القديم ومن (استانبول) عاد إلى (بغداد) بطريق آسيا الصغرى، مارًّا قدر المستطاع بطريق يختلف عن طريق سفره إلى أوروبا، وموجهاً اهتمامه بصورة خاصة إلى جغرافية تلك البلاد سيما مواقع سلاسل الجبال. ولما قارب وادي الرافدين زار أديرة السريان والكلدان وجمع المعلومات عن العنصر الغريب المعروف باليزيدية.

وبعد وصوله مقر مقيميته واصل تتبعاته القديمة، وتمكَّن خلال السنوات الخمس التي قضاها فيها، من إضافة مخطوطات جديدة إلى مجموعته بحيث أصبحت أوسع وأثمن مجموعة يمتلكها أي شخص في الشرق. وقد ساعدته إقامته ببغداد على هذه المزية الفريدة. وتوسعت كذلك مجموعته من المسكوكات اليونانية والبرثية والساسانية والإسلامية كما توسعت مجموعته من المجوهرات والأحجار المحفورة سيما الأسطوانات البابلية. وقد قام خلال هذه المدة برحلته الثانية إلى بابل، وقد مرَّ بنا ذكرها. وفي سنة ١٨٢٠ أصبحت حالته الصحية تفتقر إلى

تغيير بيئته (الهواء) فقام برحلة إلى كردستان وهي الرحلة التي تضمنت هذه اليوميات حوادثها.

وخلال عودته قام بزيارات متعددة للكنائس المسيحية في مواطن الكلدان سيما تلك التي لم تتح له مشاهدتها في سفراته السابقة فتمكّن من أن يجمع ويضيف إلى مكتبته عدداً من النصوص السريانية والكلدانية القديمة القيّمة للكتاب المقدس عدا مخطوطات نادرة أخرى.

وكان قد وطّد العزم في هذه الأيام على السفر إلى بومباي حيث عينه حاكمها الكلّي الاحترام (ماونت ستيوه رت الفنستن) في منصب خطير، لكنه حدث أن هوجمت دار المقيمية هجوماً عنيفاً لا مبرر له بأمر الباشا أو بتحريضه. وقد نجح المستر ريج في صد هذا الهجوم بقوة السلاح، وتوجه إلى البصرة فبقي فيها حتى دفعت التعويضات المطلوبة.

وفي أثناء انتظاره تعليمات حكومته استغل الوقت فقام بسياحة إلى (شيراز) ومنها توجه لزيارة خرائب (برسه بوليس) وضريح (كورش) وبقايا العاديات الأخرى الموجودة في تلك الضواحي.

وفي أثناء إقامته في (شيراز) تفشت فيها الهيضة بشدة نشرت الرعب في العالم. فخلال بضعة أيام مات ستة آلاف شخص من سكان البلدة البالغ عددهم نحو الأربعين ألفاً، وعلى أثر ذلك هجر البلدة أميرها مع أفراد عائلته وكبار أعيانها ووجهائها ومن استطاع ذلك من أبناء الطبقة الفقيرة.

أما المستر ريج فقد أبى أن يبارح المدينة. وإنما بذل كل جهده لتسكين روع الأهلين وإسعاف المرضى والمحتضرين. وكان يقضي أوقاته أياماً عديدة في زيارتهم وإسعافهم بالأدوية الضرورية. وقد أسعدت قلبه مشاعر الاعتراف بالجميل والشكر التي أظهرها له الناس الذين انبرى لإسعافهم.

لكن هذه الآفة كانت قد أنشبت أظفارها فيه أيضاً. وظهرت عليه أعراض الهيضة عند خروجه من الحمام في ٤ تشرين الأول، وعلى الرغم من العناية والإسعافات التي أجريت له قضى نحبه في صبيحة اليوم التالي ٥ تشرين الأول ودفن في (جهان نما) في إحدى الحدائق الملكية التي كان يقيم بها في تلك الأيام، وحيث نصب له تمثال تخليداً لذكراه.

هذه هي خلاصة نشاط هذا الرجل الفذ، ناهيك عن نبوغه ومزاياه وتحصيله، ففي العبارات القصيرة البليغة التي أجملت فيها شخصيتان مثل (روبرت هول) و(السير جيمس ماكنتوش) سيرة هذا الرجل ما يغني عن تكرار سردها بأقلام من هم دونهما مقدرة، إذ قلَّما تعرَّف إليه أحد إلا وأصبح مأخوذاً بأخلاقه مسروراً بمزاياه عدا تقديره لمؤهلاته الواسعة الفريدة. فقد كانت السرعة التي تعلم بها اللغات والفنون ترجع إلى غريزة كامنة فيه أكثر من المجهود الذي بذله. ففي الحقبة الأخيرة من حياته باشر مسح البلاد العربية التابعة للدولة التركية بنفس السهولة التي حصل بها على معلوماته الرياضية العالية التي كانت تفتقر إليها مهمته.

وكان العرب والأتراك معاً يقدِّرون فيه علمه الواسع في آدابهم. أما بين جماعة أصحابه فكان دائماً قطب الدائرة المحبب، إذ كان على استعداد للانخراط في كل ملاهيهم بدون كلفة، تعجبه الروح المرحة والفكاهة، فكان بمثابة الروح في الولائم، ويظهر أكثر الحاضرين سعادة وهو أصغرهم سنًّا.

كان ملتهب العاطفة، نشطها. وكان بين الأصحاب الخل الوفي الصميم. كان شديد الحب لزوجته، وكان الشعور الديني فيه عميقاً. وكانت شخصيته القوية تمكِّنه من قيادة مرؤوسيه والسيطرة عليهم. وقلَّما بلغت الأخلاق البريطانية الشهرة التي بلغتها في بلاد العرب التركية في الأيام التي تقلد فيها منصبه ببغداد.

ولقد كانت مذكراته عن بابل الأثر الوحيد الذي نشره في حياته،

عدا بعض المقالات التي نشرها في مجلة «مناجم الشرق». وقد خلف مخطوطات عديدة سيما يومياته المسهبة عن طريق سفره من بغداد إلى استانبول، وهي السفرة الوحيدة ـ على ما يظن ـ التي رافقته بها السيدة ريج على ظهر جواد، كذلك خلف يومياته عن سفره من استانبول إلى (فينا) ومن باريس عائداً إلى بغداد، عدا يومياته في كردستان المطبوعة في هذا الكتاب وأوراق أخرى عديدة في موضوعات متفرقة.

أما مجموعته القيّمة من المخطوطات الشرقية والمسكوكات والعاديات، فقد اشتراها البرلمان البريطاني لمنفعة المتحف البريطاني حيث هي الآن.

ولسنا بحاجة للتحدث في موضوع صفحات هذا الكتاب فإنها تتحدث عن نفسها. إنها يوميات شخص فذ عن بلاد جديدة. نقول جديدة وإن وجدت أخبار متفرقة عنها في يوميات الرحالة الآخرين الذين مرّوا عفواً وسراعاً ببعض أقسامها. أما هذه اليوميات فإنها تلقي ضوءاً جديداً ساطعاً على جغرافية كردستان وعادات أهلها. وإن النقاط الجغرافية التي تم التحقيق فيها لما تساعد على تعيين المواقع ليس في مختلف نواحي كردستان فحسب وإنما هي الأصقاع المجاورة لهذا الجزء من آسيا.

ومما لا شك فيه أن المستر ريج كان يرغب في نشر مباحثه وملاحظاته عن سفرته هذه[1]. فقد استعان فيها بكافة وسائل المسح

---

(١) جاء في رسالة كتبها (جيمس بيلي فريزر) إلى (ويليم ارسكن) في بومباي، مؤرخة، شيراز ٦ تشرين الأول ١٨٢١ أي بعد وفاة المستر ريج بيوم واحد، العبارات التالية: «عثرت بين الكتب التي وجدتها لديه على دفاتر تعليقات ومذكرات لا أشك في أنها ذات قيمة كبيرة. فهي تحتوي على ملاحظات جغرافية وفلكية نحن بأمس الحاجة إليها في خرائطنا الإيرانية. وجميع هذه التعليقات والملاحظات عن كردستان إما أن تكون موجودة بين هذه الأوراق أو أنها بين الأوراق التي خلفها في (بوشهر). وإنها ستكون خسارة لا تعوض للجمهور فيما لو فقدت. ولقد حرصنا على أن لا تفلت منّا =

الفني، وعين في يومياته بكل دقة النقاط التي كانت توجه سيره. ولو كان الأجل يمتد به لنشر هذه الأوراق على الجمهور بنفسه، فلربما كان يضفي عليها الشيء الكثير من ألوان مخيلته، ويضيف إليها الكثير من المعلومات التي كانت تزدحم في دماغه ورهن إشارته، والتي لم يذكرها في يومياته في حينها.

وفي الوقت نفسه فإنه بفضل جمعه بين دقة التخطيط وبراعة القلم بالإضافة إلى المسح الفني، فقد أنجز في بعض أقسام كردستان التي كانت عبارة عن مجموعة مجهولة في أحسن خرائطنا، المهمة التي لم يتم إنجازها بصورة متقنة في أي قسم آخر من آسيا. وهذا إبداع مشرِّف له وللبلاد التي ينتسب إليها.

= أو تضيع علينا أية قصاصة من الورق كانت في مكتبه، فقد تحتوي هذه الوريقات على مذكرات لها قيمتها. وقد سمعت المستر ريج يقول مرة، إن كافة الخرائط الموجودة حاليًا عن هذه الجزء من آسيا مشحونة بالأغلاط، وعبر عن رغبته في أن يتم مشروع خرائطه الخاصة التي كان يريد أن يضعها بنفسه. ونجد كذلك نسخة جد قيمة من الكتابات المسمارية الموجودة في (برسه بولس) كلها مكتوبة بخط يده. وقد كان عازماً على إرسال نسخة منها إلى الأستاذ (غروتيفند) في ألمانيا».

الليلة الأربعاء الخميس في ١١ آذار ١٩٧٠ في بيروت سمعت راديو بغداد يقول بأن ثورة الكرد قد انتهت بصورة نهائية بين العرب والكرد عسى أن يكون ذلك صحيحاً.



۲۰

بداية الرحلة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

الرحيل من دار الإقامة - كيفية السفر - وصف جماعتنا - الزوابع -
كفري - الخرائب الساسانية - ضيافة رئيس عشيرة البيات -
منابع النفط في (طوزخورماتو)

* * *

بغداد ١٦ نيسان ١٨٢٠:

تخلصاً من حر صيف من أصياف بغداد الشديد، عزمت هذا العام على زيارة جبال كردستان، إذ قيل لنا بأننا سنلاقي فيها مناخاً يختلف اختلافاً كليًّا عمّا هو في بغداد[١]، ولما كانت كردستان بلاداً غير معروفة

---

(١) إنه لمن الصعب أن أتصور أن الحرّ الذي يعم بغداد لمدة خمسة أشهر على وجه التقريب، يضاهيه أي حرّ آخر في أي جزء من العالم، وقد تدرك ذلك بعض الإدراك إذا ذكرنا بأن الأهلين في الأشهر من نيسان إلى تشرين الأول يضطرون إلى الالتجاء خلال حر النهار، إلى السراديب، وإلى النوم ليلاً فوق سطوح بيوتهم، أما غرف البيوت في تلك المدة، فلا يمكن سكناها. وترتفع درجة الحرارة عادة في شرفة مفيأة إلى ١١٥ درجة، وقد شاهدت ارتفاعها حتى ١٢٠ درجة في وسط النهار، وإلى ١١٠ درجات في العاشرة ليلاً، وقد أزعجتنا كثيراً رياح السموم الحارة المحرقة، وأما رائحتها فكبريتية قوية - الناشرة.

في أوروبا إلا قليلاً، وكان لي هناك الكثيرون من المعارف من مواطنيها الذين وصلتني منهم الكثير من الدعوات الملحّة لزيارتهم، فقد سرني أن تتاح لي فرصة أخرى لإرواء غليلي الذي لا تنطفىء ناره، لمشاهدتي بلاداً جديدة.

وإنني لأشعر في هذه المرة، أن من واجبي أن أسوح بصفتي الرسمية. وهذا مما جعل قرينتي السيدة (ريج) تتجشم متاعب السفرة المنهكة في محمل مستور أو الـ«تختروان»[١] ترعاها الخادمات وحاشية الحرم[٢]. ولتخفيف المتاعب عنها على قدر المستطاع ارتأيت أن يرسل معها جواد تمتطيه عندما لا تتعرض إلى الأنظار. واضطررت شخصيًا بحكم واجبي ومركزي إلى استصحاب الكثير من موظفي دار الإقامة وخدمها، واستصحاب من طلب السماح له برفقتنا، كي نؤلف جماعة كثيرة العدد. وتخلصاً من النفقات الواجب صرفها على الجنود المحليين الذين يرافقوننا لحمايتنا في الطريق، استصحبت حرساً مؤلفاً من خمسة وعشرين سباهيًا وضابط صفهم (سوبيدار)، وهم الذين خصصتهم حكومة (بومباي) كحرس خاص لدار الإقامة. ولهؤلاء الحراس حرمتهم، وهم رهط من الرجال البواسل، وكانوا جذلين برحلتهم هذه، على ما لاح لي.

---

(١) هذا ما يعني كلمة צב (صب) في العبرية، التي أضحت عندنا في التوراة Litter أي هودج، كما جاء في الفقرة ٢٠ من الإصحاح ٦٦، اشعيا. وقد جاء في النسخة السبعينية (Septuagint) «هودج بغل». تلقت الناشرة هذه النبذة من صديق لها. (وقد جاء وصفه في رحلة ابن جبير في رحلته من بغداد إلى الموصل كما يلي: ـ«... في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى...» - (المترجم).

(٢) تعني كلمة «الحرم» القسم النسائي من عائلة تركية، وتستعمل هذه الكلمة المنفردة عندما يتجنب المسلم ذكر أهل بيته من نسوته أو بناته. والكلمة تعني أيضاً ذلك القسم من الدار الذي تسكنه الإناث. والأتراك حذرون جدًا في التكلم شخصيًا عن أقاربهم من النساء بدرجة أنهم يضطرون أحياناً إلى الإشارة إليهن بقولهم «إن بيتي مريض» أو «إن بيتي يرسل تحياته إلى بيتك».

وكان الباشا ذا لطف عميم في بذل كل ما في وسعه لتسهيل سفرتنا، وتزويدنا بالفرامين والأوامر والرسائل إلى ذوي الشأن ضمن منطقته، وبتوصيات حارة إلى باشا كردستان ورؤسائها.

اخترت قرية (الدوخلة) الخربة الواقعة على بعد واحد وعشرين ميلاً شمالي بغداد، كمثابة أو محل ملاقاة عام للحرم والأمتعة والحرس وغيرهم من الجماعة الذين لم يرافقوني شخصيًّا إليها.

رحلت من بغداد في ساعة متأخرة من اليوم، بالنظر إلى زيارة الكثيرين لي من المودعين راجين لي سفرة ميمونة. ولم يكن لهذا التأخير من أثر يذكر، إذ كانت المرحلة الأولى لا تتجاوز الخمسة أميال في مداها، وهي بستان صديقي القديم المضياف الحاج عبد الله بك، الذي رجاني أن أجعل من داره هذه المراح الأول.

امتطيت صهوة جوادي بعد الخامسة بعد الظهر توًّا ووصلت البستان بين السادسة والسابعة، فاستقبلني البك ببالغ الحفاوة ووجدت أنه قد أعد لي وليمة تركية فخمة جدًّا، كما واستقبلت صالحة خاتون السيدة ريج[١] صديقتها استقبالاً مضاهياً، وهي إحدى أرامل سليمان باشا الذي حكم بغداد مدة تنوف على العشرين عاماً، وتوفي في عام ١٨٠٤. ومع أن سليمان باشا كان مملوكاً كرجيًّا لسلفه، فقد كان من ذوي الكفاءات المحمودة، فبقوته وسرعة قراره وحكمته أخضع العشائر العديدة ضمن منطقته، وخشيه الآخرون خارجها، فتحسنت الزراعة والتجارة، وازدهرت (بغداد) ازدهاراً عظيماً إبان عهده الأبوي الرشيد. وقد خلف ثلاثة أولاد كانت لهم مكانة ودية في قلوب أهل المدينة إكراماً لوالدهم، كما كان لهم مكانة عز لدى من خلف والدهم في الباشوية. وعاش الأخوان الآخران كل مع أمه عيشة مترفة، بقدر ما يسمح رغد العيش

(١) راجع في الملحق «شذرات من مذكرات السيدة ريج».

لأمثالهما من ذوي الشأن وهم في مكان تراقبهم فيه أعين الحساد من الحكومة، سيما حين أصبح الأخ الثالث وهو الأكبر ذا منزلة يخشى منها كثيراً، وقد نجح أخيراً في الحصول على الباشوية بالغش والخداع، ونعم بعز مركزه أعواماً قليلة إلى أن تغلب عليه قاتله صهره داود، الذي تسلم بعد ذاك فرماناً من الباب العالي يؤيده في الحكم.

١٧ نيسان:

استأذنت الحاج عبد الله بك ورحلت من داره الريفية في السابعة والربع صباحاً وكان الطريق يمر بأرض لا تروق للمرء مطلقاً، فوصلت إلى مخيمنا في الواحدة إلا ربعاً، فوجدته قائماً هي (الدوخلة). أما قرينتي فقد وصلت إليه بعد ساعة. وطفت بعد الظهر في المخيم للتأكد من تجمع الجماعة وراحة أفرادها. إن إسكان هذا العدد من الناس في القرى الواقعة على الطريق لم يكن أمراً ميسوراً، ولهذا اضطررت إلى استصحاب الخيم وإلى استصحاب رهط من العرب لنصبها وتقويضها مساءً وصباحاً. وكانت الخيم أربع عشرة أو خمس عشرة خيمة وهي أقل ما نكتفي به لإيواء جماعة يتراوح عددها بين الخمسين والستين[1]. أما

---

(١) كان (آغا ميناس) الضابط الرئيس الأهلي لدار الإقامة قائد هذه الجماعة المؤلفة من مسيحيين ويهود وأتراك وأرمن وفرس وهنود وهو من عائلة أرمنية لها مكانتها خدمت الحكومة البريطانية مدة طويلة. إن المنصب الذي يشغله وكفاءته الشخصية جعلاه أن يكون مدير إدارة المستر ريج البيتية في بغداد وقد استمر خلال هذه الجولة على القيام بالواجب ذاته، وكان أمين المال والمرافق، وقام بخدمة أضيافنا العديدين في طريقنا، وأدار شؤون المخيم، وزبدة القول إنه كان الرجل الأوحد الذي ينتظر الكل صدور الأوامر وطلب المعونة منه، ومع ذلك لم يستطع إرضاء أحد لأنه لم يستطع الإتيان بالمستحيلات. وكان يتحلى بالصبر الجميل، وروح الدعابة، اللذين يقتضيهما المنصب الذي يشغله. وما كان يتعب في مسعاه لإراحة الكل، بل كان متحمساً لأداء واجبه كل التحمس ـ الناشرة.

الضجيج والارتباك فلم يفارقا المخيم طيلة النهار حتى استقر كل من الجماعة في مكانه وحتى استقرت الأمور كما يجب. وأمطرت السماء في الليل مدراراً فتعرض لها البغالون والخيامون المساكين، والحيوانات، ذلك إذ لم يفكر أحد قط بحاجة هؤلاء إلى الخيام.

١٨ نيسان:

ركبت والمستر (به لي نو)[١] في السادسة والربع وبرفقتنا عدد من الخيالة الخفيفة من حاشيتنا، قبل أن يتهيأ الآخرون للرحيل من المخيم. شعرت بارتياح كلي لتخلصي من الارتباك ومن ضوضاء عدة لغات متباينة. فالضوضاء، وصهيل الخيل، ودقات أجراس البغال ونباح الكلاب كلها من متممات المخيمات الشرقية عادة.

وتبعتنا رفيقتي من بعد، بتختروانها مع حاشيتها النسوية، وهن في الكجاوات (نوع من المحامل تحمل على جانبي البغل) ومع بعض الخيالة للحراسة.

تقضي علينا العادات، أو المراسيم التركية أن نفترق بجماعتنا تمام الافتراق. تركت الخيار للقوم ليتبعوا عاداتهم، وينظموننا وفق تقديرهم للمراتب والعادات. فإنني عودت النفس على الدوام على اتباع التقاليد

---

(١) المستر (به لي نو) ألماني من (توين غه ن Tubingen). من مقاطعة (سوآب يا Suabia) وقد تعرف عليه المستر ريج في (فينا) حيث كان في الكلية. إن شغفه بالأدب الشرقي، ورغبته في زيارة الشرق جعلاه يقترح على المستر ريج بوساطة (فون هام مه ر) مؤرخ تركيا، وهو صديق معروف، أن يستصحبه معه في عودته إلى بغداد. وقد سرّ ريج لتمكّنه من إسعاف رغبته بمنحه منصب السكرتير الخاص له. لقد كان شابًا محبوباً، مثقفاً ثقافة عالية، يميزه الحماس الذي عرف به مواطنوه، ومواظبتهم، واستقامتهم. وكان ذا قسط وافر من العلم، مولعاً بدراسة الأجرومية واللُّغة، متحمساً لتتبعاته، ومكرساً وقته لها بروح ألمانية حقة.

المحلية على قدر ما يرتاح له ضميري ويقتضيه شرف بلادي. فالأتراك متمسكون بالمراسيم، وهم قوم يحرصون كل الحرص على المظاهر والأبهة ويؤمنون بضرورتها، وينظرون إلى كل من يتهاون في أمرها كما لو كان وضيعاً وجاهلاً، وغير معتاد على آداب المجتمع الراقي. وفوق كل ذلك فإنهم يستنكرون تعرض النسوة للأنظار، والأسماع. وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن التركي الذي يتغلب على اشمئزازه من مثل هذه الأمور لا بد وأن يكون ممن أضاع البعض من خصاله الطيبة. ومهما كان الأمر لقد ثبت ذلك لي فيمن تعرفت عليهم. وإني لمتأكد التأكد كلّه بأننا لم نحظ بالحرمة التي لاقيناها واللطف الذي شملنا من المسلمين إلا لاحترامنا عاداتهم في هذه النواحي وعدم مسّنا أحاسيسهم بإنكارنا عليهم معتقدات لا تضر، ولا ينتظر منا أن نقلعهم عنها على كل حال.

أصابنا التعب الشديد في مسيرة يومنا هذا من جراء الأوحال. وبين الثامنة والتاسعة ترجلنا لتناول كوب من القهوة في مكان اسمه (محسن باك)[1] وهو ضريح إمام صغير كائن على قناة متشعبة من الخالص[2] وقد وصلنا إلى موقفنا في الثانية عشرة إلا ربعاً، وكان في قاع قنال مندثر.

١٩ نيسان:

هبت بعد ظهر البارحة العواصف من الشرق والشمال الشرقي، وفي السابعة والنصف هطلت أمطار شديدة، وأبرقت السماء وأرعدت. ثم خفّت العاصفة ليلاً، وتبددت الغيوم بعض التبدد، إلا أنها أعادت الكرة علينا بعد منتصف الليل بعاصفة أقوى شدة، وبمطر غزير وبرق

---

(١) جاءت تهجئة مثل هذه الكلمات في الأصل بطريقة غريبة عن التهجئة المتبعة في الإنكليزية في الوقت الراهن. ويشعر الإنسان عند تلفظها بعجمة محسوسة، ففي (Mukhsen Pauk) (مخسن بوك) (الخاء) kh (حاء) h، و(الواو) au (ألف) ـ المترجم.

(٢) الخالص، قنال يتشعب من ديالى ويصب في دجلة.

ورعد دام حتى الصباح، فثقلت الخيام حتى أمسى من المحال تقريباً تقويضها ولفها وتحميلها، كما غمرت مياه الأمطار وجه الأرض فجعلتنا نقلع عن فكرة استئناف السفر في هذا اليوم. وكانت الأرض التي ضربنا بها خيمنا في القنال المندثر ملأى بالعقارب. فإن بيطرنا عندما كان يمهد مكاناً منزوياً في ضفة القنال، حسبه ملائماً لنومه فيه عثر على أربع عقارب كما عثرت الجماعة على عدد وفير منها حول الخيم. وهذا أمر مألوف في جميع الطنوف والأركام في هذه البلاد، فهناك طنف بالقرب من (شهربان) يعج بالعقارب. وهبت في الرابعة بعد الظهر ريح غربية تغلبت على الريح الجنوبية الشرقية.

درجة الحرارة: ٦٦د في السابعة ق.ظ و٧٦د في الثالثة ب.ظ و٦٦د في العاشرة ب.ظ.

٢٠ نيسان:

استمر هطول الأمطار الشديدة طوال الليل مما أدى إلى إزعاج جماعتنا المساكين إزعاجاً شديداً، وأمسى الرحيل في هذا اليوم أيضاً من الأمور المتعذرة. وبدأ الرعد والمطر عند الظهر ولكنه لم يدم كثيراً، إلا أن الرعد دام من الاتجاه الشمالي الغربي من الواحدة حتى الثالثة. وهبت أغلب العواصف من شمال مخيمنا. ثم تشتتت الغيوم وانجلت السماء مع هبوب ريح خفيفة من شمال الشمال الشرقي. وإنني لا أتذكر مطلقاً موسماً عجيباً كهذا، أما تأثيره فينا نحن المسافرين فكان مزعجاً. وكانت درجة الحرارة أثناء العاصفة ٦٦د.

٢١ نيسان:

عمَّ البرق الأفق طوال الليل، والرعد بعيد عنا، الأمر الذي أقلقنا كثيراً وكانت الريح عند الصباح شرقية وجنوبية شرقية.

استأنفنا المسير في السادسة والنصف تحت رذاذ من المطر، أتت به ريح جنوبية شرقية. ورافقتنا غيوم المطر ردحاً من الزمن، ولم تبخل علينا بتفريغات بين آونة وأخرى. وكان معنا في رحلتنا اليوم عشرة أو خمسة عشر قرويًّا لترميم الجسور أو تمهيد الطرق الرديئة للتختروان. وكان مسيرنا صعباً، خضنا فيه المياه والأوحال في أغلب أقسام الطريق حتى وصلنا إلى (جوبوق) في العاشرة قبل الظهر، فنزلنا بأرض مضربنا القديم[1] وقد وجدناها جافة. وسبقنا التختروان في المسير بنصف ساعة، لكنه وصل بعدنا بعشر دقائق. ومن محاذير السفر مع جماعة كبيرة هو أن القرويين يخفون كل ذخيرة جيدة نسبة قد تكون في حوزتهم حذر سلبها منهم، وعلى الأخص إذا علموا أن بين الجماعة من هم من موظفي الحكومة.

عادت السماء فتلبدت بالغيوم مساءً، وبدأ البرق بعد الغروب في الشمال والشمال الغربي، وسرعان ما هب نسيم عليل من ذينك الاتجاهين ولكنه ما إن هب إلا وتغلبت عليه ريح قوية من الجنوب الشرقي، ثم غدا الأفق أسود يحاكي جناح الغراب في لونه وعاد البرق يومض في جميع الآفاق وميضاً متتابعاً لا أذكر له مثيلاً. ولكن الرعد لم يزل بعيداً عنا، أما الأفق في الغرب فكان حالكاً، وانعدام الضوء كان يضاهي ما تخيله اللورد (بايرون) في حلمه الرهيب عن انطفاء نور الشمس. ما كنا نشعر برهبة ذلك الظلام إلا عند الفترات القصيرة بين ومضات البرق، حيث كان يظهر لنا ساطعاً بنوره في ذياك المكان الحالك، وكنا نرى أسهم النور تصيب الأرض بين آونة وأخرى. وكان وهج البرق كلما أنار الأصقاع، أظهر لنا حارساً هنديًّا متكئاً على بندقيته، وخيمة احتمت بها جماعة من البغالين، أو رهطاً من المسافرين المتعبين

---

(١) يشير المستر (ريج) بذلك إلى سفرة قام بها سابقاً إلى جنوب كردستان ليبحث في خرائب (قصر شيرين) و(حوش كه ره ك)، وفي الملحق نجد مذكراته فيها.

يشقُّون طريقهم عبر الصحراء الموحشة. لقد كان المنظر من المناظر التي يعتز بها الشعراء الاعتزاز كله. إلا أنه جعلنا في حال مؤلمة من ترقب ما سنلاقيه من العواصف أو السيول التي لن تقو على مقاومتها خيامنا الرقيقة الممزقة بعض التمزيق. وأخيراً لاح أن العاصفة انطلقت نحو الجنوب الغربي منا بعد أن ناوأتها تيارات معاكسة علينا صفعتها من كل الجهات، ولم يصبنا منها إلا جزء من زخة مطر شديدة استمرت ثلاث ساعات (من التاسعة حتى الثانية عشرة) ثم أعقبتها هبات ريح جنوبية شرقية قوية. أما البراغيث والبعوض، وذكراي لمتاعبي في بغداد فقد حرمتني لذة النوم حتى الصباح تقريباً حيث استسلمت إليه آنذاك.

٢٢ نيسان:

عندما نهضت في الخامسة والنصف من صباح اليوم وجدت السماء قد ارتدت رداءً رصاصيًّا غامقاً، ينذر بيوم ممطر على وجه التأكيد فتخليت عن فكرة استئناف السفر. وقد بدأ المطر يتساقط في جو بارد منذ السادسة والنصف تقريباً فاستمر طيلة النهار مما خيب آمالنا الخيبة كلها. ثم صحت السماء عند الغروب وهبت ريح جنوبية شرقية.

درجة الحرارة ٦٣د في السابعة ق.ظ، و٦٧د في الثالثة ب.ظ، و٦٢د في العاشرة ب.ظ.

٢٣ نيسان:

ليلة صافية بديعة، ونسيم عليل من الجنوب الشرقي. هبت عند الصباح ريح شمالية غربية، ولكن ما كادت تهب إلا وتغلبت عليها ريح جنوبية شرقية أقوى.

امتطينا صهوات الجياد في السادسة والربع، فشاهدنا تلال خرائب بالقرب من (جوبوق)، إلا أن المجال لم يكن فسيحاً لنا للتلبث

ومعاينتها. واضطررنا إلى العدول عن طريقنا وإلى التوجه نحو (ديالى) تجنباً من البرك التي كونتها مياه الأمطار يوم أمس. وكانت سلسلة جبال (زاغروس) الممتدة إلى (طاووق) تؤلف الحدود النهائية لمجال رؤيتنا حالما تركنا قرية (جوبوق) الكائنة في أرض منخفضة بعض الانخفاض.

وصلنا في التاسعة إلى (ده لي عباس) فوجدنا أن الخراب قد حل بالمنزل ـ الخان ـ (Post- House) تماماً فهجر، فنصبنا خيمنا بين المنزل وبين قنال (الخالص) حيث كان يوصل ضفتيه جسر ذو قوسين وقوس إضافي عند كل من رأسيه احتياطاً لطوارىء الفيضان، وكان اتجاه مسيرنا العام شمالاً. أما التختروان والأمتعة فقد سارت في السادسة والنصف فوصلتنا في العاشرة. لقد أخبرنا القرويون بأن الأمطار هطلت عندهم مدة ثمانية أيام متوالية فغمرت الأرض بتمامها. وفي ليلة الثلاثاء شوهد من هذه القرية سقوط ثلاث صواعق، أو شهب تخر بسرعة متناهية من الغرب نحو تلول حمرين. وفي الحقيقة إن كثرة التفريغات الكهربائية كانت هائلة. ولم يسبق لي أن شاهدت برقاً متواصلاً، ساطعاً طوال الأيام منذ أن ساءت الأحوال الجوية. وما كدنا نصل مضربنا إلا وهبت الرياح الشديدة من الجنوب ثم تبدلت إلى الغرب الجنوبي عند المغيب. ودام البرق على شدته طوال الليل من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي دون رعد. وكان الليل هادئاً، والغيوم خفيفة.

الحرارة ٦٠د في السادسة ق.ظ، و٧٤د في الثالثة ب.ظ و٦٤د في العاشرة ب.ظ.

٢٤ نيسان:

لم نتمكّن من طرق الممر المباشر في تلال حمرين، إذ كانت جميع السبل بين التلول و(ده لي عباس) مغمورة بالمياه في الغالب، وكان مستنقع (البو فرج) المليء بالمياه عن يسارنا يمتد حتى (دلتاوه)، فانتهجنا

ممرنا القديم الذي سرنا به في رحلتنا السابقة. ركبنا في الخامسة والنصف فخضنا البرك العديدة والأوحال الكثيرة نحو الممر فوصلناه في السادسة والنصف، وهذا الخانق (القطع في الجبل) الذي ذكرناه فيما مضى، فتحه جد فيض الله آغا (صديق لي في بغداد) في عهد عمر باشا، واسمه (صاقال طوتان) ومعناه القابض على اللحية. وفي السابعة والنصف اجتزنا الطريق إلى (بارادان) وهنا يتفرع إلى اليمين حيث يوصلنا إلى القرية التي نقصدها، إلا أننا علمنا أنه أمسى من الصعب جدًّا خوض (نارين) لارتفاع مياهه من جراء الأمطار الهاطلة أخيراً. وفي الثامنة والربع اجتزنا الجبال فتركناها على يسارنا حتى وصلنا جسر (نارين) في العاشرة والثلث. فرأينا أن مياه هذا النهر كانت قد ارتفعت إلى ما يقارب العشرة أقدام، ولكنها انخفضت ثانية انخفاضاً كليًّا تقريباً. فشربنا القهوة هنا ثم استأنفنا السير في الحادية عشرة، بمحاذاة النهر لا على الطريق المباشر تجنباً من أوحال عميقة لتربة نطرونية ـ نايتروس آزوتيه ـ تركناها عن يميننا.

وفي الواحدة إلا ثلثاً وصلنا إلي (التلة السوداء) (قه ره ته به). أما التختروان فتحرك في السادسة والتحق بنا في الثانية والنصف. وسبب تأخره سيره من (نارين) باتجاه مستقيم موحل عوضاً عن استدارته متجنباً الأوحال كما تجنبناها.

ففي الناحية الجنوبية من القرية وعلى اتصال بها، وبالقرب من مخيمنا، طنف مرتفع تعلوه مقبرة صغيرة، يسميه الأهلون (نماز قيلان ته به) أو تل المصلى، وهو المصلى الذي يؤمُّونه للصلاة في العيدين. صعدت الطنف لتسجيل بعض الاتجاهات بالقنباص (البوصلة) فلاحظت من فوري بأن الطنف اصطناعي، الأمر الذي جعل (آغا سيد)[1]. ينقب

---

(١) السكرتير الإيراني للمستر (ريج).

فيه، وما شرع بالتنقيب إلا وعثر على فخارة رميم وفيها بعض العظام وهي كالفخارات المعثور عليها في (بابل) و(سلوقية ـ Seleucia) وعلى أثر استمرارنا في التنقيب عثرنا على عدد آخر منها، إلا أنها كانت هشة لا يمكن إخراجها من الأرض إلا مهشمة. وكانت فتات الفخارات متناثرة على وجه الأديم، وسطح الطنف مليئاً بها وإني أعتقد والحالة هذه بأن هذا الطنف ما كان إلا دخمةً (Dakhma) أو مرقداً يلقي الفرس عبدة النار موتاهم عليه، ثم أصبح مدفناً، ومصلى للمسلمين. وأخبرني الأهلون بأنهم كانوا يعثرون في هذا الطنف أحياناً على بعض الحلى الفضة الصغيرة ولكن لم يكن لديهم نماذج منها. ويقع هذا الطنف في أقصى القرية من الجنوب ويتراوح ارتفاع أعلى قمة منه بين ١٥ و٢٠ قدماً عن سطح الأرض.

درجة الحرارة ٦٠د في السادسة ق.ظ، و٧٤د في الثالثة ب.ظ، و٦٤د في العاشرة ب.ظ.

٢٥ نيسان:

سرنا في الخامسة والنصف فوق تلول حصوية، تقع (قه ره ته به) على منحدرها الغربي وكان المنحدر وهو ضلع من التلول ذاتها بسيط الميل جدًّا، ينتهي عند وادٍ صغير. ومن هذا الضلع يبدأ النزول بمنحدر طويل إلى جسر (جمن) الذي وصلناه في السابعة والربع. وبعد اجتيازنا مسيلاً عريضاً في التاسعة والدقيقة العاشرة صباحاً ترجلنا لشرب القهوة بعيد ارتقائنا مرتفعاً بسيط الميل أيضاً. وفي العاشرة والثلث استأنفنا المسير فوصلنا (كفري) في الحادية عشرة.

وفي (كفري) لم نجد الضابط ـ رئيس القرية ـ وقد خرج لاستقبالي مع خمسة عشر خيالاً عند المسيل، إلا أننا أضعنا بعضنا البعض في شعاب منحدرات التلول، أما التختروان فسار في السادسة، والتحق بنا في الثانية

عشرة. وكان عبور (كورده ره) أو واديها صعباً شاقاً. واستغربت الاستغراب كله من وجود جالية يهودية صغيرة وكنيس لها في (كفري). والناس هنا يأكلون بصلات نبات يجمعونها بكثرة من جميع الأنحاء، وحجمها كحجم بصيلات الـ(Shallot) تسمى بالـ(جه زه دوم ـ Chezedum) وهي تؤكل بعد شيّها قليلاً وطعمها طعم الكستناء[1].

درجة الحرارة ٨٢د في الثالثة ب.ظ، و٦٤د في العاشرة ب.ظ.

٢٦ نيسان:

خلال مسيرتي مساء البارحة، إلى الجرف الواقع وراء (كفري)، سمعت صدفة بخرائب تدعى (قه ره أوغلان) فاتجهت إليها من فوري لمشاهدتها. وفي صباح اليوم رجعنا إليها ومعنا جماعة من القرويين يحملون المعاول والمجارف فمكثوا عندها مدة أربع ساعات يحفرون وينقبون حولنا، وفيما يلي وصف مختصر لتلك الخرائب:

على بعد نصف ميل إلى الجنوب الشرقي من (كفري) وفيْ قاع المسيل، معالم جدران واطئة أو أسس جدران كشفت عنها الأمطار التي هطلت أخيراً. وجدت في أحد الجدران قطعة من الخافقي (معجون المرمر المطلي) المنقوش. وكنت حريصاً لأحفر كثيراً في هذه الخرائب لأقف على حقيقة الأثر وتاريخه. وبنتيجة الحفر كشفنا عن غرفة صغيرة، أو بالأحرى عن بقاياها وهي جدار ارتفاعه أربعة أقدام تقريباً ومدخل. فالغرفة صغيرة لا تتجاوز سعتها الاثني عشر قدماً مربعاً، والجدار مبنى من أحجار جبسية غير منحوتة ـ كأحجار قصر شيرين ـ مملوطة بالجبس، وقد نقش الملاط بمجاميع. واستخرجنا بعض القطع من الجبس وعليها نقوش ورود أو نقوش عربية الطراز، وكان لون النقوش أحمر براقاً أما لون

---

(١) تسمى في هذه الأنحاء في يومنا هذا، بـ(جه ده نه) ـ المترجم.

خطوطها الأساسية فأسود، ولون سطحها لون الجبس نفسه. وكانت هذه الألوان جميعها كأنها حديثة العهد نضرة. ولما كانت الجوانب خالية من أي أثر من النقوش، يخيَّل إليّ بأن تلك القطع إنما هي من شظايا السقف. وعثرنا على بعض القطع من الفحم النباتي أيضاً. وكشفنا عن هذه الغرفة وعن قسم من غرفة أخرى. ويظهر أن هذه تؤلف قسماً من سلسلة من حجرات تمتد قليلاً إلى غرب الجنوبي الغربي وإلى شرق الشمال الشرقي، وقد ظهر أن هنالك أثراً لخمس أو ست حجر منها وأنها في صف منفرد، وأن الجانب الشمالي منها قد أسند بدعائم صغيرة مدورة.

وإلى شرقي ذلك، تحت التلول الكائنة على حافة المسيل (وقد تآكل الوجه الغربي منه) رابية مرتفعة وسيعة جدًّا، بهيئة مربعة استخرج العمال منها عدداً من الفخارات وجاؤوا إليّ بقطع منها. وكانت من خزف خشن طلي داخلها بطلاء أسود تشبه ما عثر عليه في (سلوقية) و(بابل) تمام الشبه. ولديَّ سراج خزفي صغير عثر عليه هنالك، وهو يشبه الأسرجة التي يستعملها القرويون في هذه الأيام.

وكثيراً ما يعثر على المسكوكات الذهب والفضة هنا، والقرويون يميعونها من فورهم. وإني لأشعر بأسف شديد لعدم تمكّني من مشاهدة أية قطعة منها، ولو شاهدت واحدة منها لكونت فكرة أفضل وأعم عن أزمنة تلك الخرائب. هذا وإن الجرار وفخارات الرميم تغريني على أن أنسبها إلى عهد الساسانيين.

ويوجد على قمة هذه الرابية آثار أبنية، ومن قمة الرابية على طوار سفوحها حتى حضيضها ومن ثم حتى قبالة (كفري) توجد آثار أبنية قديمة أيضاً، الكثير منها يحتوي على سهاء ـ طوابق أرضية ـ (Basement) مربعة ـ كسهاء خرائب (قصر شيرين) و(حوش كه ره ك) ـ وإن لم تكن مرتفعة عن سطح الأرض كثيراً. وسعة الخرائب هذه تقارب الميل طولاً وربع الميل عرضاً. قمنا بالحفر في أماكن عديدة من هذا المحل ولم نعثر على شيء.

وهنالك أيضاً آثار جدار عند الضفة الغربية من المسيل، وكذلك إذا عبرنا المسيل عبوراً مائلاً نحو (كفري) وجدنا أنقاض أبنية صلبة ضخمة قوضتها السيول. ويظن القرويون أنها بقايا سد أنشيء عبر المسيل، إلا أنني أعتقد شخصيًا أنها أنقاض سور المدينة. أما طرازه فيضاهي طراز الأقسام الأخرى من الخرائب شيد من حجر غير منحوت وبني بناءً قويًا بالنورة. فبقاياه الموجودة في وسط المسيل تظهر لنا بوضوح أن المسيل ما كان في مجراه الحالي عندما كانت المدينة قائمة. ويحتمل حقًّا أن السيول قد استغلت للزراعة حينذاك.

وينسب الأهلون تلك الآثار إلى الـ(كاوور) أو الكفار. إن اطلاعنا الناقص عن الإمبراطورية الساسانية لا يمكننا في الحقيقة من أن نقول عن هذا المحل شيئاً. وإني لا أشك في أن تكون له أية صلة بحروب الرومانيين مع تلك الإمبراطورية، تلك الصلة التي بها وحدها نتمكّن من الوقوف على بعض الأمور المتعلقة بهذا المحل.

وفي شمال الشمال الغربي من أعالي المسيل يوجد بعض آثار تنقيب في صخرة تسمى (بيوت الكفار). فذهب المستر (به ل لي نو) لرؤية البعض من تلك الآثار في التلول وهي على بعد ١٠ دقائق للراكب من أقصى الجنوب من الخرائب، فوجد بعض غرف مدافن كشف عنها ولها أبواب منخفضة جدًّا، وفي داخلها ثلاثة أماكن للجثث، ذات سعة صغيرة طولها خمسة أقدام تقريباً. إن أسس هذه الحفريات تشبه أسس مدافن الأخمنيين (AchÆmenian) في (نقش رستم)، ولكن لا أثر عليها أو كتابة أو نقش. وتوجد إلى مسافة ثلاثة أميال تقريباً من الخرائب وعلى قمة تل، آثار بناء ينعته الأهلون بـ(قيز قلعه سي) أي حصن الفتاة، وجد فيه بعض الفخارات والعظام. وقد شاهد المستر (به ل لي نو) إحدى الفخارات أيضاً. وليس في هذا المكان عدا ذلك ما يستحق الذكر، وهو يقع تقريباً قبالة (اون ايكي إمام) الأئمة الاثنا عشر.

عند رجوعنا إلى مضربنا، وجدنا رسولاً من محمود باشا[1] بانتظارنا. وقد جاءنا مساء الأمس مراسل منه يستفسر عن وصولنا، وليقف على الطريق التي نزمع سلوكها. وقد سافر كلاهما صباح اليوم قاصدين السليمانية، حيث سيرسل منها الباشا رائداً «مهماندار»، يستقبلنا في (قه ره حسن)، وطريق (قه ره حسن) هو الذي استقر رأينا على سلوكه أخيراً لسهولة سير التختروان عليه.

وفي كفري بعض النخيل، يقال إن التمر لا ينضج فيها بخلاف (طوزخورماتو). وخلال مكوثنا في كفري أهارت المياه جوانب عظيمة من الجروف.

درجة الحرارة ٨٢د في الثالثة ب.ظ، والريح شمالية غربية.

٢٧ نيسان:

ركبنا صباح اليوم لمشاهدة خرائب (اسكي كفري) الواقعة في الجنوب الغربي من (كفري)، وعلى مسافة ساعتين في السهل. كنت أظن على الدوام أن خرائب (اسكي كفري) هي في الحقيقة المحل الذي كانت مدينة (كفري) قائمة فيه فيما مضى، ولكنني وجدت الآن أن (كفري) كانت ولا تزال في مكانها الراهن، وأن هذه الخرائب إنما هي تراث أزمنة الكاوور. ومررنا ونحن في طريقنا نحو هذه الخرائب بالكثير من الطواحين وهي كأبراج صغيرة في وسط جنائن كفري، تديرها سواق اصطناعية صغيرة.

وتقوم على مقربة من (اسكي كفري) رابية اصطناعية جسيمة، كرابية (مجيليبه)[2]، وهي ذات سفوح شاقولية تقريباً إلا حيث التآكلات

---

(١) باشا السليمانية.

(٢) إحدى خرائب (بابل) راجع الصفحة ٢٨ من «مذكرات في خرائب بابل» بقلم كلوديوس جيمس ريج.

العميقة أو الأخاديد التي أحدثتها الأمطار. واكتشف أخيراً في أحد هذه الأخاديد قبو صغير مشيد بالطابوق الخشن الشواه فيه فخارات رميم عديدة عثروا في بعضها على مسكوكات ذهب لم أوفق في الحصول على واحدة منها. وقد انطمر القبو تقريباً بانهيار الأتربة أو الأركام التي تتألف منها الرابية. وطول هذه الرابية من الشمال إلى الجنوب تسعمائة وستون قدماً، أما عرضها من الشرق إلى الغرب فأقل من ذلك بقليل، وارتفاعها سبعة وخمسون قدماً. وهذه الأبعاد وإن كانت تقريبية، فباستطاعتنا اعتبارها مقاربة للحقيقة، وقد قاسها النجار وساعده في ذلك آغا سيد.
وإنني ذهبت في خلال المسح للاستراحة في ظل أخدود أحدثته الأمطار، إذ كانت الريح جنوبية شرقية والجو شديد الحرارة. وقد نلت قسطاً من الراحة، فنسيت تعبي واستعدت قواي. وفي الواقع إن هذا الأخدود كان أحسن الأماكن التي يمكن البحث فيها عن الآثار القديمة، كونه ما زال أخدوداً حديثاً فتحته الأمطار أخيراً. فحفرنا عنده وعثرنا على الكثير من العظام البشرية الصغيرة وعلى قطع من فخارات الرميم وكلها مطلية من الداخل بطلاء أسود. ولكن الخزف كان يختلف عما سبق لنا وصفه، فالبعض منه خشن لا نقوش عليه، والبعض الآخر من نوع دقيق جميل، والأجمل من كل هذه أخزاف عليها رسوم غزلان وأبقار في مجاميع دائرية صغيرة، وحملنا معنا كل ما عثرنا عليه منها. وقد بذلنا ما في طاقتنا لاستخراج فخارة صحيحة لكننا لم نفلح، وإن كان ذلك ما يعثر عليه في الأغلب وعلى الأخص عندما تجرف مياه الأمطار الشديدة التراب عنها. أمرت الجماعة أن تستمر على الحفر في جميع الأنحاء ولكنهم لم يعوضوا عن تعبهم إلا بما عثروا عليه من بعض الشظايا المعدنية الصدئة، وبعض قطع نحاس وزجاج وخرزة بلورية صغيرة. هذا وقد اتخذت التدابير للحصول على فخارة رميم سالمة.

وكلما تعمقنا في حفر هذا الأخدود كشفنا عن تربة سوداء عفنة

جدًّا، وأنقاض أكواز وشظايا عظام صغيرة. وفي وسط الرابية مقبرة عربية صغيرة. وهكذا نرى الآن أن رميم المسلم يختلط برميم الفارسي عابد النار. هذا ولا أرى إلا أن هذه الرابية كانت رابية ساسانية خصصت لإلقاء جثث الموتى عليها، ولا شك لي في ذلك من حيث مظهرها وطبيعتها، وشكل الشظايا التي عثرنا عليها فيها.

تمتد إلى الشمال وإلى الغرب من هذه الرابية، أركام خرائب صغيرة، تظهر أن المكان هذا كان واسعاً رحباً. وتوجد في الغرب ربوة أكبر من الروابي الأخرى تدعي (آش طوقان). وعند رجوعنا إلى مضربنا، وبعد مسير ربع ساعة للراكب، وصلنا إلى بعض بقايا سور صغير ربما كان سور المدينة نفسها، وإن كان القرويون يعتقدون بأنه بقايا سد أقيم لدرء الفيضان من مسيل (كفري)، ولم يبق منه إلا قسم لا يتجاوز ارتفاعه بضعة أقدام، وطوله ثلاثمائة يردة، وهو مشيَّد من أحجار كروية ذات تجاويف صغيرة في القسم الخارجي منها. والأرض من الطرف الداخلي من الجدار باتجاه الخرائب أعلى مما هي عليه في الشمال أو في الطرف الخارجي منه وهي تشبه دكة أو مصطبة أدعمت بهذا الحائط. ولا أشك في أن الحائط ذاته يعود تاريخه إلى عهد آثار (قصر شيرين) و(حوش كه ره ك). وإلى مسافة أبعد نحو الشمال وباتجاه (كفري) إلى ما وراء الحائط، لا نجد أثراً للخرائب. لقد بارحنا (اسكي كفري) في الساعة العاشرة والربع، ووصلنا (كفري) قبل الثانية عشرة بعشر دقائق.

كنت قد أوعزت بجلب أية قطعة من المسكوكات أو العاديات الأخرى التي يعثر عليها عند القرويين. وقد جاءني (روبين) في هذا اليوم بثلاث قطع من المسكوكات وبقطعة حجر منحوت حصل عليها من أصدقائه اليهود، إلا أنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تلقي ضوءاً على تاريخ الخرائب المجاورة وكأنها صنعت خصيصاً لتحير الإنسان وتزيد غموضه في الأمر، وكانت إحدى المسكوكات أرساسية (Arsacian)

والثانية ساسانية والثالثة كوفية. أما الحجر المنحوت فكان نوطاً يمثل ظفراً رومانيًّا. وهكذا أتيح لي أخيراً الحصول على عادية ساسانية لطيفة جدًّا، عليها بعض الكتابة. وفي مكان اسمه (اون ايكي إمام) الأئمة الإثنا عشر والذي يبعد عن كفري أربعة عشر ميلاً تقريباً ربوة أخرى من الروابي العديدة في هذه الربوع، والظاهر أن عهدها يرجع إلى عهد الخرائب الساسانية، المبعثرة في تلك الأماكن تبعثراً واسعاً. وقبالة أون ايكي إمام، في سلسلة التلول الجبسية، نجد منابع النفط. وقد اكتشف منبع صغير قبل عام في تلك التلول على مسيرة بضع دقائق غربي (كفري). أما القروي الذي اكتشفه فقد اعتقلته الحكومة التركية وجلدته جلداً مبرحاً لحمله على الاعتراف فيما إذا باع نفطاً من المنبع قبل الإعلان عن اكتشافه. وبنتيجة التعذيب الذي لاقاه من جراء اكتشافه المشؤوم هذا اضطر على الهجرة وبيته إلى إيران، حيث استوطن مرتاحاً كما يدَّعي. ومن الصدف أنه كان في كفري وأنا فيها، لقضاء أعمال له وقد قص علي القصة بذاته فقال: «إن الله لم يهنىء الأتراك بالنفط لظلمهم، إذ إن المنبع الذي كان فياضاً جدًّا عند اكتشافي له، نشف عندما جلدت، أما الآن فلا تنبع منه إلا بضع قطرات لا شأن لها».

درجة الحرارة ٨١د في الثالثة ب.ظ، و٦٦د في العاشرة ب.ظ رياح خفيفة متقلبة، ومطر قليل من الغرب ليلاً، وبرق في الشرق.

٢٨ نيسان:

ركبنا جيادنا صباحاً في السادسة إلا ثلث، وقد حضر الضابط معنا وأصرَّ على مرافقتي إلى مسافة من الطريق. وطريقنا على سلسلة تلول حصوية تتشعب من تلال (كفري) وتتصل بالتلال التي اجتزناها قبل بضعة أيام، ولا يقاطع طريقنا إلا مسيل (كفري) ذلك المسيل الذي شق لنفسه طريقاً في وادي (جمن) الذي مررنا به بطريقنا إلى (اسكي

كفري)[1] وفي السابعة اجتزنا التلول، فوطئنا سهل البيات وهو سهل ينحدر انحداراً تدريجيًّا من تلال (كفري) إلى (جمن)، وكان سهلاً كثير الزرع في هذه النواحي. وفي السابعة والربع مررنا بشعب يسيل فيه جدول صغير من مياه الأمطار. وفي الثامنة والثلث وصلنا إلى (قورو جاي) وهو مسيل واسع لم يبق فيه إلا القليل من مياه الأمطار، ولكنها قد ملأته قبل بضعة أيام حتى إنها طغت على السهل، كما لاحظنا من الآثار التي تركها الفيضان. وكان هنا مضرب للتركمان البيات، فجاء رئيس العشيرة حسن أو كما ينعت أحياناً بـ«قه ره قوش بك»، يدعوني لتناول الطعام معه، وكان رجلاً نضر المحيا، وسيم الطلعة ذا لحية لطيفة بيضاء، وذا ذكاء مفرط، وطلاقة لسان، وسلوك حسن كأنه وليد حياة قضاها كلها في بلاط شرقي. وقد أخبرني بأن البيات إنما حازوا على المنطقة عطية من السلطان ولم يدفعوا مالاً عنها إلى الحكومة العثمانية، إلا أنهم لقاء ذلك مكلفون بالخدمة العسكرية في الوقت الحاضر إلى باشا بغداد عندما يقوم بحركات يقودها شخصيًّا في الميدان. وأخبرني أيضاً بأن نادر شاه عندما غزا واحتل المنطقة أرجع البياتيين إلى أحضان عشيرة البيات الكبرى في (خراسان)، وأن معظم ما تبقى منهم الآن هم من عائلة الرئيس ذاته. غير أنه أضاف قائلاً: وبالرغم من ذلك فإذا مست الضرورة فبوسعهم جمع ألف فارس. ويوجد في حمى البيات البعض من العرب، والعشائر الكسيحة، أما خيولهم فكريمة. وكان رئيس العشيرة على علم تام بوجود عشيرة البيات الكبرى في خراسان ولكنه لم يتمكن من إعلامي بتاريخ نزوح أفخاذ العشيرة إلى هذه البلاد للمرة الأولى. وفي الحقيقة أن العرب أحسن المؤرخين، وأحسن رواة الأنساب في الشرق.

---

(١) وعلى الطريقة ذاتها، تتفرع تلال حصوية فرعية من جبل حمرين فوق (قه ره ته به) ومن سلسلة (زه نك آباد).

استأذنت البك وأنا مسرور جدًّا من مقابلته ومحادثته، وامتطينا جيادنا ثانية في التاسعة فمررنا بمزارع كثيرة أغلبها حقول شعير، وقد نضج البعض منه، والفلاحون منهمكون بحصده. وجاءني الحصادون ببعض السنابل فألقوها على الطريق أمام جوادي وهم يصرخون «سحقاً لأعدائكم هكذا..» متوقعين بضع دريهمات لقاء ذلك، وفي الشرق ينتهز كل حادث لاستدرار العطايا أو الهدايا.

وفي التاسعة والنصف وصلنا إلى (قيزيل خرابة) ـ الخرابة الحمراء ـ وهي على الطريق. وكانت الروابي أو الطنوف ظاهرة، منتشرة انتشاراً يمتد باتجاه حمرين وهو عن يسارنا، حيث شاهدنا هناك ربوة كبيرة جدًّا كربوة (اسكي كفري)، وقد قيل لنا إنها من آثار الكاوور، ومن المحتمل جدًّا إنها ساسانية، إلا أنني لا ألزم نفسي بهذا الادّعاء وأؤكده كما كان الأمر في اسكي كفري.

بعد برهة قليلة مررنا بخرابة أخرى، والظاهر أنها متصلة بالمدينة التي تؤلف (قيزيل خرابة) قسماً منها. وفي الحادية عشرة إلا ربعاً مررنا بقرية بياتية كبيرة هجرها أهلوها الآن، إذ إنهم يضربون في هذا الموسم المضارب في السهل تخلصاً من البراغيث، وسهراً على الغلال؛ وقد شاهدنا الكثير من هذه المضارب في جميع الأنحاء.

وفي الحادية عشرة والدقيقة العاشرة مررنا بقرية أخرى كبيرة، وقد غابت الآن عن أنظارنا جبال حمرين التي كانت عن يسارنا طيلة مسير النهار لانعطافها نحو الغرب أكثر فأكثر. وبانت لنا (طوزخورماتو) واتجاهها ۲۰د إلى الشمال الغربي. وقبل وصولنا إليها بربع ساعة اجتزنا مسيلاً عريضاً جدًّا، وارتفاع المياه الجارية فيه الآن يصل إلى الركاب وعرضها بضع ياردات فقط، أما في الخريف فيقل عن ذلك. وقد فاض المسيل من جراء الأمطار الغريزة وهو يسمى بـ(آق صو) وينحدر من (إبراهيم خانجي).

ورأينا عن يسارنا وعلى مسافة ساعتين قرية (يه ني جه)، وهي تقع على طريق البريد الحالي من بغداد إلى (طاووق).

وفي الثانية والنصف، بعد أن عبرنا المسيل نصبت شمسيتي[١] لأستظل بها وأرسلت عريفاً إلى المدينة ليهيِّء لي (السراي)[٢] وليعلن قدومي. وبعد مدة وجيزة جاءني الحاكم ووكيل عمر بك وهو المتصرف بالمدينة تصرفاً تيماريًا[٣] ورثه عن أبيه، فامتطينا جيادنا ومررنا ببساتين النخيل والبرتقال والليمون والتين والمشمش والرمان والزيتون وهي تكتنف المدينة بكاملها، ثم أسكنونا دار عمر بك المريحة، وكانت داراً فخمة بالنسبة إلى مسكن ريفي في بغداد؛ أما سائر المدينة فكان كلها من الطوف، وسكانها أتراك أغلبهم من الإسماعيلية أو «جراغ سونديره ن»[٤]. أمطرت السماء برداً في (طوزخورماتو) ليلة السبت،

---

(١) الشمسية: الواقية من الشمس، خيمة صغيرة خفيفة يمكن نصبها وتقويضها بسرعة. ويحملها الأتراك عادة سواء في خروجهم إلى الصيد أو في تجولاتهم كلما بعدوا عن بيوتهم، فكلما أرادوا الوقوف والراحة ـ وذلك ما يعملونه عادة في أوسط النهار لشرب القهوة ـ نصبوا الشمسية.

ملحوظة: في هذه الحاشية التباس. كانت الشمسية واستعمالها مألوفين في الغرب والشرق. وقد أطلق تعبير (الشمسية) عليها في الشرق سواء وَقّتنا من الشمس أو المطر. وأرى أن الشمسية الوارد وصفها في النص هي ما تشبه المظلة التي تنصب في الجنائن وعلى سواحل البحار في أيامنا هذه ـ المترجم.

(٢) أو القصر: كانت طوزخورماتو ملك عمر بك، وهو بغدادي، وقد أبدى الرغبة لتهيئة داره لضيافة المستر ريج وعائلته فيها.

(٣) التيمار: هي الأراضي الأميرية التي تمنح إلى البعض ليستغلوا عشر غلتها لقاء ما يجندونه من الجنود المعين عددهم وسوقهم إلى الحروب عند الطلب ـ المترجم.

(٤) «جراغ سونديره ن» أي مطفئو الأسرجة. هؤلاء أناس منتشرون في أصقاع تركيا وعلى ما أعتقد في أصقاع إيران أيضاً. ومراسيمهم الدينية أو معتقداتهم معلومة قليلاً أو بالأحرى مجهولة. وكل الذي تعلمه عنهم أنهم غير مسلمين، إلا أنهم قد أخذوا

فألحقت خسائر فادحة بالبساتين، وقد وصفوا البرد وصفاً قالوا فيه إن حجم الواحدة منه كان كبيراً جدًّا. ويظهر لي أن ليلة سقوط البرد هي الليلة التي أزعجتنا في (جوبوق). وتقع (طوزخورماتو) بالقرب من تلول (كفري)، وهي إلى غرب الممر الذي يشق تلك التلول تماماً والذي يسيل منه (آق صو) إلى السهل. ففي هذا الممر يوجد بئر نفط ومملحة، وإلى مسافة أخرى جنوباً في التلال، يوجد منبع نفط آخر، ولا مملحة.

التحق بنا التختروان بعد نصف ساعة من وصولنا، وكانت ساعة حركته السادسة. وكانت مسيرتنا هذا اليوم أطول مما يجب أن تكون بكثير لو أننا اتبعنا الطريق المستقيم المارّ بمحاذاة التلول، إلا أن الـ(اوداباشي) ـ مدير المخيم ـ أراد أن ينهي مرحلتنا عند البيات، وأن يجعل من الطريق مرحلتين سهلتين، غير أنني عند وصولي إلى البيات خطر لي أن من الأفضل الإسراع للاستفادة من جودة النهار.

٢٩ نيسان:

نهضت صباح اليوم مندفعاً لمشاهدة تحف الضواحي، فالحفرة النفطية تقع في ممر التلال، وهي إلى الجنوب الشرقي من المدينة بمسافة ميل واحد تقريباً، ولوقوعها في وسط المسيل تطغى مياهه عليها أحياناً فتتعطل زمناً كما حدث في الصيف الماضي. وعمق الحفرة ١٥ قدماً تقريباً، وفيها عشرة أقدام من الماء يطفو على سطحه مائع النفط الأسود تعلوه فقاقيع صغيرة على الدوام، والناس يدلون منه المائع من قعره فيقشطون النفط من أعلاه ويسكبون ماءه في ساقية تصبه في مجموعة

= منهم أسماء مختلفة على اختلاف الأماكن. وهم خجلون جدًّا، سكوت، وذلك عن خوف. وقد يكون خوفهم هذا ناشئاً من حذرهم من إيقاظ روح الاضطهاد الفعلي في أسيادهم ـ الناشرة. (هذا ما جاء في الحاشية نثبته دون تعليق ـ المترجم).

أحواض صغيرة مستطيلة حفرت بين الحصى، ويتركونه هنالك إلى أن يتبلور إلى ملح جيد ذي حبات ناعمة بيضاء لامعة لا مرارة فيها. وتصدر كميات وفيرة من هذا الملح إلى كردستان، ويقدَّر وارده السنوي بعشرين ألف قرش توزع على أفراد عائلة المرحوم الدفتردار[١]. أما النفط فملك القرية، ويصرف قسم منه على المنزل ـ الخان ـ أو يباع لإعالة المنزل بوارده ويخصص قسم آخر منه للمعاهد الدينية وغيرها. ومقدار الاستخراج اليومي من النفط من هذه الحفرة جرتان تقريباً سعة كل منها ست حقات[٢] أو «بطمان» بغدادي واحد. وأما منبع النفط فهو في قعر الحفرة أو البئر حيث يشترك القرويون بأجمعهم في تنظيفه مرة في السنة، فتوزع الأطعمة على الفقراء وتذبح القرابين، وتدق الطبول وينفخ في المزامير، وكل ذلك لضمان طفوح المنبع بوفرة. ومن الجائز جدًّا أن هذه مراسيم انتقلت إليهم من الأزمنة الغابرة. ومنابع النفط الرئيسية هي في التلال، إلى جنوبي هذه الحفرة بمسافة بعيدة باتّجاه (كفري)، ويتراوح عددها بين الخمسة أو الستة منابع، وهي أغزر إنتاجاً من هذه البئر، ولم يعثر على الملح هناك. ومن المحتمل أن يعثر على النفط في معظم أنحاء هذه السلسلة تقريباً، ويوجد بالقرب من حفرة النفط في التلال، الشب أو الزاغ وكذلك الطباشير، وكل هذه من الأنواع ذات الذرات البيضاء الدقيقة والمتماسكة؛ إلا أن الأهلين لا يستفيدون من هذه الموارد الطبيعية. وقد عثروا على تربة صاروا يستغلونها لتحميض بعض الصنوف من طعامهم، ولا شك أنها حامضة زاجية. ويوجد الكبريت أيضاً، والقرويون يستعملونه لمداواة الجرب أو الحكة التي تصيبهم أو تصيب أنعامهم.

ولأنتقل الآن إلى وصف الممر ذاته. فهو يمتد إلى الشرق والغرب

---

(١) مأمور خزينة الباب العالي، وهو والد عمر بك.

(٢) الحقة تساوي البايتتين ونصف الباينت من المكاييل الإنكليزية (أي ٥٦٨، من الليتر الواحد).

ويشبه ممر (كفري) في هيئته ومظهره، وإن كان بمقياس أوسع. وإلى الجانب الغربي من التل الذي يقابل السهل نجد الطبقات الأرضية أفقية متوازية، أما في الجانب الشمالي من الممر فإنها مائلة نحو الأسفل بزاوية ٤٥ درجة، وهي مقوّسة أو محدبة نوعاً ما. والتلال في الطرف الجنوبي ترابية أكثر، وقد خددتها الأمطار وفتتتها تارة في قسم منها بعض الأعمدة منعزلة. ويمكن لنا القول في الحقيقة بأن حفرة البئر واقعة في هذه الردم على حافة قاع المسيل، والجبس ظاهر في كل ناحية، والتلال في الطرف الشمالي متكونة من حجر رملي، وتحت كل هذه الأتربة والأحجار الرملية ـ كما شاهدت ذلك في طاق أو مقلع في أسفل الجرف ـ ألواح من الصلصال (Clay Slate) أو صلصال متحجر أزرق. أما المياه فتنصبّ جميعها في الاتجاه الشمالي من الممر حيث شقت التلول فجعلت منها وهدة أو جرفاً. ويوجد على أعلى الجرف أنقاض سور حصن قديم يصعب معرفة تاريخه، وقد يكون ساسانيًّا. وفي حضيض الجرف غور صغير في صخرة يحوي نفطاً، وقد عقد على الغور طاق بكتل أحجار جبسية مربعة كبيرة، والظاهر أن هذا البناء قديم العهد جدًّا. وفاتني أن أذكر وجود جذع خشب فوق سطح الماء في بئر النفط الكبير، وقد ثبت من طرفيه بجانبي البئر، ويقال إن هذا الجذع قديم، كقدم عهد الكاوور، وإنما دام بفضل النفط وكرامته. وينسب الناس أيضاً الحصن إلى الكاوور(١). وفي الأرض فوق حضيض تل الحصن بالقرب من حفرة النفط الصغيرة شاهدت الكثير من البقع الصفراء اللامعة، تنتشر منها رائحة كبريت قوية. والأهلون يعتقدون بأن الجرف هذا هو حامي مدينة (طوزخورماتو) العتيد، وهم يدّعون بأنه يدرأ السيول عن المدينة. وعلى قمة التلال في الجانب الشمالي من الممر مقام صغير، يطل على السهل،

---

(١) إن أصل كلمة (كاوور) «كه به ر»، أو عابد النار. وهي الآن مترادفة إلى كلمة (كافر) وتطلق على الذين سبقوا المسلمين في العهد وعلى الأوروبيين كذلك.

إشارة إلى قصة خرافية وقعت هناك، وتنسب إلى الإمام عليّ. فإنهم يقولون إن مصباحاً يضيء من تلقاء نفسه في عشية كل جمعة في ذلك المرقد. وقد تكون هذه مثل ظاهرة (بابا كوركور)[1] الطبيعية. وبعد انتهائنا من مشاهدتنا حفر النفط تجولنا حول المدينة عن طريق الناحية الغربية من المسيل لمشاهدة بعض الخرائب، إلا أننا لم نجد ما يستحق الملاحظة إلا قليلاً. ومررنا بلفيف من القرويين المنشغلين في كرخ القنال، وهم يشتغلون على دق الطبل وأصوات المزمار والنقارة، والحصادين يحصدون بعض المزارع. ورأينا غربي المدينة بعض روابي الردم التي لا تميزها ميزة عن غيرها وقد تكون قديمة بسبب وجود بعض العاديات فيها على ما يقال، غير أنني لم أتمكن من العثور على أي واحدة منها حتى الآن. وقد رأينا على دكة بناء مربعة صغيرة دعامة من البناء قائمة ـ مبنية بناءً خشناً ـ والظاهر أنها لم تكن قديمة جدًّا. وإلى الشمال قليلاً منها، رأينا ست دعامات أخرى، وكلها تؤلف قسماً من بناء مستطيل، وهو باتجاه شرقي غربي. ويظهر أن البناء كان مؤلفاً من عمارة وجناحين أو شرفتين. وتقع باب العمارة إلى الغرب، يقابلها في شرقي العمارة مخرج أو فتحة كِلا جانبيها يسند بمسند أو ركيزة نصف دائرية، وكلها معقودة، أما طرز البناء فخشن جدًّا. وأظن أن هذه العمارة كانت كنيسة وهي تشبه خرائب الكنائس الكلدانية أو السريانية التي شاهدتها شبهاً عظيماً. والروابي مبعثرة على الأرض إلى مسافة بعيدة الأمر الذي يدل على أن هذا الموقع كان في الأزمنة القديمة موقعاً له أهميته. ومن الرابية الرئيسة كانت جبال حمرين تظهر للعيان في الأفق الغربي، ويقال

---

(١) (بابا كوركور) كلمة تطلق على محل يبعد عن كركوك ثلاثة أميال، تتعالى منه لهب نفطية بيضاء من أماكن عديدة في بقعة صغيرة مستديرة. ويكاد أن يكون من المحقق ما ذهب إليه (دانفيل) بأن هذا المحل هو كوركورا بطليموس. راجع كتاب (دانفيل) المعنون «الفرات ودجلة» الصفحة ١٠٨ من الطبعة الرابعة.

إن بعدها تسع ساعات تقريباً. ومن هنا يمكن لنا أن نرى بوضوح حيدان سلسلة (قه ره ته به)، أو (زه نك آباد) من جبال حمرين باتجاه شرقي أكثر.

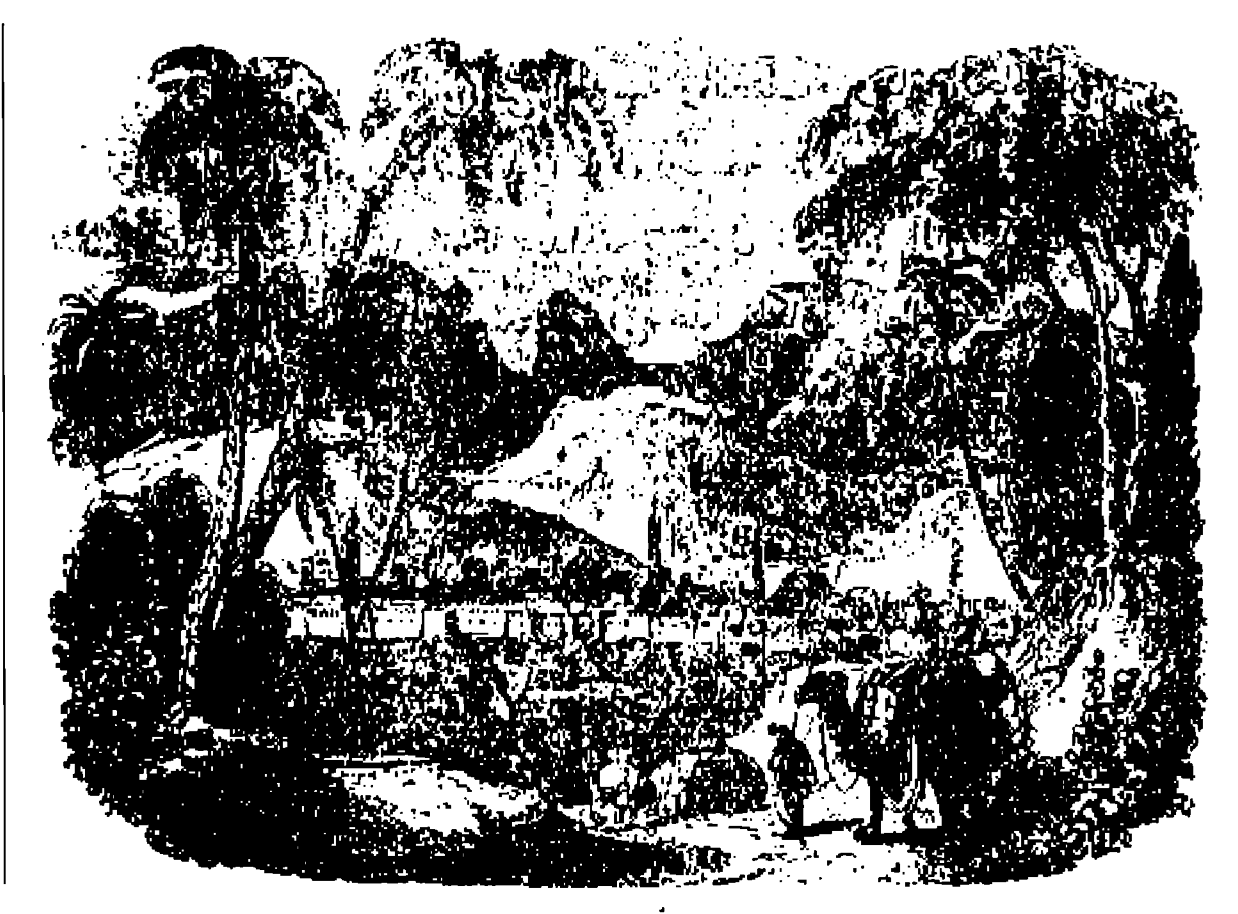
ويقال إن الحصن الخرب أو السور على التل في المضيق كان يمتد عابراً المضيق نفسه، حيث حصر النهر في مجرى ملائم شيد فوقه جسر. والظاهر أن هذا محتمل، إذ إن كلًّا من السور والجرف ينتهي فجأة في مكان واحد، كأنهما يمتدان إلى مسافة أبعد إلى جانب المسيل. ويقال إن رجلاً مات أخيراً عن عمر ١٢٠ سنة قال إنه يتذكر بأن الجرف والجدار كانا يمتدان إلى مسافة أبعد مما هما عليه الآن عبر المسيل، وأن المسيل كان محصوراً في قنال أضيق، وقال إنه سمع هذه الرواية من شيوخ طاعنين في السن. ومن المحتمل أن يكون ذلك حاجزاً ـ دربند ـ لوقاية البلاد من غارات الكرد الذين لا بد وأنهم كانوا في جميع العهود جيراناً مقلقين. وهذا هو أحد الممرات التي تؤدي إلى كردستان، ويتفرع منه طريق يصل إلى (إبراهيم خانجي) وهو وعر، إذ يمر طوال الوقت على سلاسل تلال صغيرة. إن المسافة بين (طوزخورماتو) و(إبراهيم خانجي) تسع ساعات، ومن (كفري) إلى (إبراهيم خانجي) تسع ساعات أيضاً، والطريق مستوٍ وجيد.

وعقب وصولنا بقليل جاءنا محمد آغا، وهو «أيشيق آغاسي» محمود باشا أي رئيس التشريفات وقد عينه لمرافقتنا في ضيافته رائداً (مهماندار) وكان يحمل إليَّ رسائل ظريفة من محمود باشا تفيض رقة.

ويوجد في (طوزخورماتو) منزل ـ دار استراحة ـ يحتوي على ثمانين جواداً.

درجة الحرارة ٦٤د في السادسة ق.ظ، و٧٠د في الثانية عشرة، و٦٦د في الثالثة ب.ظ.

الريح جنوبية شرقية، وهبوبها شديد، رافقتها الأمطار بعد الظهر.



مدينة كفري المصورة(*)
تحت سفوح سلسلة من التلال

٣٠ نيسان:

شعرت بتوعك كثير أقعدني عن التجوال. ولكنني جمعت المعلومات التالية: إن نهر (آق صو) أو (خورماتو) ينبع في (علي ده للو) في (قره داغ) من (كردستان)، مارًّا بـ(إبراهيم خانجي) موافياً (طوزخورماتو). ولكل من الطواحين في هذه البلاد برج صغير مشيد من الطوف يؤلف جزءاً منها، كي يقيم فيها حارس لمراقبة اللصوص، لأن

(*) أضاف المترجم هذه الصورة إلى الكتاب نقلاً عن المجلد الثاني من كتاب «رحلات في ما بين النهرين» لمؤلفه الرحالة جه ي، أس، بوكينكهام المطبوع عام ١٨٢٧ في لندن.

كل الأماكن في الحدود الكردية عرضة لغارات شقاة ذلك القوم. وتقدر نفوس (طوزخورماتو) بخمسة آلاف تقريباً.

درجة الحرارة ٦٢د في السابعة ق.ظ، و٧١د في الثالثة ب.ظ، و٦٦د في العاشرة ب.ظ. الريح شمالية في الصباح، وفي الثانية ب.ظ هبت عاصفة خفيفة من الغرب مع مطر قليل. برق ساطع ليلاً، بدأ من الغرب وانتقل إلى الجنوب.

لم يمر علينا يوم دون برق منذ أن تركنا بغداد.



الفصل الثاني

مغادرة طوزخورماتو - وادي ليلان - مخيم يوسف آغا - ضيافته - الدخول إلى كردستان - الزرع ومظهر البلاد - هدايا مؤن من باشا السليمانية - الوصول إلى مضربنا قبل السليمانية - زيارة الباشا - أمجاد الكرد

* * *

١ أيار:

غادرنا (طوزخورماتو) في الخامسة والنصف. وكان اتجاه طريقنا ٧٥ درجة إلى الشمال الغربي. سرنا والتلول الجبسية قريبة من يميننا، وعن يسارنا سهل ينحدر انحداراً تدريجيًّا جدًّا نحو جبال حمرين التي كانت تبدو لنا بوضوح. ويظهر أنها كانت تنعطف في هذا المكان، أو أنها تدنو من ناحية الغرب، وكانت أقرب النقاط إلينا منها مسننة كجدار سور ذي أبراج، أما اتجاهها فخمس وثمانون درجة إلى الشمال الغربي. ويشق نهر (العظيم)[١] الجبال على بعد نصف ساعة من تحت هذه

---

(١) العظيم هو الجدول الرئيسي الذي تنصب فيه مياه (كركوك) و(طاووق) و(طوز خورماتو).

النقطة، وتحت ذلك نجد (ده ميرقبو) وهو مضيق قد حصن فيما مضى، حيث توجد باب حديدية هناك. وإلى ما وراء تلك النقطة المسننة في التلال يظهر أن السلسلة تنعطف ثانية نحو الغرب. وفي الساعة السابعة قبل الظهر كان اتجاه طريقنا شماليًا غربيًا بـ(٤٥) درجة. وهنا تبدو التلول الجبسية وكأنها قد انتهت، إلا أنني أعتقد أنها في الحقيقة لم تنته، بل الأحرى أصبحت سلسلة تلال حصوية منخفضة تميل نحو الغرب، تظهر فيها الأحجار الرملية هنا وهناك. وأصبح طريقنا بمحاذاة التلال الحصوية وهي عن يميننا. وفي الثامنة إلا ثلثاً لاحت مآذن (طاووق) لأبصارنا. ذهبت إلى تل صغير ـ وهو أحد تلال السلسلة الفرعية الحصوية ـ على يمين الطريق مباشرة ومن هنا أتيحت لي فرصة جيدة لرؤية (طاووق) و(طوزخورماتو) في آن واحد، في النهايتين الشمالية والجنوبية من الأفق. وكانت (طاووق) على ١٥ درجة شمالية غربية و(طوزخورماتو) على ١٥ درجة جنوبية شرقية. ومن هنا أيضاً ظهر لي أن السلسلة الجبسية تنتهي حالاً في أقصاها الشمالي إذ يتشعب من حافتها الغربية خط التلال الحصوية الذي كنا نسير بمحاذاته ساعة كاملة، والخط يتجه نحو الشرق. أما الساحة الوسطى فتؤلف حوضاً مليئاً بالردم، أو التلول الحصوية وقد خددتها أو جزأتها إلى تلال صغيرة، مجاري مياه الأمطار أو سيولها التي تجمعت بدورها فكونت المسيلات. وعلى بعد بضعة ياردات يوجد كهريز وهو أول ما شاهدناه في هذا الطريق. والكهريز قناة تحت الأرض لإسالة مياه منبع في التلال إلى المزارع في السهول، وتمر القناة بآبار أو حفر على مسافات تعين خط القنال. وعلى مسيرة عشر دقائق أخرى مسيل عريض امتلأ بمياه الأمطار التي هطلت بغتة بغزارة، وهذا المسيل في منتصف الطريق بين (طاووق) و(طوزخورماتو). وعلى مسافة غير بعيدة منه نجد مسيلاً آخر أصغر مملوءاً بالمياه الصافية. ولقد أصبح طريقنا الآن متموجاً تموجاً خفيفاً. ووصلنا في العاشرة إلى (طاووق

جاي) العظيم الجريان، الذي ينبع من كردستان، ويستحيل هذا النهر عنه مزوره على يمين طريقنا المقرر مجتازاً (قه ره حسن) إلى جداول كثيرة فيروي مزارع قرى عديدة، كلما اقتضت الحاجة. وتستهلك أكثر مياهه في الصيف للزراعة. وفي الخريف لا يزيد هنا عمق الماء على القدم، أو القدم ونصف القدم. ولا يقتصر ماؤه على إرواء هذه القرية بل يتعداها إلى إرواء الكثير من القرى الواقعة في غربها وشمالها. وعندما يشتد هطول الأمطار في موسمي الشتاء والربيع يصبح جدولاً هائلاً جدًّا، فيمتلىء مجراه الذي يقارب نصف الميل في عرضه فيسيل سيلاً مخيفاً مكتسحاً الصخور الكبيرة، وحافراً في قاعه الحفر والفجوات التي تجعل عبوره أو خوضه محفوفاً بالأخطار دوماً، أو غير ممكن إطلاقاً. وقد ترتفع مياهه ارتفاعاً فجائيًّا. وعلمنا بأن مياهه كثيراً ما فاجأت الناس وهم في وسط مجراه أثناء عبورهم، فغرقوا أو أنهم انتشلوا بصعوبة. وقد ارتفعت مياه (طاووق جاي) في الأيام الأخيرة ارتفاعاً عظيماً جدًّا، على أثر سقوط مطر شديد، وقد شوهد عدد من الغرقى وأشلاء الحيوانات طافية على سطحه؛ وهذا ما حدث أيضاً في أيام الأمطار الغزيرة الخارقة للعادة، والتي هطلت في الصيف الماضي. أما الآن فقد وجدناه سهل العبور جدًّا. وقد استقبلنا الضابط وبصحبته خمسون رجلاً تقريباً (بطبولهم ومزاميرهم ونقاراتهم)، لمساعدتنا في عبورنا وعبور أمتعتنا. وعند العبور وجدنا في وسط المجرى ساقيتين كان عمق الأولى منهما قدمين ونصف القدم وعرضها عشر ياردات أو اثنتا عشرة ياردة، أما الثانية فعمقها ثلاثة أقدام ونصف القدم تقريباً وعرضها يتراوح بين العشرين والثلاثين ياردة، وكلتاهما سريعة الجريان، أما قاعاهما فكانا مفروشين بالجلاميد الكبيرة. ولقد كان العبور أكثر صعوبة أمس، إلا أن المياه انخفضت خلال الليل، وبالرغم من ذلك فقد ألقت الرعب غير القليل في قلوب البعض من البغداديين من حاشيتي.

استغرق عبورنا لمجرى النهر كله عشرين دقيقة، ثم تركنا الضابط وجماعته لإبداء المساعدة إلى التختروان. وبعد أن نعمنا باحتساء القهوة تحت الشمسية (المظلة) امتطينا الجياد نحو القرية وكانت المسافة بيننا وبينها ميلين قطعناهما بنصف ساعة[1] ومررنا بمنارة جميلة قديمة على يسارنا مشيدة بالطابوق، يظن أنها من بقايا عهد الخلفاء، كما مررنا ببعض المزارات أو المقامات التي يحج إليها الأمر الذي يدل على أن المكان كان فيما مضى مكاناً واسعاً، ولكن القرية الحالية حقيرة جدًّا وهي تشمل على منزل فيه ستون جواداً. وقبيل الوصول إلى ال(جاي) أو المسيل رأينا على مسافة ميلين عن يسارنا قرية (علي سراي) وعن يميننا وعلى مسافة ميل واحد وعلى الضفة اليمنى من المسيل مقام (زين العابدين)، يلجأ إليه كثير ممن يشكون آلام العيون وأوجاعها.

لقد قلقت كثيراً عند التأهب للمرحلة الأخيرة التي ما كنت أتوقع بلوغ منتهاها إلا بمشقة، إذ قيل إنها تستغرق سبع ساعات. وفي الواقع فقد قطعناها بخمس ساعات ونصف الساعة. وعند وصولنا كان في استقبالنا وفد مؤلف من شيوخ القرية يتقدمهم «الملالي»، وكان من بينهم رجال طوال القامة وسيمو الطلعة.

---

(١) كان معدل سفر المستر (ريج) يتراوح بين الثلاثة أميال وربع الميل وبين الأربعة أميال في الساعة. وفي المسيرات القصيرة أو في أواخر المسيرات، كانت الجياد تقطع أربعة أميال ونصف الميل. أما ساعة القوافل «كراوين» التي يعول عليها الأهلون فثلاثة أميال، وأما ساعة الخيال فثلاثة أميال ونصف الميل.

وفيما يلي مقتبس من مذكرات المستر ريج: - إن سرعة التنقل على «جابقرون» رهوان جيد - موقت بسرعة سيره تمام التوقيت - تقدر بخمسين خطوة في عشرين ثانية أي ١٥٠ خطوة في الدقيقة، أو ٩٠٠٠ خطوة في الساعة. وبعد إسقاط ما يمكن أن يقع من فروق الخطوات والياردات نستطيع أن نعتبر المعدل أربعة أميال في الساعة وقد تأكد لدي أن خطوات الجابقوون أو الرهوان هي خير الخطوات اتساقاً وانتظاماً.

وكان الرائد «مهماندار» محمد آغا يصر على مسك ركابي عندما أمتطي جوادي، بالرغم من رجائي المتكرر له بألا يفعل ذلك. قال لي بأنه يقوم بهذه الخدمة من أجل محمود باشا، وأنه يرغب في اعتباري كمحمود باشا. وكان الآغا ممن قاد مفرزة احتلت هذه القرية ونهبتها في العام الماضي، وذلك عندما اتفق محمود باشا مع نجل شاه إيران، شهزادة كرمنشاه ضد الأتراك. ويظهر لي أن القرويين يحرصون على خطب وده، درءاً لزيارة أخرى منه في المستقبل لقريتهم كزيارته الأولى، وقد تقدم الكثيرون ولثموا يده، ولكن ما إن ولاهم ظهره حتى قالوا: «لا أراه الله خيراً، إنه هو الذي نهب قريتنا في العام الماضي».

درجة الحرارة ٦١ درجة في الصباح، و٧٢ درجة في الثالثة ب.ظ. و٦٦ درجة في العاشرة بعد الظهر. الريح شرقية صباحاً، نهار رائق، وفي الثالثة تلبدت السماء بالغيوم، إلا أن الجو بقي هادئاً.

٢ ايار:

على أثر علمنا بوجود خرائب بجوار القرية تستحق المشاهدة، عولنا على زيارتها صباح اليوم وقد ألفيناها تشتمل على المنارة التي رأيناها أمس، وعلى بقايا جدار من طين، قلعت واجهته المبنية من الطابوق. ورأينا مدخلاً صغيراً، هو أثر معماري جميل جدًّا، على طراز التكية، والمستنصرية، وخير آثار عهد الخلفاء ببغداد[١]. لقد شاهد (أوليفر) هذه الخرائب، ولكنه نقل أخبارها إلينا فنسبها إلى (طوزخورماتو)، دون أن يكون لذلك أي داع. وهذا ما يدعونا إلى الظن بأن مذكراته، أو أن

(١) المستنصرية، جامع في بغداد من آثار عهد الخلفاء. والتكية، زاوية الدراويش البكتاشية، وهي على ضفاف دجلة إلى جانب الغربي من المدينة، وهي أنموذج جميل للهندسة المعمارية الإسلامية القديمة ـ الناشرة.

القسم المتعلق بهذه الخرائب على الأقل إنما كتب استناداً على الذاكرة. وهو يعترف فعلاً بأنه لا يصف بقايا العاديات. غير أنه يجب عليه أن يتذكر أماكنها على الأقل إذا أراد أن ينوه عنها. هذا وإظهاراً للحق، عليَّ أن أقول بأن هذا خطأ من الأخطاء القليل جدًّا التي وقفت عليها حتى الآن في مذكراته التي يصف بها البلاد وصفاً صحيحاً يحمد عليه. وعند منتهى القرية، مررنا بطريقنا بإمام[1] أو بمرقد صغير تعلوه قبة مخروطية الشكل، كقبة السيدة زبيدة في بغداد[2] ولكنها لا تضاهيها في طرازها وإتقان بنائها بأي حال من الأحوال. وقد أخبرنا القرويون عن وجود أنقاض كنيسة. وهذا يحتمل جدًّا إذ إن هذا المكان، كان مقراً لكرسي الأسقفية الكلدانية، وجاء ذكر أساقفته في الأزمنة الممعنة في القدم.

وقد شاهدنا الخرابة التي أشار إليها الأهلون بأنها كنيسة، على بعد ميل ونصف الميل أو الميلين عن يمين طريقنا. نظرت إليها بالناظور ولاقتناعي بأنها لم تكن ذات خطورة، لم أضع الوقت في الذهاب إليها لمشاهدتها.

وسرنا أخيراً، في السادسة والربع وكانت الأرض مكسوة كيوم أمس بالشيبة ـ الأفسنتين ـ (ويسمى بالتركية: ياوشان) وبالسعتر وبنباتات أخرى كثيرة، إلا أنني لم أتعرفها لجهلي أمرها. وكان الأفسنتين يعبق برائحة منعشة، تشرح الصدر، كما رأينا الكثير من حقول الشعير وهي لا تزال خضراء، وكان القرويون يتهيؤون لحصد بعضها.

كان طريقنا شماليًّا (تاركاً طريق كركوك إلى يسارنا) باتجاه سفوح التلال، وأخذت تتراآى لنا جبال حمرين عن يسارنا. وفي السابعة والثلث بلغنا قرية (جميلة) الصغيرة المشيدة من الطين، ويعني الاسم بالعربية

---

(١) مرقد رجل صالح مسلم.

(٢) زوجة هارون الرشيد.

(الحسناء الصغيرة) وإن كان الاسم لا ينطبق على المسمى، إذ إنها ليست سوى بؤرة تعسة. والآن بدأنا في صعود سلسلة التلال المتجهة إلى الشمال الغربي من قرية (مطارا)، التي اقتبست تلك التلال اسمها منها والتي تمر بـ(تازه خورماتو)، ثم تتلاشى تدريجاً بعد ذلك على ما يقال.

إنني لمسرور جدًّا لاختياري هذا الطريق، وإن كان أطول من طريق (إبراهيم خانجي) بثلاثة أو أربعة أيام، إذ تعلمت كثيراً من الأمور التي جعلتني في موقف أحيط به الإحاطة الكاملة بمعالم هذه البلاد الرئيسية. وقد تملكني العجب، إذ وجدت «مهمانداري» ذا اطلاع جم بمواضع الأماكن والاتجاهات، واتصالات سلاسل التلال بعضها ببعض. وقد اختبرته في بعض الأمور التي أعرفها من قبل، فكانت أجوبته مقنعة لي إقناعاً استحقت الاعتماد على معلوماته العامة.

أما الشعبة الأخرى، أو بالأحرى الشعبة الشرقية القصوى من تلال كفري (وهي في الحقيقة الضلع أو الشريان الأصلي منها) فتمر بـ(كركوك) و(التون كوبري) ومن هناك تمر من جنوب (أربيل) حتى دجلة، وتسمى عندئذٍ بـ(قه ره جوق داغ). وهذه الشعبة الشرقية تحتوي على الجبس والنفط. أما الشعبة الغربية أو تلال (مطارا) فهي من الحجارة الرملية والحصى، وتشبه سلسلة حمرين الشبه التام من جميع الوجوه، وفيها الكثير مما يستحق الملاحظة. وعند ولوجنا إياها عند مضيق (جميلة) مررنا بسلسلة، أو سلسلتين شاقوليتي الطبقات كأنهما أقسرا على اتخاذ وضعهما الراهن، ثم تليها طبقات أفقية من الحجارة الرملية الصرفة الجرداء، وقد انفصلت عنها كتل ضخمة تدهورت متبعثرة هنا وهناك، وما تبقى منها كأنه بناية مهدمة. وفي الحقيقة أن السلسلة بكاملها تبدو وكأنها جبل منهار. ثم بلغنا طبقات مائلة، الغريب في أمرها أن ميلانها كميلان طبقات حمرين. وهذه التلال تنحدر إلى الشرق بـ(٦٠) درجة من الخط الشاقولي، أو (٣٠) درجة تحت خط الأفق. وجميع الطبقات في السلسلة

بكاملها متوازية، ولها اتجاه واحد تماماً كأنها صفت على خط يتجه شمالاً غربيًّا بـ(٤٥) درجة. أما صعودها فتدريجي جدًّا وباتجاه شرقي، إلا أنه يتعرج أو يتلوى داخل شقوق ضيقة كونتها الأمطار في الحجارة الرملية.

وفي الثامنة إلا ثلثاً وصلنا نجداً كئيباً، أو بالأحرى ساحة واسعة تعلوها أكوام من أركام حصوية، وأخاديد موحشة. وكان طريقنا يمر منها باتجاه خمسين درجة إلى الشمال الشرقي. وفي الثامنة وصلنا إلى سلسلة قمم أخرى ذات طبقات مائلة تتصف بنفس الأوصاف التي مرّ ذكرها. إلا أن التربة الحصوية التي تكسوها كانت تزداد كثافة كلما تقدمنا، وشاهدنا هنا وهنالك بعض مزارع الشعير الصغيرة. وصادفنا قافلة كردية صغيرة تحمل الـ«مورت» الآس (Myrtle) بأكياس تنتشر منها راحة ذكية، والمعتقد أنه يستعمل في المصابغ.

فالتربة والحصى في هذه المنطقة ظاهرة كما في السفوح الشرقية من (حمرين). وفي التاسعة إلا ربعاً وصلنا مكاناً يشرف على سهل (ليلان)، حيث تنحدر التلال تدريجاً انحداراً خفيفاً.

دخلنا الآن سهل (ليلان)، وهو مكتظ بمزارع الشعير التي كانت على ما يظهر تبشر بخير عميم، وكان النزر اليسير منها على وشك النضوج. وفي التاسعة والنصف وقفنا لنحتسي القهوة، ولتمكين ضابط الإعاشة ليتخذ ما يجب اتخاذه من الترتيبات.

وفي العاشرة والربع ركبنا ثانية، فوصلنا (ليلان) في الحادية عشرة إلا ربعاً. و(ليلان) قرية صغيرة تعود الآن إلى عبد الله أفندي وهو المتولي السابق للإمام الأعظم[1] ومن معارفي القدماء. أغار الإيرانيون والكرد

---

(١) أبو حنيفة، أحد أعلام المذاهب الإسلامية، وقد سمي بالأعظم. وهو مدفون في القصبة المسماة باسمه والتي تقوم على بعد ميلين من شمالي بغداد.

في العام الماضي على القرية فسلبوا ما سلبوا وحرقوا ما لم يستطيعوا حمله معهم، وذلك للكيد بممتاري الجيش التركي - أي لمنعهم من التزود بالعلف للحيوانات. وإنني أعتقد أن القرويين في جميع أنحاء المملكة التركية يدفنون حبوبهم دائماً في حفر أو آبار قريبة من قراهم، إذا سترت وسويت الأرض من فوقها لا يمكن العثور عليها على الأغلب حتى من قبل الجيوش المحلية، إلا إذا دلَّهم عليها أحد.

ومن شرفة الدار التي نزلنا بها، أسعفني الحظ لمشاهدتي (كركوك)، وللتأكد من ذلك وجهت مراراً وباعتناء، مرقب بوصلة المسح نحوها. والنقطة التي اتخذتها لرصدي كانت تل القلعة حيث يظهر قسم من المدينة تحته في المرقب بوضوح. وكان اتجاه قلعة (كركوك) ٢٤ درجة إلى الشمال الغربي. كنت أحرص على التأكد من المسافة على قدر ما يمكنني استنباطه مما يعلمني به الأهلون المحليون. أما تخميني لها بالرؤية المجردة فكان اثني عشر ميلاً بخط مستقيم، وأما عبد الله أفندي الذي ذهب مراراً إلى (كركوك) من (ليلان) مراقباً الوقت بساعته فيقول إن المسافة لقافلة بغال ثلاث ساعات ونصف الساعة، وللخيال الاعتيادي ثلاث ساعات، ولجواد في سير مكد ساعتان ونصف الساعة. وعليه يجب أن تكون المسافة عشرة أميال جغرافية. وبنتيجة الرصد الجيد ليلاً، تأكدت من موقع (كركوك) الصحيح. فمن تقاريري السابقة ومن تقارير السير (آر كير بورته ر R. Ker Porter) اقتنعت بأن موقع كركوك قد رسم في خرائطنا نحو الغرب أبعد مما هو عليه في الواقع. وقد وجدت نفسي على صواب في الاتجاه الذي عينته لها.

والأرض بين (ليلان) و(كركوك)، سهلة تماماً، وقد تبعثرت عليها بعض الطنوف الاصطناعية. ويرى المرء في بعض القرى قليلاً من النخيل، ولكنه لا يرى إلا القليل من البساتين. وتحد السهل من الغرب تلال (مطارا) ومن الشرق السلسلة التي سنعبرها غداً.

و(تازة خورماتو) على بعد ثلاث ساعات.

إن ضمان قرية (ليلان) يساوي خمسة وعشرين ألف قرش سنويًا، بالعملة البغدادية. وهي ككل القرى الواقعة على الحدود الكردية قلقة، لا راحة لها، إذ أصبحت هدفاً للغارات والتخريب التام بنتيجة الغزوات الكردية عليها. ورجاني (الكهيا) رئيس القرية أن أتوسط لدى محمود باشا، لإرجاع ثلاثمائة رأس من الأغنام سلبها منه الكرد، والتي علم بأنها لا تزال غير موزعة. والقرويون بأجمعهم يتضرعون لأن تكون زيارتي لكردستان سبباً للحيلولة دون شن الغارات الكردية، إلى أن يتم الحصاد وجمع الغلة على الأقل. وساكنو هذه القرية، والقرى المجاورة كلهم أتراك، وهم من طائفة (جراغ سونديره ن)[1]، أو علي اللَّهية.

درجة الحرارة ٦٨د في السادسة ق.ظ. و٨١د في الثالثة ب.ظ. و٦٧د في العاشرة ب.ظ. والريح جنوبية شرقية.

٣ إيار:

تركنا (ليلان) في الخامسة والنصف، وسرنا باتجاه شمالي شرقي بمحاذاة جدول (ليلان) وهو عن يسارنا. وتعين مجراه من التلال سلسلة طواحين قائمة على ضفتيه، يتصل بكل منها برج حجري مدور صغير. وكان أحد الطحانين في إحداها يصرخ قائلاً «وير، الله» أي أعطني، يا الله. وعلمت أن ذلك ما ينادي به الطحانون باستمرار، عندما تتوقف الطواحين عن العمل، فيهبّ من لديه حب ويتقدم به للطحن.

وبعد نصف ساعة وصلنا التلال، حيث ترتفع هنا فجأة من السهل، فتكون نجداً يمتد من تلال (كفري)، ويحاذي الشعبة الشرقية منها. وتشقق النجد مجاري وجداول عديدة كونتها مياه الأمطار فجعلت منها

---

(١) راجع حاشية الصفحة ٦٠.

ودياناً ضيقة وروابي صغيرة، وأهم هذه الجداول، جدول أو نهر (ليلان) الذي يبرز لنا بسرعة جريانه درجة انحدار الأرض التي يسيل فيها. ومنبع هذا الجدول في التلال المار ذكرها أعلاه، وتصبّ فيه روافد صغيرة عديدة على امتداد مجراه.

وتشمل جميع هذه الوديان، وعلى الأخص وادي (ليلان) على عدة قرى صغيرة، تحيط بها بساتين الفواكه والأزهار. وهي في الواقع إبان هذا الموسم تحيلها إلى جنات صغيرة بكل ما في الكلمة من معنى. وتتكون قاعدة التلال أو النجد من الأحجار الرملية الماثلة للعيان هنا وهنالك بطبقات مائلة بنفس الاتجاه والدرجة اللذين عليهما طبقات شعبة تلال (مطارا)، ويعلو هذه طبقة جلاميد متكتلة اندثرت فكونت تربة حصوية.

تسمى هذه البقعة بلواء أو منطقة (قه ره حسن) وهي مرتبطة مباشرة بباشا بغداد، ولا سلطة لحاكم (كركوك) عليها مطلقاً، ويساوي ضمانها سنويًا قرابة (٨٥) ألف قرش، وهي تمتد طولاً إلى مسافة ست ساعات. إن الحرب الماضية، وغارات الكرد المستمرة قد أخفضتا كثيراً من نفوس المنطقة وحطمتا قابليتها للزراعة. ورأينا بعض مزارع الشعير ولكن أكثر الأرض التي مررنا بها كانت معشوشبة ويختلط بالعشب الكثير من القطاني البري (جاودار) والشوفان وأوراد برية لا يحصى عددها ونوعها، هذا عدا السعتر والنعناع والبطنج. وأعالي التلال وقممها صالحة كل الصلاح كمراعي الأغنام، أما الوديان فمراع غنية للقطعان والأسراب. وعند صعودنا النجد الذي لم يكن ارتفاعه عن سطح السهل كثيراً ـ وقد لا يتجاوز الثلاثمائة قدم ـ جوبهنا فوراً بفارق بيّن في مظاهر البلاد، وفي مشاعرنا أيضاً. ويمكننا القول بأننا الآن نجونا من منطقة (كه رمه سير)[1]

(١) أو المنطقة الحارة، والكلمة أطلقت على المنطقة الواقعة بين دجلة وجبل زغروس.

الموحشة. وقد شعرت بانبعاث حيوية جديدة في كياني، وزال عني قلقي الممض، وقنوطي الممل رويداً رويداً، كما تزول غيوم الليلة العاصفة فانتعشت في آمال عذاب، وتجدد في النشاط، ولم أكن الوحيد الذي انبعث فيه كل هذا الإحساس بل إن قرينتي التي كانت قد انحرفت صحتها كثيراً، دب فيها النشاط واستعادت قوتها أيضاً عندما انتهت من سفرتها هذا اليوم، وصار الكثيرون من الناقهين من حاشيتي يشعرون بزوال أعراض المرض عنهم بعد مسيرهم ساعة أو ساعتين بين التلال. وفي السابعة والنصف انحدرنا إلى وادٍ يسيل فيه جدول صغير متدفقاً بين الروابي ليصب بمياه (ليلان)، وعندها طالعنا منظر هتف القوم له سروراً واغتباطاً. وكان ثمة ساقية تدير طاحونة صغيرة، يقوم على مقربة منها عدد من الأكواخ تحتضنها جميعاً غابة من أشجار الحور والصفصاف والتين والإجاص وعليقات الورد، وأغصانها مثقلة به. وكانت الغابة تعج بالبلابل وهي تمزج أصواتها بخرير مياه الساقية؛ وعلى كلٍّ ليس في الكون أحد مهما كان قليل الإحساس أو عديمه، إلا ويتأثر بمحاسن الطبيعة. وأرى أن السبب الأساسي في تخلي الكرد عن رؤسائهم وهم في شقوتهم هو خوفهم، ونفورهم الشديدين من الهجرة من بلادهم إلى بادية بغداد الفظيعة. أما الأتراك الذين كانوا بمعيتي، فقد كرهوا أن يغادروا الوادي دون أن ينعشوا الأنفس بكأس من القهوة يتناولونه في هذه البقعة الجميلة، فلم أر ما يمنعني من النزول عند رغبتهم. وهكذا قضينا نصف ساعة ممتعة في هذا المكان المسمى بـ(حسين إسلام)، ثم اتجهنا نحو مضرب يوسف آغا وهو على مسافة نصف ساعة أخرى في وادي (ليلان) فوصلناه في الثامنة والنصف. لقد قطعنا مرحلتنا اليوم بساعتين ونصف ساعة، عدا نصف الساعة التي اختلسناها للراحة. ويوسف آغا الحاكم الحالي لمنطقة (قه ره حسن)، كرجي من أصدقائي القدماء وهو الشخص ذاته الذي كان يجيئني إلى مضربي بفرامين ورسائل داود باشا أثناء الثورة

التي انتهت بقتل سعيد باشا ونصب صهره داود باشا خلفاً له. إنه قام باستعدادات ممتازة لاستقبالي وضيافتي في مضربه الصغير فاستضافنا ضيافة كريمة. نصبنا خيامنا فوق مرتفع مشرف على وادي نهر (ليلان) وقد زين ضفتاه حرش، أو جنينة صغيرة كما هو الحال في (حسين إسلام). وكان المكان لطيفاً حقًّا، وقد عثرنا في الوادي على ورود سياجية كالتي نراها في إنكلترا؛ وقد فاق شذى هذه الورود البرية في بعث السرور إلى نفوسنا وإنعاشها عطور الشرق كلها.

وبعد وصولي بمدة وجيزة، أعلموني بمجيء عريف رسولاً من موسى آغا حاكم (كركوك) التي كانت تبعد عنا مسافة أربع ساعات أو ما يعادل اثني عشر ميلاً، وكان يحمل كتاب دعوة رقيق من سيده يسألني فيه أن أنزل ضيفاً عليه لبضعة أيام. وعلمت أنه قد تهيأ لاستقبالي تهيؤًا عظيماً، ولكنني مضطر إلى عدم إجابة دعوته. وعلى كل فمحتمل جدًّا أن نرجع بطريق (كركوك).

٤ أيار:

نهضت صباح اليوم في الرابعة والنصف وأنا أشعر بصداع شديد في الصدغين كالذي يطرأ على الإنسان عندما يجرع فجأة جرعة مثلجة من عصير الليمون، وكلما زاد دفء النهار كلما أخذ الصداع يزول عني.

امتطينا الخيل في الخامسة والنصف صباحاً وكان طريقنا شماليًّا طوار وادي نهر (ليلان) وقد اضطررنا إلى الترجل فيه بين آونة وأخرى لعبور هذا الجدول الصغير. وكان الوادي ضيقاً متمعجاً وكان يزداد جمالاً على جمال كلما توغلنا فيه. وكثيراً ما اجتزنا الأدغال المعرشة والممرات المكتظة بأشجار التوت والرمان وغيرها من أشجار الفواكه وقد تخللتها عليقات الورود. وإننا إذا رغبنا في الحكم استناداً على عرض مجرى نهر (ليلان) الحصوي، الذي يشغل الوادي برمته تقريباً نرى أن النهر الذي لم

يكن في هذا الوقت إلا ساقية صغيرة لا بد وأن يصبح مسيلاً عظيماً عندما يمتلىء بمياه الأمطار. وكلما تقدمنا كلما شادنا انصباب سواق فرعية عديدة فيه. وكانت مغارس الأشجار تمتد على ضفتيه إلى مسافة ثلاثة أميال، وشاهدنا بعض الكروم على جوانب التلال. أما الأرض فكانت مكسوة بالسعتر والآس والقصعين المورد، وغير ذلك من أنواع النباتات الأخرى بين الأعشاب. وقد أخذ مستوى الأرض يرتفع ارتفاعاً محسوساً كلما سرنا صعداً.

وقبل الثامنة قبل الظهر كان اتجاهنا شماليًا شرقيًا بـ٧٥ درجة. لقد ابتعدنا الآن من (ليلان) بالقرب من منبعه، واجتزنا سلسلة التلال باتجاه شمالي غربي، ومن قمم هذه التلال تنحدر الجداول إلى كردستان، وهنا تنتهي سلطة، (قه ره حسن)، وتبدأ سلطة (السليمانية) فيها وفي التاسعة تقريباً بدأنا ننحدر بطريق مستقيم جدًّا، غير صعب، وفي مدة عشرين دقيقة وصلنا إلى المحط الأول إذا أجاز لي أن أعبر عنه بهذا التعبير. وكانت ثمة على مرتفع عن يميننا بناية صغيرة، وهي مزار يدعى (مقام خضر إلياس)[1] له مكانة مبجلة بين الكرد، وهم يعتقدون أن من الإلحاد

(١) أو مرقد النبي إلياس. يعتقد المسلمون أن «إيليا» ـ إلياس ـ لم يمت، وأنه ما زال على الأرض، وسيبقى عليها حتى ظهور السيد المسيح. وأنهم ينعتون إلياس بالـ(خضر) أي الدائم الخضرة، وذلك للحياة الدائمة، أو الخالدة التي يتمتع بها، وقد جعل بها في حالة ازدهار على الدوام في فردوس يقولون عنه قد يكون الجنة ذاتها. واستناداً على هذا الاعتقاد قال أحد الشعراء الأتراك معناه:

«إياك والاعتقاد بأن هذه الدنيا هي موطنك».

«إن موطنك الجنة وحدها، فتمسك إذاً بعرى الفضيلة لتصل إلى ذلك الموطن الذي يحيا فيه إلياس، حيث هيِّئ لك مكان فيه».

والقصة الطريفة التالية، التي اقتبست من كتاب (المكتبة الشرقية ـ Bibliothèque Orientale) لمؤلفه (ديربي لو ـ D'herbelot) لا بد وأن يقرأها كل مسيحي بمتعة واهتمام:

=

الاصطياد بجواره. ومن هنا أيضاً انحدرنا بمنحدر خفيف جدًّا باتجاه شمالي شرقي نحو (جمجمال). و(جمجمال) طنف اصطناعي مرتفع،

= «عندما استولى العرب على مدينة (حلوان) في السنة السادسة عشرة من الهجرة ورجع ٣٠٠ خيال منهم من هذه الحملة بقيادة (فضيلة) وعسكروا عند المساء بين جبلين في سورية، أخبر (فضيلة) بحلول صلاة المغرب، فأخذ يردد بصوت جهوري كلمات «الله أكبر» إلخ من نص الأذان، وقد أخذ يسمع صدى كلماته يتردد، ولم ينفك ذلك الصدى عن الترديد حتى نهاية الأذان. وبعد أن فرغ (فضيلة) من صلاته صرخ قائلاً: «أنت يا من كنت تتكلم، إن كنت من الملائكة ليكن الله في عونك، وإن كنت من الأرواح الأخرى فلا بأس عليك، أما إذا كنت إنساناً مثلي، فاظهر لي علّني أنتفع من إرشاداتك. ولم ينته من كلماته هذه، إلا وظهر له شيخ أصلع الرأس وبيده عصا كأنه درويش من الدراويش. وبعد أن تبادلا التحية سأل (فضيلة) الشيخ عمّن يكون هو؟ فأجابه الشيخ قائلاً: «إنني هنا بأمر من السيد المسيح الذي تركني في هذه الحياة الدنيا حتى رجوعه إليها ثانية وإنني إذن أنتظر ظهور السيد المسيح الذي هو ينبوع كل سعادة. ونزولاً عند أوامره فإنني أحيا في الجانب الآخر من هذا الجبل». وبعد أن سمع (فضيلة) هذه الكلمات منه سأله عن وقت ظهور المسيح، ولما أجابه الشيخ «إنه سيظهر في آخر الزمن عند اقتراب يوم الحساب» ازداد الفضول عنده فاستفاض بالتساؤل وطلب منه أن يخبره عن علامات الآخرة. فأجابه خضر إلياس بنبرة نبوية قائلاً: «ذلك هو عندما يتناسى كل من الرجال والنساء مركزه ومقامه، وعندما لا تنقص كثرة الغلال أثمانها، وعندما تراق دماء الأبرياء ظلماً، ويسأل السائل الصدقة ولا من مجيب، وتنطفىء أنوار الحب، وتستحيل آيات الكتب المقدسة إلى أغانٍ تملأ المساجد المقامة لعبادة الله الحق بالأصنام. . وعند ذاك يكون قد اقتربت الساعة» ولم يتم الشيخ كلماته هذه حتى اختفى ـ من كتاب المكتبة الشرقية الصفحة ٧٤٢ـ الناشرة.

اقتبست هذه المعتقدات الإسلامية من اليهود، فإنهم وضعوا المسيح موضع إلياس، الذي سيظهر بعد القرن التاسع من اختفائه. . وقد يكون التنبؤ بأن إلياس سيظهر «قبل يوم الرب المخوف» هو السبب في الاعتقاد بأنه ما زال لم يتم رسالته في الأرض إن أعقل الخاخامين قالوا بأن (إلياس) يجلس تحت شجرة الحياة في الجنة، وإنه يسجل لليهود أعمالهم الحسنة وعلى الأخص احترامهم قدسية السبت. وهم يعتقدون بأن =

وهو إما أنه أخذ اسمه من المنطقة التي تحيط به، أو أنها أخذته منه. ومررنا بسيرنا نحو هذا الطنف بحقول شعير واسعة تبدو بحالة جيدة ولكنها لم تكن ناضجة لتحصدها المناجل. ومررنا أيضاً بمزارع عدس واسعة، ومراع مترامية الأطراف.

وصلنا مضربنا في العاشرة قبل الظهر، وقد نصبت الخيام على طنف (جمجمال) المدور تقريباً، وكان المجال فيه يتسع لمضرب أوسع بكثير من مضربنا. ولما كان السهل ذا انحدار مستمر نحو الشرق بدا الطنف أكثر ارتفاعاً في الجانب الشرقي منه في جوانبه الأخرى، وهو يرتفع ارتفاعاً شاقوليًا تقريباً إلى أكثر من مائة قدم. وإننا لا نستطيع أن

= مزاولة الأعمال الروحية مزاولة طيبة قد تستجلب ظهوره أو حضوره، فهم يتركون الأبواب مفتحة ليدخلها، وإن تراتيلهم في أواخر أيام السبت مشحونة بذكره، وبالتضرع إليه ليسدي عليهم بركاته، وهم يعتبرون أن ساعة ختن طفل من الأمور التي لها أهميتها الخاصة عنده. وفي مثل هذه الساعات ينشدون حضوره ويتركون له مقعداً من المقاعد خالياً لا يشكّون في أنه لا بد وأن يشغله فيما إذا سار كل شيء على ما يرام. ومن الشائع بينهم أن الخاخام (يهودا) بينما كان حاضراً في حفلة ختان ما في (رابتسبون) أدرك ببصيرته الروحانية خلو مقعد إلياس منه، فتنبأ بأن الطفل سيمسي مع الأيام طالحاً، وقد تنصر الطفل فعلاً فيما بعد. وهم يعتقدون أن الحضور في مثل هذه المراسيم، أمر منذور به إلى إلياس، وذلك لحرصه الشديد على ضرورة الختان، الأمر الذي دعاه أن يشكو بقوله: «... لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك...» (الملوك الأول ص١٩ : ١٤) ويعني بالعهد في هذا المقام عهد الختان. وللأسباب ذاتها يعتقدون أيضاً بأن إلياس يسمى ملاك العهد.

ومما يجدر بالملاحظة، أننا إذا ما قسنا تفهم اليهود إلى ظهور إلياس «قبل يوم الرب» بالرواية الإسلامية المار ذكرها، نرى أنها تعني أن ظهوره إنما هو تمهيد لظهور السيد المسيح، وتعني كذلك أنها إرادة إلهية تشير إلى أن تلك الحقبة التمهيدية إنما هي لإتمام رسالته، ولذلك فهم يدعون في مغرب كل يوم سبت إلى ظهوره في يوم السبت المقبل ليعلن علائم ظهور المسيح - راجع الصفحتين ٨٠ و٢٥٥ من Synagoga Judica لمؤلفه Buxtorf - طبعة باسل ١٦٤١- تلقت الناشرة ذلك من صديق لها.

نقدِّر له عمراً أو نرجعه إلى عهد. لقد التقطنا بعض شظايا أكواز جيدة النوع، ذات لون أحمر غامق، وحجراً ضخماً أيضاً. ولم نعثر على ما يميز لنا الطنف. وهو لا بد أن يكون ساسانيًّا على الأقل، وربما كان أقدم عهداً من الساسانيين. فمن أعلى قمته حيث أكتب هذه الكلمات، نشرف على منظر حسن لجبال كردستان، من (كوى سنجاق) في الشمال إلى (سه كرمه) في الجنوب الشرقي.

ويستمر السهل في انحداره إلى مسافة قليلة من حضيض الطنف، حيث يجري (جاي) أو جدول (جمجمال)، ومن بعده يرتفع ثانية تدريجيًّا ثم يتموج السهل في وديان وتلال حتى سلسلة (بازيان) حيث نجد فيها مضيقي (سه كرمه) و(ده ربه ند). والمضيق الأخير قبالتنا تماماً، ويرتفع من ورائه جبل (بير عمر غودرون) الذي يؤلف قسماً من سلسلة أعلى، وهي صخرية جرداء على ما يلوح. و(غودرون) هو أعلى جبل في هذه الأصقاع، ويقال إن فيه (ثلاجة) تمون كردستان بكاملها بالجليد، أو بالأحرى بالثلج، ومخزن هذا الثلج لا ينضب ولا يذوب. وقد شاهدنا الثلوج بين بعض شعابه.

ولأحاول الآن إعطاء فكرة عامة عن هذا القسم من سلاسل جبال كردستان كما تتراءى لي من طنف (جمجمال). فالخط الذي نراه مباشرة أمامنا، والممتد من الشمال إلى الجنوب الشرقي هو سلسلة ضيقة جرداء شديدة الانحدار اسمها جبال (بازيان). وإلى شمال مضيق (ده ربه ندى بازيان) الذي سبق لي أن قلت إنه ماثل أمامنا، تنعطف الجبال فجأة إلى الغرب فتؤلف جبال (خال خالان) التي تتاخم باشوية كوى سنجاق من الجنوب. وإلى جنوب مضيق (ده ربه ندى بازيان) تمتد الجبال امتداداً مستقيماً إلى الجنوب وإلى الشرق قليلاً، وفي هذا القسم من الجبال مضيق آخر اسمه (ده ربه ندى باسه رره)، تستمر الجبال من بعده في الاتجاه ذاته وتأخذ اسم (قه ره داغ)، وتصبح جبالاً مكتظة بالأشجار.

وهذا هو الطريق الثالث الذي يتجه إلى كردستان من سهول (آثوريا) ويسمى بطريق (سه كيرمه) أو المدرج؛ ولمروره مباشرة بقمة الجبل يعتبر من الطرق الصعبة إن لم نقل المستحيلة العبور على الجيوش.

كان قد حصن عبد الرحمن باشا حاكم السليمانية السابق جميع هذه المضايق، عندما كان يسعى للظفر باستقلال كردستان، ولكن على أثر تغلب سليمان الصغير باشا بغداد عليه هدمت استحكاماته. ويحد جبل (قه ره داغ) (ديالى)، وإلى جنوب مضيق (باسه رره) مباشرة تتشعب جبال (زه ن كه نه) من (قه ره داغ) إلى الغرب بارتفاع قليل نسبة في بادىء الأمر، إلا أنها عند انعطافها إلى الجنوب كأنها تحاول أن تكون سلسلة متوازية مع جبل (قه ره داغ)، ترتفع فتصبح في مستوى يكاد يتساوى معه. وإلى ما وراء هذا القسم مباشرة أي إلى شرقه، تبدو لنا قمة أعلى لا أعلم إلى أية سلسلة تعود، وهي قسم من منطقة (ده لو). وقبل القسم الأعلى مباشرة أو غربه الذي يظهر أنه يؤلف منتهى سلسلة (زه ن كه نه)[1] ترى بعض التلال الصغيرة التي لا تكاد تظهر للعيان، حيث (إبراهيم خانجي) و(كيللي) على الحدود التركية. وإلى مسافة أبعد نحو الغرب نرى خط تلال (كفري) و(طوزخورماتو) وكأنها تتقدم لتتصل بتلال (قه ره حسن) إلى الوراء منها بقليل، تلك التلال التي غادرناها قبل برهة والتي تمتد قليلاً إلى الشمال[2] ثم تختفي عن الأنظار لانعطافها نحو الغرب، تاركة وراءها أفقاً خالياً حتى تلال (خال خالان).

ولم تبد لنا أي قرية من طنف (جمجمال)، إذ إنها تقع في أغوار وعلى جوانب الجداول الصغيرة. وقد هجر القرويون الآن قراهم إلى مضارب

---

(١) رأيت وأنا أنظر إلى هذه التلال نظرة جانبية، أن طبقات أجزاء هذه السلسلة كلها تميل إلى الشرق عين الميل، وعين الدرجة التي تميل فيها طبقات جبال حمرين.

(٢) يسمى الطريق من كركوك إلى (ده ربه ند) بطريق (كيشه خان) وهو يمر من أعلى هذه التلول.

صغيرة من خيم الشعر الأسود وذلك لرعي قطعانهم ورعاية غلالهم. وجميع المزارع في كردستان تروى بمياه الأمطار فقط[1]، إذ لا ريّ اصطناعي فيها.

درجة الحرارة ٤٠د في الخامسة ق.ظ، و٧٩د في الثانية ب.ظ. و٥٩د في العاشرة. الريح نهاراً خفيفة شمالية غربية. ليلة هادئة. كان البرد شديداً في ليلة البارحة بدرجة أنه أثّر في رجالنا الذين أرختهم الراحة تأثيراً بليغاً. هذا وإن كانت درجة الحرارة ٧٩د في الثانية ب.ظ، إلا أنها لم تستمر إلا لمدة نصف ساعة في درجتها هذه.

٥ أيار:

كان ثمة طل كثير في هذا الصباح، لم أر مثله منذ سنوات عديدة، وبعد بزوغ الشمس بقليل ظهرت ظاهرة القوس قزح الغريبة وقد ارتسمت بانعكاسات أشعة الشمس على ضباب الصباح. وعند الفجر ظهرت لنا سلسلة (قنديل داغ) باتجاه عشر درجات شمالية شرقية، تلك السلسلة التي تؤلف جبال (ره واندز) و(آكو) و(سكنه) و(صاورق بولاق)، وما هي في الحقيقة إلا امتداد لجبال (زوغروس) التي تؤلف الحدود الكبرى بين إيران وتركية؛ وقد غطتها الثلوج حتى حضيضها المرئي لنا، أما قممها فكانت متعرجة وناتئة.

سرنا في الخامسة والنصف كالمعتاد، واتجهنا باتجاه شمالي شرقي للوقوع على طريق كركوك. هنالك طريق أكثر استقامة بين (جمجمال) و(ده ربه ند)، ومسيرته ثلاث ساعات، إلا أننا فضلنا طريق كركوك لأنه الأسهل. وقد أصبحت الأرض ذات أخاديد وشقوق تزداد كلما تقدمنا عليها، والتربة حمراء قاتمة تقترب من اللون القرمزي إذا ما نظر المرء

---

(١) يسمي الأهلون الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار بالديم، وهي كلمة عربية أما الرز والقطن فيرويان اصطناعيًا في البلاد التي لا أمطار استوائية فيها.

إليها من بعد. أما الوهاد، فكانت عميقة جدًّا كونتها سواق صغيرة عديدة تسيل من كل حدب وصوب. ووجه الأرض تكسوه الحشائش تخالطها الأعشاب المتعارفة، ولم نر إلا القليل من الشعير.

وفي التاسعة قبل الظهر وصلنا مضيق (ده ربه ند)، وكان طريق الاقتراب إليه كالمستنقع، ولا بد أن يكون مزعجاً في موسم الشتاء. ويوجد إلى الجانب الأيمن من المضيق خان صغير، وعند مدخله مباشرة خربة مربعة صغيرة أو دكة لا تزال فيها أنقاض أقبية صغيرة معقودة، وبعض آبار مياه. وهذه تشابه دكتي (قصر شيرين) و(حوش كه ره ك)[1] وهي ولا ريب ساسانية مثلهما. ومن باب الفضول إنني سألت حارس[2] الـ(ده ربه ند) مستفسراً عمن بنى هذه فأجاب دون تردد قائلاً «خسرو». ومضيق (ده ربه ند) يتكون من جرف فقط، أو حاجز يضيق ليسد الوادي، وهو ينحدر انحداراً تدريجيًا جدًّا تاركاً فجوة صغيرة للمرور وحسب، وهو حاجز كامل يجابه جانبي الفجوة التي يمر منها الطريق المؤدي إلى كردستان. وهذا الحاجز يتألف من طبقات رقيقة مائلة إلى الخارج أو إلى الغرب بانحراف قليل عن الوضع الشاقولي. والمضيق كما ذكرت آنفاً، كان قد حصَّنه عبد الرحمن باشا، وشيد فيه سوراً وباباً، ووضع ثلاثة أو أربعة مدافع فيه، عبأ اثنين منها في المرتفعات لرمي معسكر الأتراك في المنخفض. ولو أراد سليمان باشا الهجوم عليه لذهب مسعاه سدًى، لولا أحد رؤساء الكرد المسمى محمود بك نجل خالد باشا الذي اتفق مع الأتراك فقاد فرقة من القطعات التركية وبعض الكرد غير النظاميين إلى الجبال من مضيق لم يكن معروفاً إلا لنفر قليل من الكرد. وقد أهمل عبد الرحمن باشا أمر الدفاع عنه اعتقاداً بعدم صلاحه لمثل تلك

---

(١) راجع الملحق.

(٢) هناك حرس في مضيق (ده ربه ند) يتقاضى اثنتي عشرة بارة عن كل حمل يمر من المضيق، إلا أننا لم نكلف بدفع هذه الضريبة.

الحركات، وهكذا وجد أن موضعه قد أخذ من الخلف وأن مدافعه المعبأة في المرتفعات قد صوبت عليه فاضطر عندئذٍ على التراجع؛ وقد قوض باشا بغداد السور وتقدم بعد ذلك إلى السليمانية.

وبعد أن استمتعنا بالقهوة في مضيق (ده ربه ند)[1] استأنفنا السير في التاسعة والنصف وقد بدأ الوادي بالاتساع والتمعج، مارًا من بين تلال (بازيان). وطبقات الجبال هنا كلها متجهة نحو الغرب، وأعتقد أن التلال كانت كلسية (Calcareous)، وعلى مسافة إلى اليسار في التلال توجد خرابة اسمها (شيطان بازار) وهي تتألف من سلسلة أقبية صغيرة، فهذه الخرابة والأخرى المسماة بـ(كه وره قه لا ـ القلعة الكبيرة) الواقعة على يسار الوادي أيضاً وبين التلال، هما ساسانيتان ولا شك، استدلالاً بأوصافهما. وكان جبل (غودرون) أمامنا وإلى اليسار منا قليلاً. وفي العاشرة قبل الظهر انعطفنا نحو شعبة أخرى من الوادي، حيث يتسع هنا اتساعاً كثيراً ويقترب من قرية (ده ركه زين) التي وصلناها بعد ربع ساعة تقريباً. وكنا نشاهد من باب خيمتنا بالاتجاه الشمالي الشرقي وعلى مسافة ثلاثة أرباع الميل طنفاً اصطناعيًّا آخر، يشابه طنف جمجمال كل الشبه، واسمه كوبارا[2].

إن سلطة منطقة (بازيان) تمتد حتى قمم التلال الواقعة إلى الشمال الشرقي منا تحت (غودرون) وهنالك تحادُّ سلطة منطقة (سور داش).

ويوجد في هذه الجبال الكثير من الوعول والماعز الجبلي والدببة والفهود أو النمور. والمزارع حول (ده ركه زين)[3] تشتمل بالأخص على

---

(١) إن سلطة حكومة أو لواء (بازيان) تبدأ من وهد وجدول صغير يسمى بالوادي الأحمر على بعد نصف ساعة غرب مضيق (ده ربه ند) ـ انتهت الحاشية. (واسمه المتعارف عليه الآن شيوه سور ـ المترجم).

(٢) (كوباله)، كما هو معروف الآن ـ المترجم.

(٣) سمي هذا المحل بـ(ده ركه زين) إذ كان في الأصل مستعمرة يقطنها الـ(دره كه =

الرز والقطن والسمسم والتبغ، وهنالك عدة سواق صغيرة تنحدر من التلال على مقربة من القرية لتروي الوادي، كما توجد بعض الكروم في التلال.

درجة الحرارة ٥٦د في الخامسة ق.ظ، و٧٨د في الثانية ب.ظ، و٥٤د في العاشرة ب.ظ ريح شرقية هادئة أو خفيفة.

٦ أيار:

سرنا في الخامسة والنصف وكان صباحاً هادئاً غائماً. ولما كان الطريق ملتوياً كثيراً من جراء الأوحال لم أثبت اتجاه المسير حتى وصولنا الطريق المباشر المتجه إلى السليمانية، حيث كنت أعلم أن القرية التي تركناها ستتراءى لنا من محل وصولنا إلى هذا الطريق[١]. سرنا بقطع الوادي من الجهة الغربية حيث تقع (ده ركه زين) إلى التلال الشرقية التي مضينا في مسيرنا بالقرب من سفوحها. كنا نسير ببطء محسوس بسبب الأوحال والمستنقعات التي كونتها السواقي الكثيرة الجارية من جميع الأنحاء. وبعد تركنا (ده ركه زين) بقليل، عبرنا جدولاً لطيفاً جدًّا كان ينساب من غور في الصخور فينحدر بضع أقدام ويكون شلالاً صغيراً، ويسمى هذا بوادي الشيطان. وفي السادسة والنصف مررنا بقرية (لازيان) أو (لاجان) وهي عن يميننا، وبعد قليل وصلنا إلى طريق السليمانية المباشر. وقرية (لازيان)، وإن كانت تعتبر مركز المنطقة، إلا أنها مكان حقير مبني من الطين كغيرها من القرى الكردية التي شاهدتها حتى الآن وهي تقع إلى الشمال الغربي منا في سفوح التلال وإلى مسافة ساعتين ونصف الساعة. وكان اتجاه مسيرنا جنوبيًّا شرقيًّا بثلاثين درجة. وفي هذا

= زينيون) من التركمان.

(١) هنالك طريق يؤدي إلى السليمانية يمر في وادي (ده ركه زين) ويسير بمحاذاة جانبه الغربي. ولكن قيل لنا بأن أرضه لا تزال موحلة أكثر من أرض الطريق التي سرنا عليها.

الوادي الذي يقارب عرضه الثلاثة أميال يتيسر الكثير من المراعي الجيدة، ولكنك لا ترى فيه المزارع، أو لا ترى إلا القليل منها. وكان العشب بارضاً طريًّا، ومنذ دخولنا كردستان لم نر حقول حبوب نضجت وحان للمنجل أن يقصمها.

سرنا مع التلال التي كانت تحد الوادي من الشرق وهي على مقربة من يسارنا، وكان قصدنا الذهاب إلى قرية (تاي نال) الواقعة على الجانب الغربي من الوادي على بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من (ده ركه زين)، إلا أننا عند وصولنا قبالتها إلي محل كان يجب أن نقطع الوادي منه إليها ارتأى الرائد استناداً على بعض المعلومات التي وقف عليها لساعته أنه من الأنسب أن نقصد (طاسلوجة) في وهد السليمانية، ولذلك انعطفنا في التاسعة نحو الشمال الشرقي وارتقينا فوراً التل الذي حاذيناه عن يسارنا طيلة سيرنا هذا الصباح، وكان المرتقى والمنحدر صخريين هدودين. وفي التاسعة والنصف دخلنا وهد السليمانية وهو سهل معشوشب لطيف، عرضه ثمانية أميال تقريباً، لا يفتقر إلا إلى الأشجار ليصبح جميلاً حقًّا. وكانت مدينة السليمانية تبين لنا تحت التلال التي تحد الوادي من الشرق، وجبل (غودرون) إحدى سلاسلها.

كان تقدمنا اليوم بطيئاً شاقاً إذ كانت الأرض موحلة وصخرية، وكانت الساعة العاشرة ق. ظ. عندما وصلنا إلى مضربنا بجوار طنف اسمه (قه ره سبي ته به)[١] ومعنى ذلك الطنف الأسود وهو كطنفي (جمجمال) و(ده ركه زين). ومن المحتمل أن تكون هذه الطنوف منازل ملكية، تشير إلى مراحل سير جيش، وقد يكون جيش (أردشير) أو (دارا كشتاسب)[٢].

---

(١) إن اسم الطنف المتعارف عليه (كي له سبي) أي النصب الأبيض ويظهر أن الأمر قد التبس على الكاتب فاستبدل كلمة (قه ره) التركية ومعناها الأسود بكلمة (كي ل) الكردية، ومعناها حجرة أو نصب ـ المترجم.

(٢) هناك آثار أبنية خربة في مكان اسمه (كه روانان) على تل في السهل ـ انتهت =

فمن تجولاتي أمس، ومن سفرتي اليوم بدأت بإدراك الخطوط الأساسية لهذه البلاد بعض الإدراك، هذه البلاد التي كانت ميداناً حافلاً شهد الكثير من الوقائع التاريخية الممتعة والمجهولة لدينا في يومنا؛ ومن أجل هذا أرى من الصواب أن أدون نتائج ملحوظاتي ومشاهداتي.

إن قسم كردستان الواقع بين تلال (بازيان) وسلسلة (قه ره داغ) في الغرب وبين سلسلة (غودرون) في الشرق، ينقسم إلى وديان تتجه تقريباً إلى الجنوب الشرقي والشمال الغربي فتنتهي جميعها عند مضيق (ده ربه ند) حيث تكون لها مخرجاً واحداً. وهذه الوديان تتكون من سلاسل تلال صغيرة ثانوية تستند إلى اتجاهات السلاسل الكبيرة المار ذكرها، وإن لم تمتد بامتدادها. فأول الوديان هو وادي (ده ركه زين) الذي يترك سلسلة (بازيان) في الغرب ثم يأتي وادي السليمانية الذي ينفصل عن الآخر بخط تلال لم تكن في مثل ارتفاع تلال (بازيان). ووادي (ده ركه زين)[1] ينقسم بسلاسل تلال أوطأ لا تمتد كثيراً إلى الجنوب. وعند السليمانية يتشعب خط تلال آخر تاركاً وادياً بينها وبين سلسلة (غودرون). وتزداد جبال (بازيان) ارتفاعاً كلما مضت نحو الجنوب، ومع هذا تظهر جبال (قه ره داغ) أكثر ارتفاعاً منها، ويحد (قه ره داغ) نهر (ديالى) حيث تبدأ منطقة باشا (زهاو). وسهل السليمانية يظهر مكشوفاً إلى الجنوب حيث يتصل هناك بجبال (آورمان)[2] التي تكسوها الثلوج، وهي جزء من جبال (طوروس) و(زاغروس).

= الحاشية. (واسم المكان في يومنا هذا (كه له وانان) ـ المترجم).

(١) أشار المهماندار في سهل (ده ركه زين) إلى جدول عند سفوح التلال الغربية يتحد مع جداول عديدة أخرى ويمر من مضيق (باسه ره) فينصب في طاووق جاي ـ نهر طاووق.

(٢) وهذه الجبال تحد إيالتي (السليمانية) و(سنه)، والأخيرة إيالة كردية تحت سيطرة الحكومة الإيرانية.

ويسمى ذلك القسم من جبل (غودرون) الذي يعلو السليمانية مباشرة بجبل (أزمر)، وتقع على شرقه (قه لا جوالان) مركز المنطقة القديم في إيالة (شهرزور). وإلى شرق (غودرون) تقع قرية (ميركه بان) وهي قرية في التلال تسر الناظرين، تبعد مسافة ست ساعات عن السليمانية، وقد أشير علينا أن نتخذها مصيفاً لنا. و(غودرون)[١] يبدو داكناً في لونه، صخريًّا هدوداً وفي قمته غور أو حوض[٢] تتراكم فيه الثلوج وتتجمد[٣].

إن هذه الخطوط الأساسية إن لم تكن صحيحة في جميع تفاصيلها، فإنها تزودنا على الأقل بفكرة عامة عن البلاد، وتكون أساساً يستند عليه البحث في المستقبل.

درجة الحرارة ٥٥د في الخامسة ق.ظ، و٦٦د في الثانية ب.ظ، و٦٠د في العاشرة ب.ظ. يوم هادىء غائم. مطر شديد بعد الظهر، ورذاذ إلى ما بعد منتصف الليل.

٧ أيار:

ركبنا في الخامسة والدقيقة الخمسين متجهين نحو سلسلة (غودرون) اتجاهاً مائلاً تجنباً من الأوحال التي قيل عنها إنها عميقة في الأقسام الأكثر انخفاضاً من السهل. كان الصباح وضاحاً، تهب نسماته شمالية عليلة. وبعد الرحيل من مضربنا بقليل قابلنا عبد الرحمن آغا أحد

---

(١) أصر المهماندار على أن جبل (أزمر) أو جبال (غودرون) تمتد حتى (كوى سنجاق)، و(العمادية) و(ماردين)، وقد لا يكون مخطئاً.

(٢) أعتقد أنها فوهة بركان، والأجدر أن أرى المكان عن كثب.

(٣) وهكذا تتجمع فيه كمية لا تنضب من الثلج ليستعمله الأهلون في (السليمانية) في الصيف لتبريد الفواكه والشرابات والماء... إلخ.

رجال محمود باشا البارزين، وقد أرسله سيده ليخلف «مهماندارنا» ويوصلنا إلى السليمانية. وكان بمعيته عشرة أو اثنا عشر خادماً، فسرنا سوية بعد تبادل التحيات المعتادة.

كان الطريق يمر بتلال متشعبة من جبال (غودرون) تتخللها وديان كثيرة المياه تنصب فيها مجاري عديدة صغيرة، وقد أنشئت السدود في البعض منها لرفع مستوى مياهها وتسليطها على مشاتل الشلب؛ ورأينا الكثير من مزارع الشعير، وهو ما زال قصيلاً. وفي الثامنة عبرنا سيلاً عريضاً ضحضاحاً ينحدر من (غودرون) وهو يجف في الخريف اسمه (جاق جاق). وقد أخبرني دليلنا أن السيل إنما سمي بهذا الاسم لأن الحصى الموجودة فيه تقدح ناراً[1].

وفي الثامنة والدقيقة الخامسة، وصلنا إلى (سه رجنار) وهو منبع بالقرب من الطريق يتدفق من أكثر من خمسين عين ماء صغيرة، تؤلف مباشرة جدولاً كبيراً وكان لخرير مياهها من فوق الحصى وقعه الحسن في أذني. ويسيل هذا الجدول في منطقة (جه مي تانجه رو)[2] حيث المرزات الكثيرة، ثم يصب في ديالى، ويمكن القول عنه في الواقع إنه أحد الجداول التي تؤلف ذلك النهر. وفي مجراه في وهد السليمانية يصبح ملك رجل واحد وهو يونس بك، وقد منحه إياه الباشا الحالي. وتقدَّر غلة الأراضي التي يرويها بأكثر من (٥٠) ألف قرش سنويًّا، وأن مياهه تروي الكثير من مشاتل الشلب ومزارع القطن والسمسم والتبغ.

---

(١) قد تكون الكلمة (جاقماق) وليس جاق جاق. وكلمة «جاقماق طاشي» في التركية تعني حجر الصوان. ويستبعد أن تكون كلمة (جاق جاق) محرفة من (جاقماق). والأولى كلمة صوتية، وهي من صميم اللُّغة الكردية ـ المترجم.

(٢) (تانجه رو) تحريف كردي لكلمة (تاج روود) الفارسية. وتبعد مدينة أو قرية (تانجه رو) مسافة ساعة من السليمانية.



اللوح الرقم (١)
أحد كبار موظفي باشا السليمانية

ويعلو منابع السيل تلّ عليه شجرتان يقال إنهما تدلان على موقع معركة دارت هناك في غابر الأزمان. ويقول الكرد إن الإمام علي غرز رمحه في هذا المكان بعد اشتباكه بالكفار، إلا أن عبد الرحمن آغا يقر بأن هذه الرواية إنما هي أسطورة (عنعنة) كردية ليس إلا، وهو وإن كان لا يشك في وقوع معركة في هذه البقعة إلا أنه يدّعي عدم معرفته بالفريقين اللذين اختصما عندها.

ونزولاً عند رغبة الباشا، ضربنا مخيمنا على الضفة اليسرى من (سه رجنار) حتى يتم له التهيؤ لدخولنا إلى عاصمته، وقد عين صباح الغد موعداً لذلك. وفي هذا المكان استأذن مهماندارنا السابق محمود آغا لينصرف، وكان قد حبب نفسه لنا بتصرفاته الكريمة التي تنم عن خلق حميد طيلة مدة قيامه بواجبه.

وبعد إقامة مخيمنا بقليل، وردت المؤن الكثيرة العديدة الأنواع لنا ولحاشيتنا من الباشا. وعند الظهر جاءنا عمر آغا وهو ضابط كردي آخر، وكان واجب هذا السيد ملازمتنا طيلة مدة مكوثنا في كردستان[1] وبعد مقابلتي والبحث فيما نحتاجه في سكنانا خلال إقامتنا في السليمانية رجع إلى المدينة للقيام بما يجب لاستقبالنا. والآن بعد أن قابلت من قابلت من السادة الكرد سواء في بغداد أو منذ دخولنا بلادهم، أجدني ميالاً لأن أحسن الظن بسلوكهم وأدبهم، وكرم ضيافتهم إلى حد بعيد.

وبعد الظهر تمشيت لأقف على ما حولي قليلاً. فعند رأس (سه رجنار) تتدفق المياه من كل ناحية من الأرض، فأينما أزحت التراب من الأديم انفجر الماء[2]، وكان قاع الجدول مكتظاً برشاد الماء.

---

(١) راجع اللوح (١).

(٢) إن درجة حرارة جميع هذه العيون التي قست درجات حرارة الكثير منها كانت ٦٢د ف، أما درجة حرارة الجو فكانت ٧٦د.

والجدول ذاته يحتوي على الكثير من الأسماك ومن بينها سمك النقط (Trout)، أقول ذلك استناداً على ما وصفه لنا من اصطاد السمك بالشص منا والذين شاهدوا الكثير منه وقد وجدوه يحجم عن التقرب إلى شصوصهم.

ولا يفصل بين (سه رجنار)[1] وبين (جاق جاق) سوى مرتفع صغير عليه مقبرة مهجورة منذ زمن طويل على ما يظهر. وقد تذكرت الوصف البديع للمقبرة القديمة التي جاء ذكرها في مستهل قصيدة «الفناء القديم» وأنا هائم بين أحجار هذه المقبرة الربداء الغليظة، وكانت الأرض التي تتخللها مكسوة بالأوراد البرية. وهنالك ثلاث أو أربع شجرات تزين هذا المرتفع، إذ كان فرحي عظيماً عندما علمت أنها شجرات بلوط، ولم تكن في الواقع من نوع أشجار البلوط الشهيرة في إنكلترا، ولكنها شجرات لطيفة تكفي الكفاية كلها لإيحاء ذكريات طيبات عديدات، فأوراقها أقل تسنناً وأكثر نعومة وأعمق خضرة من أوراق البلوط التي اعتدت مشاهدتها في إنكلترا، وهي لم تكن من أشجار البلوط القصيرة. وقد قيل لنا إن أنحاء (سه رجنار) كان فيها الكثير من هذه الأشجار، ولكنها قطعت لبناء السليمانية.

درجة الحرارة في الخامسة ق.ظ، و٥٣د في الثالثة ب.ظ، و٧٦د وفي العاشرة، ٦٤د. نسيم شمالي عليل، وجو رائق.

---

(١) وهناك جدول آخر في شرق (سه رجنار) يفصله عنه تل صغير كما ينفصل (جاق جاق) بتل آخر في الغرب، وهذا الجدول أصغر من كلا الجدولين الآخرين. فهذا وجدول (جاق جاق) مسيلان فقط، وهما يجفان في الخريف على ما أعتقد، والجداول كلها تلتقي في السهل.

٨ أيار:

سرنا في الخامسة والدقيقة الأربعين بطريقنا متئدين، طوار سفوح التلال نهبط تارة ونصعد أخرى، فوصلنا إلى مضربنا بالقرب من السليمانية في السادسة والدقيقة الأربعين حيث استقبلني الكثير من السادة الكرد رجال محمود باشا. وبعد أن رحبوا بنا انصرفوا فوراً، إلا اثنان منهم استبقيا لملازمتنا للقيام على خدمتنا. وكنا نتوقع مكابدة بعض المتاعب من المتجمهرين، وذلك لأن الكرد مشهورون بدقة الملاحظة وحب الاستطلاع، ولأننا كنا أول جماعة أووروبية لم ير أكثرهم مثيلاً لها من قبل، غير أنه لم يقترب منا أحد إلا من كان واجبه يقضي عليه بذلك. وقد علمت أن ذلك كان نتيجة لأوامر محمود باشا التي نهت الكرد بشدة عن إزعاجنا. لم أهنأ بالراحة في هذا اليوم إلا قليلاً، وقد كانت نفسي ترزح تحت أعباء يصعب عليها تحملها. وما إن دخلت خيمتي وجلست فيها حتى وصل «تاتار» سريع (ساع) من استانبول[١] وكان بودي لو جاء في غير هذا الوقت، ولأنه كان ينعي الملك أصبح لزاماً علينا أن نبعث بالرسائل على الفور[٢]. ولم أكد أستعيد هدوء بالي بعد مجيء التاتار حتى جاءني صديقي القديم كبير رجال عبد الله باشا، وأعقبه محمود مصرف، رئيس وزراء باشا السليمانية وهو شخصية معروفة في كردستان غالباً ما سمعت عنها في بغداد. وقد جاءني ليخبرني بأن سيده قادم عصراً

---

(١) ويعني التاتار: وكان الأتراك يستخدمون السعاة التاتار في نقل البريد. وهكذا استعملوا كلمة «تاتار» في التركية وصفاً لساعي البريد ـ المترجم.

(٢) لإيضاح الشكوك والمخاوف التي توسوس في رأس حاكم شرقي، يمكن لنا أن نذكر بأن داود باشا، باشا بغداد، كان قد ارتاع كثيراً لذهاب المستر ريج إلى كردستان. ولم تقنعه الأسباب التي ذكرت له، إذ لا يتصور التركي أو يعتقد بالسياحة للاستشفاء أو للتسلية، والظاهر أنه توقع شرًا لشخصه. ويقال إن وصول الساعي من استانبول يوم وصول المستر ريج إلى كردستان قد قوّى فيه مخاوفه وأيدها ـ الناشرة.

ليزورني الزيارة الأولى مرحباً بنفسه بقدومي إلى بلاده. وكان هذا تكريماً غير متوقع، وبرهاناً عظيماً على نزعته الودية الكريمة، وفي الواقع إنني ما كنت أتأمل منه أن يرد على زيارتي، ومن أجل هذا كان سبقه في المجيء من الأمور المفاجئة.

وعلى ذلك قمت بخير الاستعدادات التي استطعت القيام بها في موقفي هذا لاستقبال محمود باشا، وبعد العصر بقليل أعلن عن قدومه، وكان منظر موكبه بدائيًا مفرحاً، لقد كان وحده ممتطياً جواداً، ولما كان رجلاً صغير الجسم جدًّا فقد كاد يختفي عن الأنظار بجمهور من الكرد الطويلي القامة وقد ارتدوا ملابس ألوانها ألوان قوس القزح كلها، وردي وأصفر وقرمزي، وكانت هذه الألوان هي الغالبة في أهداب (شراشيب) أغطية رؤوسهم؛ وكان الموكب صامتاً، ووقع أقدامهم يسمع من بعيد. وعندما أدى حرسي التحية ردها الباشا بوضع يده فوق صدره بوقار عظيم. وقد أرسلت عرفائي للقياه، وخرجت شخصيًّا بعيداً عن باب الخيمة لاستقباله، وما إن رآني حتى ترجّل بين هتاف عرفائه فصافحني بكلتا يديه ودخلنا الخيمة وجلسنا سوية على بساط أحضرته خصيصاً لهذه المناسبة. وقد تمكنت بصعوبة من إقناعه على أن يتخذ جلسة مريحة، ويقعد القرفصاء، إذ كان مصراً على أن يتجشم صعوبة الجلوس ليظهر الاحترام الزائد، بالركوع مستنداً على كعبي قدميه. وقد رحب بي وبزيارتي لكردستان مرة بعد أخرى مؤكداً لي بأن بلاده بلادي، ومكرراً كلمات غيرها من كلمات المجاملات الشرقية. وقد تبادلنا طبعاً، الكثير من العبارات الرقيقة، منها اعتذاره عن حالة بلاده، وامتداحي لها. وعلى كل فقد كنت أعبر عن شعوري مخلصاً، إذ إنني في الحقيقة كنت مفتوناً بالتلال الخضراء ومبتهجاً لابتعادي عن بغداد. وبعد ذلك سلمته رسالة باشا بغداد، ولما كانت رسالة رقيقة جدًّا فقد عنيت العناية كلها بتسليمها على مشهد من حاشيته أو ملازميه، وقد ظهر لي أنه أدرك اهتمامي. وقد

تكلم عن حالة البلاد، مبدياً لي الصعوبات التي يكابدها بسبب وضعه على حدود سلطتين متنافستين لا تنفك الأولى عن اضطهاده في طلب الجزيات والضرائب، والثانية وهي السلطة المنقاد إليها حكماً، أي سلطة الأتراك الذين كانوا يلحفون عليه أن لا يخدم الإيرانيين، ولا يؤدي لهم المال، ومع هذا فلم يتمكّن الأتراك من الدفاع، ولم يرغبوا فيه عندما نفذ ما أراده شهزادة كرمنشاه بالقوة. وقد أشار إلى النتائج الوخيمة التي تورثها هذه الإدارة المزدوجة في خيرات البلاد وازدهارها، مشيراً إلى كل ذلك بتواضع ودراية، كما بين رغبته في الانقياد إلى أغراض باشا بغداد مخلصاً. وفي الواقع إنني أعتقد بأنه يميل كل الميل إلى الأتراك بدوافع دينية، ولكن من السهل أن نرى أن أغراضهم لم تكن مقبولة كل القبول وأن الأكثرية الساحقة في هذه البلاد لا تكنّ الاحترام للعثمانيين أو الثقة بهم، وهم لا يستحقونهما. إن إدارتهم السياسية إدارة عمياء، متعجرفة، خداعة، فبفطنة قليلة وباسترضاء يسير وباحترام كاف للشعور بالسنية بين الكرد المتعصبين الذين يمقتون طائفة الإيرانيين، كان باستطاعة العثمانيين توثيق أواصر الولاء بينهم وبين شعب جسور كثير العدد ـ يقطن في أهم مناطق حدودهم ـ ويعطي الرجحان للكفة التي يختارها حين يحين الآوان. فهنالك الآن لعبة تلعب، يصعب استكناه الغامض من حيلها. ولكن من الواضح أنها قضية «مقابلة الخدعة بالخدعة». وذلك أن باشا بغداد يسعى إلى خدع كل من باشا كردستان وشهزادة كرمنشاه في الوقت الذي يخدع فيه شهزادة كرمنشاه كلًّا من باشا بغداد، وباشا كردستان. وهم بمجموعهم وعلى انفراد يسعون بدورهم إلى غش الباب العالي، الذي سيخرج ولا ريب متضرراً من القضية أكثر من غيره، والذي يسعى في كل الأمور ليجعل من نفسه العدو المشترك؛ هذا ولا دخل لي بكل هذه الأمور. وإن الموقف الذي أنا فيه اضطرني أن أكون إلى جانب تركية، ولو بصورة سلبية على الأقل، وقد سعيت أن أبين ذلك بجوابي. وبعد

فترة سكوت وجيزة اعتقدت خلالها بأن الباشا قد تأثر بما أبنت تأثراً حقيقيًّا قال «إن والدي رحمه الله كان يودك كثيراً». ولو أنه شهد هذا اليوم الذي طالما توقعه لفرح كل الفرح. وإنني كنت أفضل أن يستقبلك هو، عوضاً عني. «فأجبته» إن عبد الرحمن باشا كان صديقاً أكن له بالغ التبجيل، وإني أحترم ذكراه الاحترام كله، إلا أنه ترك خير خلف له». وبعد أن دُخنت الغلايين وأديرت كؤوس الشراب وأحرق البخور، ورش ماء الورد، رجع الباشا محفوفاً بأتباعه كما أتى. وقبل أن يترك الخيمة أخبرني بأنه يرغب فيما إذا راق لي ذلك، أن أدخل السليمانية بعد غد في التاسعة صباحاً، فأدركت حالاً بأنه يجب أن يكون السبب في ذلك خرافة تنجيمية، ومن الطبيعي أنني سايرته في الأمر.

ولم يكن في محمود باشا ما يميزه في شخصيته وحديثه، ذلك أنه رجل بسيط رشيد، وهو في الوقت ذاته رقيق الحاشية دمث الطبع، ويقال إن أخلاقه الفردية كاملة لا شائبة فيها، وذلك أمر لم يكن من الأمور الاعتيادية بين الكرد.

وكان اليوم كله يوم امتحان كبير لأعصابي الخائرة ولكنه ما كان يوماً مزعجاً لولا قدوم التاتار. كان المنظر طريفاً لا عهد لي به وكان الكرد أبعد من أن يكونوا مثار قلق وإزعاج، وقد التقطت بعض المعلومات من الكثير منهم. لقد أردف الباشا زيارته بهدية كبيرة من الأغنام ومن المؤن الأخرى لجميع حاشيتي، وقرر أن لا يدعني أشتري أية حاجة ما دمت في منطقته، إلا أنني معتزم أن أضع حدًّا لذلك، حالما ينتهي استقبالي الرسمي.

٩ أيار:

قضيت صباح اليوم بكتابة رسائل رسمية وشخصية، وبإيفاد التاتار.

وجاء بعد الظهر صديقي القديم عبد الله باشا[1] لمواجهتي، وكان قد تمرّض مرضاً موجعاً طال أمده حتى كدت أن لا أعرفه من شدة تأثيره فيه، لقد عانقني بسرعة وبلهفة، وقد عجز من فرط تأثره عن التكلم لبضع ثوان. وهالني ما تركه المرض فيه من ضعف ونحول، وهكذا كان تلاقينا كئيباً في باديء الأمر، وإن انبعث فينا الانتعاش عندما أخذنا نذكر الأيام الماضية. وكان من السهل الإدراك أن أعضاء حكومة بغداد، ولا سيما داود باشا لم يكونوا عند حسن ظنه، ولا أستغرب ذلك إذ إن الأتراك عاملوه معاملة قاسية، ومما لا شك فيه أنه سينتهز بدوره الفرص ليكيل لهم صاعاً بصاع بل أكثر من ذلك. لقد تكلم عن ابن أخيه باشا السليمانية الحالي بتعظيم ولطف، وأحسب أنني استطعت أن ألحظ بعض التحرّج عنده. لقد قضى أكثر من ساعة معي وصافحني عند الوداع مصافحة حميمة.

درجة الحرارة في الخامسة ق.ظ، ٥٦د وفي الثانية والنصف ب.ظ. ٧٨د وفي العاشرة ب.ظ. ٦١د. الريح شرقية ولكنها معتدلة.

---

(١) عم من أعمام محمود باشا، باشا السليمانية.

الفصل الثالث

عثمان بك - الدخول إلى السليمانية - زيارة الباشا - وصف دارنا -
تعلق الكرد برؤسائهم - قصص - عراك الحجل -
أفغانيون في شهرزور - زه نيفون والعشرة آلاف

* * *

١٠ أيار:

كان هذا الصباح هو الذي أقر المنجمون ـ على ما يظهر ـ ملاءمته لدخولي عاصمة الباشا واستقباله لي استقبالاً رسميًّا، فقبل الوقت المعين بنصف ساعة تقريباً جاءني عثمان بك الشهير الذي سمعت عنه الكثير وهو أصغر إخوان الباشا وأجرؤهم ليأخذني إلى المدينة، وكان برفقته جميع أعضاء المجلس وهم على ظهور جيادهم، وجماعة كبيرة من المشاة الكرد. وكان البك ممتطياً جواداً عربيًّا كريماً من جياد عرب عنزة ويقال إنه كلّفه ١٣ ألف قرش[١].

---

(١) أخبر الأستاذ يعقوب سركيس، المترجم عن قيمة القرش، قائلاً: «كثيراً ما تغير حجم القرش العثماني ونقله وعياره خلال أكثر من ثلاثة قرون. ويظهر لي استنتاجاً من حسابات لأحد التجار في بغداد في العقد الثالث من القرن التاسع عشر أن هذا القرش =

كانت ملابس القوم كلهم زاهية بهيجة، وقد أثَّر في منظر البك كثيراً، فلم يكن ضخم الجثة بل مربوعاً قوي البنية، وكانت تقاطيع وجهه متناسقة غاية التناسق، ولحيته سوداء مجعدة وعيناه زرقاوين غامقتين، وحاجباه سوداوين وأهدابه سوداء، وسحنته سحنة رجل خفيفة السمرة وردية جميلة نقية. لقد كان بوجه عام شاباً وسيماً جدًّا، ويقال عنه إنه لا يضاهيه من أبناء قومه أحد في الفروسية وفي التمارين العسكرية المفضلة لديهم وهو مشهور أيضاً بشجاعته وكرمه، ومن الناحية الأخرى يقال عنه أيضاً إنه فاسق في أخلاقه مستبد في ميوله إلى حد ما.

لقد بادرني بحديث رقيق غير متكلف ينم عن بعض الإخلاص دون أن يكون أي أثر للخشونة والفظاظة فيه وقد ألفته مهذباً في سلوكه، كما شعرت أنه كان مدرك لميزاته الشخصية. وكان يرتدي أفخر الملابس التي تتفق والذوق الكردي، فرداؤه من القماش الهندي الفاخر المزوق بالأوراد الذهبية، وغطاء رأسه من الشال الكشميري المزين بالأهداب الذهبية أيضاً وقد وضعه وضعاً مرتخياً غريباً، أما رداؤه الخارجي فكان معطفاً أو جبة من القماش القرمزي الفينيسي (البندقي) ذا أزرار ذهب، وكان عمر عثمان بك اثنين وثلاثين سنة، أما عمر أخيه الباشا فخمس وثلاثون سنة. وأمهما أخت خالد باشا وهي كذلك من سلالة عائلة ال(به به) الرئيسة[1].

وكان عثمان بك يميل إلى التكلم عن شؤون البلاد الكردية بحرية جاوزت الحد الذي أردت تشجيعه عليه، وكان من السهل الإدراك أنه لم يكن من الميالين إلى الأتراك. وكان ينظر مراراً عديدة إلى ساعته خلال

= إذا ما قسناه بنقودنا العراقية الحالية يساوي (١١) فلساً باعتبار الدينار ذهباً. فال(١٣) ألف قرش تساوي نحو (١٤٣) ديناراً ذهبيًّا، أو باوناً استرلينيًّا كذلك ذهباً...».

وقد علم المترجم أن التاجر الذي يذكره الأستاذ المحترم هو جده.

(١) هذا اسم عشيرة باشا السليمانية، وقد ورثوا ذلك من جدهم (به به سليمان).

الحديث والظاهر أنه كان حريصاً على عدم فوات الوقت المضروب لركوب الخيل، وعندما أخبروه أخيراً بحلول الوقت نهضنا سوية وتقدمنا حسب الترتيب التالي:

دليل، فبوقي، فحامل الراية[1] ثم ثلاثة خيول مسحوبة يعقبها رئيس سواسي ثم عرفائي أو المشاة العداة وهم مدججون بالسلاح ومن ورائهم جنودي ومعهم طبولهم ومزاميرهم، وأنا من وراء هؤلاء راكب «فينفار» وعلى كل من جانبي الجواد ماسك ركاب مسلح بالطبر والدرع، ثم يأتي المستر (به ل لي نو) والدكتور (موران دو) فعثمان بك على جواده العربي الجميل يعقبه نسق مؤلف من زهاء ثلاثمائة من المشاة الكرد، ويعقب البك وجماعته أعضاء مجلس الباشا ومأمور خزينتي ثم التوابع الراكبون حيث ينتهي الموكب. تقدمنا بنظام حسن جدًّا نحو المدينة إذا جاز لنا تسميتها كذلك، وهي ما كانت تبعد أكثر من ربع ميل، وكان الجمهور المتجمع لمشاهدة الموكب غفيراً، وما كنت أظن أن المدينة تضم ذلك العدد الكبير من الناس، وبالرغم من ذلك ساد النظام التام، وكان ضباط شرطة (داروغا)[2] ينزلون، دون أن أرى لذلك سبباً، الضربات المتوالية على من حولهم بهراواتهم الثقيلة التي يبدو أن الضربة الواحدة منها تكفي لطرح ثور، ومع هذا بدا لي أنني كنت الوحيد المنزعج من هذا الأسلوب في فسح الطريق، أما الكرد الذين كانت تنزل بهم الضربات المتلاحقة فكانوا يتلقونها على رؤوسهم ومناكبهم بأقل اكتراث كأنها نازلة على سندان. وهكذا وصلنا القصر وكان مدخله واطئاً حقيراً ضيقاً وسخاً إلى درجة أظن أنها لا تليق بمسكن حاكم بل بمسكن

---

(١) لقد حمل راية الصليب تركي، وعزف بوقي إيراني موسيقى المسير الإنكليزية، وما كان العزف رديئاً. (ويعني براية الصليب الراية البريطانية ـ المترجم).

(٢) رئيس الشرطة. (كلمة جغتائية يعبر بها عن منصب هو المشرف الإداري أو الجابي ـ المترجم).

رجل من عامة الناس، ولكنني علمت أن لهذه الحالة منافعها في مثل هذه الديار إذ إنها تجعل الدفاع عن كرسي الحكومة في الطوارىء ممكناً. والمدخل لا ينتهي إلى واجهة القصر بل ينعطف إلى جانبه[1] وهنا اضطررت إلى الترجل إذ استحال عليّ التقدم بعد ذلك راكباً. ثم ارتقينا درجات سلم جميل يؤدي إلى بهو الاستقبال الذي لو عمر لكان غرفة فاخرة حقًّا وكانت واجهة البهو مكشوفة تستند على أعمدة[2].

استقبلني الباشا عند الباب وأخذني إلى كرسي في صدر الغرفة وقعد كل من المستر (به ل لي نو) والدكتور على كرسيين أيضاً دون الصدر بقليل، وجلس أعضاء المجلس يرأسهم عثمان بك على (نيم مد) عريض[3] أو سجادة شعر ثخينة في الجانب المقابل، واختلط أفراد حاشيتي برجال الباشا الذين جلسوا في صفين على محاذاة جدران الغرفة وقد وقف في وسطها الـ(أيشيق باشي) رئيس التشريفات وبيده عصا منصبه، وملأ الممرات وردهة الدار تحت الغرفة جمع من الكرد مرتدين خير الثياب. وبعد تبادل الكلمات الترحيبية لاحظ الباشا أنني أعجبت بالغرفة فقال: «إن والده المرحوم هو الذي بناها وإنها تحتاج إلى الترميم» ثم أردف قائلاً: «ومن الذي يرمم شيئاً وهو غير متأكد من استمتاعه به؟

---

(١) وهنالك مدخل جيد آخر (وإن كان حقيراً أيضاً) في واجهة القصر كانوا يرممونه آنذاك.

(٢) تسمى مثل هذه الحجر بـ(تالار). انتهى ـ (وقد عرفت في اللُّغة البغدادية بـ(طرار) ـ المترجم).

(٣) كلمة فارسية معناها نصف مدة. ويصطلح عليها في القسم الجنوبي من العراق بالمدة وجمعها مدات وقد يعبر عنها بكلمة (يان) التركية ـ الجانب ـ في بعض الأحيان. (المترجم) وقد جاء في حاشية من الكتاب ما يلي: شقات ضيقة من اللباد الثخين الناعم المزين بألوان عديدة جميلة، تفرش حول الغرفة في إيران وكردستان وتقوم مقام الأرائك والكراسي.

وقد يقوضه الأتراك أو الإيرانيون بعد أيام معدودات» وأخبرني بأن الفضل في علو موقع القصر يعود إلى تشييده فوق رابية اصطناعية من الآثار القديمة جدًا[1] وكانت المناظر التي يشرف عليها القصر بهيجة تشرح الصدر. لقد حاولت تجنب الكلام في السياسة وحمل الباشا على البحث في اقتصاديات بلاده وعادياتها، فأصبت الهدف بادىء الأمر إصابة موفقة. وقلت له بأنني سمعت أن والي (سنه) من عائلة كورانية (٨) وأن الكورانيين لم يكونوا موضع احترام كأفراد قبائل، فسرت بين الحاضرين فوراً دمدمة استحسان عمت الغرفة. وهنا تبين لي أنني نلت تقدير الكرد العشائريين، فهب الباشا بحيوية أوفر من المعتاد وطفق يذكر تاريخ عائلته فقال في بادىء الأمر إن عائلة والي (سنه) عائلة عريقة جدًا ولكن الكورانيين ليسوا من العشائر، ثم أخذ يمتدح نفسه ذاكراً أنه سليل عائلة عريقة وعشيرة كريمة، وأردف قائلاً إن اسم عشيرته في الأصل هو (كرمانج) أما كلمة (به به) فهي لقب عائلته التي يؤلف أعضاؤها رؤساء العشيرة الذين يتولون الرئاسة بالوراثة، ولذلك تسمى الآن جميع المنطقة التي يقطنونها وسكانها معاً بحكومة البه به أو بالحكومة البابانية. وقد تكونت العشيرة في الأصل في (بيشدر) في الجبال الشمالية بالقرب من (سي كه نه) على الحدود الإيرانية. وقال أيضاً إن أحد أجداده قام بخدمة جليلة لأحد السلاطين العثمانيين في حربه مع الإيرانيين فجوزي على ذلك بتوليته على كل منطقة يتمكن من إخضاعها، وهكذا استحوذ مع الزمن هو وبعض من خلفه من الرؤساء على المناطق التي يشغلونها الآن وغيرها من المناطق التي استرجعت من الإيرانيين منذ ذلك الحين. وانضوت كل هذه المناطق تحت لواء البابان أو البه به وعهد أمرها إلى باشوية (شهرزور) التي كانت كركوك عاصمتها. ولم يتمكن الباشا من ذكر أي

---

(١) وقد تكون هذه الرابية من نوع الطنوف التي ذكرتها في بحوث (جمجمال) و(ده ركه زين) و(طاس لوجه).

من التواريخ لي، وكان كل ما يعرفه هو أن أجداده كانوا أرباب اللواء لزمن طويل ثم خصصت إليهم باشوية منطقتين قبل مدة تقل عن القرن. وقد أخبرني أنه من السهل تمييز الكورانيين من سيمائهم ومن لهجتهم الكردية. لقد تحدثنا كثيراً في مثل هذه المواضيع وتفارقنا ونحن صديقان حميمان، وبدا لي أن أبناء عم الباشا كلهم، أي أبناء عشيرته صاروا ينظرون إلي بعين الرضا.

وعند مغادرتي القصر وجدت جواداً جميلاً عليه عدة مزركشة جيدة مهيَّأً كهدية لي لم أستطع إلا قبولها، فقيد أمامي. والآن ذهبنا لمعاينة الدار التي هُيِّئت لسكناي وهي قريبة من القصر وقد وجدناها داراً تكتئب لها النفس، وهي وإن كانت فسيحة إلا أنها خربة قذرة. وكانت على حالها تلك مسكن أحد رجال أو ضباط الباشا، وقد أخرج منها لنقطنها، وكان نفوري منها وعزوفي عن السكنى فيها ظاهرين علي كما أعتقد. وبعد أن دار بعض الهمس بين الكرد وبين حاشيتي أوفد الباشا رئيس وزرائه راجياً أن أسمح لمأمور خزينتي بالذهاب مع أحد رجاله لاختيار أية دار في المدينة ليفرغها لي صاحبها فوراً فأشغلها بيد أنني لم أستسغ هذه الفكرة علاوة على عدم رغبتي في إزعاج الغير إزعاجاً آخر. هذا ومن رأيي أن الفرق بين المساكن في المدينة لا بد أن يكون ضئيلاً على كل حال، ولا بد من أن الباشا قد بذل كل ما في وسعه في بادىء الأمر لتأمين راحتنا قدر المستطاع فقررت الانصياع إلى الواقع وإشغال الدار المخصصة لنا، وشعرت فوراً بأن قراري هذا قوبل بارتياح عام. وعلى ذلك أرسلت ميناس ليستصحب زوجتي إلى المدينة إذ إن الكرد لا يستحسنون مطلقاً رجوعي إلى مضربي اليوم، وكان من السهل إدراك رأيهم الخرافي في النحس الذي قد يصيب أمورهم فيما إذا تركت المدينة، ولذلك وحتى قدوم قرينتي قضيت من الوقت مدة ساعتين أو ثلاث ساعات في التمشي مكتئباً متكاسلاً الأمر الذي زاد في الصداع العصبي الذي شعرت بنذيره منذ الصباح.

وأرى أن وصف هذه الدار مما يساعد على معرفة غيرها من الدور الجيدة في السليمانية، فهي بناء مربع ذو طابق واحد مبني على دكة مشيدة من اللبن - الطابوق المجفف بحرارة الشمس - ارتفاعها ثلاثة أقدام تقريباً مملوطة جدرانها بالطين الممزوج بالتبن. وقد طليت جدران غرفة واحدة أو غرفتين منها بالنورة فوق طبقة الطين، وسقفها مسطح مؤلف من جسور وعوارض تعلوها طبقة من التراب. والبناء كله قائم في وسط حريم واسع أو كما يعبَّر عنه في الهند في وسط محيط، وينقسم هذا الحريم إلى فناءين بجدار يتصل بجانبي البناء بالقرب من منتصفه جاعلاً القسم الأمامي منه حريماً والقسم الخلفي منه حريماً آخر وهكذا يتفرع إلى فرعي الحرم[١] والديوان (ديوانخانة)[٢]، وليس ثمة باب يصل بين الفناءين من داخل بناية الدار ذاتها كما هي الحالة في جميع البيوت التركية، بل يجب أن ندخل من باب في الجدار الذي يقسم الحريم إلى فناءين، وذلك مما لا يرتاح له المرء في الحالات الجوية الرديئة بوجه خاص. كانت ساحة كل من الفناءين معشوشبة وقد غرزت فيهما أشجار الصفصاف والحور والتوت وأنجم الأزهار في أخاديد ولوحات صغيرة. ويجري في أفنية بيوت السليمانية جدول ماء صغير يسيل من الجبال في الكهاريز. والظاهر أن تقسيم الغرف لا يستند على تصميم، وعلى كل حال لم أتمكن شخصيًا من الوقوف على أي نظام أو طراز في بناء الدور ما عدا وجود طرار في فرعي الحرم والديوان. والطرارات غرف مكشوفة أمامية مخصصة لاستقبال الزائرين وللنوم في الصيف فيها بوجه عام، ولا ينام أحد فوق السطوح إلا الفقراء الذين لا طرارات في بيوتهم. هذا وفي أيام الحر الشديد التي لا تستمر إلا مدة شهر واحد، يستعمل البعض دكات أو مصطبات واطئة لذلك الغرض، وفي الصيف يشيد الكثيرون

(١) مقصورة النساء من البيت.

(٢) قسم من البيت يستقبل به رب الدار ضيوفه ويسكنه الرجال من الخدم.

سرادق من القش ـ جارداق ـ أو من الأغصان فوق حوض صغير في ساحة الدار، أو ينصبون خيمة تخلصاً من البراغيث وهي من المزعجات الفظيعة في جميع أنحاء الشرق، ويقال إنها لا تطاق في هذه الربوع خاصة.

وهناك في الديوان ردهة أو بهو واسع خال يستند على أعمدة يكاد أن يكون مظلماً، ويقال عنه إنّه ملجأ بارد في الصيف، لكنه لا بد أن يكون بؤرة تعج بالبراغيث. وهنالك بلية أعظم هي بلية العقارب التي يقال إنها كثيرة وكبيرة وسامة، وتوجد هنا أيضاً أمهات الأربع والأربعين، إلا أنني أعتقد أنها لا تثير الكثير من الرعب في القلوب، وكذلك الأفاعي وهي كبيرة وعديدة ويقال عنها إنها سامة أيضاً.

أما غرف الدار الشتوية فيدخل إليها من مجازات طويلة معتمة ومنظرها مما لا يثير الرغبة في مشاهدتها من قريب. وفي الحقيقة إنني كنت أتجنب البقاء في داخل الدار وأفضل أن أكون خارجها على قدر المستطاع.

أما البيوت الاعتيادية الأخرى فهي زرائب من الطين، ويظهر أن المكان بكامله يحاكي قرية عربية كبيرة، وهي مكشوفة تماماً، ويلوح أن الناس لا يهتمون لذلك إذ وجدنا النساء يخرجن مع الرجال سوية لإنجاز واجباتهن البيتية دون أن يتحجبن. ومع ذلك تحتوي هذه المدينة الحقيرة المظهر على خمسة خانات وجامعين معمورين وحمام واحد جد أنيق. وقد قدر خير المقدرين من الكرد نفوس السليمانية بعشرة آلاف نسمة بما فيهم موظفو الحكومة وتوابع الأمراء، أما المواطنون الاعتياديون فهم من القرويين المزارعين.

وحالما وصلت الأمتعة نصبت خيمة بعمودين فجعلتها ديواناً أو غرفة استقبال، وبعد أن زوقتها بأسلحتي وفرشتها بسجادة جميلة ومدات تلطف الباشا فأرسلها إلي، أصبحت غرفة استقبال غربية لا يزدرى بمظهرها، ومما لا شك فيه أنها أصبحت أبهج وأحسن من أي غرفة في

المدينة. ونصب السباهيون ـ الجنود الهنود ـ خيامهم في ساحة الدار كذلك وحذا حذوهم البعض من جماعتي من الذين لم ترق لهم حالة ملاجئهم.

ولم تصب استعداداتنا في الحرم في الليلة الأولى النجاح المطلوب، وقد جربنا أحسن الغرف تهوية ولكن مما يؤسف له أن الحر والروائح الخانقة وأسراب البرغش أبانت سخف مساعينا فسحبنا سررنا إلى «الطرار» وخبنا هنا أيضاً فبقينا مسهدين حتى الفجر من جراء هذه المزعجات الكردية. ولو تمكنت من الرقاد بضع ساعات لكان ذلك من النعم الكبرى علي، وأنا على ما عليه من الإرهاق العصبي.

درجة الحرارة في الخامسة قبل الظهر ٦٢د، وفي الثالثة والنصف بعد الظهر ٧٥د، وفي العاشرة بعد الظهر ٦٨د، هبات ريح جنوبية، يوم مزعج ومطر قليل.

١١ أيار:

زارني الكثير من السادة الكرد، واقتطفت منهم شتى المعلومات عن بلادهم. لقد طلب أمان الله خان والي (سنه) ذات مرة من عبد الرحمن، باشا السليمانية أن يخبره عن الدواعي التي تمنع خدمه من مرافقته إلى منفاه بالرغم من معاملته إياهم معاملة حسنة، وعدم إظهارهم تعلقهم به في أوقات المحن والحرمان كما أظهر ذلك الكرد البابانيون حيال أمرائهم على الدوام. وكان جواب عبد الرحمن باشا الكبير على ذلك جواباً فذّاً في بابه إذ قال «إنك لست رئيس عشيرة وليس رجالك رجال عشيرتك، وقد تلبسهم وتطعمهم وتغنيهم إلا أنهم ليسوا أبناء عمومتك، بل هم خدم ليس إلا».

وفي الواقع إن تعلق الكرد برؤسائهم شديد جدًّا، فهم يعيشون في بغداد مع أسيادهم في حالة نفي منكرة يكافحون فيها شظف العيش وكل

أنواع المحن والعوز دون أن ينبسوا ببنت شفة، وقد ترى في بغداد سادة في أسمال بالية يملك كل منهم في بلاده جواداً مرختاً وخادماً ولكن المعروف عنهم أنهم غالباً ما يتكسبون المال من الحمالة والسقاية ليقدموه إلى أسيادهم ليعينوهم على العيش. فعند موت شقيق عبد الرحمن باشا في بغداد كان أحد الكرد من أتباعه واقفاً في شرفة الدار أو على سطحه، وفي الدقيقة التي أسلم فيها سيده النفس الأخير صاح قائلاً «ماذا؟ أمات البك؟ إذن يجب أن لا أعيش لحظة واحدة من بعده» ثم قذف بنفسه من أعلى الدار ومات مهشَّماً. وكثيراً ما رويت لي هذه القصة في بغداد، ومع هذا فالنفي في بغداد أمر يخشاه الكرد كل الخشية، إلى درجة أن تعلقهم الشديد برؤسائهم ذاته لا يدرء عنهم أهوال ذلك النفي دوماً؛ فإنهم يتحملون الفقر والعوز دون تأفف إلا أن قفار البلاد العربية المحرقة فظيعة حقًّا لا يطيقون العيش فيها على ما يدعون. وعندما بلغ بسليمان باشا الكردي الغباء حد السماح لنفسه أن تجذبه بغداد إليها مرة أخرى بعد أن جرب مراراً غش باشا بغداد وخيانته له تقدم إليه أحد البكزادات أو أحد السادة البارزين المتقدمين فخاطبه قائلاً: إنهم على أهبة الاستعداد للقيام بأي أمر من أجله إلاّ تحمل أهوال النفي في بغداد مدة طويلة، وإنهم يرغبون في أن يسمح لهم بالنزوح مع أمراء العائلة الآخرين سعياً وراء نصيبهم من الرزق في كردستان. وعندما يتولى الرؤساء الحكم يشرعون بتوزيع أخصب الأراضي على أولئك الأتباع المخلصين، علاوة على إهدائهم لهم الخيل والسلاح باستمرار. لقد أخبرني خالد باشا بأنه عندما أقصي من حكم كوى سنجاق جاءه رجاله بمعدات خيلهم وسروجها وشفوفها الفضية فألقوها بين يديه قائلين له: إنّه سينزح إلى بغداد منفيًّا، وإنهم سيلتحقون به هناك حيث لا حاجة بهم إلى مثل تلك الكماليات، واستعطفوه ليجعل من الفضة مالاً يستعين به.

لقد تأكد لي من خير المصادر الموثوق بها ما كنت أتوقعه منذ زمن

بعيد من أن القرويين في كردستان يؤلفون جماعة تختلف الاختلاف الكلي عن رجال العشائر، وهم نادراً ما يفلحون الأرض أو أنهم لا يفلحونها البتة، ومن الجهة الأخرى فإنهم لم يكونوا جنوداً، ويسمي الكرد العشائريون أنفسهم بالـ(سباه) أو الكرد المحاربين تمييزاً لأنفسهم من الكرد القرويين. أما القرويون فلا اسم مميز آخر لهم في هذه الأصقاع من كردستان غير (رعية) أو (كويلي). ولقد اعترف لي أحد أبناء العشائر ذات مرة قائلاً: إن العشائر ينظرون إلى القرويين على أنهم خلقوا لخدمتهم. وإن حالة هؤلاء الفلاحين الكرد تعسة حقًّا تشابه حالة الرقيق الأسود في الهند الغربية إلى حد كبير، والأنكى من ذلك أنني لم أجد في الإمكان حمل هؤلاء الأسياد الكرد على الخجل من قسوتهم على أتباعهم المساكين[١] والكل يتفق على أن الفلاح يتميز بسهولة من ابن العشيرة القح في الملامح والكلام؛ وليس له أن يظهر نفسه كالنبلاء من أبناء وطنه.

---

(١) إن ما التفت إليه المؤلف من وجود مميزات هامة ما بين العشائر الكردية والقرويين الكرد كان في محله، لأن المعروف عامة أن العشائر الكردية إن هي إلا وحدات اجتماعية أو رمز خلص من الأقوام (الأيندوآرية) التي نزحت إلى منطقة كردستان إبان عهد الهجرة الكبرى أي قبل ميلاد المسيح بنحو ألف وخمسمائة عام. أما القرويون فالمفهوم أنهم بقايا سكان المنطقة الأصليين يمت أصلهم بأقوام (زغروس) ولكنهم اندمجوا مع مرور الزمن بالعشائر النازحة مع احتفاظ كل من الوحدتين ببعض سجاياها ومميزاتها وإن كانت تلك الميزات أخذت تتلاشى. وهنالك تعبيران يطلقان على القرويين وما زالا مستعملين حتى الآن تمييزاً لهم عن زمرة العشائر. وهما «ديكاني» أي أهل القرى والثاني «مسكين ـ Misken» أي الفلاح، وفي التعبير الثاني شيء من الازدراء.

وهناك حقوق يتمتع بها رؤساء العشائر على القرويين والفلاحين تجعلهم في الحقيقة (مساكين) بالمفهوم المتعارف به. راجع الملحوظة (٩) للوقوف على بعض الحقوق التي كانت لرؤساء عشائر (بيشدر) والمسماة بالـ(آغايتي) أي حقوق الأغاوية.

قال لي محمود آغا «إن الأتراك يسموننا كلنا كرداً، وهم لا يدركون الفروق بيننا، فإننا أناس نختلف الاختلاف الكلي عن القرويين، وعند هؤلاء البلادة التي يسر الأتراك أن يلصقوها بنا»[1]. والمقصود من المعاملة التي يعامل بها القروي هو تبليده، ولكن الاستبداد مما يحط من منزلة السيد والعبد ويبلدهما على حد سواء؛ وعلى هذا الأساس ما كان يستغرب أن يغدو كل من الكردي العشائري والكردي القروي بليداً لا إحساس له.

وفي خلال محادثة تتعلق بالعوائل الكردية البارزة قال أحد الحاضرين «أليس من العار أن يرضى أمراؤنا بالذهاب إلى بغداد حيث يكرهون على الإذعان إلى تركي ابتيع قبل مدة كما تبتاع الأنعام ببضع مئات من القروش، وهو أن انفعل خاطب أيامنا بقوله ـ «أيها الكردي الحمار» ثم انبرى آخر من الحضور قائلاً «إن في تحاسد أمرائنا دمارهم، فليس للأتراك ولا للإيرانيين حول في إيذائنا إلا باستغلالهم انشقاقنا والمنافسة العائلية القائمة بين رؤسائنا. إننا نعلم هذا، وبالرغم من ذلك ينجح الأتراك على الدوام بطريقة أو بأخرى في التغلب علينا، ولا ريب في أننا كرد ذوو عقول متبلدة». وعند ذكر الحالة القذرة للدار المتهدمة التي أسكنها قال الرجل ذاته «هذا هو الحق، ولكن لم نشيد البيوت العامرة أو نرممها ونديمها ونحن غير موقنين من أننا سننعم بها في أيام حياتنا بله أبناؤنا؛ يذهب باشا ويخلفه آخر من العائلة ذاتها[2] فيأتي بأصدقائه والمقربين إليه فيطردوننا من بيوتنا ومقاطعاتنا. إن سر خراب هذه البلاد هو انعدام ما تتطلبه من استقرار ومن دوام حكامها؛ فمهما كانت ميول الأمير فمن الخير أن يتمسك بها طيلة الحياة».

---

(١) يشير بذلك إلى قول دارج بين الأتراك «أحمق كالكردي».

(٢) وجدير بالذكر هنا القول بأن باشوات السليمانية كلهم يجب أن يكونوا من البيت الباباني.

وبعد الظهر جاءني محمود مصرف ليسليني بمشاهدة عراك الحجل، وهذه مسلاة مفضلة لدى الكرد. وعندما علم مصرف وهو رياضي مشهور بأنني لم أشاهد قبلاً معركة حجل سر كثيراً للفرصة التي أتيحت له ليريني مجموعة حجل العراك التي يقتنيها، وهي مجموعة فاخرة جدًا. جاء مصرف يتقدم القوم ومعه أربعة من أولاده وكلهم فتيان رشيقون طويلو القامة، وكان لمنظر صاحبنا هيبة بين أولاده. ولقد انشرح صدره كثيراً عندما أبديت له رأيي هذا في أولاده فقال: «أجل لدي يا سيدي ثلاثة أو أربعة أبناء آخرين في الدار وسيكون لهم شرف لثم يدك في يوم من الأيام» وقد أخذني العجب عند ملاحظتي حرية هؤلاء الشبان غير الشرقية في حضرة والدهم، فلم يكن ثمة تكلف في تصرفهم، وأخذ كل منهم يدخن غليونه. إن ما خبرته إلى الآن من عادات الأتراك والعرب ما كان ليجعلني أتوقع منهم حتى الجلوس في حضور أبيهم. وبعد أن أديرت كؤوس القهوة، ودخنت الغلايين أعلن تقدم «الجيش» ـ كما اصطلح صاحبنا على تسميته ـ بكتكتة الحجل التي كانت تسمع من مسافة بعيدة، وتقدمت بعد برهة جماعة من الكرد الأقوياء تحمل على أكتافها اثنين وثلاثين قفصاً في كل قفص حجل فحل، وقد أثارت كتكتة هذه الطيور الإجماعية المتواصلة ضجة غريبة أشبه بأصوات دقات ألف ساعة جسيمة، ولم يخلدوا إلى الصمت لحظة إلا عند العراك، وأعقب الأقفاص جماعة من المتهوسين وكلهم شوق لمشاهدة المنظر. ولو لم أوعز بغلق الأبواب لأوفر الأذى على من لا يقف عند حده إلا بضربه بالهراوات والعصي، ولاندفع إلى داخل الدار كثير غيرهم، ثم صفت الأقفاص على شكل دائرة، ووقف المشاهدون من ورائها وأنا ومصرف وأولاده نتمم المحيط عند الخيمة. وكان المنظر جديراً بالرسم إلا أن ذلك كان مستحيلاً علي، إن لم أره عدة مرات لتتكون عندي فكرة لوضع خطوط الرسم الأساسية.

فتح أحد المعاونين باب أحد الأقفاص وأطلق أحد الطيور فانتفض

هذا في الهواء كالمتحدي، ثم شرع يتبختر في انتظار غريمه. وبعد أن أفرج عن الطير الثاني بدأ العراك، وكان المنظر مؤنساً، لم يكن فيه أي قسوة مطلقاً. وكان من المبهج جدًّا رؤية هذه الطيور الصغيرة تتبختر على رؤوس أصابعها متحدية، تقفز وتنقر بعضها البعض، وتتحايل لتنال ممسكاً ملائماً، وتتحاذر الوقوع بما لا تريد. وقد لاحظت أن البراعة كلها كانت في نوال الغريم من قفا رقبته، فإذا ما نال الطير غريمه على ذلك النحو تمسك به كالكلب الأفطس «بوول دوك»، وقد يدور به أحياناً مرتين أو ثلاث مرات حول الدائرة، وقد يرتاع أحد الغريمين أحياناً فيهرب خارج ساحة العراك، وعندئذٍ ترجح الكفة وينتهي النضال بينهما حقًّا، أما الطير المغلوب فلا يعود ميالاً إلى عراك آخر قبل مضي شهرين أو ثلاثة أشهر. ولكل طير من الطيور اسمه، أما أجنحتها فلا تقص. وهذه الطيور مروضة إلى حد لا تمانع في مسكها، وإذا ما انتهى العراك تراها ترجع إلى أقفاصها من تلقاء نفسها، وهي لا تتناقر مطلقاً ولا تهجم إلا للسعي وراء مسك الغريم. وكان الكرد يشاهدن العراك بشوق عظيم. وبعد أن انتهت هذه البدعة بدا لي أنها لم تكن إلا مسلاة أو ملهاة صبيانية. إن الكرد قوم رياضيون متحمسون لسباق الخيل، وعراك الحجل والكباش والكلاب. وقد سمح (محمد) كعربي صميم بالمراهنة على سباق الخيل، ولكن الكرد استغلوا هذا السماح استغلالاً بعيداً عن حدوده فأجازوا الرهان في عراك حجلهم وكلابهم.

وبعد انتهاء العرض، جاءني ضابطان أخبراني بأن داروغا أمرهما أن يترأسا دورية من خمسة عشر جنديًّا لتدور خارج نطاق الدار طيلة اللَّيل. ولتمكين الدورية من اجتياز جماعات حرسي تعلم أفرادها عبارتي «من المتقدم؟» «وصديق» الإنكليزيتين، إنه لأمرٍ غريب أن نسمع الكرد في السليمانية يحاولون تلفظ تلك الكلمات باللُّغة الإنكليزية، وقد تعلموها من الجنود الهنود المسلمين ومن رعايا بريطانيا العظمى الذين أخبروني

بأن هؤلاء قد تعلموا الغرض من «سر اللّيل» أيضاً بعد أن عرفوا معناه في إيران.

أسست الدورية موضعها، دون مراسم فوق إحدى الدور المجاورة، وأخذ أفرادها يسيرون على سطوح البيوت ويتجولون بين العوائل القاطنة فيها كلّما حلا لهم ذلك. ولقد كان الاعتراض على مثل هذا الظلم الشنيع مما لا يجدي نفعاً، كما لا يدرك الظالم ولا المظلوم بواعث ذلك الاعتداء. ترى ألهذا الدرك المنحط يذل الإنسان بتمادي تعرضه إلى الظلم الجائر؟. لقد حدث أن سأل آغا ميناس أحد ضباط الشرطة الخفر في إمكان الحصول على سرير ما، فكان الجواب إيجابيًّا، وبكل بساطة ذهب الضابط إلى أول خان قريب منه واستحوذ على ثلاثة أسرّة تعود إلى بعض التجار البغداديين من نزلاء ذلك الخان، وأتى بها إلى الدار منتصراً، ولا حاجة بنا أن نقول: إن الأسرة أرجعت إلى أصحابها حالاً.

درجة الحرارة في الخامسة ق.ظ. ٦٦د، وفي الثانية والنصف ب.ظ. (٧٠)د، وفي العاشرة ب.ظ. ٦٨د، الريح جنوبية شرقية، بعض زخات من المطر مع قليل من البرق والرعد.

١٢ أيار:

ذهبت صباح اليوم إلى الحمام فألفيته جميلاً جدًّا. وكانت إضاءته جيدة، والخدمة فيه حسنة أيضاً، كما وجدته أرقى من أي حمام آخر شاهدته حتى الآن في أي قسم من أنحاء المملكة التركية عدا حمامات الشام واستانبول والقاهرة، بل ويمتاز عليها في بعض النواحي. وقد ملطت جدرانه بملاط خافقي وصبغ على الطراز العربي، وزوق بالأحواض ذات النافورات. وشيده الباشا الحالي على نفقته، مستخدماً معمارين إيرانيين جلبهم خصّيصاً لذلك، ويقال إنه قلد في تشييده حمام

(كرمنشاه) الحديث، كما بنى حماماً آخر على النمط ذاته في حرمه. والمسلم ينفق المال بسخاء على الحمام، إذ يعد ذلك نوعاً من التقوى، حتى أن الجيوش المتخاصمة لا تفكر مطلقاً في إيقاع الضرر به، هذا ويمكن حماية ذلك الملك بوقفه[1].

لقد وجدنا درجة الحرارة في السليمانية ملائمة، فقد كانت في السادسة ق.ظ. ٦٦د، وفي الثانية والنصف ب.ظ. ٧٨د، وفي العاشرة ب.ظ. ٦٩د، هبات ريح من الغرب، رعد وزخات مطر، ثم مطر شديد وبرق ساطع في اللّيل.

١٣ أيار:

ذهبت لزيارة صديقي القديم عبد الله باشا، وخلت أنه قد استعاد صحته قليلاً، ولكنه لا يزال واهناً غاية الوهن. وقد تكلم عن ذكريات بغداد دون شعور بالسرور. وعلى أثر ذكر اسم قريبه خالد باشا قال: «إنه قضى الزمن الطويل وهو لا يزال في بغداد فأضاع كل خصاله العشائرية، ولقد أصبح كالتاجر لا أقل ولا أكثر». لم يكن عبد الله باشا ممن يمتاز بالحرص على تقصي الأخبار، ولكنه وجه إلى هذا اليوم وللمرة الأولى الأسئلة العديدة مبتدئاً بالـ«جين ماجين» على حد تعبير المسلمين عن الصين، واستمر إلى أن أتى على ذكر موقف الدول الأوروبية وقوة كل منها. وكان من الواضح أنه لا بد وإن جرت بعض المداولات في تلك المواضيع بين أفراد العائلة البابانية، وأن صديقي أراد أن يهيّئ نفسه للمناقشة الثانية.

وبعد رجوعي إلى الدار وقبل دخولي الحرم، استقبلت بعض

---

(١) الوقف حبس الملك الأغراض الدينية والخيرية، وفي هذه الحالة يكون الوقف صوريًا.

الأصدقاء الكرد. قال محمد آغا: «إن افتقارنا للأمن في ممتلكاتنا هو أصل دمار المملكة، ونحن أبناء العشائر إذا لم نتأكد من تملكنا مقاطعاتنا، لا نكرس أنفسنا مطلقاً إلى الزراعة، ولا يكون للمملكة نصيب من الازدهار. ومثال ذلك لم أبذر طغاراً من البذور وأنا غير متأكد من أن رئيسي سيبقى في سدّة الحكم، وأني مالك مقاطعتي حتى موسم الحصاد على الأقل؟ فبدلاً من أن أفعل ذلك أسمح للقرويين أن يفلحوا مقاطعتي كما يروق لهم فاستوفي منهم حصتي وهي «الزكاة»، أو العشر علاوة على ما أتمكن من الحصول عليه منهم بأي وسيلة وأي حجة كانت...».

كان عبد الرحمن باشا يصبو في وقت ما إلى أن يجعل جراية بلاده إلى الباب العالي، على أن يكون مستقلاً عن أي باشا مجاور، وكان راغباً في أن يدفع إلى العاصمة نقداً وبصورة منتظمة أي جراية سنوية قد يطلبها الباب العالي، على أن يتبع أوامر السلطان دون غيره، وأن لا يكون عرضة للعزل أو الإقصاء أو التدخل بالشؤون الداخلية لمنطقته إلا في حالة العصيان؛ ولكن هذه أمور لم يتمكن الباشا من القيام بها قط. فعند عصيان سليمان الصغير، باشا بغداد، على الباب العالي عرض رئيس أفندي المرسل من استانبول لإقصائه، على عبد الرحمن باشا حكم بغداد ولكن الرجل رفض شرف توليه المنصب بإباء رفض الرشيد الحكيم قائلاً: «حقًّا إنني بذلك، سأصبح وزيراً من الدرجة الأولى، غير أن جرعة واحدة من ماء ثلوج جبال بلادي تساوي في قيمتها عندي رتب الإمبراطورية بكاملها. هذا وبانتقالي إلى بغداد سيزداد نصيبي من نِعَم الحياة، ولكنها ستؤدي أخيراً إلى دمار العائلة البابانية».

وذهبت بعد الظهر لزيارة عثمان بك، وكانت هيئة خدمه ممتازة حقًّا. وكانت داره كدارنا إلا أنها أفضل ترتيباً ومشيدة فوق سهوة أعلى نسبيًّا. وما كان عثمان بك ليقل منزلة بتوالي المقابلات، وقد وجدته رجلاً طيب المعشر إلى حد بعيد. لقد سألني أسئلة معقولة، كما أجاب

على أسئلتي أجوبة تنم عن ذكاء جم، وقد اعتذر عن رغبته في الاستطلاع بقوله: «وقد أكون فظاً، ولكن تذكر ما يشعر به الكردي من غرابة في التحدث مع أحد الانكليز، ومن رغبة لا بد أن تجيش في صدره لاستغلال ذلك الحديث ومعرفة الأمور التي لا يمكن له الوقوف عليها بطريقة أخرى تلك الأمور التي لا بد أن تعود عليه بالنفع». وكنت أود أن يستمر في السؤال، وأكدت له بأنني سأكون مثله في حرية الإجابة. لقد كان كثير السؤال عن إنكلترا وفرنسا وروسيا وعن حكومتنا ومراسيم بلاطنا، وعن تشكيلات وأسس جيشنا الذي وجه الأسئلة الفضولية العديدة عنه، الأمر الذي يدل على اهتمامه في الموضوع وإدراكه له. وكان على نقيض الأتراك لا يعلق أهمية بالغة على شؤون السلطان واستانبول والأتراك. وقد سألني عن تفاصيل معركة (واترلو) التي يحتمل أنه سمع عنها من الإيرانيين دون أن يتذكر اسمها. وقد سمع عن (بونابارت) أو «الإمبراطور» كما نعته، ثم أتى على ذكر الصين ووجه تقريباً ذات الأسئلة التي وجهها عبد الله باشا إلي صباح اليوم، الأمر الذي أكد ظني بأن الموضوع لا بد وأن جرى بحثه بينهم. وسألني خصيصاً عما إذا يسمح للأجانب بزيارة حاضرة الصين، وقد بدا أدنى إلى الاستغراب عندما أخبرته بأن سفيراً من بلاطنا كان في الصين أخيراً. وبناءً على اقتراح أبداه له أحد الحاضرين انتقل في بحثه بحذر ظاهر إلى الهند البريطانية مبتدئاً بملحوظة مفادها أن من الطبيعي أن يكون الملك الذي له جيش قوي كجيشنا الرغبة في استخدامه، وأنه لم يستغرب كوننا ننشد على الدوام فرص الفتوحات. لقد أدركت ما كان يود التوصل إليه فقلت له: «إن جيشنا العظيم لم يؤلف برغبة من الملك، وهو لم يكن إلا على قوة كافية للدفاع عنا، ومن الضروري أن ننشيء جيشاً كبيراً إذا أنشأت الدول الأخرى جيوشاً كبيرة، وإننا لا نرغب في التدخل بشؤون الغير كما أننا لا نسمح لأحد أن يتدخل بشؤوننا، وإن لنا في الوقت الحاضر ممتلكات

تزيد فعلاً عن مقتضيات رفاهيتنا، وإننا نحتفظ ببعضها لأننا لا نستطيع التخلي عنها دون وقوعها تحت سيطرة الآخرين فيستغلونها لما فيه ضررنا». وعلى ذلك قال لي: «إذا كان الأمر على ما تقول، فكيف إذن تتوسعون في فتوحاتكم سنة بعد أخرى في هندستان؟» ثم أردف قائلاً: «وأرجو أن لا تأخذ سؤالي هذا مأخذ سوء». فأجبته: «إن فتوحاتنا في الهند إنما ترجع إلى ذات المبدأ الذي ذكرته الآن، وإننا لم نكن أول الأوروبيين الذين فتحوا بعض أصقاع الهند، فبعض هذه الأصقاع التي نحتلها الآن انتزعناها من هؤلاء الأوروبيين نتيجة لتغلبنا عليهم في حروبنا معهم في أوروبا، والبعض الآخر سلم إلينا من قبلهم، كما اشترينا بعض الأقسام، وظفرنا بأقسام أخرى بمعاهدات عقدناها مع أهل البلاد لقاء خدماتنا لهم أو لمنافع وفوائد أخرى. وهكذا تكونت إمبراطورية عظمى من نواة صغيرة، إمبراطورية تتاخم أقاليم الكثير من الأمراء الأقوياء، ولقد استفاد البعض من هؤلاء منا وكانوا أصدقاء لنا، أما البعض الآخر فيغار من قوتنا ويحسدنا على نعمنا وهم لم يكونوا على ثقافة تؤهلهم على نوالها. وإذا تجاور الناس لا بد من تصادم المنافع بينهم في الغالب، ولا بد من تعرضهم إلى أسباب النزاع، ومع أن الإنكليز مسالمون بالطبع حيال من هم على غرارهم فإنهم ليسوا شعباً يخنع لإرادة الغير. إن ضرورة الدفاع عن حقوقنا، وصيانة شرفنا كثيراً ما أدت بنا إلى الحروب، وكان الله، وله الحمد، في عوننا في الغالب، ولم نكن في أي من هذه الفتوحات البادين في العدوان البتة».

لقد بان لي بأنه قد تأثر تأثراً عميقاً بوجهة النظر هذه، واعترف لي بأنه كان يظن فيما مضى بأن الإنكليز كانوا قد أرسلوا على غرة جيشاً كبيراً لفتح الهند، وقاموا بفتوحاتهم كلما تولدت الرغبة في نفوسهم دون سبب أو حجة. ثم استفسر عن المناطيد قائلاً: إن قد نمي إليه أنها وسائل في وسعها نقل مفارز الجنود إلى أي محل مقصود. ثم انتقلنا بالحديث

إلى إنكلترا ثانية. وما سره شيء مثل علمه بأن لدينا بعض العشائر، وكان دقيقاً جدًّا في أسئلته عن أطوار عشائرنا ولغتهم وأخلاقهم ورجاني أن أذكر له بعض أسماء تلك لعشائر، وقد فتنته فكرة الكتائب العشائرية بأزيائها الخاصة وضباطها، إلا أنه استغرب من أن تكون الطبقة الحاكمة من الانكليز أبناء المدن، غير العشائريين؛ وكان استغرابه أشد عند علمه بأن أبناء المدن جنود بواسل هم الآخرون. وقد أثار سؤاله عن الأماكن التي نستورد منها الرز ذكر العالم الجديد، فسألني من فوره عن كيفية اكتشاف تلك القارة فأجبته أن قد أثبت علما الفلك والهندسة بأن الأرض كروية كالبرتقالة. وقد مثلت هذا الشطر من تفسيري برفع قبضة يدي قائلاً «هنا فرنكستان، وهنا الهند، وهو ذا الطريق المؤدي إلى الهند من فرنكستان، إلا أن بعض الناس صاروا يتساءلون لم لا نستطيع طرق الاتجاه الآخر المفضي إلى الهند؛ فرأى البعض ذلك وأنكره البعض الآخر. وقال شخص أجرأ من الآخرين أنه سيحاول ذلك، ووجد أميراً زوده بالسفن وبالوسائل التي تمكنه من القيام بمحاولته فاكتشف القارة الجديدة بسلوكه ذلك الطريق غير المطروق إلى الهند». ففهم هذا الأمر كل الفهم. وعند إيضاحي له نوع الجمهورية الأمريكية قال: «إن شأنها شأن عشائر الـ(خوش ناو)[1] حيث يترأس كل قرية رئيس، وهم يجتمعون سوية للتشاور في صالح العشيرة بكاملها».

---

(١) عشائر الـ(خوش ناو) ثلاث هي: مير مه حمه لي ومير يوسفي وبيشده ري. وبين الأوليين ثار قديم يجعلهما في حرب مستمرة لصالح الباشا الباباني الذي لا يتمكن من إدامة سيطرته عليهما إلا باستغلال مهارته للاستفادة من انشقاقهم على أنفسهم، كما يديم الأتراك والإيرانيون سيطرتهم عليه تماماً. وهنالك جدول صغير يفصل بين العشيرتين، ولهم جامع واحد مشترك يجتمعون فيه أيام الجمعة للصلاة ثم يفترقون من بعدها، فيرجعون على الأغلب إلى أماكنهم عند النهر ويشرعون بتبادل الرمي. وقد شرعوا مرة بالخصام في الجامع فقتل عشرون أو ثلاثون منهم. =

وعندما أخبرته بأن لا يجرؤ أحد منا على الجلوس في حضرة ملكنا، قال: «ماذا؟ حتى ولا أرباب الدين منكم؟» فأجبته بالنفي فقال بلهجة الرضى مديراً وجهه إلى البعض من الحاضرين من قومه: «أرأيتم ذلك، ليس للملالي من سطوة في بلاده». وقد تكلم كثيراً عن الحالة في كردستان قائلاً: «إن بلادي في حالة تعسة، فإذا خدمت الأتراك حقروك وخلعوك متى شاؤوا، وإذا خدمت الإيرانيين أضجروك على الدوام بطلب المال...» إنه كردي حق، ولكنه يفضل الإيرانيين على ما يظهر من تينك القوتين المتنافستين. وقد وجدته عنه مغادرتي له ودوداً إذ قال لي: إنّه يعتبرني من عشيرته، وإنه يرجو دوام الصداقة الحميمة بيني وبينه.

وعند رجوعي حضرت مشهد عراك الكلاب الطريف[1]، وكان من المبهج مشاهدة فرح الكرد الشديد وهم يشجعون ويصرخون ويتراوحون بأرجلهم، وقد ملؤوا المكان بالضجيج أكثر من الكلاب أنفسهم. كان أحد الكلاب يعود إلى صديقي الرياضي محمود مصرف، الذي ما إن علم بوجود كلب شهير في (جوى سنجاق) حتى أرسل أحد الرجال خصيصاً إلى هناك في طلبه كي ينازله مع أحد الكلاب هنا، وهو يكاد أن يكون أقوى من جميع كلاب المنطقة في الوقت الحاضر.

كان الكثير من السادة الكرد يشاهدون العراك، وقد خاطبني أحدهم بقوله: «إنك أول إنكليزي رأيناه هنا، وإنك ستكون مدار حديث أحفادنا، وإننا لمغتبطون بوجودك بيننا». وقد رددت الجماعة بكاملها، هذا الإحساس.

= وهم في لباسهم ككرد العمادية. وترد لغتهم إلى اللهجتين البابانية والبهدينانية. وتنطبق نفس الملحوظة على كرد (راوندوز) الذين لم أتمكن من معرفة اسم عشيرتهم الرئيسية، وإنني أعتقد بأنه لا يوجد بين (الخوش ناو) والراوندزيين قرويون أو فلاحون.

(١) كانت من جنس كلاب الرعاة الفظة.

درجة الحرارة في الخامسة ق.ظ. ٦٢د، وفي الثانية والنصف ب.ظ ٧٦د. نسيم غربي عليل، ونهار جميل.

١٤ أيار:

زارني الباشا صباح اليوم وجلس معي مدة ساعة تقريباً، فوجدته رجلاً يعلو قدراً كلما ازددت التعرّف به، وفي أطواره ما ينم عن الجد واللين والوداعة، وكل ذلك مما ينشرح له الصدر، وقد سألني كثيراً عن الدول الأوروبية مثلما سألني عنها أخوه يوم أمس، وقد بدأ حديثه بالسؤال عن الصين إذ كان قد دار بينهم بحث عنها أثار اهتمامهم البالغ على ما يظهر. لقد تكلم بتواضع ولباقة في جميع الأبحاث التي تطرق إليها، ثم وجهت البحث إلى التلقيح ضد الجدري الذي أودّ كثيراً إدخاله إلى كردستان التي يفتك بها هذا المرض فتكاً ذريعاً، وقد أبدى رغبة شديدة بتعميمه بين أبناء جلدته فوعدته بالكتابة فوراً إلى بغداد للحصول على بعض اللقاح.

جاءني صديقي الرياضي مصرف على عادته عصراً، فبدأ بحديث المساء بالسؤال عن الصين أيضاً.

والكرد هم الشرقيون الوحيدون الذين أعرف أنهم يسهرون إلى ساعة متأخرة من الليل، وينهضون في ساعة متأخرة صباحاً، وقليل من سادة السليمانية من يأوي إلى فراشه قبل الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل ومن يخرج من داره قبل التاسعة أو العاشرة صباحاً، وتكون زياراتهم عادة في الليل فإذا خيم الظلام بدأوا يتزاورون في دور بعضهم البعض حيث يستأنسون بالسمر والتدخين والموسيقى، وقد يقومون بزيارتين أو ثلاث زيارات من هذا النوع في الليلة الواحدة. وقبل الغروب بساعة واحدة ينعقد مجلس على غرار النوادي أمام دار مصرف في محل رحب من المدينة يعرف بالميدان، حيث يجتمع الأصدقاء فيبحثون في

مواضيع شتى أو تقام معارض الخيل أو السلاح. وقد تجري هناك أحياناً مباريات المصارعة أو عراك الحجل أو الكلاب. ويظهر لي أن الكرد أناس فرحون اجتماعيون إلى حد بعيد، لا يتنافسون ولا يتحاسدون، ولم أسمعهم يتشاتمون أو يتقاذفون بالكلام البذيء مهما اختلفت نزعاتهم وتضاربت منافعهم.

وعندما كانت الباشا في زيارتي اليوم، انتهزت الفرصة لإنهاء شأن من الشؤون أوصاني به صديق يستحيل علي رفض طلبه. فقد استولى الكرد في الأيام الأخيرة على كمية كبيرة من خشب يعود إلى مضارب بغدادي اعتاد قصه من الجبال الكردية، وبناء على رجائي أمر الباشا بإعادة الخشب إلى صاحبه، وإن لم يعثر عليه فيجب قطع نفس الكمية وتسليمها إلى المضارب. وبنتيجة هذا الحادث وقفت على تجارة قطع الخشب التي من خصائصها ما هو خليق بالاطلاع عليه على ما أرى. تقطع أفلاق الخشب من شجر الدلب أو الصنار (جنار) الشرقي - نبت شجرة جميلة ذكية الرائحة - في منطقة الجبال التي تفصل (سنه) من كردستان التركية، وخاصة في منطقتي (جوان رو) و(دولي هاوار)، وهي في وادٍ في جبال (حلبجة). والغابات في الشرق ملك الشعب، إلا أن الرؤساء المجاورين يتحايلون عادة لجر بعض المغانم من المضاربين باسم الهدايا وذلك بتعريضهم إلى شتى الأخطار والعراقيل. يقطع الخشب ويقشر ويترك ليجف وبعد عام أو عامين، ينقل عند فيضان المياه، إلى أقرب موقع يمكن تطويفه منه حتى نهر (ديالى) تحت رقابة أناس على الساحلين يلاحظون طوافه بالاتجاه المقصود، وعندما يصل (ديالى) يترك وشأنه حيث ينحدر عائماً على وجه الماء حتى الجسر بين بغداد وطاق كسرى فيلتقطه من الماء أناس ينتظرون وصوله. ولا شك أن مقداراً كبيراً منه يضيع بطريقة النقل هذه. هذا وإن الخشب في بغداد غالي الثمن غلاءً لا بد وأن يدر ربحاً طيباً. وتقطع أشجار التوت والجوز أيضاً في

كردستان، إلا أن هذه تشترى من البساتين، أما شجر الحور ـ قاواق أو الـ(سبندار)[1] فيجلب من الجزيرة[2] والعمادية، وأما الصفصاف أو الـ(سكورد) فمن الفرات من أعالي (عنه).

لقد أخذ الخشب الآن يندر يوماً بعد يوم في جبال (سنه) من جراء قطعه من قبل الناس جزافاً، وقال لي مخبري بأن الأماكن التي اعتيد أن يقطع منها الخشب قد خلت الآن حتى من الأعواد الصغيرة، وقد ساهم أخيراً رجل من (كرمنشاه)، يتعاطى الصب والسبك وسك النقود، في تدمير غابات الدلب أو الصنار، متصوراً أن لا شيء يطمنه سوى الفحم المصنوع من الصنار، وهذا أضر بالغابات من قطع الجذوع منها.

إن عمال أو وكلاء قطع الخشب لا يجرؤون قط على حمل الدراهم معهم عند توغلهم في الأحراش، أما الأجور فتدفع للعمال في (حلبجة)[3] وهي أقرب مدينة من المنطقة، ويقال إن أهالي هذه الجبال،

---

(١) (سبيدار) كلمة كردية تعني الحور في العربية، ومعناها الشجرة البيضاء وقد تطلق أحياناً في بعض الأماكن على شجرة الصنار أو الشنار (جنار) ـ المترجم.

(٢) راجع الملحق للوقوف على ذكر بعض الأماكن في الجزيرة والأراضي المهمة المجاورة لها وغير المعروفة إلا قليلاً، ومن بينها قلعة (في نيك ـ Finik) وهي على بعد أربع ساعات في أعالي الجزيرة، ولها صيتها في تاريخ الكرد القديم منذ سنة ١٤٦١. ففي سنة ١٤٥٠ حاصر الجزيرة الأمير (خالابي ـ Khalapi) أمير (سعرد)، وفي عام ١٤٥٩ انتزع الجزيرة الأمير أحمد البوتاني، الذي استولى على جبال كوردوشيان، ـ كما يقول (آسمه ماني ـ Assemanni) ـ من الأمير إبراهيم الذي احتمى بقلعة (في نه ك ـ Phineck)، وفي عام ١٤٦١ دارت معركة بين رؤساء (حسن كيف) والبوتان في غابات الجزيرة، وفي السنة ذاتها استولى أحمد البوتاني طاغية الجزيرة على (في نيك) وأمر بحرق إبراهيم وأولاده. ومن الجدير بالذكر أن (آميانوس مارسل لينوس) يشير إلى (به زاب ده ـ Bezabde) أو الجزيرة وإلى (في نيك ـ Phoenica) في الصفحات ١٥ و١٦ و٢٦ من سفره العشرين.

(٣) تقع (حلبجة) في منتهى وهد (شهرزور) نحو الجبال، وفي الجنوب الشرقي من السليمانية.

وعلى الأخص أهالي (جوان رو)، في أشد حالات (البربرية) البداوة، وهم تابعون اسميًّا إلى والي (سنه) إلا أنهم في الحقيقة مستقلون الاستقلال كله عن غيرهم: يعيشون في الغابات وفي معاقلهم وليس لديهم ما يجذب الزوار إليهم، وهم لا يزاولون الزراعة، ويقال إنهم يعيشون على ثمر البلوط والأثمار البرية وحسب. وقد يكون الأمر الفذ بين هذه العشيرة الوحشية هو السيطرة العظمى التي تنعم بها نساؤهم، وكثيراً ما تقمع المرأة منهم الخصومات المستفحلة بين الرجال، ولولاها لما انتهت إلا بسفك الدماء، إذ إن أفراد هذه العشيرة كغيرهم من الوحوش نزقون حقودون، وليس لحياة المرء عندهم أي قيمة. ويعيش الرجال والنساء منهم سوية دون أقل تصنع في التحجب، وكثيراً ما تثير ثائرة تاجر الخشب البغدادي الأسئلة التي يوجهونها إليه على الدوام نحو: «ما هو اسم زوجتك؟ وكيف تلبس؟» وغير ذلك.

لقد أيد لي رواية هذا المخبر، الكثيرون من الكرد الذين زاروا تلك المنطقة البدائية. . وعجبت لسماعي أن في منطقة (شهرزور) بعض القرى التي يسكنها أفغانيون أقحاح، وقد نزح هؤلاء إلى هذه الناحية من البلاد على أثر مقتل (آزاد خان). ويقال إنهم لا يزالون يتخاطبون بينهم بلغتهم، وهم في حالة فقر مدقع، ويعدون من صنف الفلاحين. وتوجد في كردستان بعض الوسائل الإفشارية[1] أيضاً، وقد قابلت أحد «آغوات» أو سادة هذه العشيرة واسمه عيسى آغا، وكان رجلاً مسنًّا جميل الصورة جمالاً غير اعتيادي، ذا طول فارع ووجه جليل. وقد قيل لي إنه وإن كان قد نشأ في كردستان، فمن الممكن التعرف فوراً من لهجته بأنه ليس كرديًّا. وليس هناك أحد يحسن التكلم بالكردية تكلماً صحيحاً إلا الكردي المولود في كردستان، وهذا أمر ينطبق على اللُّغة الإنكليزية على قدر ما

---

(١) عشيرة نادر شاه.

يتعلق بالموضوع؛ وتنحصر الصعوبة في الأمر في دقائق التلفظ وفي إدماج مقاطع الكلمات بعضها ببعض.

١٥ أيار:

وصل ساعٍ ليلة البارحة إلى الباشا من بغداد ـ قاطعاً المسافة ـ في ثلاثة أيام، وقد جاء ليخبره بأن باشا بغداد استقبل والدة محمود باشا استقبالاً رائعاً، وأنه من المحتمل أن تقبل مقترحاته هو، وأنه قد منح في الوهلة الأولى مقاطعة (قه ره حسن) مع تسليم حسن بك[1] والوعد بتوليته على (أربيل) و(آلتون كوبري)، على أن يطلق سراح باقر خان الذي يلازم السليمانية منذ مدة كرسول من شهزادة (كرمنشاه) جاء يطلب ثلاثين ألف تومان.

وقد قص لي محمد آغا بعض القصص الغريبة، خاصة ما يتعلق بهروب حسن بك في العام الماضي، وكلها مما تلقي الضوء على خيانة الحكومة التركية وسوء سياستها إلقاءً جليًّا.

لقد زارني باقر خان بعد ظهر اليوم، وهو رجل بسيط أحمق له لحية غريبة لا يتصورها العقل، وهو من أصل كردي من عشيرة (مافي)، ويفوق تكلمه الكردية تكلمه أي لغة أخرى. وقد سألته عن خرائب (هه رسين) فأكد لي أنه لم يكن هنالك إلا خزان ماء منحوت في صخرة، ولم تكن هناك أية رسوم أو كتابة.

لقد أظهر حفل عصر اليوم أزياء السليمانية كلها، وقد ارتداها خمسة وعشرون أو ثلاثون رجلاً من أعيانها. ومن باب التسلية أقاموا مباراة عراك حجل أيضاً نزلت ميدانها أعداد أكبر من الطيور وغمرها

---

(١) الأخ الأصغر لمحمود باشا، وقد فر إلى بغداد قبل عام.

حماس عراك أشد من حماس الحفلة السابقة، فأجود المعاركين من الحجل يجب أن يصطاد من العش ويدرب، هذا ويقتضى تجويع الحجل يوم العراك، أما في الصيف فيلزم أخذها إلى الجبال وإلا أضاعت مزاياها.

١٦ أيار:

زرت الباشا صباح اليوم، وأشعر بأني أزداد نحوه ودًّا في كل مرة أقابله بها، لقد وعدني أن يبذل كل ما في وسعه ليجد لي نسخة من تاريخ كردستان الشهير المسمى بتاريخ الكرد. وقد رويت له قصة «زه نيفون والعشرة آلاف» ذاكراً له مجد قومه التليد، ولقد وجدته وكرده كلهم آذاناً صاغية لحديثي، كما وجدت علائم الاهتمام البلغ ظاهرة عليهم عند استماعهم إلى القصة. وكان المنظر بديعاً جدًّا يؤلف مادة ممتازة للرسم، وقد صرح الباشا ببساطة تنم عن حسن طوية قائلاً: «ليت شعري هل كان لعائلتي خطورتها في ذلك الدور؟..» وكان من بين الحاضرين كيخسرو بك رئيس عشيرة الجاف، وهي عشيرة قوية محاربة، وكان البك رجلاً جميل الطلعة. ومن المؤكد أنني كنت أول أوروبي شاهده حتى الآن، والظاهر أنه دهش لرؤياي، ولكنه لم يحملق فيَّ بفظاظة أو غباء.

١٧ أيار:

أعدت اليوم زيارة باقر خان الذي يسكن في بيت الـ«داروغا»، وهي دار كئيبة كالدار التي نسكنها. أخبرني باقر خان بأن عشيرته وهي عشيرة (مافي) الكردية مستوطنة في (خراسان) إلا أن بعض العوائل منها تقطن في (كرمنشاه). ولغته تختلف في اللهجة عن لغة السليمانية، إلا أنها لغة مفهومة تماماً. وباقر خان ملم الإلمام كله بخراسان وأفغانستان، وببعض

أقسام تركستان، وقد زودني ببعض الأخبار الغريبة عنها، وأنبأني كذلك بمناجم حجارة الشذر - فيروزه - في (نيشابور)، والشذر يتكون عروقاً صغيرة بين صفحتين من الصخر، كما أخبرني بأن محمود رحيم خان، رئيس خوارزم الحالي هو سليل عبد الغازي خان بهادر[1] المؤرخ التاتاري الشهير، وأن العنوان الصحيح لسلطان (بخارى) لم يكن سلطاناً بل (تورا).

(١) هو أمير بيت جنكيز خان. وقد حكم في أواسط القرن السابع عشر تقريباً وكتب تاريخ أنساب التاتار الذي ترجم إلى عدة لغات أوروبية.



اللوح الرقم (٢)
رجل من عشيرة الجاف


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الرابع

حديث مع الباشا - كيخسرو بك - عشيرة الجاف الكردية - مناخ السليمانية - فطور مع الباشا - نفوس السليمانية - الرماية - تخت سليمان - حفريات أثرية - حفل موسيقي - الزورخانة أو الملعب - عشاء في بيت عثمان بك - الصلاة الشرقية - سليمان بك - المهارة في استعمال السيوف - الزراعة - شهر رمضان

* * *

١٨ أيار:

قضيت ساعة ونصف ساعة مع الباشا، كانت عندي من أطيب الأوقات. إنه يتميز بخلق متين، متواضع، غير متكلف إلى حد يجعل الحديث معه مؤنساً ممتعاً، خاصة بعد أن يعتاد المرء على ما في سلوك أغلب شخصيات الشرق البارزة من تصنع وكذب وادّعاء. لقد سألته «لم لا يلبس الدرع، وهو اللباس الحربي المفضل لدى الكرد؟» فأجابني قائلاً: «لأنني لست ذا قوة كافية لحمله». ولو سألت أكثر الشرقيين هذا السؤال لأجابوك بأنهم لا يحبون ذلك، أو أنهم يأنفون من وقاية أنفسهم في المعارك. فلو أراد المرء معرفة السر في عجبي لتلك الميزة في الباشا

لكان عليه أولاً أن يعيش طويلاً بين الأتراك، ويلم الإلمام التام بعاداتهم في التفكير والكلام. وليس لدي ما أدونه عن حديثنا اليوم، إذ كان معظمه يدور حولي. أما الباشا فكان يسأل الأسئلة الكثيرة عن الجيوش الأوروبية، مبدياً ملحوظات تنم عن حكمة ودراية.

وكان في ضيافتي مساء اليوم كيخسرو بك، بالإضافة إلى الجماعة المعتادة. إن عشائر الجاف[1] التي يرأسها كيخسرو بك تسكن أعالي الجبال[2] في حدود منطقة والي (سنه) ورجال هذه العشيرة رجال وسيمو الطلعة شجعان، بيد أنهم يعتبرون حتى في نظر الكرد أنفسهم من أشد العشائر بداوة وتوحشاً. وتختلف لهجتهم الكردية اختلافاً عظيماً عن لهجة الكرد البابانيين، وإن مظهرهم بارز في بابه لدرجة يمكن تمييزهم به بسهولة. وهم يؤلفون جماعة خيالة متطوعة قوامها ألفا فارس تقريباً يتبعون البك عندما يدعوه زعيمه الإقطاعي باشا السليمانية إلى ميدان القتال. وتتمكن العشيرة من تجنيد أربعة آلاف من حملة البندقيات ـ المشاة ـ بسهولة وهم يعدون من خيرة المحاربين في الجيش الكردي، ونظراً لقوة العشيرة وشدة بأسها نجد بينها من احتمى بها من شتى العشائر وفلول العشائر الكسيحة كالـ(فه يلي) يين والـ(كه ل هور) يين، الذين غالباً ما يسيئون إلى اسم الجاف. وإذا مات الرئيس وكان ابنه صغيراً فلا يخلفه في الرئاسة، إذ لا يحكم العشيرة الغلمان قط وفي هذه الحالة يشغل منصب الرئاسة أخو البك المتوفى أو عمه أو خاله.

تعيش عشائر الجاف كلهم في الخيام[3] وهم يخيمون في الصيف في جبال حاجي أحمد الشاهقة في حدود (سنه)، وفي الخريف ينتشرون

---

(١) راجع اللوح الرقم ٢. أحد رجال عشيرة الجاف.

(٢) إن منطقة (جوان رو) الوارد ذكرها أعلاه هي قسم من هذه الجبال.

(٣) يسمى الكرد العشيرة الرحالة أو العشيرة التي تعيش تحت الخيم بالـ(خيل ـ Kheil) والواحد منها (خيله كي) انتهت الحاشية ـ (والأصح «خيليك» ـ المترجم).

في منطقة (شهرزور)، أما في الشتاء فيقطنون (شروانه) على ضفاف نهر (ديالى).

١٩ أيار:

لم يحدث ما يستحق الذكر صباح اليوم وقد زارني بعد الظهر عبد الله باشا، وبما أنه لا يتميز بوفرة الاطلاع في أحوال بلاده، فلم أظفر بالكثير من المعلومات المجدية من محادثته. فقد تكلم عن مناخ السليمانية وعن البرد الذي يشتد شتاءً وعلى الأخص عندما تهب الرياح الشرقية الشديدة. وقد تكسو الثلوج الأرض أحياناً مدة تتراوح بين الستة أسابيع والشهرين، وذلك لتوالي سقوطها مرة إثر أخرى مما يحول دون ذوبان ما سقط منها سابقاً. وقد تساقطت ثلاثاً وعشرين مرة قبل عامين. أما المناخ في الصيف فلطيف، إلا إذا هبت الرياح الشرقية وهي تهب بشدة هائلة لمدة ثمانية أو عشرة أيام متوالية في بعض الأحيان، ومثل حر هذه الرياح المنهكة للقوى في الصيف مثل بردها القارص في الشتاء. والغريب في أمر هذه الرياح إننا لا نجدها في أي اتجاه كان على بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من السليمانية. ويقال إن منطقة شهرزور[1] حيث

---

(١) تمتد منطقة شهرزور إلى قرب جبال (آورومان ـ هاورامان) وعاصمتها (كل عنبر) أو (غول آمبه ر) كما يسميها الأتراك ويضطر سكانها إلى الرحيل عنها صيفاً إلى (كوجه ل ـ Kochel) وهو موقع بارد في سفوح جبال (آورومان). إن المسافة من السليمانية إلى (آربه ت) ثلاثون ساعة، وهنا تبدأ منطقة شهرزور، ومن (آربه ت) إلى (كل عنبر) حيث تنتهي المنطقة ثماني ساعات. وفي (آربه ت) استخرج عبد الرحمن باشا مقادير كثيرة من الطابوق الخالي من الكتابة، كما عثر على بعض المسكوكات فيها. وقد وعدوني بأنموذج منها. ووجد في (كل عنبر) مدفعين مطمورين تحت الأنقاض. ومنطقة شهرزور ملأى بالآثار القديمة كالطنوف والتلال كـ(كه وره قه لا ـ القلعة الكبيرة) في طريق (زهاو)، والكهاريز التي لا يزال الكثير منها صالحاً للاستعمال، وقد وجد الكثير من فخارات الرميم في أماكن عديدة منها. و(آربه ت) هو المكان =

يزرع الرز بكثرة، شديدة الحرارة غير صحية، تزخر بأسراب الذباب والبعوض، وتوجد فيها الأفاعي بكثرة بدرجة أنها غالباً ما ترى زاحفة جيئة وذهاباً على طوار الطرق حتى في وضح النهار.

٢٠ أيار:

زارني اليوم من بين من زارني من أصدقائي المعتادين رجل كرجي اسمه تمير آغا (تيمور آغا) وهو مملوك (أحمد كهيا) الذي فر من بغداد إثر وفاة علي باشا، وكان بقاؤه في السليمانية منذ ذلك الحين فطنة منه، وهو يعد الآن أحد آغوات الكرد أو سادتهم، ويملك عدة قرى غنية أهداها له باشا السليمانية السابق والحالي، وهو لا يرغب في الرجوع إلى بغداد ولو أسندت إليه أعلى المناصب الحكومية فيها، ويظهر أنه قانع بما هو عليه الآن من حال كل القناعة.

وقد زارني أيضاً كردي كهل وقور، رجع من مكة أخيراً. وكل الكرد الحجاج يلبسون العمائم البيض بعد رجوعهم من الحج. وقد ذهب خلال السنوات الثلاث الأخيرة للحج من منطقة السليمانية ما يقارب الألفي كردي.

وزارني بعد ذلك عثمان بك، وجلس معي حتى الظهر يستمع بشوق زائد إلى قصص أرويها له عن جيوش أوروبا ومعاركها. إن أكثر مناصب المقربين إلى الباشا تنتقل إليهم بالإرث وذلك خلال حكم الباشا الواحد على الأقل. لقد تسلم المصرف الحالي منصب رئاسة الوزراء بالتوالي في

= الذي عثروا فيه على أكبر مقدار من الآثار. وفي (آربه ت) طنف تحوط به آثار مدينة كبيرة، وعندي أن تلك البقايا هي آثار مدينة (شهرزور) القديمة، إلا أن الكرد كلهم ينكرون بالإجماع وجود مدينة باسم (شهرزور) سابقاً، وهم يصرون على أن هذه التسمية إنما كانت ولا تزال تعود للمنطقة كما هو المتعارف عليها الآن، وليس في هذه المنطقة الآن سلطة واحدة تدير شؤونها، بل تتقاسمها سلطات عديدة.

حكومات الباشوات عثمان وعبد الرحمن ومحمود، وقد أخبرني بأنه يتوقع أن يخلفه ولده في منصبه، و«السلاحدار» أو (حامل السيف) الحالي صبي، ينوب عنه في أداء واجبه أحد الرجال حتى يبلغ أشده، وهذا الوصي يزاول عنه قوانين ـ سلطة ـ ذلك المنصب الذي ورثه الصبي من والده. ولو عم السلام هذه البلاد، وأخذت فيها الوراثة مجراها الطبيعي، لازدهرت ازدهاراً سريعاً.

وبعد الظهر التحقت بجماعة مصرف في خيمة منصوبة في فسحة أمام داره. وكان أكثر وجهاء السليمانية حاضرين هناك. وبعد برهة انضم إلينا كيخسرو بك وقد دخل الخيمة متثاقلاً في مشيته، أو بالأحرى جاءنا متباطئاً شارد النظرات وكان كلامه متقطعاً بلغة لم يسعني فهمها وإن أصبحت الآن أفهم اللهجة السليمانية فهماً لا بأس به. وكان لدى كيخسرو بك دورق بارود إنكليزي صغير لم يستطع فهم آليته، فطلب مني أن أوضح له طريقة استعماله. وقد لاحظت أن الكرد يطلقون كلمة (ده رمان) الدواء على البارود، وهذا تعبير في محله. وشاهدنا بعدئذٍ كالمعتاد عراك الحجل، ولا شك أن كفاية هذه الطيور الصغيرة وجرأتها وذكاءها من الأمور التي تدعو إلى العجب. وكما ذكرت سابقاً إن ما تنشده هذه الطيور في العراك هو مسك غرمائها من رقابها، مسكة قوية كمسكة الكلب الأفطس (بوول دوك) ثم الطيران بها وبطحها على الأرض، وتؤلف هذه المداورة ـ المناورة ـ متعة العراك. لقد خاب أحد الطيور مراراً عديدة في هجماته، وبحملة غاضبة نقر جناحه مخطئاً فأمسك به مسكة قوية صعب معها حمله على التخلي عنها؛ وهكذا علم أنه أخطأ الهدف.

وعند رجوعي إلى الدار أرسل إلي مصرف جواداً هدية منه. وقد أمر الكردي الذي أتاني به أن لا يقبل مني أي عطية، ولكننا أمسكناه بقوة وإلحاح فخلعت عليه، ومن المضحك رؤية وحشي أشعث ذي قامة طولها ستة أقدام، يرفض باكياً قبول هدية تعطى إليه على الرغم من إرادته، وقد

أرسلت بعض رجالي معه لتهدئة روع مصرف، رجاء أن يسمح لخادمه بقبول الهدية.

٢١ أيار:

تناولت الفطور مع الباشا في الساعة العاشرة من صباح اليوم بدعوة منه، وكان أدنى إلى طعام عشاء منه إلى طعام فطور إذ اشتمل على شتى أنواع اللحوم الناشفة وغير الناشفة، ومن ضمن الأنواع الأخرى الصحن الشرقي اللذيذ المعتاد وأعني به الفرهود ـ قوزي ـ المحشي المشوي. وقد هيئت صحون الطعام وقدمت على الطريقة الفارسية التي أضافت مفخرة إلى المهارة الكردية إذ كانت أقل دسامة وأطيب مذاقاً من جميع أصناف الأكل التي تناولتها في بغداد في أي وقت كان. جلست مع الباشا في صدر البهو، وقد وضع أمامنا خوان مستطيل من الخشب المصبوغ ذو قوائم ترفعه عن الأرض بضع عقد، فصفت عليه صحون الطعام المتنوع، كما وضعت الصحون التي لم يستوعبها الخوان على الأرض بالقرب منا. ووزعت بين الصحون عدة كاسات مملوءة بأنواع المرطبات ـ الشرابت ـ وكلها مبردة بالثلج وكان بعضها لذيذاً للغاية. وقد جثا إلى جانب الباشا على ركبة واحدة كردي بدين كالح الوجه، وانهمك بسكب مزيج أبيض في كأس كبيرة وضع فيها الكثير من الثلج. وكان الباشا يدير وجهه إليه بين آونة وأخرى ويتناول منه ملعقة كبيرة من ذلك المزيج. وكانت نظرة هذا الرجل اليقظة وهو يفرغ ما تحتويه تلك الملعقة الكبيرة في فم سيده، مضحكة بحيث لم أجرؤ على النظر إليه ثانية. وكان إلى جانبي همجي آخر في خدمتي، ولما أدرت وجهي إليه تقليداً للباشا ناولني ملعقة مملوءة من ذلك السائل، فإذا به الشنين مبرداً بالثلج، ممزوجاً بالإجاص الفج المفروم[1]، وقد كان حامضاً بدرجة تسيل الدموع من عين شاربه،

---

(١) بل هو «الهه زوان»: البطم الفج ـ المترجم.

فلم أكرر طلبه من صاحبي الـ(كردوكي). أما رجال الدولة الذين وقف الكثير من الخدم في خدمتهم فقد كانوا حول موائد مستطيلة في الجانب الثاني من البهو، وقد أقبلوا على الأكل بنشاط جم، وكانت اللحى تهتز كأنها تساوق وقع لحن بهيج:

ها قد بدا فرح في القوم، مذ أخذت
لحاهم رقصة من شدة الطرب

حضرني هذا البيت من الشعر وأنا أرمقهم يميناً ويساراً، وكاد أن ينال من وقاري واتزاني. لقد لاحظت أن الكرد لا يزدردون الطعام ازدراداً كالأتراك، بل يتناولونه على مهل ويتسامرون عند الأكل وأن الطعام يوضع أمامهم كله مرة واحدة. وقبل البدء بتناول الفطور قال الباشا قولاً أبهج صدر ولد بك أحد رؤساء الجاف فنهض ولد بك الذي كان يتكلم حينذاك وسار متثاقلاً راكضاً لضخامته بالرغم من جمال مظهره، سار من محله حتى صدر البهو ماضياً في كلامه طوال الوقت وعند وصوله إلى الباشا بسط الأخير راحة يده فلثمها ثم رجع إلى محله كما نهض منه متثاقلاً متباطئاً، أما أعضاء المجلس فكانوا يدخنون وهم على أتم حريتهم على ما يظهر، ويتكلمون كلّما شاؤوا. أما في بغداد فلا يجرؤ المصاحبون - مصاحبجي - المستشارون قط على النظر يميناً أو يساراً في حضرة الباشا، بل يتذللون وينحنون إثر كل كلمة تصدر من سيدهم، كما أنهم لا يتكلمون إلا إذا سمح لهم بالكلام.

وفي المساء تكلمت مع محمود مصرف في مختلف أنسال الخيل. إن الخيول العربية لا تتناسل كما يجب في كردستان وإن كان الأبوان نجديين أصيلين فأمهارهما لن تصبح سوى خيول اعتيادية. ولعشيرة الجاف نسل من الخيول الصغيرة القوية، اشتهرت كثيراً بقوتها ونشاطها.

٢٢ أيار:

ذهبت اليوم أيضاً إلى النادي في الميدان، فوجدت الجماعة المعتادة. إن محمود مصرف يتذكر جيداً كيف أنشئت مدينة السليمانية قبل اثنتين وثلاثين سنة. فقد صح عزم حاكم كردستان الجنوبية حينذاك إبراهيم باشا والد سليمان باشا الكردي، وأحد أقارب حاكم السليمانية الحالي على نقل عاصمة حكمه من (قه ره جولان)ـ قه لاجوالان ـ الواقعة في الجانب الثاني ـ الشرقي ـ من تلال (أزمر) إلى موقع المدينة الحالي، وذلك أولاً رغبة منه في الشهرة وثانياً لتسهيل شؤون الصيد عليه إذ كان مولعاً به ولعاً شديداً، وكان موقع (قه لا جوالان) لا يلائم هذا الضرب من ضروب التسلية إذ إنّه في وادٍ صخري ضيق جدًّا. وقد سمى مدينته الجديدة بالسليمانية إشادة بذكر سليمان باشا حاكم بغداد آنذاك، وهو والد المرحوم سعيد باشا المنكود الحظ. وكان هنا تل قديم[١] سويت تربته لوضع أسس القصر الذي شيد في عهد عبد الرحمن باشا وقد عثروا على بعض المسكوكات هناك.

والسليمانية تقع في منطقة (سه رجنار)، وتحتوي المدينة الآن استناداً على أصح المعلومات التي استقيتها على (٢٠٠٠) دار للإسلام و(١٣٠) داراً لليهود و(٩) دور للمسيحيين الكلدانيين الذين لهم كنيسة صغيرة كئيبة، وعلى خمسة دور للأرمن وهؤلاء لا قسيس ولا كنيسة لهم، وخمسة خانات (كروان سراي) وخمسة حمامات منها واحد فقط جيد، وخمسة جوامع منها واحد جيد أيضاً.

---

(١) كانت قرية حول هذا الطنف واسمها ملكندي، أي ملك هندي، أو قرية الملك الهندي وقد أخبرني الباشا أنهم عثروا عند تسوية الطنف على أكواز كبيرة في داخلها رميم عظام ووجدوا كذلك لوحاً مكتوباً ألقوا به جانباً إذ لم يتمكن أحد من قراءته. وأخبرني أيضاً بأن العمال الذين كانوا يحفرون قبل مدة وجيزة في القصر لترميمه وجدوا على عمق كبير شظايا الأكواز ورميم العظام.

٢٣ ايار:

أقام الباشا عصر اليوم حفلة سباق رماية، ونظراً لهبوب ريح شديدة اضطررنا إلى التخلي عنها، فذهبت لأقضي فترة العصر مع عبد الله باشا، وحيث يجتمع أعضاء النادي للقائي. وقد جاء كيخسرو بك الذي يظهر بأنه قد كلف بي وإن كان كل منا لا يفهم كلمة واحدة من كلام صاحبه، جاء يجر أذياله كالمعتاد وبعد برهة من الصمت العميق غمغم ببعض كلمات لم أدرك أنها كانت موجهة إليّ، ولكن عندما كرر الغمغمة أدرت رأسي نحوه فوجدته محملقاً فيَّ، وعندئذٍ خاطبني مصرف باللُّغة التركية دون أن يستطيع إخفاء ابتسامة ظهرت على محياه، قائلاً: «يريد البك أن يقول إنه يرغب من الصميم أن يراك بين عشيرته (على مسافة ستة أيام في أعالي جبال الحدود) وإنه سيستقبلك خير استقبال». وإنني أعتقد في الواقع بأنه سيفعل ذلك دون ريب، وأراني ميالاً بعض الميل لقبول دعوته.

٢٤ ايار:

ذهبت في الثالثة بعد الظهر مع الباشا لسباق الرماية، وكان ميدان الرمي يبعد عن البلدة مسافة ميل ونصف الميل، على طريق أزمر عند حضيض التلال، وقد جلست والباشا وعبد الله باشا تحت شمسية وصرنا نشاهد الرمي، وكان أحسن الهدافين عثمان بك. لقد كان حقًّا من أحسن الرماة بالبندقيات الثقيلة، وقد رمى كذلك كثيرون غيره رمياً صائباً.

٢٥ ايار:

زارني الباشا صباح اليوم وجلس معي مدة تزيد على الساعة، ولكنني كنت منحرف الصحة لم أستطع الانتباه كثيراً إلى الحديث الذي

لم يكن في الواقع ممتعاً. وبعد الظهر ذهبت للقاء عثمان بك الذي سرّه أن أشيد بمهارته في الرمي يوم أمس. وكان يرغب كل الرغبة في أن أعلّمه المبارزة بالسيف، ورمي الهدف بالمسدس، وهذا ما يجهله الشرقيون.

٢٦ أيار:

إنني متوعك الصحة اليوم كثيراً، ولم أقابل أحداً.

٢٧ أيار:

ذهبت لمقابلة (عمر خزنه دار) وهو سيد أنيس لطيف الطبع يسكن بالقرب منا. وعند الكلام عن غرائب كردستان، ذكر لي تخت سليمان وهو نجد يقال عنه إنه أعلى قسم من جبال (سنه)، ووصف لي بعض الحفريات الفذة أو ما يسمونه بمدينة تحت الأرض في هذا الجبل، بيد أن عدداً كبيراً من الحاضرين ذكروا وجود حفريات أخرى أوسع من الأولى في محل اسمه (ده لو) يقع في تل بين (قه ره داغ) وإبراهيم خانجي ويقال إن مدخل هذه الحفريات ضيق، ولكن ممراتها واسعة جدًّا، تتشعب في اتجاهات عديدة، مما يجعل ولوجها دون اتخاذ الاحتياطات المقتضية أمراً في غاية الخطورة، فقد ضاع الكثير من الناس في مجاهلها، وقد قيل إن هذه الممرات أو البعض منها على الأقل تمر في كهوف أو حجر يسمونها حوانيت وبيوتاً. وقد ولج هذه الأماكن في الآونة الأخيرة خمسون شخصاً تقريباً وجالوا فيها عدة ساعات وأشعلوا جرة من النفط لإضاءة الطرق أمامهم إلا أنهم لم يصلوا في طوافهم هذا إلى منتهى تلك الحفريات، ويقول الكرد إن هذه كانت مدينة «جان بن جان» أو أمير الجن[١].

---

(١) يظن المسلمون أن «جان بن جان» أمير الجن كان ملك الدنيا قبل أن يخلق الإنسان ـ

وقد أعددت وعمر آغا منهجاً للذهاب إلى ذلك المحل واستكشافه على أن نستصحب معنا ما نحتاج إليه لاستمرارنا في العمل مدة أربعة أو خمسة أيام إذا اقتضى الأمر وجبل ده لو هذا يحتوي على الكبريت والنفط والشب والملح وعلى عين ماء حامض أصفر اللون.

قضيت المساء مع عثمان بك، وقد هيأ جوقة موسيقية لتسليتي، أما أفراد هذه الجوقة فقد كانوا فنانين لا «بخل ولا بخمر» ـ كما يقول المثل ـ وهم مغنون بغداديون من الطبقة الثانية، إلا أنني تحدثت مع عثمان بك حديثاً طليًا.

وكان أحد رؤساء عشائر الجاف حاضراً فأتيحت لي فرصة لأوجه إليه أسئلة تتعلق بالحكم بين العشائر وبتنظيماتها، فقيل لي إن لكيخسرو بك، وهو رئيس الجاف بكاملهم، أن يقتل أو يعاقب وفق رغبته، وليس لديه مجلس استشاري كما أنه ليس من الضروري له أن يستشير أي فرد من شيوخ العشيرة[1] وإذا طلب منه الباشا مقداراً من المال أو جماعة من المحاربين استدعى رؤساء الـ(تيره) أو الأفخاذ وقسم الطلب عليهم بالتساوي فيسير هؤلاء على الطريقة نفسها مع الرجال المقدمين من أفخاذهم. وقيل لي أيضاً إن عشيرة الجاف ما كانت تأخذ بنصيبها من إدارة شؤون كردستان إلى أن حل عهد عبد الرحمن باشا.

= وأنه بنى أهرام مصر وحكم قوماً خلقوا من نار، ولذلك أبى أن يطيع الإنسان الذي لم يخلق إلا من التراب كما جاء في القرآن.

ويعتقد المسلمون أن أولئك القوم ملأوا الدنيا وحكموها مدة (٢,٠٠٠) سنة قبل أن يخلق آدم وأنهم بعد رفضهم إطاعته طردوا إلى بقعة من الأرض نائية تسمى جبل قاف، وحكم عليهم بالبقاء هناك جزاء عصيانهم ـ راجع مقدمة ترجمة القرآن لـ(سه ل) الصفحة ٩٥. وراجع كتاب «المكتبة الشرقية» لمؤلفه ديربي لو، الصفحة ٣٩٦ و٨٢٠ إلخ...

(١) وقد أخبرت بعد ذلك من مصدر أكثر ثقة على ما أعتقد، بأن رئيس الجاف لا يستطيع القتل أو التنكيل دون استشارة شيوخ العشيرة.

٢٨ أيار:

في ساعة مبكرة من صباح اليوم ذهبت إلى ملعب (زورخانة) عثمان بك. وليس لدي ما أضيفه على وصف (نيبور Niebuhr) لزورخانة (شيراز) المتميزة بالتمارين المختلفة التي يقوم بها اللاعبون فيما يتعلق في هذا الملعب[1] وقد زارني بعد الظهر كل من عثمان بك وكيخسرو بك ومصرف، وقد قص لي الأخير قصة سيره سيراً إجبارياً مع مفرزة من بغداد إلى السليمانية مدة نهارين وليلتين ووصوله إليها في اليوم الثالث، وذلك في موسم رياح السموم وكانت المفرزة مؤلفة من ١٣٠٠ خيال مات منهم زهاء (٢٠٠) رجل وجواد. وقد حدث ذلك بعد وقعة الشيخ تويني من عرب المنتفك، إذ عزل سليمان باشا حاكم بغداد عثمان باشا السليمانية، ونصَّب إبراهيم باشا بدلاً منه، فرفض جيش عثمان باشا خدمة إبراهيم باشا فقام بذلك المسير الإجباري فارًّا إلى كردستان حيث كان عبد الرحمن باشا، ولا شك أن ذلك كان جهداً عظيماً.

٢٩ أيار:

قابلت أصدقائي في الميدان كالمعتاد. وكانت الليلة مزعجة حقًّا إذ تغيرت الريح التي كانت جنوبية طيلة النهار إلى ريح شمالية شرقية فجأة عند الغروب، وسرعان ما أخذت تهب هبوباً عنيفاً جارفة أمامها سحباً من الغبار وعدداً هائلاً من البعوض لم أكن أتوقع وجوده في هذا المكان، وهكذا غدا النوم أمراً مستحيلاً طيلة الليل وكانت الريح حارة جدًّا تورث الكسل والخمول. وهذه الريح هي الريح الشرقية المخيفة التي يظهر أنها تهب من أي اتجاه كان بين الشرق والشمال الشرقي. وهي تحاكي ريح (سيروككو)[2]

---

(١) المجلد ٢ ص١٤١ من كتاب «رحلة في البلاد العربية» لـ«نيبور».

(٢) ومما لا شك فيه أن للكلمة صلة بكلمة (شرقي)، والكرد يعبرون عنها بـ(بايه ره ش). =

التي تهب في إيطاليا وهي تثير الهلع في نفوس السليمانيين لشدتها، وتأثيرها السيئ في الراحة والنشاط. والأمر العجيب غاية العجب في هذه الريح، الذي لم أستطع حتى الآن رده إلى أي سبب كان وإن أكده لي جميع أهل هذه البلاد، هو انعدام أثرها بعد ساعتين في أي اتجاه كان من السليمانية.

٣٠ أيار:

جلست ساعة مع الباشا صباح اليوم، وقد ألح للظفر بوعد مني بزيارة السليمانية كل عام، قائلاً: إنه سيشيد لي داراً مريحة إن فعلت ذلك. وكان من المتوقع أن يصل السليمانية بعد الغد أخوه الجبان حسن بك ومعه دفتردار بغداد السابق رستم أفندي[١] حاملاً خلعة لمحمود باشا. وقد اتخذت التدابير لاستقبال الخلعة.

وفي المساء تناولت العشاء مع عثمان بك، وقد دعا جميع وجوه المدينة البالغ عددهم أربعة عشر شخصاً لمقابلتي، وكان العشاء عشاء فاخراً حقًّا وقد قدم على الطريقة الإيرانية كما كان الأمر في عشاء الباشا، على موائد مستطيلة يسمون الواحدة منها (خوان جه Khuwan-che) حيث صفت الصحون. وقد تناولنا عشاءنا خارجاً على أرض معشوشبة أمام الدار. وقد جلست والبك إلى مائدة في صدر المكان، وجلس الآخرون وراء موائد وضعت على الجانبين. وجاء كيخسرو بك متمهلاً بعد أن بدأنا بالأكل واعتذر متمتماً ببعض الكلمات غير المفهومة، ثم جلس فوراً في صدر إحدى الموائد الجانبية وراح يأكل اللحوم بشهية ظاهرة. والكرد، كالإيرانيين، يأكلون بتؤدة ويتحدثون خلال الأكل، ويطول وقت الطعام عندهم كما يطول عندنا. وهم ينفرون من طريقة الأتراك في التهام

= انتهت الحاشية ـ والصحيح (ره شه با) أي ـ الريح السوداء ـ المترجم.

(١) أي ناظر الخزينة.

الطعام. ويضع الأتراك على المائدة صحن الطعام الواحد وبعد أن يتناول الضيف بضع لقم منه يرفع ويؤتى بصحن آخر. ويلوح أن هذه هي الطريقة التاتارية القديمة، أما الإيرانيون فمتأنون ومتريثون في أكلهم على ما يظهر.

وبعد الطعام ذهب الكثير من الضيوف إلى ديوان الباشا، ومكث البعض لمشاهدة حفلة موسيقية إجابة لدعوة البك. وكان العازفون عازفي الحفلة الماضية، وهم من ضعاف الموسيقيين. لقد دار بيني وبين البك حديث طريف عن حالة بلاده السياسية. ولم يخف عني شعوره بمقته للأتراك، إذ قال لي: «إنهم مجبولون على الخداع والغطرسة، ولا يحسن أحد معاملة الأتراك كما أحسن ذلك. فمن خطتي تحقيرهم، وعدم الثقة بهم قط، فالتركي لا يتصرف تصرفاً محموداً إلا إذا حملته على خشيتك وعاملته معاملة فظة». ومع أنني لا أرى رأيه برمته فإنني أشعر بأن بعض ما يقوله حق. لقد أعد البك العدة للقيام بمباراة صراع بعد ظهر الغد، ورغب في أن تقام بداري، إذ كان يرى في مجيئي إلى داره مرتين بعض التكلف، بيد أنه لم يكن في داري فسحة لإقامة مثل تلك الحفلات فيها. وقد رجوته أن يتخلى عن المراسيم والتكلف في مقابلاتنا وصلاتنا في المستقبل.

ولقد أتيحت لي الفرصة اليوم لأن ألاحظ أمراً كثيراً ما استرعى انتباهي ألا وهو أن الصلاة الشرقية ليست إلا أمراً نمطيًّا رتيباً (روتينيًّا)، فعندما قامت الجماعة مساء اليوم للصلاة عند آذان المغرب تمتم البك ببعض الأدعية الدينية مدة بضع دقائق قبل أن يشرع أو يبدأ بالصلاة بخشوع عظيم، ولكنه في فترات الركع، على إثر سماعه ملحوظة تافهة أبديتها لرجل كلمني (في فترات الصلاة كذلك)، أدار وجهه ليجيبني، ووجَّه الأوامر إلى خدمه الذين كانوا على وشك تهيئة العشاء منشغلين في نقل الأطعمة، ثم استأنف الصلاة بركعة أخرى. وكثيراً ما لاحظت عدم

المبالاة والاكتراث من لدن المسلمين إذ يتكلمون أو يتعاتبون أو ينظرون إلى ما حولهم وهم ركع ولا يزالون يتعبدون. والواقع أن هذه الصلاة صلاة أسلوبية لا تتغير، بل تتردد وتتكرر بين الناس بدرجة أنها أصبحت تحاكي التمثيل الصامت المضحك. وعندما عاد البك فجلس على الأريكة (الصفة) والخدم منهمكون يصفُّون الصحون، صار يسبِّح باسم الله وينقطع عن التسبيح في فترات ليبدي بعض الملحوظات التافهة.

٣١ أيار:

قضيت صباح اليوم مع عبد الله باشا، وذهبت بعد الظهر لمشاهدة المصارعة وكانت الساحة مكتظة بالجمهور واعتلى بعض المشاهدين الجدران حيث سمح للجميع بشهود المباراة. وقد تصارع بعض المتبارين على الطريقة القروية دون إلمام كبير بأصول المصارعة، إلا أن الكرد سرّوا لما شاهدوا وكان عثمان بك أكثرهم سروراً. وكان اثنان من المصارعين من رجال عزيز آغا ابن مصرف الأكبر، وهو شاب لطيف أعجب بي الإعجاب كله. وقد ناصرت رجاله ضد رجال البك، ولكن الحظ لم يسعفني في مناصرتي لهما إذ طرح الاثنان أرضاً. هذا وإن الكرد أشد الرياضيين الذين أعرفهم عزماء سواء أكانوا صغاراً أم كباراً، شباباً أم شيوخاً؛ والرياضة هواية الشعب المستحبة لديهم. وقد جمع البك جماعة ليجيئوا داري بغية إظهار حذقهم في لعبة السيف.

وعند رجوعي إلى الدار، أرسلت له هدية من أجود مسدساتي وقد سرَّ لذلك كثيراً غير أنني علمت أنه لا يحتفظ بما يُهدى إليه أكثر من شهر واحد، وأن من يطلب منه حاجة يملكها، إنما يطلبها وهو متأكد من نواله إياها. غير أني جعلته يعدني بأن يحتفظ بهديتي تلك للذكرى.

١ حزيران:

دخل رستم أفندي المدينة صباح اليوم، دخولاً رسميًا قادماً من بغداد وبصحبته حسن بك، وقد خرج الباشا من المدينة مسافة ميل واحد لاستقباله، إذ كان الأفندي يحمل الخلعة إليه من باشا بغداد. ويظهر أن باشا بغداد الذي أغوى حسن بك في ولائه وإخلاصه قد بخس حقه وباعه ثانية وسلمه إلى أخيه المستاء بدون قيد أو شرط. ومن حسن حظ حسن بك أن أخاه لم يكن تركيًا أو إيرانيًا. فقد جيء بحسن بك إلى السليمانية سجيناً بحراسة مائة كرجي لازموه ليلاً ونهاراً حتى وصوله المدينة، وكان الانكسار ظاهراً على وجه صاحبنا الشاب، وفي الواقع إن محياه لا ينم إلا عن الحمق، وعلى كل فإن الطريقة النكراء التي اتبعها الأتراك في إطلاق سراحه كانت في صالحه إلى حد ما. وقد عبر السليمانيون عن بكرة أبيهم عن ازدرائهم لباشا بغداد لتسليمه.

لقد قابلت اليوم بعد الظهر في الميدان سليمان بك أصغر إخوان الباشا، فهو وعثمان بك والباشا من أم واحدة من العائلة البابانية وهي شقيقة خالد باشا، أما حسن بك فمن شقيقة كيخسرو بك من عشيرة الجاف، وسليمان بك في الثلاثين من عمره، إلا أنه يظهر أكبر سنًا مما هو في الواقع، وهو أطول إخوانه الآخرين، وقور، ذو طلعة وديعة وسيمة وذو طباع رقيقة لا تصنُّع فيها.

وكان باقر خان من بين الحاضرين أيضاً إلى الميدان، وكان النشاط والمرح باديين عليه على الرغم من حوادث اليوم ومن الانقلاب الكلي الذي وقع في صالح الأتراك. هذا ولا يزال بعض الغموض يحيط ببقائه في السليمانية حتى الآن، الأمر الذي لم أستطع أن أسبر غوره. وقد تكلمنا عن البختياريين الذين لا شك في أنهم كرد كما كنت أحسب ذلك من قبل، ولقد سبق للكثير من الحاضرين التحدث إليهم. ولقد عاش باقر

خان وهو كردي كذلك بين البختياريين كثيراً، ويقول إن لغتهم لهجة كردية لورية، وإنه يستطيع فهمها عند تكلمهم بها. وهذا يتفق مع كل ما كنت أحسبه.

٢ حزيران:

لقد بدأت غلة الشعير تتوارد إلى المدينة. وقد تأخر الحصاد قليلاً من جراء تأخر سقوط الأمطار. وظهرت بواكير الخيار في الأسواق الآن ولكنها لا تزال نادرة غالية الثمن، كما نضج بعض التوت، أما الحنطة فلم تنضج بعد وستحصد في أواسط حزيران أو أواخره.

وعند ذهابي اليوم لتهنئة الباشا على نواله الخلعة وجدته جالساً في ساحة معشوشبة في جانب من القصر وهو مبتهج جدًّا. وأخبرني بأنه قد أمر بإقامة بعض مباريات المصارعة لإيتاسي أما هو فلا يستذوق مثل هذه الأمور البتة.

وكان حسن بك الأخ الهارب في حضرته. إن إعجابي بمظهره أقل من إعجابي بمظهر إخوانه. لقد كان يتمتم بالأدعية طوال الوقت ويبدو أنه قد استعاد حالته الطبيعية تماماً بعد المأزق الذي كان فيه، أما قصته الأخيرة فهي: إنه كان الأخ المقرَّب لمحمود باشا إلا أن داود باشا بغداد بدأ في العام الأخير بمراسلته سرًّا ساعياً وراء إغوائه على عدم موالاة أخيه وشق عصا الطاعة عليه، وقد نجح الباشا في ذلك آخر الأمر، فهرب حسن بك إلى بغداد حيث استقبل فيها استقبالاً فريداً في بابه، وبعد مدة وجيزة أسندت إليه باشوية (كوى سنجاق) إلا أنه استدعي من منصبه ذاك بعد بضعة أسابيع إذ وجد باشا بغداد أنه من المستحيل عليه أن يتحدى محمود باشا والإيرانيون يشدون أزره. وأخيراً عندما علم أنه لا خير يرجى من حسن بك قبل أول عرض موات عرضه عليه محمود باشا وسلم حسن بك إلى أخيه المغتاظ عن حق دون الاكتراث بمصير حسن بك. وإيضاحاً

لهذه الصفقة أضيف إلى ما جاء في أعلاه أن أحد ضباط محمود باشا كان قبل اثني عشر شهراً تقريباً يفاوض داود باشا في بعض الشؤون، وبعد أن أظهر داود باشا بعض التعنت نزل في الظاهر عند رغبة الرئيس الكردي وقال لرسوله: «أقسم بالله وبرأس ولدي يوسف، أنني أعتبر محمود باشا كولدي يوسف، وأنني أحبه محبة الوالد لابنه، وأن مصالحه أدنى ما تكون إلى قلبي»، ولكنه كان قد صح منه العزم على مناوأة محمود باشا وكان في الوقت ذاته منهمكاً في مراسلاته السرية مع حسن بك التي كان يستهدف بها خيانة الرجل «الذي يعتبره كولده يوسف» والقضاء عليه. إن هذه قصة لا شك فيها، وهي إحدى القصص العديدة المتشابهة التي يمكنني روايتها عن داود باشا والتي تكاد تنطبق على جميع الرؤساء الأتراك الذين عرفتهم.

لقد بدأ عثمان بك وكثير من شبان الكرد الجريئين يتمرنون منذ يومين على تمارين السيف، لعرضها عليَّ غداً. لقد كان موعد إقامة الحفلة مساء اليوم، ولكنها أجلت من جراء زيارتي الباشا.

٣ حزيران:

ذهبت صباح اليوم للترحيب بمقدم رستم أفندي إلى السليمانية، وفي العصر اجتمعت زمرة السيافة في داري. لقد علقوا بحبل رزمة من اللبد ذات أربعين طية بعد نقعها بالماء وصال عثمان بك الصولة الأولى وبضربة سهلة شطر الرزمة شطرين فأعقبه حسن بك وهو شاب أنيس فقصم الرزمة أيضاً، ثم جاء عزيز آغا فنجح كقرينه. ثم علقوا رزمة أخرى ففشل عثمان بك في ضربته وإن لم يبق من طيات اللباد إلا على اثنين أو ثلاث، وفشل أيضاً كل من عزيز آغا وسليمان بك. ثم صال عثمان بك صولة أخرى إلا أنه كان في هذه المرة مهتاجاً وإذا بنتيجة صولته الثالثة أسوأ من نتيجة الثانية. ثم تقدم عزيز آغا بلفة مقطوعة من اللبد فبسطها

ووضعها على الأرض وقطعها بضربة واحدة وقلده أخوه عبد الرحمن فيما فعل. وأرى في هذه الطريقة الأخيرة عملاً أبهر من بتر اللباد المعلق. لقد سألني البك عما إذا لم تكن هذه أفضل من الطريقة التي نتبعها، فأجبته أنها طريقة لا بأس بها لو استكان غريمك لتقطع أوصاله، كما تستكن رزمة اللبد، وأريته كيف أنه إذا أخطأ الضربة يمسي تحت رحمة خصمه الذي يعرف كيف يستعمل سلاحه، كما هو المتبع في أسلوبنا، فظهر أنه اقتنع أخيراً بأن ما قلته هو الحقيقة، إلا أن عزيز آغا لم يقتنع بذلك.

٨ حزيران:

وصل في اليوم الرابع من الشهر المستر (به ل)[١] ومنذ ذلك اليوم وأنا أزور أصدقائي الكرد واستأنس معهم، ولم أجد ما يجدر ذكره، وقد جعلني تأثير الرياح الشمالية الشرقية المتعبة أعزف عن الكتابة. ولقد تحدثت بعد ظهر اليوم مع عمر آغا ومحمود آغا بعض الوقت في زراعة كردستان. يتراوح إنتاج الحنطة الاعتيادي للحبة الواحدة بين الخمس والعشر، وقد يكون خمس عشرة إلا أن ذلك يعد غلة غير اعتيادية. وكانت غلة العام الماضي شحيحة لم تنتج إلا اثنتين للحبة الواحدة، والحنطة والشعير يزرعان بالتناوب في الأرض الواحدة، والكرد يزرعون معتمدين على المطر، ويسمى هذا النوع من الزرع بالديم[٢] وهنالك نوع

---

(١) تعين المستر (به ل) من قبل حكومة بمباي جراحاً لدار المقيم في بغداد ومعاوناً له ونظراً لاعتلال صحته التحق بالمستر (ريج) في كردستان للاستفادة من هواء الجبال. إن خلقه الجذاب، وطبعه المنعش الرزن، وحبه للتجوال وتعطشه للأخبار والمعلومات مما يجعله أن يكون أحد أفراد جماعة المستر ريج المحبوبين وقد استفاد المستر ريج أخيراً من كفايته الطبية وشفقته المتأصلة ـ الناشرة.

(٢) يجب أن نتذكر أن أكثر المزروعات في الشرق إنما تروى بالوسائل الاصطناعية كالسواقي والأقنية مثلاً.

من الحنطة تسمى (بهاره) يبذر في الربيع ويحتاج إلى الري الاصطناعي، ولا تترك الأرض في السهول بواراً، بل تزرع حنطة أو شعيراً بالتناوب، أما في الأراضي التلية فيجب مراوحة التربة بين سنة وأخرى، أما القطن فيجب أن لا يزرع قط مرتين متواليتين في الأرض الواحدة ويغلب زرعه مع التبغ مناوبة.

والقطن كله من النوع السنوي (بكسر السين) وهو يحتاج عادة إلى الإرواء على أن قسماً منه يزرع في التلال ديماً. ويستعمل السماد في تسميد الكروم والتبغ فقط. أما الشلب فلا يشتل سنين متعاقبة في الأرض الواحدة، التي يمكن الانتفاع بها في زرعها بحبوب أخرى وأكثر ما يزرع في منطقة شهرزور، ولا يزرع القنب أو الكتان في كردستان. ولقد أخبرني عمر آغا بأنه بذر في هذه السنة قليلاً من بذر الكتان حصل عليه من حاج جاء به من مصر. وتزرع أيضاً في كردستان الذرة الهندية والذرة البيضاء كما يزرع العدس والحمص والدخن ونوع أو نوعان من الماش. أما أفدنتهم فيجر الواحد منها ثوران.

ولا تنمو أشجار البرتقال أو الليمون في كردستان، وذلك لأن حرارة الصيف تتجاوز حد الاعتدال حقًّا، أما برودة الشتاء فقارصة بالنسبة لهذه الأنواع من الأشجار. لقد جلب الباشا أخيراً بعض أشجار البرتقال الإشبيلي والليمون الحلو من بغداد لجنينته الجديدة ولكن الشتاء الأول أماتها كلها، ويزرع شجر الخروع في جميع أنحاء كردستان، وقد يزرع أحياناً في مزارع منفردة وأحياناً مع القطن سوية.

١٠ حزيران:

لقد انحرفت صحتي كثيراً في اليومين الأخيرين وأعتقد أن السبب الرئيسي لذلك هو الحر إذ إننا عائشون الآن في خيمة حتى يتم إنشاء مسكن صيفي كردي لنا، ـ جارداغ ـ وحرارة الشمس تنفذ قوية إلى داخل

الخيمة من جنفاصها حيث ترتفع إلى ١٠٣ أو ١٠٤ درجة، ولا ترتفع في السيباط إلى أكثر من ٩٢ درجة.

اقترح الباشا اليوم إقامة حفلة استعراض خيل على إثر رجوع أكثرها من المراعي، فاعتذرت عن الحضور لأن النية كانت منصرفة لإقامة الاستعراض في أشد ساعات النهار حرارة، فأرجىء الاستعراض. وما كنت أتصور أن الغرض من كل ذلك هو تسليتي ولو علمت ذلك لحاولت حضور الحفلة، وحالما علم الباشا بانحراف صحتي زارني فوراً دون أن يخبرني، وبسرعة لم تفسح لي مجالاً لإخراج الحرس إلى باب الدار قبل وصوله إليها، فجلس معي مدة ساعة ونصف ساعة، وأخبرني بأن باشا بغداد طلب منه أن يبني حصناً واعداً بتجهيزه بالمدافع والمهمات. ولذلك رجاني أن أركب جوادي لأبحث عن مكان قريب ملائم لإقامة الحصن، كما طلب مني أن أعاونهم في تخطيطه فوعدته بذلك حين استعيد صحتي. ثم انتقل الباشا إلى بحث علم الفلك عند الأوروبيين، وهو موضوع تطرق إليه من قبل مراراً عديدة. وقد استفسر بوجه خاص عن جبال القمر وقال بأنه تعلم من دينه بأن القمر قطعة من الحديد جلاها القادر الأعظم لتعكس أشعة الشمس على الأرض. وقد أمر (المنجم باشي) أو رئيس الفلكيين أو المنجمين أن يعد لي خريطة العالم على الطريقة الشرقية ففعل وأعطانيها، وكانت في الحقيقة مرسومة رسماً جيداً.

ودعاني الباشا إلى الذهاب إلى القصر غداً لأحضر حفلة القطع بالسيوف إذ إن عثمان بك ما زال منذ الحفلة الأخيرة يعد نفسه لذلك وقد رجاني أيضاً أن أريه تمارين السباهيين ـ الجنود الهنود.

١١ حزيران:

دشنا اليوم سياطنا ـ جارداغ ـ وكان طوله ثلاثين قدماً وعرضه ١٥ قدماً تقريباً، وهو يكاد أن يكون بدائيًا في هندسته إذ غرزت في الأرض

ثلاثة صفوف من الأعمدة، كل صف من أربعة أعمدة ذات رؤوس متفرعة إلى فرعين، وارتفاعها سبع أقدام تقريباً، ووصلت هذه الرؤوس بجسور ووضعت عليها العوارض وكومت أغصان السنديان وأفنانه على تلك العوارض بارتفاع قدمين أو ثلاث أقدام، يعلوها بعض الآجر لتثبيتها في محلها. وبعد أن تم إنشاء السيباط فرشوا الأرض، وعملية الفرش هذه بدأت أولاً بطبقة من الطين الاعتيادي ملط بعد جفافه بطبقة من الطين الأحمر الممزوج بالتبن، وأحيطت الأرض بكاملها بدكة بارتفاع ست عقد. فهذا المسكن وغيره من أحجام مختلفة هو النوع الاعتيادي من المساكن التي يقطنها الكرد خلال أشهر الحر. وهم يمدون فرشهم على السطوح ليلاً ويتقون أنظار الغير بسياج من القصب اسمه (جيغ) ينفذ الهواء من خلاله. ويكون عادة في وسط أكبر السرادق وأنظمها حوض، تتوسطه أحياناً نافورة ماء تلطف الهواء كثيراً.

أقيمت حفلة لعبة السيوف في هذا المساء في قصر الباشا، ولكنها لم تنل النجاح المنشود. وقد دار حديث آخر بيني وبين الباشا في الفلك. ولقد أشاع منجمه عني بأنني لست دون مه سكه لاين (Maskelyne) أو هه رشه ل (Herschel) في براعتهما. وكان المفروض أن يبدأ صيام رمضان في اليوم الثالث عشر، إلا أنني أكدت للباشا بأن الهلال قد هلّ، وقد أنبأته عن الساعة والدقيقة التي هلّ فيها فأمر بعد أن فارقته ببدء الصيام اعتباراً من الغد.

١٥ حزيران:

نظراً لحلول شهر رمضان، جلست في الدار من التاسعة بعد الغروب حتى منتصف الليل مستقبلاً الزائرين، إذ إن المسلمين يجعلون ليلهم نهاراً خلال شهر الصيام فينامون في النهار ويقضون ساعات الصيام بالاعتكاف وتلاوة القرآن ويكرّسون الليل للأكل واستقبال الزوار.

كانت تسليتنا ليلة أمس الاستماع إلى عزف من كرديين فلاحين على الـ(بلوير) أو مزمار الكرد المصنوع من القصب، وقد عزفا سوية وكانت الأنغام خافتة شجية، إلا أن الألحان كانت حزينة ورتيبة مملة إلى حد ما، وكانت أحسن الألحان أغنية اسمها (ليلي جان) وأخرى تبتدىء بكلمات (ئه زده نالم)[1].

وقد أراد أحد خدم مهمانداري أن يغني، فبدأ بأنشودة كئيبة مؤلفة من أبيات شعرية عديدة، وكان يصل بين شطري البيت الواحد بنحبة وينهيه بشهقة، أما الأغنية ذاتها فكانت تمثل العويل.

ويسمى مزمار الراعي الكردي بالشمشال وهو مصنوع من الخشب المخروط وصوته عال، إلا أنه غير مستنكر، ولا سيما عندما تردد الجبال صداه، وللرعاة نداءات خاصة لجميع أغنامهم، ويقال إن هذه الأغنام تدرك معنى تلك النداءات الإدراك كله. وهذا المزمار يحتاج إلى نفس عميق يخرج العازف عند العزف عليه صوتاً أشبه بالهمهمة وذلك بشدة التضييق على نَفَسه. وقد غنى لنا كوراني من (سنه) أغنية سنوية كانت أشبه بصرخة حزينة، وقد أبان السليمانيون الحاضرون أنهم لم يفهموها إلا قليلاً.

---

(١) وما عدا هذه كثيراً ما أنشدت لنا أغانٍ كردية مشهورة كـ(مه م كوزه به ناز) (Mem Kuzha Ba Naz) و(مل كي جان) و(آزيزي).



١٣٠

الفصل الخامس

الجندي الروسي الباسل - قسوة أمير كرمنشاه - التقي المسلم العظيم - منتجات كردستان الطبيعية - تقوى محمود باشا - قصة - توقيف عبد الله باشا - العيد - العشائر الكردية - قصة - عشائر بلباس - العوائل الحاكمة في كردستان

* * *

٢٤ حزيران:

تزاورت والباشا وعثمان بك وصحبي الآخرون (وكانت كلها ليلية) في الفترة منذ أن دونت يومياتي الأخيرة، إذ كنت منحرف الصحة فتجنبت الكتابة، وإنني لا أذكر الكثير مما يستحق التدوين. لقد كانت أغلب أحاديث الباشا، منذ حلول شهر رمضان تصطبغ بصبغة دينية، وهو يظهر تمسكاً بتقواه وبإيمانه تمسكاً يفوق المعتاد، دون أي تعصب أو كبرياء مما يظهرهما أي تركي أقل تعبداً منه.

قال لي الباشا: «إن أشجع رجل عرفته في حياتي كان جنديًّا روسيًّا مسكيناً، رأيته عندما رافقت الأمير محمد علي ميرزا في غزوه بلاد الكرج، وكان هذا الرجل حامل رسائل، أسره الإيرانيون واقتادوه إلى

الأمير الذي استجوبه عن واجبه، فأجابه الجندي: إن واجبي تتضمنه الرسائل التي أحملها وهي باللغة الروسية، فاقرأها إذا تمكنت. ولما رأى الأمير عدم إمكان الحصول على أية معلومات منه كلفه أن يعتنق الإسلام فرفض الجندي التكليف فهدده الأمير بأقسى أنواع التعذيب، إلا أن عزم الرجل لم يهن مطلقاً، فأمر الأمير عندئذٍ بحفر قبر، وفي مدة الحفر كان الجندي يضحك ويتكلم مع من كان حوله دون أي اكتراث. وبعد أن أعد القبر عاد الأمير فسأله عن رغبته في الإسلام، وعلى إثر رفضه ذلك أمر الأمير أن يقبر حيًّا فقبر على الرغم من مسعاي للحيلولة دون القيام بذلك العمل الوحشي. إنه من المؤسف مشاهدة امرىء طيب، شجاع، يضحي من أجل دينه. ترى ما دخل الأمير بمعتقد ذلك الرجل؟...».

وعلى أثر سماعي هذه القصة الفظيعة، لم يسعني إلا أن أفكر بأنني لو كنت قائد جيش روسي وأتيح لي أسر الأمير لما ترددت لحظة في شنق سموّه على أول شجرة نمرُّ بها.

قضيت مساء أمس أيضاً مع الباشا، نتحدث في مواضيع شتى. وقد أخبرني بأن الأهلين في كردستان معرضون إلى حمّى يسمونها (كه راني تي Gheraniti)[1] ومعناها التوعك، وهي تستمر ثلاثة أو أربعة أيام وتنتهي بعرق غزير تاركة المريض بعد ذلك في حالة هزال شديد. وتظهر هذه الحمى في الربيع عادة، ويندر أن تقضي على من يصاب بها.

ويقطن السليمانية مسلم زاهد كبير، اسمه الشيخ خالد، إلا أن الكرد يعتقدون أن من الامتهان أن ينعت بغير (حضرة مولانا) وأنهم يعترون أقواله اعتبارهم «الأحاديث». وهو من عشيرة الجاف، نقشبندي

---

(١) والأصح (كرانه ـ تي Grane- Te) أو (كرانه ـ تا Grane- Ta) ومعناها الحمى الثقيلة أو الشديدة ـ المترجم.

الطريقة، انتسب إليها في (دلهي) بإرشاد الصوفي الشهير سلطان عبد الله، وله من المريدين (١٢٠٠٠) مريد في مختلف أنحاء تركيا والبلاد العربية. والكرد جميعهم يعتبرونه وليًّا، والكثير منهم يضعونه في صف نبيهم. وقد قال لي عثمان بك، إنه هو والباشا وجميع زعماء الكرد تقريباً كلهم من مريديه، فهو على الأقل في منزلة واحدة مع الولي المسلم الشيخ عبد القادر[1] الشهير.

٢٥ حزيران:

جرى حديث طويل بيني وبين عمر آغا في الليلة الماضية عن منتجات كردستان الطبيعية. إن مدينة كركوك هي السوق التي ترسل إليها جميع منتجات هذا القسم من كردستان، لا من قبل الكرد أنفسهم بل من قبل الكركوكيين الذين يأتون السليمانية لهذا الغرض، ويسلّفون المزارعين المال لقاء شلبهم وعسلهم وغيرهما. وكردستان تنتج مقداراً

(١) جاء في مذكرة سابقة للمستر ريج دوّنها في بغداد، الوصف التالي لرجل آخر من طائفة من طوائف الدراويش المسلمين الغريبة «جاءني اليوم (٧ كانون الثاني ١٨١٧) أحد مريدي سلطان حسن وهو درويش مشهور. وقد تكلمنا عن شيخه الذي كال له المدح جزافاً؟ وقال: «إن السلطان يا سيدي - ويعني الدرويش - يدرك كل شيء بالمعجزات فإذا كلمته بلغتك فهمك وإن لم يتكلم بها من قبل. وهو ملم بجميع العلوم دون درس، بل إنه يعلم حتى ما يجول بخاطرك، وإذا ما نويت استشارته أجابك على ما تضمر قبل أن تنبس ببنت شفة. وهو يعلم الآن بأننا نتكلم عنه في هذه اللحظة، كما أنه يتمثل للناس في أحلامهم، وحتى في اليقظة أيضاً وإن كانوا في الهند أو في إيران..» وقد أكد لي الرجل مخلصاً اليوم (١٧ كانون الثاني) «بأنه شاهد وحادث خضر إلياس - الذي يعتقد المسلمون بأنه لا يزال حيًّا وأنه يطوف الأرض، ويظهر نفسه للدراويش أحياناً، وهو راعيهم وحاميهم الخاص. وأكد لي صاحبي أن خضر إلياس استصحبه مدة يومين متواليين لإراءته الطريق».

كبيراً من أجود أنواع العسل، ويحفظ النحل في خلايا من الطين. وتنتج كردستان الكثير من العفص لا سيما من غابات البلوط في (قه ره داغ)، ويصدَّر العفص إلى كركوك ومنها إلى الموصل. والأشجار التي يسيل منها الصمغ العربي، تنبت برية في الجبال، وأزهارها عنابية اللون تسمى (كه و ه ن ـ Ghewun).

ويتكون المن على أشجار البلوط، ويقال إن أشجاراً عديدة أخرى تنتجه أيضاً، ولكن بمقدار غير وفير ومن نوع غير جيد، ويجنى المن بجمع أوراق الشجر وتجفيفها ونفضها نفضاً رفيقاً ليتساقط منها على مفرش من القماش، وهكذا يصدَّر إلى الأسواق بكتل ممزوجة بالكثير من سقط الأوراق الذي يتقى منه بعد غليه. ويوجد نوع آخر من المن يعثر عليه فوق الصخور، وهو نقي أبيض مرغوب أكثر من المن المتساقط على الشجر. ويبدأ موسم المن في أواخر حزيران، ويقول الكرد إنه إذا بردت الليالي في موسمه أكثر من المعتاد نزل المن من السماء، وهم يزعمون العثور عادة على أكبر مقدار منه في صباح كل ليلة من تلك الليالي. وقد ذكر لي عمر آغا أيضاً أسماء عدة أشجار وحيوانات بالكردية وها إنني أدونها مع غيرها من الكلمات التي تعلمت معانيها، ويظهر لي أن الكثير منها فارسي:

(الزعرور، أو زعرور الأودية: كويز Goizh =) و(اللوبانة المغربية، أو القتاد: خوزيلك Khuzhilk =) و(النسرين أو الجلنسرين: شيلان ـ Shilan) و(البرسيم أو الجت: سي به ر ه Seipara =) و(الخطمى: هيرو ـ Heiro) و(عباد الشمس: كول روزيان بره ست = Gul Rozhian Parast ـ والصحيح كوله به روزه: Gula Ba Rozha: المترجم) و(الشقائق: ديزيلك Dizilk =) و(الحسك أو الفرقد[1]:

(١) يعطي الكرد هذا الحسك، أو الفرقد علفاً لخيلهم، بعد سحقه سحقاً تامًا وتنقيعه، =

كه و ه ر Kiwar ـ والصحيح كنكه ر، والكه و ه ر هو الكراث؛ ـ المترجم) و(اللفلاف: لولان ـ Lulan والصحيح: لاولاو ـ المترجم). و(الحور أو الدلب: سبيدار ـ Spidar) و(الصفصاف المستحي: شوره بي ـ Shorabi) و(شجرة التربنتينا: داري به ن Dariben) ـ وقد تلتبس بشجرة البطم إلا أن البطم هو في الكردية «قه زوان»، وشجرة التربنتينا أكث ولا تثمر ـ المترجم).

وتنمو أشجار التربنتينا في الجبال، أما التربنتين فيجمع منها بجرح الشجرة في الربيع، ووضع أكواز تحت شقوق الجروح لينسكب فيه سائله، وهو من النوع الجيد جدًّا. ويسمى عندهم أبو الحناء (عصفور أحمر الصدر) بـ(فه نده كوله ـ Fandagula)، والصحيح (فيرنه كوله ـ المترجم)، والسلحفاة بـ(كي سه ل) وسمك اللوت أو النقط بـ(كاشي نه). ويوجد هذا الأخير بكثرة في أغلب الجداول الجبلية. ويسمى السماني، أو السلوى بـ(قاراواره ـ Karawara)، وهنالك نوع من الحجل أصغر من الحجل ذي الأرجل الحمراء، وهو ذو لون مائل إلى الزرقة، أو أنه ذو لون أربد اسمه (Söiske سوس كه ـ الأبلق)، ويسمون العنب بـ(ترى)، والوادي بـ(دول) والسيد بـ(بايه)، أما سيدات العوائل الحاكمة فيطلقن على أنفسهن لقب (خانم) وأما لقب السيدات الكرديات الأخريات فهو الـ(بايه)، والظاهر أن هذا هو التعبير الكردي الأصلي للسيدة، وليس للرجال من نعوت في الأصل فكلهم بكوات أو خانات أو آغوات.

١ تموز:

زارني الباشا مساء هذا اليوم. وهو ولا شك، وبدون استثناء، أبعد المسلمين الذين عرفتهم عن التصنع، وأتقاهم فعلاً. وقد قص عليَّ هذه

= وذلك عندما يشحّ لديهم الشعير، وهم يقولون إنه يغذي الخيل تغذية حسنة.

الليلة قصة، لا تبجحاً منه، بل ذاكراً واقعة حدثت له تبين فوائد الإيمان بالله وتمثله أصدق تمثيل. وإني سأسعى لرواية القصة كما رواها لي قدر المستطاع؛ ولو ذكرتها بغير تعابيره البسيطة الدينية لفقدت الكثير من قيمتها. قال لي: «حين كنت رهينة في كرمنشاه عن ولاء والدي المرحوم، اضطر والدي إلى تأييد المصالح التركية بحكم الظروف، وهكذا أصبحت حياتي مهددة، فأرسل الشهزادة بطلبي ليقتلني وكان الوقت ليلاً، فاقتدت إليه مكتوفاً، وكان الأمير جالساً في بهوه الذي تضيئه شموع وضعت في وسطه وكان الجلاد واقفاً متأهباً لإنجاز واجبه. وأقول في هذا الصدد إن الكثير من الرجال الذين يجابهون الموت في ساحة الشرف، قد يتملكهم الهلع إذا ما أخذوا إلى الجلاد مكتفين. لقد كان مشهداً مرعباً: «لا أراكه الله» وإنني أعترف بأن قواي قد خارت وخانني جلدي حينذاك. ولكنني وأنا في كربتي تلك حثَّني وعي للاستنجاد باسم المولى جل شأنه، فشعرت من فوري بالطمأنينة تغمر نفسي وكأن الكلمات التالية قد رن صداها في خلدي: «ألم أكن أنا الذي أخرجتك من بطن أمك، ووقيتك من الأخطار حتى الساعة؟ ألست بالقادر على القضاء عليك في أية لحظة أشاء؟ إذن لم هذا الخوف؟ أيسع الرجل أن يسيء إليك إلا بإرادتي؟» وفي تلك اللحظة شعرت بالراحة، وطرح الفؤاد عنه الوجل فوقفت أمام الأمير دون خوف أو هلع. وإني لأبتهل إلى الله الذي جعل الأمير المصر على قتلي عندما طلبني يعدل عن رأيه ويأمر بإرجاعي إلى السجن دون أن أصاب بسوء...».

وبينما كنت جالساً في الليلة الماضية بين جماعة كبيرة في دار عمر الخازندار، وقد مر المساء بهدوء ودفء، وانهمك الجمع كله في الحديث، هبت في اللحظة التي طلع فيها القمر في حوالي الساعة العاشرة ريح شديدة الحرارة من الشمال الشرقي، فوجمت الجماعة من فورها كأنها شعرت بهزة أرضية على حين غرة ثم قال الكل بنبرة كئيبة

«لقد هب الشرقي..»[١]. حقًّا لقد كانت تلك الريح، هي الريح الشرقية المرعبة، ولقد استمر هبوبها منذ تلك اللحظة بسرعة شديدة من الشرق والشمال الشرقي، وكانت حارة حرارة سموم بغداد. إلا أنني أعتقد أنها أخف وطأة، وأبعث إلى الكسل. وهذه الريح بلية هذه البقاع، ولولاها لكان مناخ السليمانية مناخاً لطيفاً جدًّا.

تقع مدينة السليمانية في منخفض يبعد مسافة ميلين تقريباً عن حضيض سلسلة التلال الشرقية التي تنحدر سفوحها الركمة نحو المدينة التي شيدت في سفح منها يكاد أن يكون وهداً. أما التلال المجاورة فجرداء شديدة الميل قد يبلغ ارتفاعها الثلاثمائة ياردة تقريباً، وهي بمثابة مرايا عاكسة لأشعة الشمس التي تسطو عليها طيلة أيام الصيف من السابعة صباحاً حتى الغروب، وتنقل الريح التي تهب على سفوح تلك التلال حرارة تلك السفوح معها إلى المدينة عند هبوبها من الشرق والشمال الشرقي. وعند شرق المدينة تنعطف هذه التلال قليلاً إلى الوراء فلا تجعل الريح الجنوبية الشرقية رديئة كالريح الشمالية الشرقية، وهي شر البلايا. وتتميز الريح الشرقية هذه بكونها ساخنة تبعث الفتور على حد سواء في البقعة طوار خط التلال هذا. ولكن تأثيرها لا يصل غرباً إلى أبعد من نهر (تانجرو). وإذا ما عبرت مرتفعات التلال انقطع عنك تأثيرها كليًّا. وتسود هذه الظاهرة الطبيعية (كوى سنجاق) أيضاً التي تقع في وادٍ ضيق يضاهي وهد السليمانية مظهراً، إلا أن التلال فيها أكثر ارتفاعاً، وريحها الشرقية أقوى وأكثر حرارة، ويندر أن تهب هنا هبوباً شماليًّا. أما الجهات الغربية فمناخها كلها ملائم. ويجب عليَّ الآن أن أذكر حقيقة غريبة في بابها لم يهدأ لي بال حتى تأكدي منها باستقصاء طال أمده: يسود الهدوء الجو[٢]

---

(١) عندما هبت الريح ارتفعت درجة الحرارة ١٠ درجات، أي من ٨٠د إلى ٩٠د.

(٢) يقصد جو السليمانية ـ المترجم.

عند الفجر عادةً، وبارتفاع الشمس فوق التلال تهب من الشرق ريح خفيفة يستمر هبوبها حتى الزوال. وعند الظهر يهب عادة من الجنوب نسيم أو قل هبّة ريح قوية أو هبتان قويتان. وإذا ما مالت الشمس إلى الزوال انتقل الهبوب إلى الغرب. وقد وجدت الإصباح مما لا يرتاح إليها المرء، أما الأعصر فبهيجة جدًّا، يهب عندها نسيم عليل من الغرب. وإنني لاحظت هذه الظاهرة الجوية في جميع الأيام التي لا تهب فيها الرياح الشرقية، أما أشد ساعات النهار حرارة فتبدأ مع الظهر وتنتهي في الثالثة بعده.

٦ تموز:

كنت في ليلة أمس مع عثمان بك وقد وجدته شارد البال، منقبض النفس كثيراً بالرغم مما بذل من جهد كبير لمكالمتي وإيناسي. وقد لاحظت الحالة ذاتها عند الباشا الذي قضيت مساء اليوم السابق معه. وبعد أن غادرت مجلس عثمان بك بقليل وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة قبل منتصف الليل، أوقف عبد الله باشا، وحجز في غرفة منعزلة عن حرم القصر، وقد سارت في الوقت ذاته مفرزة بقيادة سليمان بك للقبض على إخوان عبد الله باشا الذين يقطنون في مقاطعتهم في منطقة غرب السليمانية. والدافع لهذا العمل كما علمت هو:

عندما قرر محمود باشا في نهاية الأمر، وقبل زمن قصير، الاستسلام للأتراك، ذهب بصحبة عمه عبد الله باشا وأخويه عثمان وسليمان إلى الشيخ خالد رجل السليمانية التقي الكبير آنذاك. وأقسم هؤلاء الثلاثة يمين الولاء لمحمود باشا. ونظراً لتوقعهم محاولة أمير كرمنشاه استمالة أحدهم إلى جانبه وتحريضه على الباشا ومناوأة الأتراك، أقسموا على السيف والقرآن وبالطلاق[1] بأنه إذا تلقى أي منهم كتاباً من

---

(١) وهذا نص القسم «امرأتي طالق مني إذا حنثت بقسمي».

تركيا أو إيران فإنه يفتحه في دار الشيخ خالد وبحضور من اتفق على ذلك كلهم. وكان عثمان بك أول من اختبر في الأمر، إذ تلقى بعد مدة قليلة كتاباً من الشهزادة يدعوه به إلى كرمنشاه ويعده بتقليده منصب باشوية السليمانية. وقد أبلغ عثمان بك أخويه بهذا الكتاب من فوره وتسلم عبد الله باشا كتاباً آخر بذات المعنى، ولكنه أخفاه عن الآخرين خلافاً للاتفاق الذي تم بينهم. ولم يعلم محمود باشا بحقيقة هذا الكتاب إلا بعد أن أنبأه به ساع سريع أرسله باشا بغداد الذي عرف بأمر الكتاب بطريقة ما، والذي أوصى محمود باشا بإلقاء القبض على عمه. ما كان محمود باشا ليصدق الخبر في بادىء الأمر، وقد رفض رفضاً باتًّا اتخاذ أية إجراءات إزاء عبد الله باشا ولكنه في الوقت ذاته قرر مراقبة حركاته عن كثب، وأخيراً تأكد من «خزنة دار» عبد الله باشا بأن عمه كان يعد العدة للفرار إلى كرمنشاه، فكانت نتيجة ذلك توقيفه.

وفي العام الماضي سلم باشا بغداد عبد الله باشا أو بالأحرى غدر به غدراً شنيعاً بتسليمه إلى محمود باشا، فأمسى عبد الله باشا تحت رحمة ابن أخيه الذي لو كان في موقف المنتقم منه لخف في القضاء عليه سراً أو علانية دون إبطاء ودون خشية حساب، ولكن لم يخطر على بال محمود باشا شيء من هذا القبيل، بل عامله بالحسنى، ومنحه منطقة من أحسن مناطق كردستان ليستعين بمواردها على عيشه، علاوة على تسويته جميع الديون التي أثقلت كاهله خلال مكوثه في بغداد؛ وفي الحقيقة أنه منحه أكثر مما يستحق، هذا إذا اعتبرنا احتياجات عبد الله باشا ذاته ومطالب أعضاء عائلته الآخرين. وعلى ذلك فإن مقابلة هذا المعروف، تلك المقابلة المشينة، لم تكن منبعثة إلا عن حالة سوداوية.

١٠ تموز:

مكث الباشا معي بعض الوقت هذه الليلة، وكان منقبض النفس

كثيراً. وقد تكلم عن أعمال عمه بتأثر عميق، وعن شعوره عند اكتشاف خيانته. وقد دلت المشاعر التي أفصح عنها (وكانت ولا ريب مشاعر صميمية) على درجة من الإحساس والإخلاص وحسن السريرة، لا أتذكر أنني لمست مثيلتها في الشرق مطلقاً، كما أنني أخشى أن لا أجدها في البلاد الراقية كثيراً. وتكلم الباشا عن شؤونه الخاصة واستشارني في الكثير منها.

أشعل علم من النار على التلال المقابلة إعلاناً برؤية الهلال في تلك الناحية، إذن فيوم الغد هو يوم العيد.

١١ تموز:

تحادثت طويلاً مع صديقي الفطن عمر آغا، في أمور عديدة تتعلق بالكرد وبلادهم، وها أنا أدونها كيفما اتفق.

إن الخوشناويين والراوندوزيين متوحشون أغبياء غاية التوحش والغباء، ولا يردهم عن قتل الإنسان وازع، ولكن الصلاة لا تفوتهم مهما كلفهم الأمر وإن كان المعلوم عنهم أنهم يتقاتلون في الجوامع. حدث نزاع على كلب قبل عدة سنين بين رجال منطقتين أسفر عن قتل سبعين شخصاً، قتل منهم ثلاثون في الجامع بعد أن اشترك الفريقان في الصلاة سوية، وهم لا يزالون يتناحرون بين وقت وآخر لأسباب تافهة مثل هذه. ولا ينتهي العراك بينهم إلا بعد أن يقتل بعضهم. هنالك رئيس خوشناوي غاب عني اسمه لا يزال حيًّا يرزق، حطت في يوم من الأيام ذبابة على عينه فأضجرته، فأبعدها فعادت ثانية وثالثة حتى غضب فاستل خنجره وطعن به عينه فأعماها وكاد أن يموت.

ولكل رجل من عشيرة (بلباس)[١] مهما كانت منزلته الحق في إبداء

---

(١) هذه هي أسماء أربعة من عشائر البلباس وهي (ره مك) و(مه نزوور) و(بي ران) و(مامش).

الرأي في الشؤون العامة. فقد تتفق مع الرؤساء البلباسيين على صفقة تجارية، فينهض فجأة أحد أفراد العشيرة ويقول: «لا أوافق على ذلك» وهذا القول وحده يكفي للقضاء حالاً على الاتفاق بكامله. ومن ذلك أن عبد الرحمن باشا بعد أن انتهى من حرب اشتبك فيها مع البلباسيين عقد معاهدة تنص على زيارة كاكا حسن أو الأخ حسن رئيس البلباس السليمانية على أن يبقى سليم بك شقيق الباشا رهينة عند البلباسيين. وعندما شرع كاكا حسن بالرحيل وضع أحد أفراد العشيرة يده على قبضة خنجره وقال بكل هدوء «إذا قبض البابانيون على كاكا حسن فهم قاتلوه لا محالة، وسيفخرون بعد ذلك بإراقة دم رئيس بلباسي، وعلى هذا فمن الأفضل لي أن أقتله بنفسي هنا». وضاعت كل محاولة لرد ذلك الرجل عن غيه سدى، وعلى ذلك امتطى سليم بك جواده وقرر الرجوع إلى منطقته، دون أن يرى باعثاً للتكلم مع كاكا حسن. وبعد أن ابتعد قليلاً، غيَّر الوحش رأيه في الأمر فصار يصرخ من ورائه ويدعوه إلى العودة قائلاً: «خذ كاكا حسن واذهب معه سوية، فإننا لا نريد رهينة، وإن كنتم رجالاً فستعاملونه بالحسنى..»[1] فاستحسن البلباسيون جميعهم هذا الرأي وسار البك وكاكا حسن إلى السليمانية سوية[2].

---

(١) لا ندري أيصح أن نطلق كلمة «الوحش» على رجل هذا موقفه من كرامة عشيرته، وهذا تفكيره في تقدير الأمور واحتمالاتها، وهذا حله لها؟ ـ المترجم.

(٢) فيما يلي بعض المعلومات الإضافية الخاصة بالعشائر البلباسية مستقاة من أحد أفرادها وقد أضفناها هنا نقلاً عن أوراق المستر ريج المتفرقة.

يتألف البلباسيون من العشائر التالية:

١ – (كابايز Kabaiz) العائلة الحاكمة، تتألف من مائتي شخص تقريباً. ٢ـ (مه نزوور). ٣ـ (مامش). ٤ـ (بي وان). ٥ـ (ره ملك). ٦ـ (سن) و(تاقا) وهما يؤلفان عشيرة واحدة. ويسمى رئيس العشيرة بـ(مه زن) ولكل رئيس بعض السراق الذين يسرقون له، ويقدم له أفراد عشيرته الهدايا من الأرزاق من تلقاء أنفسهم وهذا كل =

وبين البلباسيين فئة من القرويين أو التوابع ليس لها الحق في إبداء رأيها في شؤون العشيرة، والعشيرة تعدها فئة وضيعة جدًّا. وإنك لتجد هؤلاء الناس في جميع أنحاء كردستان وهم ليسوا بعشائريين أو قبليين. ورجال العشائر ينعتونهم بـ«كه له وسبي» (Kalawspi) أي ذوي القبعات البيضاء وكذلك بـ(كوران). والاسم الأخير هو اللقب الصحيح لأهالي سنه، ورجال القبائل يصطلحونه للإهانة خاصة عند الإشارة إلى الجبناء. ألم يكونوا هؤلاء سكان البلاد الأصليين الّذين تغلبت عليهم العشائر الجبلية الشديدة البأس؟ وهنالك بعض العشائر المتشردة تابعة إلى حكومة (سنه)، أما الأهلون المستوطنون فهم كورانيون بكاملهم[١].

= موردة. ودية الدم بين البلباسيين اثنان وعشرون ثوراً، وقد تتبدل هذه بغيرها من المتاع الذي يعطى له في الغالب قيمة اسمية تزيد على ضعفي القيمة الأصلية، وذلك عندما يراد حسم القضية حسماً وديًّا. أما قوانينهم فهي عاداتهم العشائرية يمارسها الرئيس ويساعده في ذلك مجلس شيوخ. ولا يعاقب على الجرائم بالإعدام إلا في جريمتي الزنى والإغواء وما يشابه ذلك. ولا يزوج البلباسيون بناتهم برجال من غير عشيرتهم أو من الغرباء، هذا والغزل موجود في حياتهم الاجتماعية، وهروب المحب بحبيبته للزواج منها أمر شائع بينهم. وإذا مات الرئيس منهم استخلفه أفضل الرجال أو أشجعهم من العشيرة، أما إذا كان ولده الأكبر غير كفء على النهوض بأعباء الرئاسة فيخلفه أكفأ إخوانه. وإذا ما نصّب الرئيس لا يمكن خلعه. هذا وسلطات الرئيس معينة لديهم تعييناً ثابتاً لم يحدث أن حاول أحدهم تجاوزها، والبلباسيون في بلادهم لا يعترفون طواعية بسيادة أحد عليهم سواء أكان تركيًّا أو إيرانيًّا. ولكنهم حينما يهبطون منطقة (قه ره جوق) ـ وقد كفوا عن ذلك منذ عدة سنين ـ يقدمون بعض الأغنام إلى البك جزية. وهم يحبون السلاح حباً جماً، والكثير من البارزين منهم يملكون المعدات الكاملة من الدروع.

(١) يتبع البلباسيون طريق غريبة في معالجة الجروح إذ يضعون الجريح داخل جلد بقرة إثر سلخها ويخيطونه عليه مستبقين رأسه خارجاً، حتى يبدأ الجلد بالتعفن. ويقولون إن هذه الطريقة لا تفشل مطلقاً في دمل أبلغ جروح الرماح والسيوف.

ومن بين العوائل الحاكمة في كردستان عائلة (بهدينان) وعاصمتهم العمادية[1] وهي من أشرف العوائل، بل وينظر إليها نظرة تقديس لانتساب أفرادها إلى الخلفاء، ولكن نظراً إلى قدم اسم العائلة فقد تكون أقدم من الخلفاء عهداً[2] ولا يجرأ أحد على استعمال أي آنية أو غليون يشبه ما يستعمله أمير تلك العائلة، حتى ولا حامل غليونه حين يطلب إليه أن يولعه أو يختبره قبل تقديمه إلى سيده. ولشخص الأمير من القدسية ما يحمل العشائر في أشد المعارك أن يسقطوا السلاح من أيديهم إذا ما اقترب منهم، ومع ذلك فإن سلطته معدومة، أو قليلة جدًّا على القبائل المحاربة الشديدة المراس التي تتألف منها رعيته. وهو لا يجبي أي مورد من موارد مقاطعاته، ولكنه إذا أراد مبلغاً من المال لأي غرض طارىء امتطى بغله وطاف على رؤساء القبائل ونزل عند كل منهم ليلة، وعند ذلك لا يسعهم استجابة لحقوق الضيافة أن يرفضوا له طلباً، وفي الصباح عندما يغادر مضيفه يتقدم رئيس القبيلة التي قضى عنده الأمير ليلته بمبلغ من المال كهدية له.

وهو يتمثل بأطوار الخلفاء العباسيين المتأخرين، إذ يقضي يومه في عزلة، فيقدم له خادم طعامه ويتركه حتى ينتهي منه. وبعد أن يتناول كفايته من الطعام يسوي ما تبقى في الماعون منه كي لا يلحظ أحد من أي جانب تناول طعامه، ثم يدعو أحد الخدم ليرفع المائدة وليأتي له بالإبريق والطشت ليغسل يديه، ثم يجيئه بغليون وينصرف عنه. والباشا أنيق في ملبسه، وهو على الطراز الموصلي تقريباً. ويضع على رأسه شالاً كشميريًّا

---

(١) يسمي الأهلون العمادية (ئه ك بادان) أو (ئه ك به د ه ن) وهي على جبل وتضم (١٠٠٠) بيت تقريباً للمسلمين و(٢٠٠) دار لليهود و(٥٠) داراً للنسطوريين وبعض عوائل اليعاقبة والأرمن ـ راجع الملحق. (أما اليوم فيطلق الكرد اسم «آميدي» على العمادية كما يطلقون اسم «آكري» على عقرة ـ المترجم.

(٢) إنني أعتقد أن (زورو آتر) كان من بلاد العمادية.

يلفه حول طاقية حمراء منكسة إلى الوراء، وتسمى هذه بالفيس (الطربوش). وإذا أراد أن ينعقد ديوانه دخل عليه الكهيا[1] أو رئيس الوزراء فيحييه بإحناءة على الطريقة الإيرانية ويتخذ مجلسه على مسافة احتراماً له، ويليه في الدخول عليه رئيس عشيرة (مه روري) ـ كذا ـ فيجلس إلى جانب الكهيا ثم يدخل رؤساء القبائل الآخرون المقيمون في حاضرة سلطانه[2] وفق مكانة قبائلهم، ويأمر الباشا عند ذاك بإحضار الغلايين، ولا يدخل الديوان إلا خادم واحد ليوزعها. وإذا أراد الباشا انفضاض الديوان أمر بالقهوة. أما القهواتي فيسترق النظر من خلال النافذة ليقف على عدد الحاضرين كي يصب القهوة في فناجين وفق عددهم ويضعها في صينية ثم يدخل الديوان ويوزعها بالتتابع، فينفضّ الجمع إلا إذا أراد الباشا أن يبقي من يريد في حضرته للبحث معه في بعض الأمور. ويظهر أن من مظاهر العظمة عند الأمراء البهدانيين الانزواء والاختفاء قدر المستطاع، أما الرئيس الباباني فعلى عكس ذلك، إذ إن من المفروض فيه أن يظهر أمام الملأ ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وأظن أنه نادراً ما يتسنى له ساعة يختلسها ليتمتع بها.

والبعض من الأمراء البهدنانيين ومنهم والد الأمير الحالي مثلاً، قد غالوا في التخفي حتى أنهم حجبوا وجوههم أيضاً بنقاب كلما خرجوا في سفر، كي لا تقع النظرات الخبيثة على محياهم[3] وتلك عادة جرى عليها

---

(١) إن الكهيا الحالي هو رئيس عشيرة (ني رووي). (والصحيح نه روه ـ المترجم).

(٢) يقطن البعض من رؤساء القبائل (العمادية) دائماً أو أنهم يسكنون حيث يسكن الباشا. أما القبائل الأخرى فقد يوفدون رؤساءهم إلى الباشا مع بعض الهدايا بين آن وآخر وهذا لا يكون إلا ممن يكن للباشا احتراماً شخصيًّا.

(٣) بل على عكس ذلك يقال إنهم يحجبون وجوههم كي لا تقع أنظارهم على الخبائث والمحرمات، وقد اتبع هذه البدعة بعض المتصوفة، أو بالأحرى بعض المغالين في عهد قريب ـ المترجم.

المتأخرون من الخلفاء العباسيين كما روى (بنيامين التطيلي). وتتألف بزة ضباط الباشا وخدمه من دراعة سوداء من قماش العباء المصنوع في الموصل، مزينة بعرى ذهبية ومن سراويل مخططة بخطوط عديدة الألوان وهذا هو الزي الشائع في (العمادية) و(جو له مه رك). وعندما يخرج الباشا إلى الصيد يغير ملابسه في منطقة الصيد قرب العمادية بملابس الجبليين من العوام، يتسلق بها المرتفعات وينبطح أرضاً في انتظار ظهور الماعز الجبلي مانعاً نفسه عن رمي ما قل عمره عن أربع سنوات. ويسهل على أعين الخبراء معرفة أعمار هذا الماعز من بعد من قرونها. وهذا النوع من الصيد، والصيد بالإشراك، والفخاخ، وبالرمي، وصيد الحجل بالباز، هي الرياضة الوحيدة في منطقة العمادية لكونها جبلية لا يمكن مزاولة القنص فيها على ظهور الجياد.

إن هواء العمادية في الصيف حار لا يلائم الصحة ولذلك ينزح السكان منها إلى مصايفهم على بعد ساعتين ونصف ساعة من المدينة، في مرتفع تكسوه الثلوج طيلة الصيف. وللباشا في هذا الموقع دار صيفية، أما الأهلون فيشيدون السيباطات فيه. ويخصص خلال الاصطياف حرس قوي لصد عدوان التياريين، وهم عشيرة مسيحية مستقلة من الكلدانيين[١] يخشاهم المسلمون جميعاً[٢]. وهناك عدا البهدنانيين عوائل

---

(١) تسكن هذه العشائر المسيحية من الناحية الجغرافية حدود منطقة (حكاري).

(٢) لقد انبأني المطران حنا، المطران الآشوري في الموصل، بأسماء العشائر التالية منهم، وهو يسميهم بالمسيحيين النسطوريين ـ تياري، تكووب، جه لو دي، لي وي ني، به رواري، نه رووي. وتتألف عشيرتا (نه رووي) و(به رواري) من المسلمين والمسيحيين. أما الآخرون فكلهم نسطوريون، وهنالك أربع قرى قرب العمادية يسكنها النسطوريون الذين يدعون بالـ(كران مووسي) وهم يلبسون قبعات من لباد. انتهت الحاشية: أما الأسماء الصحيحة لبعض هذه العشائر فهي:
(تخوما) لا (تكووب)، و(جي لوو) لا (جه لودي). و(لي و ن) لا (لي وي ني)، =

قديمة أخرى كانت لها القوة والنفوذ فيما مضى، وقد حكمت أقساماً مختلفة من كردستان. وعائلة (بوتان) التي تسيطر على منطقة تسمى بالاسم نفسه، عائلة محترمة الجانب، تضاءل نفوذها وشهرتها كثيراً. والجزيرة عاصمة هذه العائلة ويقال إنها خربة الآن. وتقع منطقة (طور) بين (الجزيرة) و(ماردين) وهي منفصلة أو مستقلة عنهما. وعائلة (سوران) من العوائل العريقة في القدم أيضاً كانت في يوم من الأيام أقوى عوائل كردستان، بل كانت تسيطر على جميع منطقة (سوران). وكانت عاصمتها (حرير) التي يمكن مشاهدة الكثير من آثار تلك العائلة فيها قائمة علي طراز معماري يفوق كل طراز آخر في كردستان في أي عهد من العهود. لقد انقرضت هذه العائلة وقامت على أنقاضها العائلة البابانية وغيرها من العوائل العديدة الأخرى التي كان رؤسائها جميعاً من الإقطاعيين الذين يأتمرون بإمرة السورانيين. ومن تلك العوائل عائلة كوى سنجاق، التي كانت لواء (سنجاقاً) سورانيًّا، وقد أخرجت تلك العائلة منذ ذلك الحين من (كوى سنجاق) فدخلت ولا تزال تحت الحكم الباباني.

وكان البابانيون رؤساء بيشدر الإقطاعيين يأتمرون بأمرة السورانيين، وكانت عاصمتهم في ذلك الحين (داره شمانه)؛ وهي الآن قرية حقيرة لا تتجاوز بيوتها الثمانية عشر بيتاً. لقد كانت العائلة البابانية عظيمة الشأن فيما مضى أكثر مما هي عليه الآن، وعلى الأخص قبل تولي سليمان باشا حكومة بغداد حين كانت أكثر بقاع البلاد حتى (زه ن كه باد) و(مندلي) و(بدران حصان) تابعة إلى كبير البابانيين، كما كانت (آلتون كوبري) و(أربيل) تحت سيطرته، بل و(سنه) أيضاً، وهي إيالة كردية تكون تحت نفوذ الإيرانيين في الغالب.

= و(نه روه) لا (نه رووي)، و(كرامون) لا (كران موروسي) المترجم.

أما عائلة (زهاو) فما كانت موضع احترام جم، ولم يكن لها شأن عظيم في منطقتها ذاتها.

١٦ تموز:

بعد استشارات عديدة اخترنا أخيراً منطقة (قزلجه) على اعتبار أنها خير مكان لسكنانا خلال أيام الحر الشديد الذي بدأنا فعلاً نشعر باشتداد وطأته في السليمانية، فقررنا الرحيل إليها غداً. قضينا اليوم بالتهيؤ للسفر وبتوديع الباشا وعثمان بك وسليم بك وغيرهم من الأصدقاء. ولقد تبادلت والباشا حديثاً شيقاً استمر مدة تزيد على الساعتين وكان جلّه حول شؤونه الخاصة. وإني لأرجو من الصميم أن يزول الكرب عنه وأن يتمتع بهناء وسرور، لكونه رجلاً محبوباً كل الحب. لقد شق على أصدقائنا السليمانيين فراقنا عنهم هذه المدة القصيرة. وقد بذلوا كل ما في وسعهم لإقناعنا على البقاء في السليمانية. حقًّا لم أعهد من قبل طيلة حياتي مثل حسن ضيافتهم وكرمهم.

عاد ده للي (سمعان) مساء اليوم من الموصل ومعه بعض العاديات[١].

---

(١) ده للي (سمعان) أو شمعون المجنون مسيحي آثوري استخدمه المستر ريج عدة أعوام ليطوف في البلدان لشراء المسكوكات والعاديات له ـ الناشرة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل السادس

الرحيل من السليمانية إلى الجبال - مضيق كويزه - الخيام تنصب في
كه ره دي - لطافة الموقع - الجلبة والضوضاء عند التحميل -
جبال شامخة - الكروم - الحبوب - بلاد جميلة - ضابط كبير
منطقة قزلجة - مغالطات مضحكة - صعود شاق - أولاد خالد بك -
معسكر في أحمد كلوان - الحاصدون يتغنون بفرهاد وشيرين - الجراد -
درجة حرارة الينابيع - الضفادع الخضر - لعبة غريبة -
الرحيل من أحمد كلوان - السفر إلى بيستان - الطنوف الاصطناعية -
بيستان غير صحية - مرض جماعتي كلهم - الرحيل من بيستان - بنجوين
- مضارب الجاف - الجماعات الرحالة - سيدة وخدمها - اليهود

* * *

١٧ تموز:

غادرنا السليمانية صباحاً في الرابعة إلا ثلثاً وسرنا على طريق (كويزه)، لأنه أسهلها لاجتياز السلسلة، أو بالأحرى لعبور التلال الجرداء التي تحد السليمانية من الشرق. و(كويزه) هو المضيق الجنوبي الأقصى الذي يفضي مباشرة إلى أعلى التلال، ويليه في الشمال طريق (أزمر)

الذي يتجه نحو المدينة، أو بالأحرى إلى موقع مدينة (قه لا جوالان)[1] القديمة، ويليه شمالاً طريق آخر يسمى طريق (قه يران).

وصلنا إلى حضيض التلال بعد الرابعة بقليل ونحن نصعد صعوداً هنا طيلة الطريق منذ رحيلنا من السليمانية، ثم بدأ الارتقاء فوراً في قاع مسيل جاف في بادىء الأمر، ومن ثم على سفوح التل الشديدة الانحدار بنيسم سحيق جد ضيق. وفي الخامسة تقريباً بلغنا القمة وهي في ذلك المكان عبارة عن ضفة من الحجر الرملي تتصل بكتفين أخريين مرتفعتين من التل هما أكثر تكتلاً، ولم يزد ارتفاع القمة عنهما إلا بضع أقدام. والمنظر هنا منظر جميل، فأمامنا سهل (سروجك) و(شاربازير) - أقول سهل لتمييزه عن التلال إذ في الحقيقة ليس في هذا السهل أي بقعة منبسطة - وينتهي السهل في اليمين أو في الجنوب بمضيق تحده من الشرق جبال عالية، كانت الشمس تبزغ حينذاك من ورائها. ويلوح أن السهل كان يضيق في القسم الشمالي منه أو من ناحية (شاربازير)، والمنطقة بكاملها محددة ومقسمة إلى طنوف ووديان ومضايق لا تعد، كونتها سلسلة التلال المحيطة بها، وكان بعضها كبيراً جدًّا. وكانت السلسلة التي نسير عليها مكونة من الحجر الرملي تنحدر طبقاتها نحو الشرق وعلى سفوحها الشرقية الكثير من عليقات البلوط، أما الأراضي التي كنا نشرف عليها فكانت على ما بدا لنا بقاعاً من الأحراش والمزارع انتشرت على نحو جميل ترتاح النفس إليه. ثم أخذنا في الانحدار شمالاً على سفوح الجبل الشرقية، ولم يكن الطريق في انحدارنا سحيقاً كما كان في الصعود. وصلنا في السادسة إلى أسفل الجبل وبذلك استغرق الصعود خمساً وثلاثين دقيقة، والانحدار ساعة وعشر دقائق. وكان اتجاه مسيرنا

---

(١) جاءت في الأصل (قه ره جولان) وصحيحها (قه لا جوالان) يرجى الانتباه إلى ذلك كلما جاءت - المترجم.

في هذا اليوم شماليًّا شرقيًّا بخمسين درجة. وبعد أن ولجنا خانقاً ضيقاً مررنا بقرية صغيرة لم اسأل عن اسمها، ثم بلغنا قرية (بناويله) وهي على جانب عين ماء بديعة، شاهدنا فيها عدداً كبيراً من سمك الشبوط (Carp) وكان السمك أليفاً، إذ لا يزعجه القرويون، وقد ألقينا ببعض فتات الخبز إليه فاختطفها. وعند البركة الصغيرة التي تكونها العين قامت شجرة شنار جميلة وبعض أشجار الحور والصفصاف منتشرة هنا وهناك، وقد ذكرني المكان هذا بـ(قه ره حسن)؛ والكرد على صواب في قولهم بأن مدينة السليمانية مشيدة في أسوأ بقعة من بقاع كردستان. وتعود هذه القرية إلى منطقة (سروجك) كما تعود إليها كل الأراضي الواقعة إلى الجنوب منها، أما ما كان منها إلى الشمال الغربي فيعود إلى منطقة (قه لا جوالان). وبعد أن تناولنا كأساً من القهوة تحت ظلال شجرة الشنار الجميلة عدنا فامتطينا جيادنا في السابعة إلا ربعاً، وسرنا سيراً حثيثاً فوق أرض متموجة ثم انحدرنا من تل ناهد، وفي السابعة والنصف وصلنا منزلنا في قرية (كه ره دي) فوجدنا خيامنا منصوبة، إذ قد احتطت للأمر فأرسلتها مع الأمتعة الثقيلة ليلة أمس، وكان اجتيازها جبل (كويزه) شاقًّا، تدحرج أثناءه بغلان أو ثلاثة من بغال الأمتعة، ولحسن الحظ لم يحدث ما يعتبر ذا أهمية.

وتقع قرية (كه ره دي) في وادٍ، تكتنفها غابة من أشجار الجوز والصفصاف والحور، وينحدر الكثير من السواقي في وهدها. والحق يقال إن هذه البلاد لا تعوزها الينابيع البديعة، وقد مررنا بالكثير منها في طريقنا اليوم بعد انحدارنا من (كويزه). وتعود (كه ره دي) إلى منطقة (شاربازير). ولقد انشرح صدري بمنظرها، فأفياء الأشجار الظليلة وخرير مياه السواقي الصغيرة وتغريد الدج والشحارير كلها عوامل أضفت على القرية جمالاً ورواء.

لقد كان الجو عند رحيلنا من السليمانية في الرابعة من صباح اليوم

دافئاً، وكانت الريح شرقية، وعندما اقتربنا من سلسلة التلال لفحتنا منها موجة من الحرارة كأنها منعكسة من أتون، ولكننا في اللحظة التي وصلنا فيها القمة وجدنا أنفسنا في جو يختلف تمام الاختلاف عما كان من قبل، وكان في مستطاعنا أن نطيل السفر ساعة أو ساعتين أخريين دون أدنى مضايقة من الحر.

درجة الحرارة في الثانية والنصف ب.ظ. ٩٩د، وفي العاشرة ب.ظ. ٧٥د.

وفي خلال رحلتنا شاهدنا الكثير من الكروم ومزارع التبغ، وتتزود السليمانية بجميع فواكهها من هذه الأنحاء.

لقد قيل لنا إن الطرق التي علينا سلوكها سحيقة، ووعرة، وشديدة الانحدار، وإنها تبلغ من الضيق في بعض مواقع الجبال مبلغاً لا يمكن معه مرور جوادين في صف واحد عليها، الأمر الذي اضطرنا إلى التخلي عن التختروان والمحفات في مسيرتنا هذه، فتركناها وراءنا في السليمانية. أما الخادمات فأرسلناهن على ظهور الخيل ليلة أمس مع الخيم والأمتعة، واصطحبتنا قرينتي على جوادها الصغير المهدى من عثمان بك، وكان حمله لها فوق الجبال مثار إعجابنا.

لقد نادى اليوم عمر آغا مهماندارنا أحد رجاله المدعو (برويز) وقال لي إن هذا الاسم وأسماء قديمة أخرى لا تزال شائعة بين العشائر، ومنها (خسرو) و(كوباد) و(بهرام) و(برويز) و(بريزاد). وسمعنا تغريد القمري للمرة الأولى في كردستان وفي هذه القرية، وبعد الظهر خرجنا في نزهة بهيجة على طوار سفح الوهدة مارِّين بين صفوف أشجار الحور والعناب والفاغيا (الحناء) والزعرور والصفصاف، وبين الكروم وحدائق الإجاص والخوخ والتوت والتين وشاهدنا شجرة زيتون نضرة زاهية وعيوناً صغيرة تتدفق مياهها من منحدر الوهدة السحيق.

١٨ تموز:

كانت ليلتنا باردة منعشة، ولكننا لم ننعم بها إلا قليلاً. فما إن انتصف الليل حتى ارتفعت أصوات مزعجة شتى من جماعتنا الذين بدأوا بالتحميل، أصوات فاق هرجها ومرجها اضطراب بابل، وجعلت الإخلاد إلى الراحة ثانية مستحيلاً. لا يمكن في هذه البلاد إنجاز عمل ما دون ضوضاء وصراخ لا يتناسبان مطلقاً مع العمل المراد إنجازه. ويظهر أنه حتى الحيوانات نفسها تهيج فتساهم في الضوضاء بنهيقها وزعيقها وشخيرها وترافسها في الوقت الذي يتشاتم فيه أصحابها ويتنادون ويتصارخون إلى أن تتم عملية التحميل وتأخذ القافلة مجراها.

رجع عمر آغا إلى السليمانية البارحة لقضاء بعض أشغاله الخاصة وسوف لا يلتحق بنا حتى وصولنا الليلة منزلنا.

شرعنا بالمسير في الرابعة فعاودنا صعود المنحدر الذي انحدرنا منه إلى الوهدة، ثم عرجنا شرقاً نحو التلال، أو بالأحرى نحو الجبال، إذ بدا أنها الآن تستحق هذه التسمية حقًّا، وتمتد هذه الجبال من (كويزه) أو سلسلة (أزمر) على قوس مارة من أمامنا متقطعة بعض التقطع لتعود فتكون السلسلة ذاتها عن يسارنا، ويظهر أنها في اتجاهها الجديد هذا تتضاءل جرماً. وعن يسارنا مباشرة، وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، يقوم جبل (سه رسير)[١] وهو جزء منفصل من التلال التي أتينا على ذكرها، وكان

---

(١) وأصلها (ساردسير) أي المصيف ـ ويقابلها (كه رمه سير) أي المشتى ـ ورخمت فأصبحت (سه رسير). تقع قصبة (جوارتا) مركز قضاء (شاربازير) الحالي، عند سفح جبل (سه رسير) الغربي. ويمكن الصعود إليه بثلاثة طرق في يومنا هذا، أسهلها وأطولها الشرقي منها وهو يلتف حوله متصاعداً من الغرب إلى الشمال إلى الشرق إلى الجنوب ويمر من بين أشجار البلوط، وبعض الكروم. أما الغربي فهدود يمر من وادٍ ثم على كتف شعيب، وتكثر فيه عيون المياه. وأما الجنوبي فصعب الارتقاء لا يطرق إلا عند الضرورة، ولا يتعقبه إلا الرعاة أحياناً. والمتجول في منبسط أعلى =

عبد الرحمن باشا تواقاً إلى نقل عاصمته إلى هذا الجبل لانعزاله، ولسهولة الدفاع عنه، ولأن الوصول إلى قمته لا يتيسر إلا بطريق واحد؛ على أن شحة المياه في الجبل كانت العائق في تنفيذ رغبته.

وفي الرابعة والنصف مررنا بهضبة تقع عن يسارها وهدة صغيرة، وأخرى عن اليمين واسعة عميقة تضم عدة قرى وهي تكاد تمتد إلى الشرق والغرب، أما منتهاها الشرقي فتسده رقبة، تفصل بينها وبين وهدة أخرى مماثلة لها، وأما الجانبان الجنوبيان من هاتين الوهدتين فيرتفعان فوراً ويكوّنان جبلاً شاهقاً. وكان طريقنا يتصاعد تصاعداً تدريجيًا، والأرض مكسوة كلها بعليقات البلوط. وفي الخامسة بلغنا تلالاً في فجوة تماثل تلك الرقبة أو الطرف الشرقي من الوهدة الواقعة عن يميننا، ومن هنا يقع (غودرون) باتجاه ٦٠ درجة شمالية غربية. ومن هذا المكان يمكن لي أن أكون فكرة لا بأس بها عن الخطوط الأساسية لهذه المنطقة. ينتهي كل من (كويزه) أو (أزمر) في الشمال، ويبدأ (غودرون) قبل نهاية (أزمر) أو إلى الجنوب منه، ويقع وادي (ميركه بان) أو وهدته بين هذين الجبلين، ثم يؤلف (غودرون) سلسلة أعظم من سلسلة (أزمر) وأكثر منها صخرية، تتجه باتجاه شمالي شرقي. والآن بدأنا نهبط بطريق منحدر جدًّا وأخذنا نسير في التواءات عديدة في مضيق في الجبال، وهي هدردة الانحدار من الجانبين، إلا أن الجانب الأيمن منها كان أكثر نهوداً في انحداره، وكان الطريق يصعد ويهبط باستمرار تتقاطعه الوديان في بعض الأماكن. أما سفوح التلال فكانت مكسوة بالكروم، بعضها في أماكن عالية جدًّا تكاد تظهر شاقولية، ولا ريب أن زرعها لا يتيسر إلا لأناس يتعلقون بحبال كجامعي الشمر ـ الأعشاب البحرية.

= الطنف، بل في نجده، يجد آثار أبنية كانت مصايف البابانيين، وبعض الصناكر الحديثة ونجده غني بأشجار برية مثمرة كالكمثرى ـ المترجم.

وتنحصر الزراعة في هذه الأماكن بالكروم والتبغ. وقد مررنا ببعض حقول الحبوب التي لم تحصد بعد. أما أشجار البلوط أو السنديان فوفيرة في كل مكان وعلى ضفاف الجداول الصغيرة في الوديان، وكثيراً ما يتخلل الصفصاف الكروم البرية. وأما الأعناب فلم تنضج حتى الآن.

وفي السادسة والثلث ترجّلنا عند مقبرة، مستظلين ببعض أشجار السنديان للاستراحة قليلاً، إذ لم أكن متمتعاً بكامل صحتي. والمكان الذي ترجّلنا عنده وادٍ تسيل فيه عدة سواقٍ تكوّن جداول تصب في نهر (تان كووزي)[1] الذي تجري مياهه بشدة، وتدير أحد هذه الجداول طاحونة، وهو يكوّن شلالاً بديعاً.

وشاهدنا على التلال الكثير من الطباشير في شتى أدوار تكوّنه، والكثير من الصوان. أما طبقات التلال فيبدو أنها لا تزال مائلة نحو الشرق بوجه عام، والسفوح الغربية من التلال سحيقة الانحدار جدًّا.

وبعد أن أخذنا قسطنا من الراحة استأنفنا السير في السابعة، وما بقي من طريقنا ذا اتجاه شمالي شرقي. وفي السابعة والثلث عبرنا نهر (تان كووزي) وكان عرضه آنئذٍ ثلاث أو أربع ياردات وعمقه قدماً ونصف القدم، ويبدو لنا من مجراه أنه لا بد من أن يفيض في بعض الأحيان فيكون سيلاً متدفقاً، وهو يجري شمالاً، ولا شك أنه يسيل نحو كوبري أو نهر آلتون[2] وهذا النهر أكبر الأنهر التي تصب فيها جميع مياه هذا القسم من كردستان[3]. ومن ضفاف نهر (تان كووزي) ارتقينا مباشرة

---

(١) يسمى هذا النهر (سي وديل) أما كلمة (تاووق كوزي) وليس (تان كووزي) فهي اسم منطقة تقع في الجنوب الغربي من (هه له بجه)، وعلى الضفة اليسرى من نهر سيروان - ديالى - المترجم.

(٢) لا شك أن الكاتب يقصد بذلك الزاب الصغير - المترجم.

(٣) إن نهر (تان كووزي) هو نهر (قه لا جولان) ذاته، ويسيل ماراً بـ(قه لا جولان) ثم =

مرتفعاً شديد الميل استغرق ارتقاؤنا عليه مدة ثلاثين دقيقة ونحن جادين في السير، وكان عن يميننا نهر (تان كوروزي) وقد شق له ممرًّا بين الجبال. أما الهبوط الذي بدأنا به توًّا ـ بعد أن اجتزنا هضبة ـ فاستغرق نصب ساعة، ولكنه كان أكثر انحداراً وتدرجاً من الصعود. وبنتيجة ذلك يكون ارتفاعنا الآن بمستوى أعلى بكثير. وهنا أخذنا ندور بين التلال المكتظة بأشجار البلوط، تارة نهبط وتارة نعلو. وبعد أن انحرفنا عن طريقنا المباشر في العاشرة إلا ثلثاً وانعطفنا إلى الجنوب وواصلنا سيرنا بضع دقائق، فوصلنا قرية (دوله دريز) التي تعني الوادي الطويل.

لم تضايقني الشمس اليوم بالرغم من توعك صحتي الشديد، وفي الثانية بعد الظهر، وهي أحر ساعات النهار، كانت درجة الحرارة ٩٨د، وفي العاشرة ليلاً كانت ٧٤ درجة.

ويوجد بالقرب من هذه القرية ـ وهي منزلنا لهذه الليلة الكثير من أشجار الصفصاف، والإجاص، والتين، وكذلك الكروم. ولم تنضج الحبوب في التلال بعد.

وتقع عن يميننا وعلى موازاة طريقنا جبال (كازاو) أو (كووروه كازاو) الشاهقة التي لم تكن على مسافة بعيدة منا، وقد بانت الأرض اليوم لنا أرضاً جبلية جميلة، وكنا نرى هنا وهناك سفوح الجبال الصخرية، ولم يكن منظر الأرض صخريًّا بوجه عام أو وعراً، بل متموجاً.

لقد وجدنا الطريق اليوم جيد جدًّا، وكان أحسن بكثير من الطرق التي شاهدتها في أي بقعة من بقاع آسيا الصغرى، وقد ذكرتني بعض المناظر في الوديان بجبال (جورا).

= يلتقي بنهر (حرير) ويصب بنهر (كوبري).

١٩ تموز:

كان الليل قارص البرد، وفي الرابعة إلا ربعاً سرنا ممتطين الجياد، وبعد بضع دقائق اجتزنا الوادي الصغير الذي يضم قرية (دوله دريز) وكان الاتجاه العام لمسيرنا شرقيًا ينحرف إلى الجنوب قليلاً، إلا أننا التففنا كثيراً حول جوانب التلال ونحن في صعود، وكان الطريق جميلاً حقًا تتخلله أشجار البلوط وهي في هذا المكان كبيرة جدًا، ومتداخلة مع أشجار السماق والصفصاف والكروم البرية والجميز[١] ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً حتى مررنا بفتح الله آغا (ايشيق آغاسي) أو رئيس تشريفات محمود باشا في عودته من (سنه). وكان طريقنا الذي نسير عليه هو الطريق الرئيسي المؤدي إليها، ثم بعد مسيرة قصيرة التقينا بضابط من ضباط خالد بك هو كبير المنطقة التي نقصدها وكان على رأس جماعة من حاملي البندقيات، جاء لاستقبالنا. وكان من الجلي أن هذا الضابط الذي لا يتكلم التركية، قد تهيأ ليجيب بها على أسئلة حسب أنني سأوجهها إليه، ولكنني لسوء حظه لم أوجهها بالترتيب الذي كان يتوقعه، مما أدى ذلك إلى سوء فهم مضحك جدًا. وكان سؤالي الأول له هو «كم بقي لنا من الطريق؟» فأجابني «ذهب قبل الأمس إلى السليمانية» ظانًا أنني سألته عن سيده.

وبعد قليل شرعنا في صعود ناهد جدًا، أعتقد أنه كان أعلى وأوعر الانحدارات التي شاهدتها حتى الآن، ولكن الطريق كان جيداً الجودة كلها. وقد وصلنا القمة في السادسة بعد أن استغرق الصعود أربعين دقيقة تقريباً منها ثلاثون دقيقة قضيناها في تسلق متعب يكاد أن يكون عموديًا. وهنا بان لنا (كازاو) في اتجاه الغرب وقد شمخ (غودرون) برأسه

---

(١) لا يوجد جميز Sycamore في هذه المنطقة من كردستان، ولا شك في أن المستر ريج قصد التين البري - المترجم.

الصخري الأجرد على جميع الجبال الأخرى باتجاه ٦٥ درجة شمالية غربية. ثم بدأنا فوراً في الهبوط بطريق من أحسن الطرق وأجملها، يخترق غابة كثيفة من أشجار البلوط اختراقاً متمعجاً، ولم يكن ناهداً، كما هو في الصعود. وكان منظر السهل من الأعلى بديعاً، إذ يلتوي بين تلال جميلة الشكل تكسوها أشجار البلوط القصيرة، وإلى الوراء منه تقع جبال إيران المرتفعة، وكان لهذه الجبال أيضاً منظرها البهيج البهي. وكان نهر (قزلجة) يتعرج في السهل ثم يسيل في وادٍ عن يسارنا يتجه اتجاهاً شماليًّا فيمر في منطقة (سي و ه يل) ليصب في (كوبري صو)، أما منبعه ففي سفوح الجبال الإيرانية[1] وفي نحو أربعين دقيقة بلغنا أسفل الجبل الذي يتجه شمالاً وجنوباً تقريباً. والطريق عند هذا المكان ينشطر إلى شطرين يتجه الأيسر منهما اتجاهاً شماليًّا شرقيًّا إلى (بيستان) حاضرة منطقة (قزلجة) التي تبعد عنا حوالي مسافة ساعتين، أما الأيمن فيتجه جنوباً إلى (أحمد كلوان) وهو المكان المقترح لإقامتنا.

وعند قاعدة الجبل التقينا بولدي خالد بك وهما على رأس حرسه، وعددهم مائتا فارس بكامل سلاحهم، ويتقدمهم بعض العرفاء بعصيهم المفضضة وطبولهم الصغيرة التي تدل على رتبة الرئيس - و(قزلجة) «سنجاق» أو لواء من ألوية الإمبراطورية العثمانية. وعند التقاء هذه الكتيبة مع جماعتنا قامت جلبة وضوضاء وأصوات لا يدرك مغزاها إلا من نال شرف الاستقبال. أما الخيل فحيوانات لا تعرف للاستقبال معنى، إذ استاءت جيادنا من تلك الخيول الغريبة التي اختلطت بها، واغتاظت هذه بدورها. والخيول الكردية كلها شرسة، سريعة الاهتياج، وذلك مما جعل المشهد كله مشهد شهيق وصهيل وصراخ وخبط وترافس وعراك. وقد حاول البك الشاب التفوه بكلمات الترحيب بي بالفارسية، غير أني

(١) وأما منبع (كوبري صو) ففي (لاجان).

لاحظت أن جياد جماعته كانت أفضل وأحسن أداءً منه، ولو فشلت الخيول في إنجاز هذا الواجب لكان الأجدر أن يقوم مقامها بعض رجاله النافخين بالمزمار والضاربين على الطبول وراكبي البراذين الحقيرة، وهم يؤلفون جوق الكتيبة الموسيقى أو «المهترخانة». وعندما تراجعت هذه الخيول إلى الوراء وساد السكون، بدأ أحد الإيرانيين من ذوي الصوت الجهوري بترديد أغنية عن المصارعين، وهو يضرب على «الدنبك» ضرباً مزعجاً، ولقد حاول البك الكلام وكان كلامه مما يرى ولا يسمع، فأجبته بمثل كلامه. سرنا جنوباً بموازاة حضيض التلال التي كانت تتقعر فتكون أشبه بشيء بالمسارح المدرجة. وعندما وصلنا أرضاً منبسطة بدأت مباراة الجريد، والمراشقة بالرماح، والكرد جميعاً فرسان جريئون، وإن لم يكونوا فرساناً أصوليين. وكان ينفخ في المزامير وتضرب الطبول أثناء المراشقة، مما جعل المشهد جميلاً مبهجاً، وقد هرب جواد أحد الكرد بصاحبه وسقط آخر مع حصانه بسرعة متناهية فأصابه أذًى كبير، وإن لم يكن بالغاً.

وفي السابعة والنصف بلغنا مضربنا عند التلال وعلى مسافة ميل واحد في الشمال الشرقي من أحمد كلوان، وكانت مساكننا التي تفضل قشيدها لنا خالد بك واقعة عند منبع جميل، وهي تتألف من عدة سيباطات تمر باثنين منها ساقية صغيرة، وقد كوّن منها حوض، وسيجت السيباطات بكاملها بسياج من الأغصان محاك حياكة دقيقة، وشطر محيط السياج بسياج آخر قسم الساحة إلى حرم وديوان، وكان إلى جانب كل من الحرم والديوان حقول حبوب لم يزل الحاصدون يحصدونها وهم يتغنون بقصة «فرهاد وشيرين» بالشعر الكردي.

استأذن ثاني أبناء البك للعودة إلى بيستان، وكان معه خمسة أو ستة رجال، أما الولد الأكبر وهو محمود بك فقد بقي معنا للقيام بما يتطلبه واجبه في مضربنا. وفي الليل شاهدته وهو يقوم بالدورية بذاته حول

المضرب. وهذا المكان معرَّض كثيراً لغارات قطَّاع الطرق من عشائر الحدود.

لقد تضرر القطن كثيراً في هذا المكان من جراء الجراد الذي لا تزال الكثير من أسرابه تزحف على الأرض - والجراد لا يأكل إلا ما كان أخضر.

وقد أزعجتنا بعد الغروب بقليل أسراب كثيرة من بعوض ضخم وسام جدًّا. وكانت الليلة باردة أما الصباح فقد كان أبرد منها. وقد ابتلت الأرض بالطل، في حين إنك لا تجده في سهل السليمانية في مثل هذا الموسم.

٢٤ تموز:

كانت درجة حرارة أحد ينابيع مضربنا (٥٧)، وقد قستها في فترات عديدة طيلة النهار فلم تتغير أبداً. وكانت درجة حرارة منبع في التلال فوق أحمد كلوان (٥٢)، أما درجة ينبوع في وادٍ قريب منا وعلى مستوى واحد تقريباً من مضربنا فكانت (٦٣) درجة.

وعلى تل يقع إلى الشرق منا وعلى الضفة الأخرى من نهر (قزلجة) توجد بقايا قلعة اسمها «قز قلعه سي» أو حصن الفتاة، وهي ساسانية على الأكثر. وهناك بالقرب من مضربنا عدة أشجار من الحور وهي أضخم ما شاهدت في حياتي، وكان محيط جذع إحداها ستة عشر قدماً وهي في الحقيقة شجرة عظيمة جدًّا، وكانت اثنتين أو ثلاثة من هذه الأشجار مطروحة أرضاً بضخامتها وقد علمت أنها تكسرت قبل عامين من جراء الثلوج، ولم تتحمل ثقل ما تساقط عليها.

لقد باغت ذات مرة اثنا عشر بابانيًّا معسكراً للإيرانيين في شرقي أحمد كلوان بميل واحد، وهزموا عدة آلاف منهم، في عهد سلطان (شاه

حسين)، وكان (سليمان به به) آنذاك زعيم كردستان[1] وقد أحرز انتصاراً في نفس اليوم على الجيش التركي.

ويوجد في كردستان نوع من الضفادع الخضراء تتسلق الأشجار، وتتصيد الذباب والجراد بضربها بمخالبها الأمامية كما تفعل القطط. وقد شاهدتها تفعل ذلك عدة مرات، وهي تشبه الضفادع الاعتيادية من كل الوجوه، إلا في لونها الأخضر التفاحي، وبجلدها الناعم الأملس. وقد رأيتها قابعة ليلاً في الأدغال.

حضرت في أحمد كلوان لعبة قد تخلع أطراف أي رجل إلا إذا كان كرديًّا قويًّا، ووصفها أن يجلس أحد الرجال على الأرض بعد أن يربط بإحدى ساقيه حبل يمسك بطرفه السائب رهط من اللاعبين، فيجرون به الرجل ويسحبونه على الأرض الحجرية الوعرة ويدورون به كما يدور نوتية الباخرة ببكرة المرساة. ويربط بأحد أطرافه الأخرى حبل يمسكه من نهايته السائبة أيضاً رجل آخر بمنزلة الحامي له، يمنع الرهط من سحبه وجره بالسعي للقبض على واحد من المهاجمين دون أن يسيب الحبل من يده، ومتى ما قبض على أحدهم وجب على هذا أن يأخذ دوره في القعود ليهاجم. وكان يصحب هذه الحركة صراخ وصياح وقفز، أما الممثل أو اللاعب الأول في هذا المشهد فكان همجيًّا مرحاً اسمه «قادري

---

(1) وعليه لا بد أن يكون وقوع ذلك بين عامي ١٠٨٨ و١٠٩٢هـ (١٦٧٧- ١٦٨١م). راجع الهامش (١) من الصفحة (٨٨). انتهت الحاشية. وقد سها المترجم من ذكر حاشية جاءت إيضاحاً إلى عبارة: «إن أحد أجداده قام بخدمة جليلة لأحد السلاطين العثمانيين. إلخ» - الصفحة ٩١ السطر ١٧- فرأى تثبيتها هنا وهي:

كان سليمان بابا أو (به به)، قد ذهب إلى استانبول قبل مائة وخمسة وعشرين عاماً، أي عام ١٦٧٨م، فكوفيء لخدماته التي قام بها للأتراك إزاء الإيرانيين. وسميت عائلته بعد ذلك باسمه وهو به به أو بابا، عوضاً عن اسم العشيرة، وقد علمنا سابقاً أن اسمها كانت (كرمانج).

كه وره» أو قادر الضخم الذي كان في خدمتنا على الدوام، وهو رجل طيب جدًّا تعلق بنا تعلقاً قويًّا بمرور الأيام. ومما يلفت الأنظار إليه أنه كان يسير على الدوام وبيده هراوة، ويرتدي فروة ماعز رثة فوق ملابسه، وإن كان الجو وخماً حارًّا.

١ آب:

لم أدون يومياتي خلال مكوثي في (أحمد كلوان)، لانحراف صحتي من جهة ولانشغالي وتقاعسي من جهة أخرى، ولا يزال لدى الكثير مما يجب أن أكتبه عن حالتي المعنوية الراهنة.

بعد أن أمضيت بضعة أيام في أحمد كلوان قررت الرحيل عنها، وفي قراري هذا كنت متأثراً على الأكثر بإصرار نجل البك على ملازمته لنا طيلة مكوثنا فيها، فرأيت من الصواب الذهاب إلى بيستان[١] أو «بيدستان» بالفارسية «أي مغرز الصفصاف» عاصمة المنطقة التي نحن فيها، وفي بيستان دار نجل البك، وبهذا سنخفف عنه الأتعاب التي يتجسمها من أجلنا. ولما كنا على أهبة السفر سرنا في الخامسة والربع من صباح اليوم، والتلال عن يسارنا فوصلنا في السادسة نهر (قزلجة) الذي يشق مجراه بين الجبال. وهذا المحل يقع إلى شمال أحمد كلوان وإلى الجانب الجنوبي من المضيق، أو في الضفة اليسرى من النهر. وعلى صخرة مرتفعة منعزلة نجد بقايا قلعة اسمها «قلعة قزلجة» ويقال إنها قديمة جدًّا. وتقع قرية (قزلجة) عاصمة المنطقة سابقاً بالقرب من

(١) لقد كان الرحيل هذا شؤماً علينا، إذ رحلنا من مكان صحي وحططنا في مكان موبوء، والحمى التي تتفشى في كردستان في هذا الموسم إلى حد ما، كانت شديدة الوطأة في هذا المكان إلى درجة أصابت أفراد جماعتنا كلهم فصاروا يفرون من كردستان ويتشوقون للرجوع إلى بوادي بغداد المحرقة التي تمنح أهلها صحة على ما يظهر ـ الناشرة.

القلعة، وقد هجرت واتخذت (بيستان) حاضرة بدلاً عنها. أرى أن معظم القرى في كردستان تقع في مخابىء مستورة، وفي وديان بعيدة عن النظر، وقد يكون ذلك تخلصاً من زيارات قطعات الجيش التي تمر بجوارها[١]. وكثيراً ما يكون هذا التدبير غير نافع وعلى الأخص في منطقة (قزلجة) إذ إنها منطقة حدود معرَّضة بوجه خاص لمثل هذه النكبات الاعتيادية في حروب الشرقيين. ففي السنين العشرين الأخيرة خرب الإيرانيون وأمان الله خان (قزلجة) مرات عدة خراباً جعل عاليها سافلها. كما وأن الكرد المناوئين وإن كانوا من قوم واحد فهم ليسوا أكثر رحمة نحو قرى غرمائهم. أما منطقة (سي وه يل) فهادئة جدًّا لوقوعها في الداخل، خارج خطوط الحركات العسكرية.

والآن وقد تركنا الجبال واندفعنا في السهل، فقد واجهنا خط هضاب متشعبة من الجبال إلى الشرق، تكسوها أشجار البلوط. وبعد اجتيازنا هذه الهضاب جئنا وادياً يمر فيه نهر تحتضنه أشجار الصفصاف في كلتا ضفتيه. ويحد هذا الوادي من الجانب الآخر خط هضاب مماثل. ويسمى نهر (بيستان) أحياناً بنهر (تاتان) وهذا الاسم مشتق من اسم قرية تقوم على ضفتيه. وينساب هذا النهر بين الجبال ويتصل بنهري (قه لا جولان) و(قزلجة) تحت (قه لا جولان)، وتصب هذه الجداول جميعها في (كوبري صو).

سرنا والجبال التي اجتزناها الآن عن يميننا فوصلنا (بيستان) في السابعة والنصف، وهي قرية فيها أربعون بيتاً[٢] أنشئت في أسفل هذه

---

(١) أرى أن هذا لا يكون سبباً أو عاملاً أصليًّا في اختيار الكرد مواقع قراهم، إن مقتضيات الجو والعوامل الجغرافية ـ ومنها وجود الينابيع ـ هي التي تدفع القرويين إلى اختيار مواقع قراهم في مثل هذه الأمكنة. والحالة تكاد أن تكون عامة في جميع ديار الكرد ـ المترجم.

(٢) تحتوي على أربعين عائلة منها خمس عشرة أو عشرون عائلة يهودية.

التلال وفي مكان غائر عجيب، ولم تكن في موضع له محاسنه إذ إنها تحت صخرة كبيرة منعزلة يبلغ ارتفاعها مائتي قدم، تعزلها عن الوادي الذي يسيل فيه النهر وتجعل مكانها مستتراً دافئاً. وترتفع التلال في الجنوب أو تلك التي عن يميننا ارتفاعاً عالياً وهي في الظاهر مكوّنة كغيرها من جبال هذه المنطقة، من الجبس المختلط بالحديد ومن بعض صفائح النورة، وتكسوها أشجار البلوط. وتقع إلى يسار الصخرة العالية الجرداء وتحتها القرية، وعلى قمتها آثار بناء. ولا تتجاوز المسافة بين التلال وبين الصخرة أكثر من ربع الميل، أما في الشرق فالمسافة أوسع، والمنظر في ذلك الاتجاه تحده الجبال البعيدة، التي تكون سفوحها القريبة منها منطقة (ته ره ته وه ن) في كردستان، أما السفوح البعيدة عنا فهي منطقة (ساقز) من (سنه) وهي إيرانية.

وتقع (بيستان) من أحمد كلوان باتجاه البوصلة، بعشر درجات شمالية شرقية. أما (بانه) فموقعها من (بيستان) عشر درجات شمالية شرقية وعلى مسافة خمس ساعات. لقد وجدنا السيباطات مشيدة لنا في أعلى مكان من القرية، قبالة دار البك، والسكنى خارج القرية أفضل وأليق، ولكن السيباطات كانت معدة، وإني لا أود إتعاب الغير من أجلنا أكثر من هذا. والواقع أن السيباطات شيدت لسكنى البك في الصيف وقد تخلى عنها لنا.

وفي المساء دار بيني وبين البك حديث عن كردستان، قال لي إن النسبة متباينة في العدد بين الكرد العشائريين والقرويين. ونسبة الأخيرين بنسبة الربع بل الخمس. وهو يقدر العشائر الرحل بعشرة آلاف عائلة يبلغ معدل الواحدة منها سبعة أفراد للخيمة الواحدة وهو يعتقد أن هذا تقدير صحيح نسبيًا، ولا يعتقد تجاوز نفوس العشائر المستوطنة كال(كرمانج) و(نور الدين) و(شينكي) ثلث ذلك العدد، أي ما يقارب الثلاثة آلاف عائلة[١].

---

(١) هذا ما يتعلق بمنطقة السليمانية، ولا يشمل كوى سنجاق.

٢ آب:

تسلقنا الصخرة في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم لرؤية الخرائب التي أعلمونا بوجودها في قمتها. وقد وجدنا بعض بقايا سور يحيط بها، وعثرنا على بعض الطابوق وهو ساساني على ما يظهر. ورأينا في ذروة القمة ـ وهي لا تبعد كثيراً إلا بضع ياردات ـ حوضاً منقوراً في الطبقات الجبسية من الصخرة، وشجرة حسك Thorn- Tree قديمة ما زالت مزدهرة. ومن يدري، إنها لربما شهدت القلعة في أيام عزها! وكان منظر وادي (تاتان) بديعاً والنهر ينساب بين تعاريجه ومنعطفاته، وقد شاهدنا عدة قرى في التلال المقابلة لنا بالاتجاه الشمالي الشرقي الشمالي منا. ويوجد على بعد قليل من سفح الصخرة طنف اصطناعي مدور ذو قمة مسطحة كطنوف (جم جمال) و(ده ركه زين) وغيرهما، واسمه طنف رستم، وهناك طنف آخر إلى شماله، وله الأوصاف ذاتها اسمه طنف الشاه. وقد عثر فيما مضى في بعض التلال المجاورة على أكواز رميم ذات حجم غير اعتيادي.

٨ آب:

أصبنا جميعنا بالحمى الصفراء، ويبدو أن القرية موبوءة بها وأنني عانيت الكثير منها وقد أصيب بها ستة وعشرون شخصاً من جماعتنا في وقت واحد. وفي ليلة أمس بينما كان جعفر علي المنكود الحظ (خادم هندي من لوكناو) يقاسي آلام الحمى أفزعه بعض الكرد بإدخال جثة شخص متوفى إلى الغرفة التي كان ينام فيها، وقد قاسى ما قاسى من المتاعب حتى أقنعهم بإخراجها من عنده.

وفي أمسية من الأمسيات الماضيات عندما كنت أتمتع بصحة أوفر، ذهبنا نتمشى ترويحاً للنفس في وهدة صغيرة بهيجة تمتد بين التلال،

جنوب (بيستان) تماماً وتصب فيها عدة عيون ماء وتغطي جانبيها أشجار التين البرية والسفرجل والكمثرى، كما تزين هذه الوهدة أشجار جوز قديمة فخمة. ولدى غطس المحرار في منبع إحدى العيون سجل لنا درجة (٦٠). وهنالك منبع آخر قبالة القرية على سفح التل كانت حرارته (٥٧) درجة. وتتكون التلال جوار هذا الموقع من الإردواز تتخلله عروق من الجبس Gypsum.

إن تل (آرد بابا) المستدق الذروة يقع توًّا إلى الجانب القريب منا من (بانه) باتجاه (١٠) درجات شمالية شرقية. ونرى إلى يمينه بقليل قسماً من السلسلة نفسها مؤلف من ثلاث قمم غريبة الشكل منظمة إلى بعضها، تدعى (سوره نا)[١].

١١ آب:

لقد أخذت الحمى الآن تتناوبني تناوباً ثلاثيًا شديداً. وقد تمرض كل أفراد حاشيتي، أما عقيلتي فقد نجت من المرض والحمد لله، وكذلك المستر (به ل)، وهما يعاوداني بين الفينة والأخرى ليخبراني بمرض أحد أفراد الجماعة. وهذا أمر محزن يدعو إلى القنوط. وكانت وطأة الحمى عليَّ أشد منها على الآخرين، وذلك نظراً لمرضي السابق. ولقد بلغ هجوم الدم على رأسي في الليلة السابقة من الشدة مما اضطر المستر (به ل) على أن يستنزف ما يقرب من الرطل من دمي، الأمر الذي أراحني كثيراً.

لقد صح عزمي الآن على مغادرة المحل بأسرع ما يستطاع، فاتخذت التدابير لإرجاع الجنود والمرضى مع الأمتعة الزائدة إلى السليمانية، ومن ثم الرحيل بأخف حمل ممكن إلى قرية مجاورة أجود

---

(١) واسمها الصحيح ـ (سوره ن Surain) ـ المترجم.

مناخاً، حيث نتمكن من الإقامة فيها بضعة أيام لنسترجع قوانا لاستئناف رحلتنا في بقاع كردستان التي قد تبلغ (سنه). وعلاوة على ما أنا مصاب به من حمى، فقد التهبت عيني اليمنى وأخذت تؤلمني كثيراً مما جعلت الكتابة عليّ أمراً موجعاً، بل ومنعتني منعاً باتًّا من مواصلة مشاهداتي. ومن حسن الحظ أن التهاب عيني اعتراني بعد كسوف تابع المشتري الأول، إذ تمكنت من تصحيح خط طول (بيستان).

١٣ آب:

غادرنا (بيستان) في الخامسة من صباح اليوم، وبعد أن قطعنا، ونحن على ظهور الجياد، سهل (تاتان) أو (بيستان) اجتزنا التلال التي تحيط به وهبطنا السهل الذي يتقدم أحمد كلوان أو سهل نهر قزلجة[١] وبعد اجتيازه وصلنا قرية (بنجوين) الجميلة في التاسعة، بعد تأخر ربع ساعة في الطريق. وكان سيرنا سيراً بطيئاً. لقد بلغت شدة مرضي، والتهاب عيني درجة لم تمنعني عن مشاهدة الشيء الكثير فحسب بل تعذّر عليّ بها تدوين مذكراتي حتى لو قدر لي أن أشاهد شيئاً.

قضينا اليوم ونحن نمر بين قوافل العشائر الرحالة، أو بين المضارب الصغيرة لعشائر الجاف الكردية، الذين حطوا في هذه البقاع الآن قبل رحيلهم إلى شهرزور. ولقد أسفت غاية الأسف لحرماني من التمتع بمنظرهم، الذي كان في الحقيقة مؤنساً بهيجاً. كانت خيامهم وأمتعتهم مرزومة رزماً منتظماً، ومحملة تحميلاً مرتباً فوق الثيران والأبقار. ويبدو أن استخدام هذه الحيوانات في الحمل من الأمور الخاصة بالقوم الكردي. وإنني أتذكر أيضاً مشاهدتي لمثل هذه العادة بين كرد (رشوان) في آسيا الصغرى، ـ وأعاد الجاف إليّ ذكرى هؤلاء. ويسير

(١) يوجد ابن آوى في سهل (قزلجة) و(شهرزور) فقط، دون الأقسام التالية.

الرجال والنساء على الأقدام، ويا لهم من قوم ذو بنية قوية لها محاسنها وجمالها. والنساء يرتدين القمصان والسراويل الزرق وعلى رؤوسهن قبعات صغيرة وشعورهن مجعدة مدلاة حول وجوههن، ويضعن على أكتافهن (الجاروكة) وهي كالعباءة من نسيج محقق باللونين الأزرق والأبيض، وهي في شكلها تشبه مشالح الجبليين في إسكوتلندة. و(الجاروكة) جزء من اللباس لا غنى لكل امرأة كردية عنه، أما نسوة الطبقة الغنية منهم فيلبسنها محاكة من الحرير الأصفر والأحمر.

والرجال من الجاف يلبسون رداء يتمنطقون عليه من الوسط، وسراويل خفيفة، وأحذية محاكة من الصوف وهي من الأحذية المريحة جدًّا للأقدام، ويضعون فوق رؤوسهم قبعات مخروطية من اللِّباد، وكلهم مسلحون بالسيوف والتروس الخفيفة، ويحمل البعض منهم المسدسات، أما الفرسان منهم فيحملون الرماح على الدوام. وقد شاهدنا سيدة يظهر أنها ذات منزلة رفيعة بينهم تمتطي فرساً زوقت رأسها والصروع تزويقاً غريباً بالأصواف والخرز، وقد غطي السرج بسجادة تزين حافاتها الأهداب، ومن ورائها حيوانان يحملان أمتعتها ركب فوق أحدهما خادم، وكان إلى جانبها وفي خدمتها خيال مدجج بالسلاح. ولم نشاهد أي وسيلة للتحجب لدى أية امرأة منهن، كلا ولا الفوطة التي تتلفع بها النساء العربيات.

و(بنجوين) التي جعلناها محطنا لبضعة أيام، قرية كبيرة ذات موقع جميل في وهد بين التلال في الجانب الجنوبي من سهل نهر (قزلجة). ويقع منزلنا في أحمد كلوان من هذا المكان باتجاه (٥٥) درجة شمالية غربية، وعلى مسافة ساعة واحدة للخيال الجاد في مسيره. أما اتجاه القلعة القديمة في (قزلجة) فشمالي شرقي على (٤٥) درجة.

كنا نجلس نهاراً في جنينة، تحت ظلال شجرة جوز بديعة تتدلى أغصانها على عين ماء حرارتها (٥٦) درجة.

والقرية وإن كانت في منطقة (قزلجة) فهي تعود وأخت لها بجوارها إلى فتح الله آغا الذي سكنا داره في السليمانية. وقد تساوي (١٥) ألف قرش سنويًّا، إذ إن ما يعود لها من المزارع قليل جدًّا. وقد رأينا بعض الدخن النابت لا يزال أخضر يانعاً. ويتكون وهد (بنجوين) كله من حدائق وبساتين وكروم، ولم ينضج من الفواكه الآن إلا القليل النادر. وأغلب الأهلين مكاريون يصلون ببغالهم حتى (سنه) و(همدان).

١٨ آب:

لقد تأخرنا تأخراً غير متوقع في إحضار البغال للجنود، وعساني نجحت في إنجاز ما يجب عليّ في هذا الشأن وأحضرت كل ما يقتضي لشروعهم بالسفر إلى السليمانية غداً، وفي تلك الحالة يحتمل أن نبدأ برحلتنا بعد الغد. هذا ويسرني أن أقول بأن صحة أكثر أفراد جماعتي قد تحسنت عن ذي قبل، وأرجو أن أكون قد تخلصت من الحمى إذ لم تعاودني يوم أمس وهو ميعادها، وقد نجت قرينتي ولله الحمد من الإصابة بها، ومع أنها في الواقع كانت مريضة في أحمد كلوان غير أن أعراض هذه الحمى - وهي التناوب السريع والتأثير المباشر في الرأس إذا ما اشتدت وطأتها - لم تظهر عليها. ويقول عمر آغا إن هذه الحمى تعم كردستان بكاملها في هذا الموسم، وهو يعزوها إلى تبدل حالة الجو، إذ يصبح قارص البرد ليلاً وشديد الحرارة نهاراً. هذا وقد يكون لها بعض الأسباب المحلية إذ إن وطأتها تتفاوت في الشدة في مختلف الأماكن، حيث تكون في الوديان الضيقة والأماكن المنخفضة على أشدها[١].

إن مطلع الشعرى اليمانية وفي الكردية (كه لاويز) - وللكثير من

(١) يظهر من الأعراض التي وصفها المؤلف أن هذه الحمى لم تكن سوى الحمى البردائية (الملاريا) التي ما زالت تشكو منها معظم المناطق الكردية - المترجم.

النجوم أسماء بالكردية في الأصل ـ يكون حوالي اليوم العاشر من شهر آب، ويشير في كردستان إلى ابتداء انكسار شدة الحرارة، فتطيب الليالي عند ذاك، وتبقى الحرارة على شدتها في النهار.

١٩ آب:

تسلط ليلة أمس لصان على معسكرنا ونجحا في سرقة زوجين من الأحذية من بعض ناصبي الخيام. ومن الغريب أننا لم نكن عرضة إلى إزعاج هؤلاء لنا أكثر من ذلك، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار قربنا من مخيم العشائر الرحالة. وبهذه المناسبة أخبرني عمر آغا بأن الخيام التي نشاهدها في السهل المجاور، تعود إلى عشيرتي (كه لالي) و(كه ل هور) وبعض أفخاذ العشائر الأخرى الذين ينحدرون الآن من الجبال، وهم ليسوا من الجاف في الأصل. وكل هذه العشائر تؤدي الجزية إلى والي (سنه) لقاء السماح لها لرعي حيواناتها في منطقته في الصيف. ويدفع الجاف سنويًّا أربعمائة تومان جزية علاوة على هدية من الخيل والغنم.

وأظن قد فاتني أن أذكر بأننا كلما جئنا قرية خرجت جماعة من القرويين لحراسة مضربنا ليلاً، ويسمى هذا الحرس (قيشاقجي)، ويظهر لي أن الكلمة تركية، وإن لم تستعمل إلا في إيران وكردستان[١]. ويبدو لي أن قروي (بنجوين) على أتم الصحة والراحة، وهذا من الأمور النادرة في هذه الأماكن، فبيوتهم منعزلة عن بعضها، ومحاطة بالأسيجة. ويلوح لي أنها أدق ترتيباً من غيرها من البيوت التي شاهدتها في أقسام كردستان الأخرى.

---

(١) والغالب أنها قوشاقجي، من فعل قوشاتمق، والمقصود ضرب النطاق حول الشيء ـ وهنا المعسكر أو المخيم ـ أما الآن فتلفظ هذه الكلمة «أشيق جي» وهي تركية الأصل، يقصد بها حامل الضوء، باعتبار أن الحراس كانوا يحملون الأضواء عند التجوال ـ المترجم.

ويوجد في (بنجوين) بعض العوائل اليهودية تتاجر مع (سنه) و(همدان) بالعفص والجلود وغيرهما. ويصدَّر الكثير من الجلود إلى (همدان). هذا وإن اليهود القرويين في كردستان يزاولون مهنة الصباغة.

وتعد (بنجوين) ميناء أو سوق العشائر الرحالة، تصل منها القوافل إلى (همدان) في ثمانية أيام وإلى (سنه) في أربعة أيام.

إنني أندب حظي لجهلي التاريخ الطبيعي، وذلك لأن مجال العمل للاستفادة منه في كردستان واسع جدًّا، فها أنا أميز من حولي حشيشة القراص وعنب الثعلب والخبيز وهي لا تزال مزدهرة بالأوراق وكذلك السماق.

ومن الطيور علاوة على (أبي الحناء) الذي ذكرته سابقاً، هنالك نوع جميل من نقار الخشب ذي اللونين الأحمر والأربد، والقمري ومنه نوع لم أره من قبل وهو منقّط تنقيطاً جميلاً، وعدد كثير من السمّن، وعدد وافر من الحجل الأحمر القوائم.

الفصل السابع

الدخول إلى إيران - بحيرة (زه ري بار) - كيخسرو بك - مضارب الجاف - مباراة الجريد - عبور جبل (زغروس) - قرويو (كه رران) - شتاء قارص - نزاع بين الجاف - سنه - فُطور فخم - القصر - استبداد والي سنه - الحداد العام - الثورة - وفاة ابن الوالي - قنوط الوالي وقسوته - خوف رعيته - تغيير في خطتنا - فزع وزراء الوالي - استعطاف المجلس - نجاح المجلس - فرحهم وامتنانهم - الرحيل من سنه إلى مضرب الوالي

* * *

٢٠ آب:

إثر وصول الحيوانات لنقل الجنود والمرضى والأمتعة قررت مواصلة الرحلة إلى (سنه)، وغرضي من ذلك استعادة صحتي، ومشاهدة سلسلة (زغروس) بما فيها مضيق (كه رران) غير المعروف حتى الآن، وتثبيت موقع عاصمة كردستان الإيرانية.

سرنا في الخامسة قبل الظهر، ولما كنت راغباً في التأكد من طبيعة السهل الممتد حتى سفوح (زغروس) واتجاه التلال الثانوية سلكنا طريق

السهل وإن كان هنالك طريق مباشر من (بنجوين) عبر التلال، يقصّر المسافة ساعة واحدة تقريباً، ويمتد طريق السهل بمحاذاة حضيض التلال التي تحد سهل نهر (قزلجة) من الجنوب، وينعطف مع انعطافها من الشرق إلى الجنوب. وتغطي الأشجار التلال من قممها حتى أسفلها. وإن سفوح هذه التلال ترتد أحياناً ارتداداً لطيفاً على شكل أنصاف دوائر. وكان يشغل القسم الأعظم من الساحات المتكونة من هذه الارتدادات مضارب عشائرية صغيرة مرتبة، لأولئك الذين كنا التقينا بجماعات كثيرة منهم أثناء مسيرهم. سرنا باتجاه الشمس تقريباً، وهذا مما جعل الالتهاب في عيني شديد الألم، وسلبني لذة التمتع بالسفرة، ولولا ذلك لكانت بهيجة جدًّا.

دخلنا إيران في السادسة قبل الظهر، وكانت حدودها تبدأ بجسر خشبي صغير فوق نهر يصب في (قزلجة)؛ وكثيراً ما تنضب مياه هذا النهر. وما عتم أن اختفى نهر (قزلجة) نحو اليمين وراء التلال التي أخذت الآن تشطر السهل، وقد أخذ يزداد انعطافاً نحو الجنوب. التقينا برجل مسن محمول على ما يشبه النعش ورأسه إلى الأمام، وكأنهم كانوا يسيرون به إلى القبر، وهو منتصب في تلك المحفة ينظر إلى ما حوله. وقد حقق عمر آغا في أمره فعلم أن صخرة كسرت ساقه في محاولته سرقة قرية في ليلة سابقة.

وفي السابعة والنصف ونحن ننحدر من مرتفع صغير، شاهدنا بحيرة (زه ري بار) الصغيرة الصافية الزرقة، ومن ورائها إلى الجنوب جبال (آورامان) الصخرية الجرداء التي لا تخترقها إلا النياسم وحدها. لقد كان الجانب الأيسر من البحيرة جبليًّا مشجراً، أما جانبها الأيمن فسهل يبدو أنه كان جزءاً من البحيرة ذاتها قبل زمن غير بعيد، وقد انحسرت الآن إلى ما يقرب من ثلاثة أميال طولاً وميلين عرضاً تقريباً. ويحيط بالبحيرة - إلا جانبها الجبلي حيث لا يزال في حوضه الأصلي -

مستنقع مكتظ بالقصب عرضه ميل واحد تقريباً، مزدحم بالطيور البرية، والقنادس أيضاً. ويقال إن أعمق محل في البحيرة هو قرب وسطها، وهي تجمد في الشتاء. وقد قال لي عمر آغا إنه كثيراً ما اصطاد فوقها وهي جامدة[١]. ويعتقد الأهلون أجمعهم أن هذه البحيرة كانت مدينة فيما مضى، وقد أراد الله أن تغور الأرض بها بهزة أرضية لشرور حكامها وآثامهم. ويقول عمر آغا، على ما يتذكر، إن البحيرة قد تقلصت عن ذي قبل تقلصاً محسوساً.

لقد كان اتجاهنا حتى الآن جنوبيًّا شرقيًّا بـ(٧٠)د، ولكننا عند مضارب رئيس الجاف كيخسرو بك اتجهنا نحو الجنوب، وإن مضينا في سيرنا نحاذي حضيض التلال والبحيرة على نحو ميلين عن يسارنا وقد استدار طريقنا نصف دائرة.

ولم نلبث أن التقينا بأربعة من عرفاء البك؛ كانوا وسيمي الطلعة، وفرساناً ماهرين، وقد وضعوا في عمائمهم ريش البلشون (المالك الحزين)، وعلقوا تحت بطون خيلهم سجاجيد تدلى منها الكثير من أشلة الصوف الصفراء.

وفي التاسعة والنصف وصلنا مضرب كيخسرو بك إلى جنوب البحيرة بميلين تقريباً. وقبيل وصولنا إليه استقبلنا البك بنفسه ممتطياً جواده الجميل، لقد كان أجمل الخيل التي رأيتها منذ عدة سنوات مضت. وكان برفقته أولاده الثلاثة، ومحمد بك وهو نجل أخيه قادر بك رئيس الجاف السابق. وكان كيخسرو بك في حالة نفسية مرحة أحسن من تلك التي سبق أن شاهدته فيها في السليمانية. وكان أنيق الملبس يرتدي

---

(١) وينمو الحندقوق (نيلوفر) بوفرة في بحيرة (زه ري بار). انتهت الحاشية. ذكر المؤلف كلمة (نيلوفر) مرادفة لكلمة حندقوق، في حين أن الحندقوق غير مائي وهو اللوطس ـ كما جاء في نص الحاشية ـ ونرجح أنه يعني بالنيلوفر زنبق الماء ـ المترجم.

معطفاً إستانبوليًّا فاخراً بأزرار ذهبية، أسبغ جمالاً على مظهره. وكان ابنه الأكبر وهو شاب وسيم جدًّا يرتدي لباساً مماثلاً للباس أبيه فوق رداء فاخر من حرير أوروبي مشجر، أما ابنه الأصغر وهو فتى أبيض الشعر فكان يرتدي القطيفة السوداء المطرزة بالفضة. وكانت بصحبة البك ثلة كبيرة من فرسان الجاف بمظهرهم الجميل. فبدؤوا بمباراة جريد استمرت طيلة الطريق حتى المضرب، أظهر الشبان فيها مهارتهم. وكانت خيام البك من النسيج الأسود المعتاد[1] وهي واسعة عالية تحيط بها السياجات أو الحصران. وقد أعدوا لي خيمة ديوان من الجنفاص لأستقبل فيها زواري، وسيباط مريح يعود إلى حرم البك، تخلّوا عنه لسكناي وسكنى قرينتي التي كن نسوة البك ينتظرنها في السيباط لاستقبالها. وكان الاستقبال في غاية اللطف وحسن الضيافة.

وعليَّ الآن أن أنهي مذكرات يومي هذا طاوياً الكثير منها في الذاكرة؛ فبعيني الملتهبتين وصدغي النابضين بالألم أصبحت غير قادر على الكتابة.

تقع على تل في جنوبنا[2] قلعة (مه ريوان) وهي خربة الآن[3] وإنني

---

(١) وهو نسيج من شعر الماعز، يتخذ منه الرحل من العشائر خياماً، يطلق عليها «بيوت الشعر»، ويتقن صناعته أغلب أفرادهم في الشمال والجنوب. وكثرة استعماله وفر له أناساً اختصوا بصناعته وعرضه في الأسواق. وينتشر هؤلاء الصناع اليدويون في المراكز القريبة من المواطن العشائرية، كالموصل والسليمانية وبغداد والدليم وكربلاء والديوانية. وفي صوب الكرخ من بغداد في يومنا مصنعان يدويان لهذا النسيج يعتبران المنتجان الرئيسيان له وهما قرب (حمام أيوب) بجانب شارع السويدي أما سوقه ففي (المجصة) من الكرخ - المترجم.

(٢) يقع جبل (سورانه) باتجاه شمالي، و(آردبابا) - القمة المسننة منه - فوق (بانه) باتجاه شمالي بـ(١٠) درجات غرباً.

(٣) (مه ريوان) اسم المنطقة التي نحل فيها الآن، وهي تابعة إلى (سنه).

أعتقدها ساسانية. وعلى ذروة قمة تل آخر يؤلف الجانب الجنوبي لوادٍ عرضه نحو ثلاثة أميال يمتد شرقاً نحو سفح (زغروس) توجد خرائب قلعتين ساسانيتين باتجاه جنوبي شرقي بـ(٥٥)د، وجنوبي شرقي بـ(٦٠)د بالتوالي على قرابة ميلين أو ثلاثة أميال من مضربنا.

وتقع سفوح جبال (آورامان) السحيقة الجرداء على تمام الجنوب منا، وهي تمتد غرباً مطلة على (شهرزور) التي تنفصل سهولها عنا بالتلال التي تنحدر من (أحمد كلوان) إلى (بنجوين) فالبحيرة. ويمر من بين جبال (آورامان) و(زغروس) وادٍ ضيق يمر فيه طريق مباشر إلى (كرمنشاه) من السليمانية، يسمى بطريق (شاميان). ويسيل في هذا الوادي نهر ينحدر من (كه رران) ويصبّ في (ديالى). إن سلسلة (زغروس) جرداء عالية[1] وهي ترى في فترات من (سورانه) و(آردبابا) وقد تأكدت الآن بأنهما من (زغروس) ذاته، أما جبل (حاجي أحمد) ذلك القسم من (زغروس) الذي تصطاف فيه عشائر الجاف فيقع باتجاه شمالي شرقي بـ(٦٠)د من مكاني، ويظهر أن (زغروس) ينعطف شرقاً من (آردبابا) في منطقة (بانه) إلى (كه رران) ومن ثم يبرز بانعطاف شديد غرباً باتجاه الطريق الذي سنسلكه غداً. ويقع مضيق (كه رران) في اتجاه شمالي شرقي بـ(٨٥)د.

أقام البكوات الشبان بعد ظهر اليوم مباراة جريد في حضور قرينتي إظهاراً لمهارتهم، وقضيت فترة من الليل مع كيخسرو بك فسمعنا بعض الأغاني الفارسية غناها لنا منلايان. وكان هناك بعض فقراء الهنود، وامرأة عجوز عارية تماماً لكنها هادئة مؤدبة، وكان منظرها مأفوناً، فهي مبتلاة بالصرع، وقد مستها الجنة فيما مضى فخلعت عنها لباسها وهامت على وجهها في الجبال حيث عاشت عدة سنوات في وحشة كاملة، وأخيراً

---

(١) الاتجاه شمالي بـ(١٠) درجات غرباً، إلى الجنوب بـ(٣٠) درجة شرقاً.

أعيدت من الجبال ورجع إليها الهدوء غير أنه لم يستطع أحد إقناعها على ارتداء الثياب، وقد تذهب أحياناً إلى السليمانية فتسير في أزقتها عارية كما ولدت.

وفي هذا الكفاية مما أدونه عن رحلتي في مضارب الجاف، هذا وقد كنت مضطراً، للعناية بصحتي وراحتي، على إيجاز مذكراتي قدر المستطاع والاقتصار على بيان الحوادث الرئيسية منها، إذ بالإضافة إلى الالتهاب الذي أصاب عيني كنت أتألم ألماً شديداً من الأوجاع التي أشعر بها في قفا رأسي منذ أن أصبت بالحمى، وكثرة الكتابة تزيد في اضطرابي وأوجاعي على الدوام.

٢١ آب:

ودعت مضيفنا الكريم ـ الذي لا أنسى كرمه البريء مطلقاً ـ في الخامسة والنصف، وسرنا في الوادي المتكوِّن من امتداد تل (مه ريوان) في الجنوب، وتلال (زه ري بار) في الشمال باتجاه عام جاء ذكره في مذكرات أمس، وهو شمالي شرقي بـ(٨٥) درجة. وما كان طريقنا مستقيماً بل استدار قليلاً، وعند نهايته اجتزنا سلسلة تلال صغيرة ووصلنا في السابعة والنصف إلى (كووزه خوره) «ومعنى ذلك شجرة الجوز المعطوبة» وهي قرية صغيرة في وهدٍ ضيق. وفي الوادي الذي مررنا به وقعت المعركة ـ إذا صح التعبير عنها بذلك، إذ استغرقت عشر دقائق ـ التي أسر فيها عبد الرحمن باشا الزعيم الكردي، سليمان باشا كهية بغداد حينذاك مع القسم الأعظم من جيشه في الحملة الهوجاء التي شنّها، باشا بغداد على الإيرانيين. لقد كانت سفرتي اليوم شاقة جدًّا لاضطراب عيني، إذ كان مسيرنا باتجاه الشمس تماماً. إن البيوت أو بالأحرى الأكواخ في (كووزه خوره) مسقفة تسقيفاً غير منسق بقصب طويل يستند على جسر محدب ويتدلى على الجانبين من البيت، والسقف بكامله

مرتفع ضيق. لقد سكنا كوخاً من أحسن الأكواخ التي وصفناها وأظنه كان مسجد القرية. والبيوت كلها مفصولة عن بعضها بسياجات من الأغصان المشبكة؛ وإنها لقرية تعسة وإن سكنها الشيخ كريم أحد نائبي المنطقة الاثنين، وهو رجل مؤدب يرتدي كسوة على الطراز الباباني، لا الإيراني. وقد أودعت رجلين من رجالي تحت رعايته لعجزهما عن مواصلة السفر لشدة مرضهما، ـ وقد مات أحدهما بعد ذلك بقليل والتحق بي الآخر في (بانه).

٢٢ آب:

تحركنا في الخامسة وسرنا في أرض تلية مكشوفة حتى السادسة، فوصلنا مدخل وادٍ ضيق بين جرفين هدودين جدًّا وقد شمخا برأسيهما الأجردين من فوق أشجار البلوط النابتة على حدودهما. ويسيل نهر عصر آباد أو (كه رزان) في المضيق، يمتد فوقه جسر منتظم على ثلاث قناطر، شيده أمان الله خان والي (سنه) الحالي. وكنا في طريقنا منذ مغادرتنا القرية في صعود هين فبدأنا الآن نرتقي ارتقاءً محسوساً، ونهر (عصر آباد) عن يسارنا على مسافة نحو ميل، ويصب هذا في (ديالى). وكان اتجاهنا إلى الجسر شماليًّا غربيًّا بسبعين درجة، ومنه جنوبيًّا شرقيًّا بسبعين درجة. وكان الطريق على غاية من الجمال يمر بين غابات السنديان والدردار والكمثري البرية والكروم والصنار، وكانت تكسو التلال حتى قممها، وقد شاهدنا من بينها أشجار الزعرور والأزهار البرية البالغة، ومما زاد في روعة المنظر حيوية سير جماعة كبيرة من عشيرة الجاف نحو سهول (زه ري بار) بعوائلها وأغنامها وقد حملوا أمتعتهم على ظهور الثيران، وكان الأطفال في مهود على ظهور النساء، أما الصبيان فقد أركب كل اثنين أو ثلاثة منهم سويًّا على ظهر فرس أو ثور. وكان هناك الكثير من النسوة المسترجلات ـ وهنَّ في فرح ونشوة ـ يسرن سوية بين النساء

الأخريات، ويستبان أن لهن سلطة عظيمة في إدارة الجماعات. أما الرجال فكانوا متئدين في سيرهم وقد وضعوا (المقمعات) الدبابيس الكبيرة في أحزمتهم، والسيوف على جوانبهم والتروس فوق مناكبهم، وبعضهم يسوق قطعان الغنم والماعز والخيل؛ وطبقة الوجوه منهم يمتطون الجياد. وكان أمر الاعتناء بالأولاد والأثقال منوطاً بالنساء. والجاف أناس ذوو ملامح شديدة، صعبوا المراس.

لقد كان الطريق جيداً جدًّا، والخانق الذي نرتقيه ضيقاً بالغ الضيق. وفي الثامنة إلا عشر دقائق وجدنا أنفسنا أمام مرتقى هدود في اتجاهنا ذاته، ولم يكن المسلك كثير المنعطفات. لقد استغرق صعودنا ونحن نسير سيراً بطيئاً مدة خمس وأربعين دقيقة، أما الجبال فكانت من الجبس والأردواز، وفي الثامنة والنصف وصلنا أعلى الرقبة من الخانق فشاهدنا على الجانبين قمماً جرداء أعلى، ثم بدأنا بالنزول توًّا على نيسم شديد الانحدار، وقد قلَّت الأشجار، وصرنا لا نرى منها إلا أشجار البلوط القزمة. وكانت الجبال في كل الجهات، على مدى البصر عارية جرداء، وكأن الإنسان في وسطها وسط بحر من التلال الربداء؛ لقد أصبح المنظر حزيناً كئيباً، بعد ما كان بهيجاً مفرحاً. وفي التاسعة وخمس دقائق أدركنا أسفل المضيق، فجلسنا للفطور، الذي وجدناه معداً لنا تحت بضع أشجار من الصفصاف عند ساقية صغيرة.

يطلق على هذا المضيق في (زغروس) اسم (كه رران)، وهو اسم أحد الشيوخ أو الأولياء كما قيل لي، ومن المؤكد أن هذا الاسم لم يكن من الأسماء الإسلامية. ويعتبر مضيق (آردبابا) المؤدي إلى (بانه) أسهل ممرًّا، ولم يكن هذا المدخل إلى إيران مدخلاً مبهجاً قط، إذ كانت تبدو لنا الأشياء وكأنها عارية لفحتها النار. ويقال إنه لا توجد أشجار شرقاً، حتى حدود الهند.

وفي الثانية والنصف استأنفنا مسيرنا من هنا وكان طريقنا يتعرج

خلال تلال عالية جرداء نابية المنظر متكوِّنة من صفائح أحجار متكسرة، تغطيها تربة تضرب إلى الحمرة قليلاً، ولم نر فيها أثراً للضرع والزرع؛ أما اتجاهنا فكان جنوبيًّا شرقيًّا بسبعين درجة. وفي الثانية عشرة إلا ربعاً وصلنا إلى نهر (والظاهر أنه يصبح أحياناً سيلاً جارفاً) اسمه (كاكور زكريا)[1] فعبرناه مرتين قبل أن نبتعد عنه، وهو عن يسارنا. وفي الواحدة إلا خمس دقائق حدنا عن الطريق العام إلى وادٍ ضيق جدًّا، وفي الواحدة وخمس دقائق وصلنا قرية (جه ناويره) الحقيرة، ونحن لا نزال في منطقة (مه ريوان) أكبر ملحقات (سنه)؛ وما كانت وجوه القرويين الكورانيين وسيمة كوجوه من كان منهم في كردستان التركية.

٢٣ آب:

سرنا في الخامسة والربع من صباح اليوم. وكان اتجاهنا جنوبيًّا شرقيًّا بخمسين درجة لمدة مسير نصف ساعة حتى بلغنا الطريق العام، ثم أصبح طيلة اليوم جنوبيًّا شرقيًّا بثمانين درجة، وكان الطريق يتلوى بين منعطفات الوديان الضيقة ويمر أحياناً من فوق التلال التي تفصلها عن بعضها وكان الارتقاء بوجه عام أكثر من الهبوط والأرض بمناظرها قفراء كئيبة كيوم أمس. ولاحظنا أن المياه في بعض الأماكن تجري في مجار ترابية اصطناعية لإرواء الزرع، وقد أخبرني عمر آغا بأن التربة هنا أضعف من أن يستفاد منها في الإنتاج الزراعي ما لم ترو إرواء اصطناعيًّا؛ فالشتاء قارص جدًّا والثلوج الكثيفة تتراكم عليها زمناً طويلاً. وفي السابعة إلا عشر دقائق مررنا بطنف اصطناعي ذي قمة مستوية، كطنف (جه م جه مال)، عن يسارنا في وادٍ ضيق بالقرب من حضيض تل من

---

(١) يتجه (كاكور زكريا) غرباً إلى (شاميان) ثم ينعطف إلى اتجاه (كافرو) ـ بالفاء الفارسية ـ ويصب في (ديالى).

التلال، ويسميه الأهلون (قالا) أي القلعة، وإن كان لا يجوز مطلقاً أن تكون القلعة في موقع يمكن فيه مهاجمتها حتى بالأحجار من التلال المجاورة.

وبعد أن مضينا في الصعود طيلة طريقنا تقريباً منذ أن غادرنا (جه ناويره) هبطنا قرابة ربع ساعة، فوصلنا آخر منحدر في الساعة الثامنة، على أننا أخذنا توًّا بالصعود على مرتفع هدود وانتهينا إلى قمته في الثامنة والنصف، حيث بدا لنا منظر جبل (زغروس) البديع؛ وما كان الهبوط بشيء يذكر.

وفي التاسعة وعشر دقائق وصلنا خيام قرويي (به رروده) في وادٍ ضيق، والقرية فوق التلال عن يسارنا على بعد نحو ميل واحد. ويقيم قرويو (به رروده) مضاربهم في الصيف في هذا المكان على الدوام؛ إنهم فرغوا من حصاد زرعهم وهم الآن يدرسونه ببغالهم وثيرانهم[1]. ووصلني هنا رسول من السليمانية، ومع أنه جاءني راجلاً فإنه لم يمر على مغادرته لها إلا ثلاثة أيام.

غطَّست المحرار في منبع عذب بالقرب من الخيام فعجبت لدرجته إذ كانت ٦١د.

ووجدت بين التبن حشرة كبيرة تشبه الجراد، طولها نحو أربع عقد وكانت غير مجنحة ويبرز من ذيلها شيء يشبه السيف. وهي تعض عضًّا مؤلماً، ولا تؤذي الزرع، ويسميها الكرد (شيره كولله ـ أو الجراد الأسد)[2] ووجدنا أيضاً خلداً يسميه الكرد (موشه كوره) أو الفأر الأعمى.

---

(١) إن درس الغلة بهذه الطريقة الابتدائية يعد أسلوباً عامًّا في جميع أنحاء العراق، وهي لا تزال متبعة ـ المترجم.

(٢) تقابلها لفظة (حر كول) الواردة في التلمود، أو (كازام) وهو نوع من الجراد يوجد =

٢٤ آب:

تنازع قبل خمسة عشر يوماً تقريباً بعض رجال الجاف مع البعض من مجاوريهم فجرحوا أحدهم بالسيف جرحاً بليغاً. وفي الليلة الماضية بينما كان ثلاثة من الجاف يمرون بقطعانهم، تجمهر عليهم ستة أو سبعة فرسان من الأهلين المجاورين فطردوهم وسلبوهم قطعانهم. ولما بلغ الخبر أسماع عمر آغا أرسل من فوره أربعة من فرسانه فرجعوا بعد نصف ساعة إلى المضرب ومعهم الأغنام وأسيرين، وفي الليل جاء رفقاء الأسيرين وحسموا قضيتهم، فأطلق سراحهما وأرجعت الأغنام إلى أصحابها.

سرنا في الخامسة والنصف وكان الصبح قارصاً، وبعد أن تركنا القرية بقليل اجتزنا تلاً عالياً ناهداً واستمر طريقنا ملتوياً طيلة مسيرتنا اليوم بين تلال الأردواز في الوديان التي يسيل فيها شرقاً جدول صغير يتجه نحو (كافرو) ويصب في (ديالى)، وهو يمر في قاع مكتظة بالقصب والصفصاف وخضرتهما المبهجة تناقض مظهر تلال الأردواز الداكن. وقد شاهدنا الكثير من عليقات الزهور البرية وشجرة اسمها بالفارسية (سنجد) وبالكردية (سه ن جوف) وبالتركية (ايده) وهي تحمل ثمراً صغيراً يشبه العناب[١].

وفي الثامنة ترجلنا عند ضفاف النهر للاستجمام، وبعد وقفة قصيرة، استأنفنا السير في التاسعة إلا ثلثاً، وفي التاسعة والنصف وصلنا إلى (دووي سه) وهي قرية كبيرة قذرة، تتألف من أكواخ حقيرة ذات

= في رأس الرجاء الصالح. راجع الصحيفتين ١٣ و١٤ من كتاب «في الجراد» لمؤلفه (لورودولف). انتهت الحاشية. وجاءت كلمة (كازام) العبرية في نص الحاشية (كارام) خطأ كما أخبرت ـ المترجم.

(١) وفي العربية (الغبيراء)، واسمها الدارج في العراق (نبق العجم) ـ المترجم.

سقوف مسطحة مبنية على جانب من تل أردوازي أجرد، غير أننا شاهدنا الكثير من البساتين والكروم في الوادي وعلى جوانب بعض التلال المجاورة، وذلك مما أسبغ على المكان منظراً أجمل من أي منظر آخر رأيناه منذ اجتيازنا (كه رران).

ويرتدي وجوه هذه القرية اللباس الإيراني، ويقلدهم في ذلك النساء. لقد استغرقت سفرتنا اليوم ثلاث ساعات وثلث الساعة، وكان اتجاهنا شماليًا شرقيًا. ولم أكن منتعشاً اليوم، لملاحظة الاتجاهات بالبوصلة باستمرار.

وتقع (دووي سه) التي نزلناها اليوم في منطقة (حسن آباد)، وكذلك مدينة (سنه) عاصمة الإيالة وهي على بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق الجنوبي من هذه القرية[1].

٢٥ آب:

وصل القرية ليلة أمس ميرزا فيض الله أحد كاتمي سر والي (سنه) ويظهر أن الوالي وهو الآن في سياحة في مقاطعاته الشمالية، قد علم بوصولنا منطقته فأرسل الأوامر إلى (سنه) لإنزالنا في قصره، واستقبالنا بنفس الاحترام الذي يقابل به هو، وعلى هذا أخذ ابنه الثاني وهو الآن حاكم المدينة الفخري يستعد لاستقبالي ومعه كل القطعات العسكرية الأمر الذي أرغب في تجنبه، ولذا فإني رفضت أن تقام هذه المراسيم رفضاً باتاً. ولكن أوامر الخان كانت حاسمة، وهو لم يكن من الرجال

---

(١) بالنظر إلى قول الميجر (ره تل)، إن الفرسخ يقل عن ثلاثة أميال ونصف الميل البريطاني، راجع الصفحة (٤) من كتاب «في انسحاب العشرة آلاف». أما المستر (فريزه ر) فيقول في الصفحة ٣٦٧ من كتابه (رحلة في خراسان) بأن الفرسخ الخراساني يزيد قليلاً على الفرسخ العراقي، وهو أقل من أربعة أميال بريطانية.

الذين يخالف لهم أمراً مهمًّا كان طفيفاً، فجابهت الصعاب في التملص من هذا الاحتفال، ولم أفلح في طلبي إلا بعد أن بينت لهم جازماً بأنني سأرجع من حيث أتيت إذا ما أصروا على رغبتهم، كما وعدت ببيان الأسباب للخان، وأخيراً انتهينا إلى حل وسط وهو أن يستقبلني اثنان أو ثلاثة من الأعيان في حديقة الوالي، حيث كنت أنوي الإقامة في الوقت الحاضر.

وجاءني الميرزا برسالة من محمد خان الأمير الصغير، وهدية من الفواكه محملة على ستة بغال وحمل بغل واحد من الثلج.

أعاقتني المفاوضة عن الحركة حتى السادسة والنصف. وكان وجه الأرض على ما هو، لم يتغير سوى أنه كان أكثر انكشافاً. وشاهدنا في بعض الوديان البساتين والكروم والقرى الصغيرة. ومستوى الأرض يأخذ بالانخفاض كلما اقتربنا من المدينة ثم يرتفع ثانية من ورائها، ومن بعد عدة منخفضات وتلال ينتهي بسلسلة تلال (بازرخاني) العالية الممتدة شمالاً وجنوباً. وتمتد فوق هذه السلسلة القصيرة الطرق إلى (همدان) و(طهران)[1].

سرنا ببطء وعلى الأخص في القسم الأخير من الطريق، إذ شعرت بتوعك شديد، وأخذ يضايقني الدوار الذي اعتراني من قبل.

ولمدينة (سنه) منظر خلاب أكثر جمالاً مما كنت أتوقعه، بقصرها المحاط بالأبراج والمشيد على مرتفع. وببعض الأبنية الجميلة القائمة حول سفوحه. وباقترابنا من المدينة انعطفنا إلى اليمين إلى بستان (خسروآباد) وهي على بعد يقل عن ربع الميل من الجنوب الغربي منها، وعلى منحدر يبدأ من قاعدة تل مرتفع جميل ينتهي عندها. والبستان يبدو

---

(١) تنتهي تلال (بازرخاني) في نجد هو مرتفع (همدان)، وبعد الوصول إلى أعالي هذه التلال يندر أن يكون منها نزولاً ـ الناشرة.

عن بُعد وكأنه مشتل أشجار من الحور، إذ لا يحيط به جدار أو سياج سوى تلك الأشجار المتراصفة. وقبل العاشرة بعشر دقائق وصلنا المدخل ففاجأتنا المناظر الجميلة مفاجأة سارة، وولجنا ممرات تكتنفها أشجار الحور الباسقة الجميلة من الجانبين إلى قصر فخم، سامق تحيط به الحدائق، وأحواض مربعة جميلة تعلوها النافورات وهي أمام القصر وخلفه، وكانت النافورات دافقة، وقد وضعت سلال الفواكه الزاهية من حول الأحواض. وكان الصيوان أي القصر شامخاً وقد زين بالنقوش المذهبة على الطراز الإيراني. وفي الحديقة مجموعات نفيسة من أشجار الفواكه صفت بذوق لطيف وكنا نطل من الصيوان على طريق الحديقة الرئيسي المعرش بالأشجار ـ المخرفة[1] ـ وقد كان منظراً خلاباً حقًّا. نظم هذه الجنينة أمان الله خان الوالي الحالي قبل أربعة عشر عاماً وسماها بـ(خسرو آباد) تخليداً لذكرى والده، خسرو خان الوالي السابق. وهي على رقعة أرض مساحتها ستمائة (كز) شاهي مربع[2] مقسمة إلى مربعات

(١) راجع الحاشية (٢) من الصفحة ٢٢٧ـ المترجم.

(٢) أو الذراع الشاهي وهو ما يقارب عشر الياردة الإنكليزية. انتهت الحاشية. وهذا لا يعقل، ولا بد أن يكون سقطاً مطبعيًّا. والأصح هو ما يقارب الياردة وعشر الياردة. إن طول الذراع الشاه ـ أو الشاهي ـ المعروف في بغداد يعادل المتر الواحد. وجاء في قاموس P. Stemgass الفارسي ـ الإنكليزي أن الكز ـ الذراع ـ طول قوامه عرض ٢٤ أصبعاً أو عرض ستة جموع، أما الذراع الشاهي فجاء في حاشية من كتاب (نادر شاه) لمؤلفه (ل. لوكهارت ـ ١٩٣٨م ـ لوزاك، لندن) وباسم «كه زي شايكان» أنه مقياس طوله نصف قامة الرجل المعتدل الطول ويستعمل عادة في (خراسان).
وقبل تعمم الياردة في أسواق بغداد، ومقاييس المتر العشرية كانت المقاييس الرئيسية المستعملة في بغداد هي:
ذراع بغداد، وهو يساوي ١٧,٥ عقداً. والعقد البغدادي يعادل ٤,١٦ سانتيم.
وذراع حلب وهو ١٦ عقداً بغداديًّا.
وذراع الشاه ـ وموضوعنا يدور حوله ـ وهو يساوي ذراعاً ونصف ذراع حلب، وإذا ما ـ

تتخللها ممرات من أشجار الحور يتوسطها ممر رئيسي. وقد غرست المربعات بأشجار الفواكه النضرة على اختلاف الأجناس التي تنمو في هذا الإقليم، وزرعت بالقرب من الصيوان والممر الرئيسي عليقات الورد وأنجمه.

واستقبلني عند مدخل الجنينة ميرزا فرج الله عم الأمير الصغير الذي اتفق أن كان في (سنه) وعناية الله بك أحد رجال المدينة البارزين وسادة آخرون لا تحضرني أسماؤهم.

ووصلني بعد الظهر ساعٍ سريع من الوالي ذاته، يلتمسني بعد بقائي واستجمامي في (سنه) أن أعود إلى السليمانية بالطريق الذي هو عليه الآن. ولما كان هذا الطريق لا يعيقني كثيراً فضلاً عن كونه يتيح لي فرصة رؤية بعض الأماكن الجديدة المهمة، وطدت العزم على إجابة طلبه[1] ولقد أعجبت الإعجاب كله بالحديقة والصيوان اللذين لم أشاهد حتى الآن مثيلاً لهما في الشرق. والصيوان كغيره من الأبنية المشيدة على طرازه تقليداً لنمط جوسق (جارباغ) في أصفهان، وغيره من الأماكن المماثلة له التي ترجع إلى عهد الدولة الصفوية.

وبعد انتظار طويل خارت بعده قوانا من الجوع، دعينا إلى فطور فخم، أو بالأحرى إلى طعام عشاء غني، خصصت فيه لكل منا صينية واحدة؛ ودعينا ثانية في العاشرة مساء إلى طعام مثله.

= أرجعناه إلى العقود البغدادية والسنتيمات قارب المتر الواحد.

ثم الذراع العادي، ويطلق عليه أحياناً ذراع البنا، وطوله طول ذراع الرجل المعتدل الطول، من المرفق حتى طرف الأصبع الوسطى، وهذا يعادل نصف المتر تقريباً أو ١٢ عقداً بغدادياً ـ المترجم.

(١) ذكر الوالي في كتابه أنه سمع بأخبار المستر (ريج) وهو يرغب في لقياه منذ زمن بعيد ـ الناشرة.

والرجال الذين قابلتهم هنا ـ وكلهم كورانيون ـ يتخاطبون بالكردية الكورانية، ولكنهم كانوا يكلموني بالفارسية، وكانوا جميعهم يرتدون اللباس الإيراني الأمر الذي لا ينشرح له الصدر؛ وهم لم يتصفوا بأي حال من الأحوال بالصراحة والرجولة اللتين يتحلى بهما أصدقائي البابانيون. ولا شك في أن اللباس الإيراني، والعادات الإيرانية كانت نابية عنهم، هذا وإنني أعتقد بأنهم يعتبرون في هذا الباب أحط منزلة من الكرد، فهم في مظاهر تبدو عليها الذلة. وقد قال عمر آغا فيهم «إنهم ليسوا من القبليين» ولا بد لي أن أعترف بأن عمر آغا كان في مظهره على النقيض منهم تماماً، فهو بمظهره العسكري البين وبلباسه الفضفاض وعمامته المرقطة المنحسرة إلى الوراء والتي تكشف عن ناصية جميلة تنم عن كل معاني الرجولة، كان كالأمير بينهم؛ وقد وجدته واسع الشهرة عظيم الاحترام في هذه الأوساط.

٢٦ آب:

يختلف الإيرانيون عن الأتراك في ناحية واحدة وذلك في أنهم لا يتركونك وشأنك، فقد ينزلك الرئيس التركي في داره مرحباً بك ثم ينصرف عنك، إلا إذا رغبت فيه، وعلى الأخص إذا كنت مصحوباً بسيدة، أما الإيرانيون فيتجمهرون حولك ليلاً ونهاراً، ولا سبيل للتخلص منهم، وإن كنت خارج المدينة. لم تستطع قرينتي أن تغادر غرفتها لنزهة في الجنينة، وعلمت أننا نتمكن من فضهم من حولنا إذا سكنا المدينة. ولما كان المضيفون يرغبون في سكنانا في الجناح المعد لنا في القصر وكنت أيضاً من الراغبين في مشاهدة شيء من المدينة، وافقت على الاقتراح وغادرت الحديقة صباح اليوم. وبعد أن هبطنا راكبين المنحدر الذي شيدت عليه الجنينة إلى وهد قذر، وصلنا بعد بضع دقائق إلى سور المدينة الخارجي وهو من «الطوف» ومن هنا ارتقينا شارعاً وعراً رديئاً

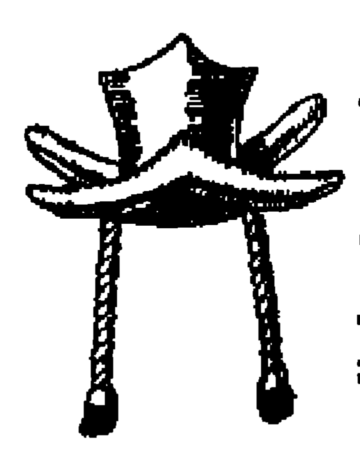
حتى مدخل القلعة أو القصر، فوجدنا الحرس في انتظارنا لتحيينا. ويتألف هذا الحرس من قرابة مائة آورامي مسلح بالبندقيات، أنيط بهم شرف حراسة القصر، وكانوا رجالاً غريبي المظهر ـ لا تبدو عليهم السحنة القبلية ـ يرتدون ملابس صوفية خشنة بيضاء على طراز يشبه الطراز الإيراني بعض الشبه وعلى رؤوسهم قبعات غريبة الشكل من اللبد الأسود مدببة القمة، تنتهي عند الأسفل بذوائب طويلة دقيقة أشبه شيء بالعناكب[1]، وكانوا متكئين على بندقياتهم الطويلة وهم يتفرسون فينا ونحن نمر بهم.

أدخلنا من فناء إلى غرفة واسعة على شرفة تطل على المدينة، وبعد مرور بضع دقائق جاء الخان الصغير وهو طفل جميل في التاسعة أو العاشرة من عمره، إلا أن رزانته ووقار مظهره كانا أكثر مما يتحلى به طفل في سنه؛ ويبدو أنه قد تظاهر بذلك بهذه المناسبة. وقام عناية الله بك، الذي لف شالاً حول قبعته على الطريقة المتبعة في القصر بدور رئيس التشريفات والناطق بلسان الخان، أما ميرزا فرج الله فقد وقف إلى جانب ابن أخته وكان كل من يدخل الغرفة من الخدم أو غيرهم يحييّ الأمير الصغير بانحناءة لا رشاقة فيها، ولكنه لم يهتم بأي منهم.

هيئت القهوة والشرابات وأطباق الحلوى، وقدم لي الخان الصغير بيده القهوة والشرابات. وقد لاحظت أن الإيرانيين كافة يأكلون الحلوى

---

(١) واجع اللوح، ـ انتهت الحاشية. ولم تكن هذه القبعات بغريبة على الجيوش الشرقية السالفة، لقد تفنن الإنكشاريون في الجيش العثماني تفنناً طريفاً في لباس الرأس، والقيافة، وقد أصبح لكل ذي رتبة أو منصب أو صنف من صنوف الجيش قبعة خاصة وقبعة جنود مدفعية القوس في الجيش الإنكشاري الذين كانوا يسمونهم «خمبره جي» ـ أي رماة القنابر ـ تشابه هذه القبعة، وإليك الرسم ـ المترجم.



أكلاً لا اعتدال فيه. ولم نتبادل أي حديث ذي بال، سوى الإطناب بعبارات الترحيب والمجاملة. وبعد أن اعتذر الخان الصغير وتركنا، تجولنا في أنحاء القصر.

هناك صيوان (Pavilion) جديد مشيَّد في مؤخرة الشرفة عند المدخل سميَّ بالخسروية على اسم أكبر أولاد الخان من الأحياء، واسمه خسرو خان لكن اسمه أبدل مؤخراً بـ(محمد علي) تيمناً. وكان بالقرب من الغرفة المعدة لي بهو الاستقبال القديم الذي شيده خسرو خان والد أمان الله خان بعد ولادة ابنه الوالي الحالي وذلك قبل سبعة وأربعين عاماً، فالنقوش والزخارف المذهبة التي كانت يوماً ما جميلة، أصبحت لا يمكن ترميمها الآن. لقد أكسيت جدران البهو بالخشب على ارتفاع أربعة أقدام تقريباً، ورسمت عليه الأزهار. ورسمت على الأقسام العليا من الجدران رسوم مختلفة تمثل معركة (جالديران)، والمعركة التي دارت بين (تيمورلنك) و(بايزيد)، ورسوم بعض ملوك إيران الصفويين ورسم الشاه الحالي بلحيته الخارقة[1]، ورسم إسكندر الكبير، وإلى جانبه ساعة وهو

---

(١) فتح علي شاه، الشاه الثاني من العائلة القاجارية، خلف عمه آغا محمد خان على أثر وفاته. وقد اعتلى العرش بعد اضطرابات داخلية عمت الجيش، وكان إذ ذاك حاكم إيالة (فارس) وهو ولي العهد فتقدم من (شيراز) إلى العاصمة وسيطر على الموقف بمساندة رئيس الوزراء الحاج إبراهيم له وكان هذا عام ١٢١٢هـ-١٧٨٩م، ولم يتوج إلا بعد مضي سنة على ذلك. وبقي في دست الحكم (٣٧) عاماً وتوفي عام ١٢٥٠هـ-١٨٢٦م. ومن الوقائع التي حدثت في عهده تجريده القوات لإخضاع رؤساء (خراسان)، وبسط سلطانه على القسم الأكبر من تلك الإيالة، وحربه مع الأفغان، ثم مع الروس وقد أسفر ذلك عن ضياعه بلاد الكرج. وقد امتاز بكفاءته في دره أطماع نابوليون في إيران الأمر الذي حمل الإنكليز على التحالف معه فور اعتلائه العرش وكان ذلك من الأسباب التي حولت وجهة الأفغان من تحرشهم بالهند وازدهار التجارة بين الهند وإيران، إن زيارة السير جون مالكولم لإيران كوزير فوق العادة لدى البلاط الإيراني كانت في عهده. راجع حاشية الصفحة ٢٠٩- المترجم.



اللوح الرقم (٣)
جنديان كرديان من (آورومان - هەورامان)

يرتدي البزة الإيرانية، وبوجه امرأة خليعة، هذا ومن الغريب جدًّا أن نرى الإيرانيين يؤثرون عن الإسكندر كونه شابًّا، أمرد وسيم الطلعة.

وكانت واجهة البهو مكشوفة، تدعمها الأعمدة وفي منتهاه مقصورة يطلق الإيرانيون عليها اسم (شاه نشين)، وهي على جانب عظيم من الزخرف وفي وسطها حوض ماء صغير وتفصلها عن البهو نوافذ زجاجية تسدل عند الاقتضاء. ويسمى هذا النوع من البهو بالتالار «الطرار» - إيوان، وهذه كلها تقليداً لأبنية الصفويين في (أصفهان). إن سعة هذا الإيوان عدا المقصورة خمسون قدماً طولاً وخمسة وعشرون قدماً عرضاً.

وإذا ما انعطفنا نحو زاوية ذلك الإيوان المزدان بالأنجم والأوراد نجد بهو الاستقبال الجديد الذي بناه أمان الله خان قبل نحو أربع سنوات.

وهذه الغرفة أكبر من الإيوان، تسد واجهتها نوافذ ذات رسوم بديعة. وهي غرفة فخمة جدًّا، والإزارة منها من المرمر الشفاف قليلاً، أو من الرخام المعرق وقد لونت الإزارة تلويناً جميلاً وموهت بالذهب بذوق سليم وألوان متناسقة. وكانت درجات السلم من الرخام المعرق ذاته، وقد جيء به من تل على طريق همدان، وقد استخرج من الأرض بعناء شديد. ولكن مما ألحق الضرر البالغ بجمال الردهة ما رسم على الأقسام العليا من جدارها من الرسوم البخسة وهي أشبه ما تكون برسوم اللافتات؛ وهي تمثل الملك سليمان، وملكة سبأ، ومعركة دلهي ونادر شاه يعيد التاج إلى المغول ورسوم أخرى تمثل حوادث مماثلة. والأنكى من كل ذلك وجود صور منتصبة زعموا أنها تمثل إمبراطور روسي، وأمير الغال، وحاكم الهند العام وملك الأسبان وإمبراطور ألمانيا، وبونابرت وهو يحمل بيده بندقية وحربة. لقد كانت كلها رسوم سمجة لا تمت إلا هؤلاء بشبه لا في السيماء ولا في القيافة، إلا رسم إمبراطور روسيا الذي إذا نظرت إليه عرفته لأول وهلة. وقد رسموا أيضاً جلالة الشاه الإيراني بلحيته المرعبة وهو مثقل بالمجوهرات. وعلى جانبي البهو شرفتان

صغيرتان مرتفعتان زينتا تزييناً بديعاً تعرف عندهم بـ(بالإخانة) وأرى أن كلمة (بالقون) الإنكليزية محرفة عنها، وكلها مجموعة من ماء الألوان الزاهية المذهبة وفي الواقع كانت الإزارة برخامها المعرق فخمة وجميلة معاً. هذا ولو استعيض عن هذه الرسوم السمجة المرسومة على الجدران برسوم من ريشة (روبين) بألوانها الفنية التي تتلائم مع باقي أقسام القاعة، أو إذا تعذر ذلك ـ وهو الواقع ـ واستعيض عنها بقطع من سجاد (غوبلين) لأصبحت غرفة تستحق عناء السفر لمشاهدتها في أي ناحية من أوروبا. وهنالك على بعد قليل من هذه القاعدة توجد غرفة صغيرة مكسوة جدرانها بالمرايا، ومزوقة تزويقاً غريباً بالأباريق والأكواب والقناني وكؤوس الزجاج وغير ذلك.

يجد الإيرانيون لذتهم الكبرى في ذلك، وأنهم كانوا يكشرون عن أسنانهم ويحدقون بوجهي لاستشفاف أمارات العجب وهم يطوفون بي في غرفة التحف هذه. ويوجد على بُعد قليل في فناء آخر أيضاً محراب صغير جميل، وأبنية عديدة لم يتم بناؤها بعد، كان في إحداها نافذة إنكليزية بارزة على الإيوان والدكة. وسيكون القصر بعد إكماله قصراً بديعاً جدًّا، ولكن ستظهر عليه الكثير من المتناقضات الشرقية كالممرات الضيقة المظلمة القذرة والسلالم الخطرة وغير ذلك.

وقد فاتني أن أشير إلى رسم في البهو الجديد يمثل معركة (مه ريوان) يظهر فيه رسم أمان الله خان وأتباعه الكورانيين بارزاً وقد اقتيد (سليمان كهيا) أسيراً إليه، وقد مر بنا أن هذه المعركة قد انتهت خلال عشر دقائق وسلم الكهيا نفسه إلى عبد الرحمن باشا دون أن يخوض الإيرانيون أو الكورانيون القتال[١].

ولأمان الله خان كما لغيره من الإيرانيين هواية ملحة في البناء وهي

---

(١) راجع الصفحة ١٥١.

هواية يمكنه أن ينغمس فيها بسهولة لتمكنه من تسخير العمال وأرباب الحرف على الاشتغال له مجاناً لقاء بعض الامتيازات كتخويلهم تسخير مواشي القرويين في حمل الأثقال عند الحاجة، أو إعفائهم من قبول ضيوف الحكومة أو موظفيها، أو حمايتهم من الدائنين أو التساهل معهم في أمور أخرى شبيهة بها في تطمين هواياتهم.

فجامع لطيف، وتحسينات في القصر، وبعض الحمامات والخانات وسوق كبير حول الميدان وإن لم تدخر فيه الأموال الادخار الكافي وأبنية أخرى كان ذلك مما يتلائم وذوق أمان الله خان وطغيانه. إن السائح ليعجب بعظمته، ولكن المواطنين المساكين والقرويين يئنون عند ذكر منشآته.

لقد شيِّد القصر فوق مرتفع عالٍ، يشرف على المدينة كلها وهو محاط بسور من «الطوف» كان في حالة رديئة جدًّا. ويقع عند أسفل التل قسم من المدينة، فسور آخر ذو أبراج ومن ورائه قسم آخر من المدينة وهو محاط أيضاً بسور آخر. لقد وسَّع أمان الله خان المدينة كثيراً خلال الأعوام القليلة الماضية، وتشاهد وأنت في شرفة القصر بعض البيوت الأنيقة المشيدة بالطابوق، أما المساكن الاعتيادية فمن الطين المجفف كبيوت السليمانية. وتحيط بالمدينة من الجهات كلها أرض ترتفع عن مستواها، وهي على منحدر يوصل إلى وادٍ مكتظ بالحدائق والكروم، وهذا مما جعل أزقة المدينة متموجة صعوداً وانخفاضاً، وترتفع الأرض بعد الوادي ثانية إلى تلال متكسرة تنتهي في سلسلة (بازرخاني) التي مرَّ ذكرها.

ولم تكن الحمى الراجعة مجهولة هنا خلال موسمي الربيع والخريف. وقد عمت وطأتها هذه السنة كل الأماكن، كما شحت المياه شحًّا محسوساً في كل أنحاء إيران وكردستان التركية. ويعتبر موقع القلعة والأراضي المرتفعة حول (سنه) من المواقع الصحية.

رجعت إلى غرفتي متعباً من استعراضي للقصر ـ وإنني لا أحب التجوال لمشاهدة البيوت ـ ولم آسف لرؤيتي فطوراً فخماً، أو بالأحرى عشاءً مهيّئاً، وبعد تناوله اضطجعت للراحة في الإيوان، وعندما نهضت زارني بعض أعيان المدينة ورجعت عند غسق الليل قرينتي من الجنينة. أما طعام العشاء فلم يؤت به كما هو المعتاد قبل العاشرة، وعلمت أن الإيرانيين يتناولون عشاءهم عادة بعد هذه الساعة.

٢٧ آب:

علمت من ميرزا فيض الله بأن الكرد يطلقون علماً عاماً على (زغروس) هو (شاهو)[١] وهذا الاسم هو الشائع عن جبل (جوان روو)، ولكن المفهوم لدي الكرد العارفين في هذه البقاع بأن هذه التسمية العامة تنطبق على الجبال المنحدرة بين (شيراز) و(بوشهر) ومنها إلى (بندر عباس).

و(سنه)[٢] التي كانت سابقاً على طنف مستو إلى جنوب المدينة الحالية، قد بناها قبل مائة وخمسة وسبعين عاماً أحد أجداد أمان الله خان، وهي الآن تضم أربعة أو خمسة آلاف عائلة، منها مائتا عائلة يهودية وخمسون بيتاً من الكلدانيين الكاثوليك التابعين إلى بطريركية ديار بكر في أبريشية الموصل، ولهم كنيسة وقسيس، وكلهم أرباب حرف أو تجارة بنطاق ضيق[٣] وسكان المدينة المسلمون كلهم سنيون شافعيون، أما الوالي وعائلته فقد تظاهروا بالتشيع إرضاءً لشاه إيران.

---

(١) يقول (إنكه تيل دوبيرون) إن الكتب الزردشتية تطلق على جبل (الوند) قرب همدان اسم (شاهو).

(٢) إن الاسم الصحيح لـ(سنه) هو (سنانْدوج) وقد اختصرتها العامة بـ(سنه) انتهت الحاشية. والأصح هو (سنانده ج)، وقد جاءت في نص الحاشية (سنانْدرج) غلطاً مطبعيًا ـ المترجم.

(٣) يصنع في (سنه) سجاد يفوق في جودته سجاد (كرمنشاه).

وصلنا (سنه) وهي في كرب شديد، إذ كانت المدينة في حزن عام بسبب الحادث التالي: «ذلك أن محمد حسين خان أكبر أنجال الوالي، وهو من أم من عامة الناس وابنة صراف في المدينة، كان قد حرم من ولاية العهد وجعلت لأخيه الثاني محمد علي أو خسرو خان، وأم هذا من أعرق بيوتات (سنه) بعد بيت الوالي نفسه. فضلاً عن كونه أحب أنجاله إليه. وقد نشب نزاع بين الأخوين، أظهر فيه الأب تحيزاً بيناً بجانب نجله الأصغر، فاشمأز محمد حسين خان من ذلك، كما استغل بعض الانتهازيين هذه الفرصة لتوسيع شقة الخلاف فوعدوه بالتأييد ومن ثم أغروه على الهروب من (سنه) ففر منها قبل بضعة أشهر على رأس عدد كبير من الأتباع، وكان محبوباً منهم. وقد سار على الطريق المار بين منطقتي بغداد و(كرمنشاه) وغزا في طريقه بعض العشائر التابعة لحكومة والده، كانت ترعى مواشيها في سهول بغداد وخانقين. أما الوالي فبعد أن حصل على موافقة شاه إيران طارد نجله على رأس جيش ـ كنت قد وصلت في شهر آذار الماضي إلى (خانقين) و(قصر شيرين) بعد مغادرة الوالي لهما بيومين[1] ـ وأخيراً التقى الوالد بولده في منطقة كرمنشاه، فدارت بينهما معركة قاتل فيها الفريقان قتالاً عنيفاً. وقد وجه الوالي أوامره المشددة بأن لا يقتل أحد ابنه أو يجرحه، ولكن الولد جرح في المعمعة فنقل إلى (سنه) بعد المعركة حيث توفي متأثراً من جرحه، فطاش عقل الوالي وقطع رؤوس عدد كبير من أتباع ولده في موقع المعركة، كما أعدم أكثر من مائة شخص من أعيان (سنه) بعد عودته إليها، وفر منه ما يقارب أربعمائة شخص آخر إلى (كرمنشاه) فدمر بيوتهم وصادر ممتلكاتهم، فاضطر نساءهم وعوائلهم إلى الاستجداء.

---

(١) نجد في مكان آخر من هذا المجلد بحثاً عن السياحة التي يشير إليها المستر (ريج). انتهت الحاشية. وإتماماً للفائدة لقد ألحقنا مذكرات ريج في سياحته هذه بهذا الجزء من الكتاب ـ وهي من ملاحق الجزء الثاني ـ إذ وجدناه يشير إليها في هذا الجزء أكثر من مرة.

أما نجله الثاني محمد علي أو خسرو خان ولي عهده في الحكم فيافع يبلغ نحو الخامسة عشرة من عمره وقد سبق له أن تلقى إرادة الشاه في استخلاف والده، كما تمت خطوبته لإحدى بنات الشاه، وسيتم قرانه في النوروز المقبل، ويحتفل بزواجه احتفالاً عظيماً في طهران. أما الآن فإن الوالي يتجول في الأنحاء مشدداً على رعيته لجمع المال اللازم لهذا الزواج الذي إذا ما أضيفت إليه أثمان الهدايا الواجب تقديمها إلى الشاه فستصبح تكاليفه باهظة جدًّا. أما صغيره الذي تركه في (سنه) فيدعى محمد خان وهو يبلغ نحو العاشرة من عمره. وللوالي من الأولاد ثمانية.

ويبلغ أمان الله خان[1] والي سنه السابعة والأربعين من العمر، ويقال فيه إنه سيد الكياسة الإيرانية وظرفها وسياستها. ويعترف الإيرانيون أنفسهم بأنه يفوق أي واحد منهم في دهائه، وهم مجمعون على أن جميع وسائل التوقي من الوقوع في حبائل مكره ورياثه عديمة الجدوى. ويقال فيه أيضاً إنه ماهر كل المهارة في تسخير من يشاء واستمالته إليه بأطواره المغرية وبسلوكه المحبب، ولكنه يستهدف دوماً الأغراض الشخصية في كل ما يفعله ويصنعه، ولا يمكن الركون إليه، ولقد بلغ به الولع بحشد المال والقسوة درجة جاوز فيها معظم الحكام الإيرانيين، وإذا ما ذكر اسمه ارتجفت إيالته خوفاً وذعراً. وهو دقيق التنظيم مجيد له، ويقال إنه يملك ثروة عظيمة جمع أكثرها من الاتجار وإن له رؤوس أموال كثيرة لدى عدد من التجار يستغلونها لحسابه، ويملك ما ينوف على الخمسين ألف رأس من الأغنام موزعة على أناس عديدين ليعتنوا بها له على أن

(١) كان في إيران سابقاً أربعة ولاة أو أمراء تابعين وهم: أمير ديار الكرج، وأمير سنه، وأمير لورستان، وأمير الهويزة؛ ولم يبق منهم إلا والي (سنه) وكان يسمى أمير (الهويزة) بالمولى، وكان سيداً من سلالة النبي أو يدّعي بأنه كان كذلك؛ وكلب علي خان قاتل كل من المسترين (كرانت) و(فوذرنكهام) وهو سليل ولاة (لورستان) وهم من العشائر الفيلية.

تحضر له فوراً عند طلبها مهما مر عليها من الزمن، وهذا يعني أن أغنامه يجب أن لا تعمر، وأن لا تمرض، وأن لا تموت، وأن لا تفترسها الذئاب، فإنه شريك كل تاجر أو كاسب في إيالته، وبالأحرى أنه هو المحتكر الأول فيها. احتجت إلى علبة جديدة لمزولتي، ولما كان الخشب كله بل النجارون كافة ملكاً للوالي فقد اضطررت إلى استصدار الأمر من ميرزا فرج الله لصنعها. وقد تكرر الحادث نفسه عندما طلبت قيطاناً من الحرير الأخضر لمسدسي، وطلبت مرة من أوفانس[1] أن يحاول الحصول على بعض النبيذ، فراجع أحد المسيحيين، فأجابه: إنه لا يجرؤ أن يعطيه ما يطلبه دون صدور الأمر إليه إذ إن للوالي العلم بكل ما في داره من قناني الخمر وعلى شركاء الوالي جميعاً أن يعتنوا العناية الكلية في جعل دخله دخلاً منتظماً، مهما كان نصيبهم من الكسب. إن (الكوركجي باشي) أو فراء الوالي رجل مسيحي، كان قد أعطاه الوالي مائة تومان ليتاجر بها لحسابه على أن يدفع له بانتظام عشرين توماناً سنويًّا، وقد وجد الرجل المغلوب على أمره في هذه صفقة خاسرة وهو يرغب من الصميم أن يعيد الدراهم له، ولكنه لا يجرؤ حتى على ذكر ما يدور بخلده. والوالي الآن يقوم بجولة في أنحاء إيالته، وقد أرسل أهالي (ساقز) يعرضون عليه ستمائة تومان على أن لا يزور مدينتهم فأجابهم بأنه سيزور مدينتهم وسيستلم منهم ألف تومان. لقد سمعت النوادر العديدة من هذا القبيل؛ فقبل مدة من الزمن ذهب أربعة من أعيان (سنه) ليقبِّلوا أقدام الشاه شاكين له ظلم الوالي متوسلين بجلالته أن يحميهم منه فأحالهم الشاه إلى ابنه محمد علي ميرزا وطلب الوالي شراءهم منه وبدأت المساومة ثم تمت الصفقة. وبعد ذلك عرض الوالي على الأمير

---

(١) (كوفا أوفانس) أحد السكرتيرين الأهليين الملحقين بدار المقيم في بغداد وهو أرمني الولادة روماني كاثوليكي المذهب وكان ذا منزلة لدى المستر ريج لصدقه في بلاد يندر فيها الصدق، ولوفائه وأخلاقه المستقيمة وسلوكه الجذاب ـ الناشرة.

مبلغ ألفي تومان علاوة على الثمن المتفق عليه إن هو أرسلهم إليه بعد فقء أعينهم في (كرمنشاه)، فوافق الأمير وفقئت أعين هؤلاء البؤساء وأرسلوا مكبلين إلى (سنه).

ذهبت صباح اليوم لزيارة الخان الصغير، وكان جالساً في الـ(شاه نشين) شرفة الإيوان ومعه عناية الله بك، ونبيل آخر من المدينة وكلاهما في اللباس الرسمي. قدمت المرطبات كالمعتاد ولم يدر بيننا من الحديث الممتع إلا قليلاً. وقد وجهت إلينا الأسئلة الكثيرة عن فرنكستان، فكفاني عمر آغا عناء الإجابة على معظمها إذ أصبح الآن ملماً بهذه المواضيع. وكان الكل يتساءل باهتمام عن (مالكولم)[1].

وجاء لزيارتي بعد ظهر اليوم بعض أفراد عائلة الخان فاستقبلتهم في «الطرار» الإيوان الذي يقيم فيه الخان الصغير ديوانه صباحاً، وأقيمه أنا عصراً.

وكان (الخانات) الذين جاؤوا لزيارتي كل من شير محمد خان أحد إخوان الوالي وسبحان ويردى خان أحد عمومته وأحمد خان ابن عمه، وكلهم بلباسهم الرسمي، أسياد أماجد متقدمين في العمر؛ لقد تكلموا عن تاريخ عائلتهم العريق فقالوا إنهم أمراء (سنه) منذ سبعمائة عام، وإن اسم عائلتهم (مامولي)، وهي في الحقيقة قديمة جدًّا غير أن كونها (كورانية) أو من طبقة الفلاحين، ليست محترمة لدى القبليين. وأخبرني أيضاً بأن اسم (آردلان) كان يطلق في الأصل على شخصية شهيرة من

---

(١) وهو السير جون مالكولم (١٧٦٩ـ ١٨٣٣)، تقلب في مناصب الجندية والسياسة والإدارة في مختلف أقطار الهند وإيران وأخيراً أصبح نائباً في البرلمان. أوفد إلى إيران للمرة الأولى عام ١٧٩٩ إلى البلاط الإيراني لعقد حلف مع بريطانيا وبعد نجاحه رجع إلى الهند بطريق بغداد عام ١٨٠١، وأوفد إلى إيران ثانية كوزير فوق العادة لدى البلاط الإيراني، وبعد رجوعه إلى إنكلترة كتب تاريخ إيران بمجلدين، طبع في لندن ـ جون مه ري ـ عام ١٨١٥ـ المترجم.

العائلة[1] ومنذ عهده صار يطلق على حكام هذه المناطق اسم ولاة (سنه بي أردلان) كما يطلق على حكام السليمانية اسم (مير ميران بابان). وقد ظن البعض من قبل بأن (أردلان) كانت تطلق على المقاطعة فقط، لكنهم أكدوا لي خطأ هذا الظن. وعندما امتدحت بعض الأبنية، أفاد أحد الخانات قائلاً إنهم أنفقوا جميع أموالهم على بيوتهم على خلاف البابانيين الذين حصروا استثمار ثروتهم في اكتناز المال واقتناء الأموال المنقولة ليكونوا على أهبة الرحيل في أي لحظة، عند حدوث اضطراب، أو عزل رئيسهم. وعلق عمر آغا على هذا الرأي فوراً بقوله (أجل، إنكم تنفقون المال على البيوت، إذ إنكم لا تبالون بمن يرأسكم فأنتم راضون بما أنتم عليه. أما نحن فمستعدون للحاق برئيسنا حيثما حل، فنشاركه الملمات والمصاعب والأخطار، وإننا نحتفظ بأموالنا له ليستعين بها على العيش في الأوقات العسيرة. وما كان هذا القول مجرد ادعاء أو تفاخر بل كان الحقيقة بعينها. وإنني أستطيع أن أبرهن ذلك بالكثير من الوقائع التي حدثت على علم مني. فلو عزل أمان الله خان لما لحق به أحد إلا بعض الخدم الذين يستطيع تأدية رواتبهم. ولكن لو عزل محمود باشا السليمانية لغادر كل أقاربه البلاد على الفور ولحقوا به وقدموا كل ما ملكت أيديهم من مال وأملاك، بل لاشتغلوا يوميًا بأجور زهيدة ليساهموا بها في توفير المساعدة لسيدهم وتأمين راحته. ومن أبرز أوجه التباين بين القبليين والكورانيين هو الاختلاف المحسوس بين روحيهما لأن الكورانيين أناس مستكينون جبناء ويقال إنهم أكثر خسة وأشد خداعاً وأعظم ميلاً إلى اللصوصية من الإيرانيين أنفسهم.

ولقد لاحظت أمراً يبعث على الارتياح في سلوك الإيرانيين، وهو أنهم لا يداورون أو يتحايلون كما يفعل الأتراك، لكي يتحاشوا الجلوس

---

(١) كما كان (به به) اسم لشخص من عائلة كرمانج ـ الناشرة.

في مكان أدنى من مقام الأوروبي فيتقدمون عليه، فهم يسعون لإجلاسك في صدور مجالسهم ويعاملونك إجمالاً كما يعاملون أحد كبرائهم.

لقد سافر المستر (به ل لي نو) هذا المساء في جولة أثرية إلى (همدان) و(كرمنشاه).

٢٨ آب:

استعرض أمامي مساء اليوم السربازيون ـ الجنود النظاميون ـ ولدى الوالي (٣٠٠) جندي منهم جندهم قبل عام أسوة (بعباس ميرزا) الذي أرسل له ضابطاً روسيًا وبعض الجنود الروس لتدريبهم وقدم له طبولاً ومزامير. أما تدريبهم فيجري على الطريقة الإنكليزية، ومن الغريب أن تسمع الطبول والأبواق الإيرانية تعزف قطعة «الكريناديه البريطانية» فالضباط وخيرة الجنود السربازين هم الآن مع الوالي، ولم يبق في (سنه) إلا مائة منهم وكلهم حديثو العهد بالجندية على ما قيل لي. وهم يشبهون مضيف (فولستاف)[1] ولباسهم القبعات الإيرانية الاعتيادية والستر الإيرانية الطويلة أدخلت في سراويل من الكتان الأبيض وهو لباس، لا ينسجم على أناس يمثلون الجندية تمثيلاً محزناً. ويبدو لي أنه لم يحصل من تدريبهم على نتيجة تذكر بمثل تلك المدة القصيرة. فقد كانوا يحملون بنادق إنكليزية جيدة اشتراها لهم الوالي من الشاه الذي يتاجر باستيرادها من الهند فيبيعها بثمن باهظ إلى أولاده ورعيته. لقد كان أحد الروس يصدر الإيعازات وآمر الفوج واقفاً إلى جانبه وبيده هراوة راع، يمعن بها ضرباً على رؤوس وأقدام الجنود، ولم يكن لباسه رسميًا، بل كان مرتدياً اللباس الإيراني المعتاد.

---

(١) يشير المستر ريج بذلك إلى رجل مضحك، لا كفاءة له اسمه (جه ستس شالو) جاء ذكره في القسم الثاني من مؤلف (شكسبير) المعنون الملك هانري الرابع ـ المترجم.

ويوجد تحت إمرة الوالي الكثير من قبائل الكرد الرحل، وهؤلاء هم أفخاذ من عشائر (شيخ إسماعيلي) و(مه ردمه) و(كه ل هورر) والجاف؛ وعشيرة الجاف كانت فيما مضى من رعايا (سنه) تسكن منطقة (جوان روو).

٢٩ آب:

تنقسم إيالة (سنه)[١] إلى سبع مناطق هي (جوان روو) في أقصى الجنوب الغربي و(آورمان) و(مه ريوان) و(بانه) و(ساقز) على طريق تبريز، و(حسن آباد) التي تضم نواحي (سنه) و(اسفند آباد) على طريق (همدان). وكل منطقة من هذه مقسمة إلى أربع أو خمس «محلات» أي نواحي صغيرة. ومنطقتا (آورمان) و(بانه) من المناطق المذكورة، كانتا منذ زمن قديم تحت حكم عائلة واحدة، ومنها الوالي عادة يكون الحاكم لهما، وإني أستنتج من ذلك بأن هاتين المنطقتين كانتا مستقلتين في الأصل ثم خضعتا للوالي بمقتضى معاهدة، أما المناطق الأخرى فيحكمها أي حاكم يعينه الوالي؛ ويحكم (جوان روو)[٢] أحد أبناء الوالي.

وأدخلونا اليوم غرفة الوالي الخاصة لنشاهدها، فهي قاعة أنيقة علقت على جدرانها صور نساء قيل إن إحداهن كانت جارية أهداها الشاه عباس الكبير إلى أحد أجداد الوالي. دخلنا الغرفة قبل أن تهيأ لنا، وحالما فتحت لنا أبوابها فاحت منها رائحة خمور شديدة، لقد شاهدنا على

---

(١) يمر نهر كاروو على مسافة فرسخين ونصف فرسخ من جنوب (سنه) وهو يكوِّن نهر (ديالى) أو بالأحرى هو جدوله الرئيسي وهو يتكون من منابع عديدة تتجمع مياهها في مكان عند حسن آباد.

(٢) إن المسافة من (سنه) إلى (جوان روو) ثمانية عشر فرسخاً، ومن (سنه) إلى (ساقز) ـ حاضرة المنطقة ـ أربعة وعشرون فرسخاً، ومن (سنه) إلى (آوورومان) ـ أقرب قسم من المنطقة ـ اثني عشر فرسخاً.

الرفوف بعض القناني والزجاجات الأمر الذي دلنا دلالة واضحة على أن الخان لم يكن من المسلمين الشديدي التمسك بدينهم، وأن مخدعه هذا إنما خصص لملذاته السرّية.

وبالنظر إلى ما لاحظته بين أتباع الوالي في سنه من دلائل ميل الإيرانيين إلى الجشع، فقد رأيت من الأفضل أن لا أذهب إلى مضربه كما سبق ووعدت. وعليه أخبرت مضيفي مساء اليوم بعزمي على العودة إلى السليمانية بالطريق المؤدية إليها مباشرة. فأثار هذا كما كنت أتوقع معارضتهم الشديدة التي لم تجد نفعاً، ورأيتهم يتبادلون النظرات الحيرى وبعد أن حاولوا عبثاً تغير عزمي ذهبوا جميعاً إلى غرفة عمر آغا وعقدوا مجلساً، فأرسلوا إلي عدة رسل يتوسلون في أن أذهب إلى الوالي، غير أنني بقيت متمسكاً بقراري. وقد بدأت أخشى أن تكون عناية الخان بي مما قد تتطلب مني أن أقابله بما لا قبل لي عليه، وهذا مما دعاني إلى التصلب برأيي. لقد جاءني عمر آغا عدة مرات ثم السيد[1] وبعده أوفانس وهما من السكرتيرين الأهليين في دار المقيمية ليغيروا رأيي ولكن دون جدوى. وأخيراً جاء أعضاء المجلس كافة إلى باب غرفتي ليتوسلوا إلي بل يستعطفوني أن أستجيب إلى طلبهم وقالوا بأني لا أعرف عن حقد الخان إلا القليل، وإنه لا عذر هناك وإن قلته له بنفسي يحول دون اعتقاده بأنهم قاموا نحوي بما سبب امتعاضي وجعلني أغير خطتي بهذه الصورة المفاجئة. ثم حدثوني كيف أن الخان استأصل عائلة رشيد بك لأمر أقل أهمية من ذلك، وأنني إذا أصررت على الرفض فلا بد من فرار كل من عناية الله بك وميرزا فرج الله إلى السليمانية فيبلغانها بأسرع من وصولي إليها إذ إن مقابلتهما للخان بدوني ستكون من الأمور المستحيلة عليهما.

(١) راجع (رحلة المنشي البغدادي) لمترجمها من الفارسية الأستاذ عباس العزاوي، - شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد ١٩٤٨ ـ المترجم.

وقد خيل لي أن ما وصفوه لي من الخطر الذي سيتعرضون له ما هو إلا مصطنع لذلك أحجمت عن تغيير رأيي غير أنني بعد ذلك بدأت أتساهل فأرسلت من يعرض عليهم حلاً وسطاً وذلك بأن أوفد سكرتيري الإيراني إلى مضرب الخان ليعتذر بالنيابة عني عن عدم استطاعتي زيارته شخصيًّا وليعرب عن ارتياحي من سلوك أتباعه نحوي؛ فأخبرت بأنهم أخذوا يذرفون الدموع وأن اقتراحي الجديد لم يبعث فيهم إلا سروراً ضئيلاً.

وقد علمت بعدئذٍ بأنهم استخاروا بديوان حافظ[1] فشجعتهم الاستخارة على إعادة الكرّة علي في الوقت الذي بدأت فيه بالتفكير في أن اهتمامهم في الأمر لا يمكن أن يستند مطلقاً على التصنع، وتذكرت بعض القصص التي سمعتها عن حقد الوالي وقسوته، وعلى الأخص في حادث محمد رشيد بك وبدأت في الحقيقة أخشى أن يصيب هؤلاء المساكين كارثة من أجلي فقررت النزول عند رغبتهم مجازفاً بما قد يصيبني من المتاعب. ولما أعادوا الكرة وأتوا باب الغرفة يتضرعون إليَّ لإسداء آخر معروف لهم بتأجيلي سفري يوماً آخر لتتاح لهم فرصة إخبار سيدهم بعزمي على تغيير خطتي الأولى وجدوني مستعدًّا لمنحهم أكثر مما كانوا يتوقعون إذ أجبتهم بأنني سأذهب إلى الخان إرضاءً لهم، وقد دلني الفرح الذي بدا عليهم في هذه اللحظة الانقلابية دلالة جلية على أن مخاوفهم لم تكن مصطنعة أبداً؛ إننا مضينا في المداولة حتى الساعة الحادية عشرة، وقد اعتراني صداع شديد جعل علي الراحة مستحيلة هذه الليلة.

---

(١) يعتقد عامة الناس، بل والكثير من الأدباء المتفلسفين حتى في يومنا هذا بأن في حكم أشعار حافظ إرشادات ملهمة، على المستخير بها اتباعها أو الاسترشاد بها. وقد تكون هذه حافزاً للإنسان للتشبع بحكَمه التي لا تخلو منها صفحة من صفحات ديوانه بل قطعة من قطع شعره، ولكنها شوهت فألبست لباساً إلهاميًّا في التطير، أو في الاستخارة، أو في التفاؤل ـ المترجم.

الفصل الثامن

الرحيل عن (سنه) - مناظر الأرض - خيام كولانه - ساسة الكرد العظماء - نهر قيزيل (أوزون) - المضارب - ملاحظات قروي - سلوك الجاف غير القانوني - طرق ناهد - مرطبات من العسل والزبدة - الوصول إلى قرية ميك - السيدة ريج تؤخذ إلى قرى أخرى - خلايا النحل - التحاق السيدة ريج بنا - هدية فواكه من الوالي - الوصول إلى بانه

* * *

٣٠ آب:

نهضت مبكراً وأنا متوعك المزاج ولكني بقيت مصمماً على الشروع بالسفر، وعندما بلغت الفناء الخارجي من القصر وجدت ميرزا فرج الله يهرع إليَّ ويشد على يدي شاكراً لي صنيعي بإذعاني لرجائهم الأمر الذي بعث فيه الاطمئنان التام، وقد رافقني إلى خارج المدينة، أما رائدي إلى مضرب الوالي فكان عبد الله بك نجل عناية الله بك الذي أوفده الوالي بذاته خصيصاً لهذه الغاية. مررنا أولاً بمدخل القلعة ثم بمدخل أسوار المدينة التي ذكرتني بأسوار البصرة المشيدة من «الطوف» أيضاً. وقد وجدت الآن أن للمدينة سوراً واحداً عدا سور القصر الحصين تمتد وراءه

الضواحي الواسعة. وفي السادسة إلا ربعاً صباحاً تركنا المدينة نهائيًا. لقد أخبرني الآن عبد الله بك بالأسباب الحقيقية لجزعهم في الليلة الماضية، وقال إنك لا تستطيع أن تتصور نزوات الوالي في شكوكه وحقده إلا قليلاً، فإنه لو سمع بأنك قد عدلت عن زيارته لكان تعليله لذلك على الوجه التالي:

«هذا رجل دعوته أنا مثلما دعاه جيراني مراراً دون جدوى، ومع هذا فقد تنكب طريقه قاصداً زيارتي بمحض رغبته. ولا شك أن هذه الزيارة لو تمت لكانت حديث الأوساط ولزادتني شرفاً وربما كانت لديه بعض الشؤون أو الأمور التي كان يرغب الإدلاء بها إليّ. ورجالي في (سنه) يعرفون ذلك فتعمدوا إزعاجه وحمله على العودة دون أن يراني، فهم لا يطلبون الخير لي، وربما كانوا متآمرين علي» ثم أردف الرجل الشاب قائلاً: «ولك أن تتصور الآن بأن هذه السلسلة من الأفكار لا بد وأنها كانت تعود علينا بالنتائج الوخيمة».

أخبرني عبد الله بك بأن شتاء (سنه) أقسى من شتاء السليمانية، وصيفها أكثر برودة، وحالما تركنا المدينة بدأت الطريق تتدرج بنا صعوداً طيلة السفرة وكانت الأرض مكشوفة والزراعة فيها على نطاق معتدل، وكانت قمم التلال مهشمة مشققة وبلغ التشقق ببعضها بحيث ظهرت وكأنها خرائب، فكنا نشاهد الصفائح الأردوازية والجبس على جوانب هذه التلال، وكان الكثير من هذه التشققات يبدو وكأنه مطعم بوفرة بالحديد. وكان لون بعضها ضارباً إلى الخضرة، تخالطها ذرات الطلق.

سرنا مدة في مسيل، وفي الثامنة تقريباً شاهدنا عن يسارنا قرية (صاري قاميش) الكبيرة وكرومها، ومن ثم بدأنا نرتقي هضاب (الله خدا) فبلغنا في العاشرة إلا ربعاً القمة ونحن نرتقي ارتقاءً هيناً. ويتصل هذا الجبل بسلسلة (بازرخاني) ويمتد مبتعداً عن (زغروس) الشامخ برأسه على جميع السلاسل المتوازية من الجبال الكائنة على يسارنا. وكانت

التلال أمامنا، وعلى يميننا أو على اتجاه شرقي جنوبي شرقي. وإلى الشمال الشرقي منا تنبسط عن بعد سهول (بان ليلاق) حيث تلوح أمامنا قمم بعض الجبال العالية وكانت رؤوس الجبال المتشققة تعلو أمامنا من كل الجهات. لقد استدرنا حول الجبل مدة من الزمن، وفي العاشرة والثلث بدأنا نهبط منحدراً رهواً وهذا الجبل يتجه نحو الشمال الشرقي وحوالي الساعة الحادية عشرة والنصف بلغنا قرية (بايه ن كو) الكبيرة القذرة، وهي في وادٍ بأسفل المنحدر، وتقع في منطقة ناحية (حسن آباد)، وهنا اتصلنا بطريق (تبريز) وكان اتجاهنا العام شماليًّا، وسرعة سيرنا جيدة جدًّا عدا مدة ساعة ونصف ساعة جوبهنا بها بصعوبات جمة في شق طريقنا فوق نيسم ضيق وعر متكسر الصخور يمر بطوار السفوح السحيقة من الجبال. لقد تركت قرينتي المدينة ممتطية جواداً في الغسق، ولم تسبقنا إلا بساعة واحدة فقط إذ سلكت طريقاً أكثر تمعجاً من طريقنا وكان ما قطعناه في مرحلتنا هذا اليوم أربعة فراسخ.

٣١ آب:

امتطينا الجياد في السادسة إلا ثلثاً، وبعد أن استدرنا مدة في وهد، وتقدمنا في مسيرنا ازداد انكشاف الأرض وظلت قمم التلال الشامخة، وشاهدنا ونحن نسير في طريقنا بعض الأردواز والجبس وقليلاً من نترات البوتاس، أو ملح البارود، أما التربة فلا نجزم بخصوبتها أو عدم خصوبتها، وكان الزرع فيها قليلاً وضعيفاً، وقد شاهدنا الكثير من ينابيع المياه في أول مسيرنا. تقع (بان ليلاق) إلى الشرق منا، وهي مقاطعة تابعة إلى (سنه) ومنظرها أشبه بسهول تخترقه سلاسل من التلال، وتعد ذات مناخ بارد جدًّا خلال موسم الصيف. وكان طريقنا متموجاً واتجاهنا شماليًّا في الغالب. وكان الهواء لطيفاً يذكرنا بمناخ بغداد في شهر كانون الأول. وفي التاسعة مررنا عن يسارنا بطنف اصطناعي منبسط أقامه نادر

شاه ونصب عليه خيمته فبقي هناك مدة أربعين يوماً لعذوبة الهواء خلال حربه مع طوبال عثمان، باشا بغداد. وفي العاشرة إلا ثلثاً وصلنا خيام قرويي (كولانه) في مضاربهم الصيفية كما يفعل قرويو (به رروده ر). وكانت الخيام منصوبة بالقرب من الطريق غير بعيدة عن تل اسمه (طاوشان ته به) وقد سميت بهذا الاسم لكثرة ما يشاهد فيها من الأرانب أيام الشتاء. ولا يستخدم الإيرانيون الصقور في صيد الأرانب كما يفعل الأتراك بل يستخدمون السلاق في مطاردتها.

وجدنا خيمة بعمودين من خيام الوالي منصوبة لنا، وقد فرشت بسجادة جميلة من مصنوعات (سنه) وبعض المدات من حولها، أما الخيمة التي كنت أحملها معي فقد اتخذها عمر آغا سكناً له، وأشغل عبد الله بك الخيمة الخاصة به.

إن الكرد كالإنكليز كثيرو الاشتغال بالسياسة، ولم يتكلم كل من عمر آغا وعبد الله بك بينهما في السياسة طيلة مسيرة اليوم.

ولما كانت (كورانه) قرية تقع على الحدود بين منطقة (حسن آباد) و(قه ره تورآو) فإنها كثيراً ما تنتقل من أيدي سيد إلى آخر، ويحكمها عادة أكثر حاكمي هاتين المنطقتين مصلحة فيها.

لقد تبين الآن أنه من المحتمل جدًّا أن يتحتم علينا الذهاب إلى (بانه) للحاق بالوالي، ولم يخبرني بذلك أحد من قبل خشية إحجامي عن الذهاب لبعد المسافة. إن (بانه) لا تنحرف عن طريقنا إلا مسيرة يوم أو يومين، وكان سفري إليها مما يتيح لي فرصة مشاهدة قسم جديد وممتع من كردستان، فقد كان من المؤسف أن أؤجل سفري إليها. وإن زيارتنا لكهوف (كرفتو) ستؤخرنا يومين آخرين، الأمر الذي لا أريده، إذ إن جماعتي كلهم مصابون بالحمى وإننا أصبحنا أشبه بمستشفى متنقل.

١ أيلول:

سرنا في الخامسة والنصف من صباح اليوم متجهين نحو الشمال الغربي إلى منطقة جبلية عن يسارنا، وفي الساعة الأولى قطعنا الكثير من المرتفعات والمنخفضات الناهدة، فتباطأت سرعة مسيرنا خلالها ثم تحسنت تحسناً جيداً. وفي السابعة إلا خمس دقائق دنونا من منخفض هدود إلى (قيزيل أوزان) وهو نهر له بعض الشهرة الجغرافية[١] ويقع

---

(١) يرى الميجر ره نل أن (قيزيل أوزان) هو (كوزان) - بالكاف الفارسية - المذكور في العهد القديم (راجع سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٧-٦). وما يلي وصف ورد في كتابه المسمى «التحقيق في مصير أسباط اليهود العشرة الذين أخذوا أسرى في نينوى».
ينبع هذا النهر من بلاد سميت فيما مضى بـ(مانيان) بين (تبريز) و(همدان) وهو ينساب شرقاً ويصب في القسم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، مخترقاً طريقه في سلسلة عظيمة من الجبال التي تفصل (ميديا) عن المناطق القفقاسية، وهو ينحدر من أعلى مستوى (ميديا) انحداراً سريعاً مخيفاً إلى وهدة سحيقة نخرتها مياه هذا النهر في قاعدة الجبال وعرضها عدة أميال، وبعد أن يصل إلى منخفضات (كيلان - بالكاف الفارسية) يصبح قابلاً للملاحة حتى انصبابه في البحر. وقبل انحداره ذلك الانحدار يصب فيه مياه نهرا (أبهر) و(قزوين) وغيرهما من الأنهر، ويسمى بـ(شاه رود)، وتسمى مجموعة هذه الروافد باسم (سفيد رود) أو النهر الأبيض، ومن المحتمل أن تكون تسميته هذه ناجمة عما يعلو مياهه المتدفقة من الزبد عند جريانها بين الجبال، إذ يقول الرحالة «دي لافاله» (.. إن لمياهه ذاتها لوناً ضارباً إلى الحمرة..) ويصف السواح الطريق الممتدة على جانب الهاوية وصفاً مخيفاً، وهي الطريق الوحيدة التي يمكن أن تسلكها الدواب المحملة من (كيلان) إلى (أصفهان) وهي بوجه عام محفورة في الجروف الصخرية القائمة والمشرفة على الهاوية المفزعة، ويسير السائح على هذا الطريق مرخياً العنان لدابته وهو يسحبها من ورائه في حذر كي لا يندفع وراءها إذا ما زلّت بها خطوة واحدة فهوت - انظر أوليا ريوس وهانوي وغيرهما - وتقع هذه الوهدة إلى غرب بحر (الخزر - قزوين) بمائة وثمانين ميلاً تقريباً - راجع الحاشية في الصفحة ٣٩٥ من سفر جغرافية هيرودوتس لمؤلفه ره نل.

منبعه على بعد مسافة تقارب الفرسخين إلى الغرب أو اليسار في جبال عباس بك وهو يجري شرقاً ثم يتجه إلى (ميان دوآو).

أطلت النظر في النهر متأملاً، شأن من يلقي أول نظرة على الأنهر العظيمة الشهيرة وهي في حالة تكونها، وما كان في النهر ماء يزيد ارتفاعه على القدم الواحد، ولكن هذا كان أمراً شاذاً، وذلك لأن المياه في هذا الموسم كانت شحيحة على غير المألوف. وارتفاع مياه هذا النهر تكون عادة بمستوى الركب، وكثيراً ما يمسي خوضه مستحيلاً لعدة أيام في الربيع، وينوي الوالي تشييد جسر فوقه.

وفور عبورنا (قيزيل أوزان) أخذنا نرتقي ثانية ومررنا فوق بقعة وعرة جرداء كالتي طرقناها سابقاً من حولنا بعض القمم السامقة. وكان القسم الأعظم من الأرض بوراً، وهذه الأرض هي المراعي الصيفية الاعتيادية لعشائر السليمانية. ومن مشاهدتي آثار بعض المضارب تعرفت على الطريقة المتبعة لديهم في ترتيبها فوجدت أنهم ينصبون بيوتهم على شكل دائرة، توضع القطعان[1] في وسطها. وهذا الترتيب ضروري في الحقيقة للدفاع ذلك أنهم في عداء دائم مع سكان المناطق التي يجوبونها، وجولاتهم هذه تجعلهم ضيوفاً غير محببين مطلقاً.

ويبدو أننا الآن على ارتفاع شاهق فوق سطح البحر، ويظهر لي أن الأرض التي نحن فيها إنما هي نجد تتقاطع فيه الوهاد، وهو غني وخصب في إنتاج (الريواز ـ Rhubarb) من النوع الممتاز وخاصة ما ينبت منه في الأماكن الصخرية. وهذا النبت الذي ينبت في كردستان برِّيًّا وفي أكثر أقسام إيران والذي يستهلك بكثرة في صنع الشرابات، لم يكن إلا راوند الحدائق الذي نصنع منه الفطائر المعروفة باسمه.

مررنا بوادٍ أخذ يضيق تدريجيًا حتى أصبح وهدة صخرية تجمعت

---

(١) تعتبر أغنام (قالا جوالان) أغزر صوفاً، أما صوف قطعان هذه المنطقة فدقيق ناعم.

فيها مياه الأمطار بكثرة، وذلك يدلنا على هطول الأمطار الغزيرة ليلة البارحة في هذه الأماكن. وفي التاسعة والنصف ارتقينا إلى أعالي الوهد ثم انحدرنا ثانية إلى الوادي فوصلنا قرية (كه له ك آوه) الكبيرة في منطقة (هويه تور Hobetoo) فشاهدنا أكواماً كبيرة مكدسة من القش الخشن للاستهلاك الشتوي. وكان الأهلون يحصدون الحبوب، أما الدخن فما زال أخضر يانعاً وبعضاً من الذرة الهندية ناضجاً، ويقال إن الشتاء في جميع هذه النواحي من البلاد قارص البرد. وكان الهواء بارداً منعشاً، وكان في استطاعتنا استئناف السفر راكبين طيلة النهار دون أن تزعجنا الشمس.

اتجهنا إلى خيام القرية، وقد نصبت في منتهى الوادي فوصلناها في العاشرة والدقيقة العاشرة[١]، وكان موسم المضارب في العراء على وشك الانقضاء، والأهلون أيضاً على أهبة العودة إلى القرية. ولاحظنا أن درجة حرارة ينبوع ماء عذب قرب مخيمنا كانت (٥٠) درجة.

شاهدنا الكثير من الكركم (Crocus) الأبيض والأحمر ما زال مورداً، ثابتاً في كل الأنحاء حتى في أواسط الطريق، وطلبت من القرويين أن يأتوني ببعض جذوره لأخذها إلى بغداد فأتوني ببعض البصيلات من أنواعه المختلفة، وأفادوا بأن البلاد كلها ترتدي حلة ورود في الربيع.

٢ أيلول:

مع أن الليلة كانت باردة جدًا فقد هاجمني البعوض ولم يدعني أتمتع بلحظة واحدة من الراحة. وكان الهواء صباح اليوم قارصاً بدرجة ارتحت معها إلى لبس فروتي الصغيرة القديمة من جزة الخروف. امتطينا

---

(١) لا زال طريقنا هذا، طريق (تبريز) الذي سننتهي منه غداً.

الجياد في السادسة وكان اتجاه الوادي ما زال شماليًّا يخترقه طريق (ساقز) و(تبريز) غير أن طريقنا كان يمر من أعالي التلال المحيطة بالوادي، وهو في اتجاه شمالي غربي، وقد سلكنا هذا الطريق طيلة اليوم وإن التجأنا إلى بعض الاستدارات.

«بارك الله بالكرمانج»[1] هذا ما قاله إلى عمر آغا أحد القرويين الذي كان يصحبنا بعد أن التفت يميناً ويساراً ليتأكد من خلو المكان من إيراني يسمع قوله فسأله عمر آغا «وكيف ترى السنويين؟» فأجابه القروي «ألا لعنة الله عليهم أجمعين» فأسكته عمر آغا قائلاً: «صه يا فتى ألا تعلم مصيرك لو سمعوك» وكان جواب القروي المسكين على ذلك «لن تكون معاملتهم لنا أقسى مما هي الآن».

كانت الأرض منذ أن تركنا مضارب القرية ترتفع ارتفاعاً تدريجيًّا ولكن محسوساً جدًّا، ولم يطل بنا الوقت حتى رأينا أنفسنا فوق نجد ومن حولنا القمم لشامخة وسلاسل تنتهي عند حدود النجد. ويتصل أحد التلال القائمة على يسارنا بجبل (حاجي أحمد) الذي يبعد عنا مسافة أربعة فراسخ، كان يستره عن أنظارنا وكانت سلسلة تلك التلال تمتد باتجاه الشمال الشرقي والجنوب الغربي نحو (زغروس).

والشتاء هنا قارص جدًّا وتنقطع السابلة عن اجتياز الطريق لوفرة الثلوج وتراكمها عليه. وقد شاهدنا آثار عواصف أمطار غزيرة هطلت أخيراً، وهذه العواصف من الظواهر الطبيعية الاعتيادية في مثل هذا الموسم، إذ إن المطر يبدأ في أوائل تشرين الأول، ويعقبه تساقط الثلوج بعد زمن قصير. والأرض بكاملها بور غير مزروعة، وقد اتخذت مراعي صيفية لعشائر السليمانية.

وفي الثامنة بدأنا نهبط هبوطاً ناهداً استغرق مدة ربع ساعة انتهينا

---

(١) هو اسم قبيلة باشا السليمانية، وينتمي إليها عمر آغا ـ الناشرة.

منه إلى وادٍ ضيق يتلوى بين التلال العالية، ومضينا فيه نكمل ما تبقى من مسيرنا وأخيراً مررنا بقرية أو قريتين من القرى الحقيرة المنظر، وببعض الرقع الصغيرة من المزارع التي كمل جمع غلتها في الأيام الأخيرة، وشاهدنا بعض القطن المتوقف عن نموه الطبيعي وبعض أشجار الخروع وهي على تلك الحالة من النمو تقريباً.

تشرع قريتني عادة في مسيرها اليومي قبلنا، غير أن شروعها اليوم كان بطيئاً، ولما كنا على وشك اللحاق بها فقد ترجلنا في التاسعة والنصف عند منبع صغير لنفسح لها المجال لتسبقنا[١] ثم استأنفنا السير في العاشرة ونحن في ذلك الوادي الضيق نفسه، وفي الحادية عشرة وصلنا قرية (سوورموسي ـ Soormoosi) الواقعة في منطقة (خورخوره) وقد دخلناها وهي في منتهى المنحدر الناهد أو عند رأس الوادي وشاهدنا في أعالي التلال المقابلة لنا حصناً مربعاً صغيراً، يتحصن فيه القرويون للاحتماء عند غارات البلباسيين، على أن هذه الغارات قد تضاءلت أو انقطعت تماماً، إذ إن الأتراك والإيرانيين قد قضوا على نزعات البلباسيين وقوتهم.

---

(١) نزولاً عند العادات الشرقية، كانت السيدة ريج تسافر مع جماعة منعزلة عن جماعة السيد ريج، وقد مر ذكر ذلك. وكانا يسيران في ساعات متفاوتة ويعتنيان دوماً ليكونا على مسافة من بعضهما وعلى الأخص عندما يكون المستر ريج مصحوباً برجال لهم منزلتهم في البلاد، وكانت جماعته في هذه المرة مؤلفة من مرافقه ورائده وحاشيته علاوة على رجال دار المقيمية وضباطه وخدمه. أما السيدة ريج فتصحبها الخادمات وبعض الحرس ومیناس آغا والطبيب (به ل) على الرغم من أن ذلك قد لا يتفق والعادات. هذا ويمكن لنا أن نبين هنا بأن المسلمين يستثنون فيجيزون للسيدة الأوروبية أن يرافقها الرجال من أبناء بلادها ومن دينها، أما الذنب الذي لا يغتفر في نظرهم فهو أن يراها المسلم وهي غير محجبة، أو أن تحتل موقعاً بارزاً في أية صورة كانت في الاجتماعات العامة سواء أتحجبت أو أسفرت ـ الناشرة.

لقد كان الحر مزعجاً في الوادي، عند توقف هبوب الريح. وخلال مسيرتنا اليوم شاهدت كميات كثيرة غير اعتيادية من الجبس وكميات من الأردواز وبعض أملاح النترات والطباشير وأعتقد أنني شاهدت الأحجار الغرانيتية على بعض المرتفعات، ولكني غير واثق من ذلك.

إن عدد الأهلين الذين يرتدون لباساً تختلط فيه البزتان التركية والكردية في هذه النواحي أكثر من عدد الذين يرتدون اللباس الإيراني منهم أما النساء فكلهن يلبسن على الطراز الإيراني.

٣ أيلول:

شرعنا بالمسير في السادسة وأخذنا نلتوي في مسيرنا التواءً مستمراً في الوادي ببطء محسوس حتى وصلنا التلول التي تحد جانبه الجنوبي، ثم قطعنا ما تبقى من الطريق بخطوات مريحة وإن كثرت استدارتنا فيه. ولدى ارتقاؤنا التل وجدنا بعض أشجار الكمثري البرية الضخمة التي ترتاح إلى منظرها النفوس بعد سفر طويل في أرض قاحلة جرداء لم نر فيها منذ مغادرتنا (سنه) فيما عدا البساتين، أشجاراً أكبر من عليق الأزهار النامية بكثرة في كل مكان، أو أشجار الصفصاف القزمة.

درنا حول الجبال، وكانت الأعشاب على بعض مرتفعاتها العالية لا تزال خضراء تتخللها الورود. وفي السابعة والنصف هبطنا وهدة ضيقة بدأنا منها بالارتقاء فوراً وفي الثامنة والثلث انعطفنا غرباً ودأبنا على اتجاهنا هذا في بقية الطريق وكانت التواءات السير كثيرة. وبعد قليل بلغنا جدولاً صغيراً يدعى نهر (خوره خوره) وقد فاضت مياهه من جراء الأمطار التي هطلت أخيراً ولما هبطت المياه الفائضة تركت وراءها عدداً من الأسماك، ماتت على الأطيان[1].

---

(١) يصب هذا الجدول في (قيزيل أوزان) وهو ينبع عند سفح جبل مرتفع عن يسارنا.

ومن ثم ارتقينا جوانب وهدة صخرية. وفي العاشرة وصلنا قرية (قه ره بوكرا) التي تقع في أعالي الوهدة تقريباً، حيث تشرف عليها قمة الجبل. لقد جعلت بعض أشجار الحور والفواكه منظر القرية جميلاً وإن لم تقلل من قذارتها. وعلى المرتفع المقابل للوهدة وجدنا أنقاض حصن شيد للالتجاء إليه من البلباسيين.

وقد شاهدنا اليوم قرية أو قريتين من القرى الحقيرة، وكانت المناطق التي مررنا بها اليوم قفراء خالية، لقد سمعنا قصصاً محزنة عن الجاف الذين يرعون مواشيهم في جميع أنحاء هذه المنطقة ويسلكون سلوكاً كيفيًّا لا يقرّه القانون، ومما لا شك فيه أن لإدارة الوالي السيئة التأثير الكلي في إقفار هذه البلاد من السكان علاوة على ما لغارات القبائل الهمجية من تأثير.

شاهدت اليوم أكثر مما مضى صفائح الأحجار المركبة (Schistus) في طبقات أفقية تتخللها عروق الجبس التي كان لون بعضها ضارباً إلى حمرة لطيفة، كما شاهدت الكثير من الطلق أيضاً، وعلى الأخص في أواخر مرحلة يومنا هذا.

كنا نرغب في السير أكثر من سيرنا اليوم لنصل (بانه) في اليوم التالي إلا أن الكرد الذين أرادوا استمرارنا على السير لم يكونوا على بينة من المسافة ولما كان طريقنا جبليًّا متعباً قررت أن لا أجازف بمسيرة طويلة ومعي من جماعتي الكثير من المرضى، فقر الرأي أخيراً على المكوث اليوم في (قه ره بوكرا) وكان اليوم شديد الحر في هذا الوادي الضيق.

= يدعى (جال جه مه ـ Tchaltchama) وهو من سلسلة جبال (خسرو خان) وإلى جانبه تحت القمة منه قرية (قه ره بوكرا ـ Kara Bokra) وهي التي نقصدها. وتقع (ساقز) إلى الشمال الغربي منا، وعلى الجانب الآخر من (خسرو خان). أما اتجاه الجبال بكاملها فهو من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حيث يتلاشى أغلبها في النجد الذي قطعناه.

تقع (ساقز) - حاضرة المنطقة - على شمالنا تماماً، وتستغرق المسافة إليها ست ساعات بطريق رديء جدًّا، وسبع ساعات بطريق أجود منه نوعاً ما. وهي على الجانب الثاني من جبال خسرو خان[1].

٤ أيلول:

رحلنا من قرية (قه ره بوكرا) في السادسة والربع، وبعد أن اجتزنا الوهدة وارتقينا التل الذي يحدها من الشمال اتجهنا نحو الحصن فوصلناه بعشر دقائق بطريق ناهد رديء، ثم أخذنا ندور بين قمم التلال، وتكثر الدبية في هذه التلال وكلها من النوع الأربد الاعتيادي.

وفي التاسعة والدقيقة الخامسة بدأنا بطريق جيد، وعند وصولنا منتهاه وجدنا أنفسنا في وادٍ حجري ضيق، أو بالأحرى وهدة محاطة بالتلال فدأبنا على السير فيها بقية النهار بمشقة لا حد لها. وكان الطريق يتراوح بين انخفاض وارتفاع مستمرين على جوانب عمودية من الأردواز المفتت، وكان الممر ضيقاً مائلاً، لم يكن في الحقيقة إلا نيسم على يساره هاوية سحيقة.

واعترف الكرد أنفسهم بأن هذا الطريق اسوأ الطرق التي مروا بها حتى الآن، وقد رأيتهم للمرة الأولى يترجلون عن خيولهم في الممرات الوعرة، وقد كبا جواد عمر آغا مرة على جرف الهاوية ولكنه رمى بنفسه حالاً عن ظهر الجواد برشاقة، دون أن يفلت العنان من يده، ولو لم يفعل ذلك لقتل الرجل والجواد معاً. لقد أصابني دوار شديد اضطررت معه على المشي بموازاة حضيض الجبل حتى نهاية المسيرة، وكان ذلك مجهوداً شاقاً حتى بالنسبة لرجل يتمتع بتمام الصحة اعتاد المشي، وكان

---

(١) إن المسافة من (قه ره بوكرا) إلى (سه رخواني شه لال) حاضرة مقاطعة (ته راتوول) أربع ساعات ومن هناك إلى (بيستان) أربع ساعات أخرى.

اليوم حارًّا مزعجاً، ولم تكافأ العين بأي منظر لطيف أو مشهد جذاب.

ومن فوق الجبل شاهدنا جبل (كه للي خان) وجبل (زاغروس) أو بالأحرى قسماً منه، ووصلنا أسفله في السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين وبعد قليل بلغنا قرية حقيرة صغيرة اسمها (حاجي محمد) وبعد أن ارتقينا قليلاً هبطنا توًّا إلى قرية (سووتا) في منحدر ناهد مخيف تقع على يساره هوة. وقفنا عند هذه القرية في الثامنة والنصف وأنعشنا نفوسنا بكوب من القهوة. لقد خلنا أن مصاعبنا قد انتهت إلا أننا وجدنا بعد ذلك أن أشدها لا يزال أمامنا. وقد استأنفنا المسير في التاسعة والربع وبعد مدة وجيزة انحدرنا مجتازين الجدول الصغير الجاري في منخفض الوادي، ثم وصلنا قرية (سه وي تاله) الصغيرة ومعناها التفاحة المرة، فوقفنا فيها أيضاً للاستراحة ثانية، فمد أمامنا رجل من رجال الدين - وهو على ما يظهر صاحب القرية - سماطاً غنيًّا بالعسل والزبدة الطرية[1] واللبن الرائب والخيار والشنين.

وقد التهم كل من عمر آغا والبك من هذه الطيبات الريفية بشراهة، إلا أن الحمى الشديدة منعتني من أن أتناول من بينها سوى ملعقة أو ملعقتين من اللبن الرائب.

وفي الحادية عشرة والنصف عاودنا مسيرنا في نفس ذلك الطريق المرعب ونحن نشاهد أشجار الصفصاف تزين ضفتي (خور خوره) وهو يجري في قرارة الوادي وقد جئنا الآن إلى مخارف[2] لطيفة بين أشجار الدردار والحور والكظيظ من عليقات الزهر البري.

---

(١) يأكل أهل هذه الأقطار من الشرق العسل والزبدة سوية وقد تكون هذه عادة شائعة في الأقسام الأخرى منه بدلالة ما جاء في التوراة «زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير» (سفر أشعيا، الإصحاح ٧- ١٥).

(٢) المخرفة بالفتح، الطريق بين صفين من الأشجار - المترجم.

وفي الواحدة والنصف أنهكني التعب فاضطررت معه إلى الاضطجاع تحت ظلال الصفصاف عند جدول تسبح فيه الأسماك الكثيرة الأليفة. ولم يكن الأهلون في هذه الأنحاء شغوفين بأكل السمك وفي الثانية عدنا وامتطينا جيادنا، وبالأحرى إننا سرنا إذ إنني لم أمتط جوادي طيلة الطريق وعلى طواره الهاويات التي لم أقدر على السير معها لما أنا عليه من ضعف وصداع، وفي الثالثة إلا ثلثاً وصلنا قرية (ميك ـ Meek) وأنا منهوك القوى. وهنا لاقيت علاوة على ما أنا فيه، خيبة أقلقت مني النفس. إذ علمت بأن قريتي ومعها الأمتعة قد أخذت إلى قرية (بايه نده ره) في أعلى الوادي، عوضاً من الانعطاف إلى اليمين والوقوف في (ميك). وبعد أن تأكدت من المكان الذي أخذت إليه أيقنت بأنني لا أطيق الحركة للحاق بها، ولا بمقدورها العودة للحاق بي بعد سفرة كسفرتنا هذا اليوم، وأن انتظاري الطويل على أمل وصولها إلينا وقت العشاء قد سدت شهيتي للطعام فساورتني نوبة خفيفة من الحمى. فبلل العرق كل ملابسي ولم يكن معي ما استبدل به لباسي الداخلي، وقد أظهر عمر آغا نحوي في هذه الحالة الحرجة منتهى اللطف، واعتنى بي الحاج قاسم[1] عناية فائقة وسهر عند فراشي طيلة الليلة. هذه هي المرة الأولى في هذه السنين العديدة يقدم لي خادم أو أجنبي هذه الخدمة، ولم أتمكن من التصور إلا وإنني غير مرتاح.

تقع قرية (ميك) في منطقة (سافز) التي تبدأ عند الجدول الصغير وقبل وصولنا إلى (سه وي تاله) بقليل. إن لعسل هذه النواحي من البلاد شهرة واسعة لكثرة النباتات العطرة التي تنمو فيها. وعلى الرغم مما أنا فيه من التعب، ذهبت لمشاهدة خلية نحل في بستان قريب، زرع زرعاً منسقاً بالورود والأعشاب العطرية، وفيه كوخ من الأغصان المجدولة

---

(١) خادم من خدم المستر ريج.

وفي جانب منه أنابيب من الفخار أو على الأصح الطين المجفف مفتوحة من طرف واحد وفي طرفها الثاني منفذ ضيق، فإذا أرادوا جمع العسل كشفوا عن جانب الكوخ المقابل للجانب الذي فيه الخلايا، وأشعلوا النار في كومة من القش، فيفر النحل حالاً من الفتحات الصغيرة إلى الخارج تاركاً العسل وراءه إلى مالكيه. وقد أخرج القرويون خلية من الخلايا وأروني النحل وهو يعمل في عدة أقراص منها. لقد كان النحل منهمكاً في عمله انهماكاً جعله لا يعبأ بالمتطفلين ولا يهاجمهم.

سمعنا اليوم أصوات أسراب لا حصر لها من الحجل، ويقال إنه أوفر عدداً في (آورامان) ويصطاد الصيادون المئات منه، وذلك بأن يقفوا على تلين متقابلين فيخيفون أسرابه المتوجهة نحوهم بالصراخ والصياح عندما تقترب منهم، فتفزع الطيور وترتبك وتتساقط فيسهل عليهم عند ذلك التقاطها. لقد أكد لي عبد الله بك بأنه كان مرة بمعية الوالي في (آورامان) في صيد من هذا النوع فاصطادوا ما ينوف على الألف من الحجل.

والغزلان على اختلاف أنواعها، والماعز الجبلي والأيائل، على ما أعتقد، ـ لأنهم يسمونه بالثور الجبلي كما يسمون الظبي بالخروف الجبلي ـ كثيرة في هذه الأصقاع، وهم يصيدونها في موسم الشتاء أما الريم فيوجد في منطقة (اسفند آباد).

٥ أيلول:

كنت مريضاً جدًّا طيلة الليل وكانت مشكلتي هذا الصباح هي هل في مقدوري السفر اليوم؟ لكنني قررت محاولته، فرحلنا من (ميك) في السابعة وبعد أن ارتقينا تلاًّ بنيسم ناهد جدًّا درنا حول قمته إلى المكان الذي يبدأ منه الهبوط إلى قرية (بايه ن ده ره) وهنا شعرت بالضعف الشديد يدب في أوصالي بحيث لم أستطع الاستمرار على السفر أكثر من

ذلك وبينما أنا أحاول الجلوس غبت عن رشدي فسقطت ومن حسن حظي أن كان (كورد أوغلي)[1] ورائي فاحتضنني بين ذراعيه. وقد أدركت الآن، وبالأحرى أن ضعفي هذا جعلني أن أدرك، بأنني لا أطيق السفر أبعد من (بايه ن ده ره) حيث قضيت قرينتي ليلة البارحة، على أن حظي العاثر لم يتخلَّ عن متابعتي إذ وجدت أن قرينتي ـ لخطأ ما ـ قد تقدمت مرحلة أخرى. وعندما علم عمر آغا بذلك وقد ذهب إلى (بايه ن ده ره) أوفد خيالاً للرجوع بالجماعة وإيقافها في أقرب قرية إلى (بايه ده ره) ثم رجع ليخبرني بما فعل. وعلى ذلك استأنفت المسير أو بالأحرى حملني كل من كورد أوغلي والبيطر ـ النعال ـ إلى أسفل المنحدر فاضطجعت ناشداً الراحة ثانية تحت ظل صفصافة عند جدول جميل. فاحتسيت في هذا المكان كوباً من القهوة أنعشني، وأصر عمر آغا الحنون علي بأن أشرب ملء ملعقتين من دواء الكرد العام وهو الشنين، وقد جلبه لي من (بايه ن ده ره)؛ والحق يقال إنه أنعشني كثيراً. وفي العاشرة والنصف شعرت بقدرتي على قطع ما تبقى من الطريق، وكان لحسن الحظ سهلاً.

سرنا راكبين بخطوات معتدلة في وادٍ متمعج، ولكنه أكثر انبساطاً، ينساب فيه جدول تنبت على ضفتيه أشجار الصفصاف بنسق جميل. وفي الثانية عشرة إلا ربعاً، ودون أن نرتقي كثيراً وصلنا قمة مهبط منحدر، وأعتقد أنه أكثر انحداراً من المنحدرات التي جئناها حتى الآن، وقد استغرق هبوطنا فيه قرابة نصف ساعة واسمه (كه لله بالين ـ Kelleh Balin). لقد اتفق كل من عمر آغا وعبد الله بك في القول بأنه أحد مضايق (زاغروس). والجبلان هنا يؤلفان وادياً يصل (بانه) وكلاهما مكسو بأشجار البلوط.

ومن أسفل المنحدر سرنا في مخرف بين أشجار البلوط والدردار والصفصاف والحور ووصلنا في الواحدة والنصف قرية (سووره نه) في

(١) رئيس سواس المستر ريج، وهو من (بايزيد) في أرمينيا ـ الناشرة.

وادٍ بين هضبتين من جبال (زغروس)[١] وهي قرية كئيبة لا ينطبق حالها على ما سميت به ولكنني التحقت عندها بقرينتي وتمتعت بطعام الفطور الذي هيأته لي، لأنني لم أتناول قوتاً بعد طعام العشاء قبل يومين.

جاءني في هذا المكان رجل أوفده إليّ الوالي من (بانه) ومعه بعض الأحمال من الفواكه ورسالة رقيقة.

٦ أيلول:

رحلنا في السادسة من (سووره نه) وسرنا في الوادي الجميل، ومررنا في السابعة بقرية (بجه ئي ـ Bjae) أو (بزه ئي ـ Bzae) وهي على يميننا. وبعد مسافة قليلة بدأ الوادي والجبلان بالانعطاف كثيراً إلى الجنوب، والآن شاهدنا النقاط أو القمم الثلاث التي تكرر ذكرها، وبعد قليل تعود الجبال من مضيق بين الجبلين يؤدي إلى (قزلجة) إلى ما كانت عليه. وفي التاسعة والنصف وصلنا منزلنا في (أحمد آباد) أو (أحمد آوه) كما يلفظها الكرد، وهي قرية بجوار (بانه) وكان منزلنا في موقع جميل على تلال (آردبابا) وهي قسم من سلسلة زغروس[٢] الغربية أو الجنوبية، وهو يبعد عن (بانه) مسيرة عشر دقائق للراكب. وكان هناك بعض الكروم

---

(١) يظهر أن الهضبة الغربية هي التل الذي عبرناه جانبيًا ونحن نتقدم نحو وهدة (بايه ن ده ره) والاتجاه من المضيق إلى القرية شماليًا غربيًا بنحو (٧٠) درجة ثم ينعطف كثيراً إلى الجنوب، لنرجع ثانية إلى (بانه)، إن القمم الثلاث التي شاهدناها من أحمد كلوان و(زه ري بار) تقع باتجاه شمالي غربي بخمسين درجة من (سووره نه)، أما (بانه) فهي باتجاه (٨٣) درجة شمالية غربية.

(٢) يبدو أن الجبل الواقع على الجانب الشمالي من وادي (بانه) هو جبل زغروس الأصلي، أما الجبل الواقع على الجانب الجنوبي، وغيره من الجبال فما هي إلا شعب منه ـ وهو ينعطف ـ بـ٢٥ درجة شمالية غربية حيث يظهر أنه يؤلف رأساً هاوياً ثم يختفي وهذا الرأس هو (بتوين) وهو على بعد ١٣ ساعة تقريباً.

وشرقة جميلة، ينصب عليها أحياناً سلطان (بانه) خيمته قصد النزهة، وصفصافة جد جميلة قرب ينبوع بارد (حرارته ٥٣ درجة)، كانت حقًّا أجمل أشجار الصفصاف التي شاهدتها حتى الآن وأعظمها. لقد نصب الوالي بعض الخيام لاستقبالنا، ووجدنا رئيس خدمه وبعض الطباخين بانتظارنا لخدمتنا.

جاءني بعد الظهر أحد أنجاله، حسين قولي خان ليرحب به وبصحبته الوزير وثلاثة آخرين من أعضاء المجلس، وأحدهم وهو شيخ طاعن اسمه ميرزا عبد الكريم على ما أظن. وكان هو المحدث أو المتكلم الرئيس فيهم. أما الخان الصغير فكان صبيًا نبيهاً في الثانية عشرة من عمره تقريباً وهو في ملامحه يشبه أمير (سنه) الصغير ولكنه يبدو أكثر نشاطاً وأمضى ذكاءً. وكان سلوكه على جانب عظيم من الكياسة والأدب وقد رحب بي بلطف فائق باللُّغة الفارسية وافتتح الحديث بالسؤال عن المسافة بين بلاده وبين إنكلترا، وكيف وجدت كردستان، وهل إننا ندخن الغلايين في بلادنا، وغير ذلك من الأسئلة. ثم تولى الرجل العجوز الحديث، ولما كان الحديث قد انحصر على الأكثر في المجاملات الإيرانية فلا أراه يستحق التدوين.

وصلتني مساء من الخان هدية كبيرة من الفواكه بعضها إجاص من (ميان دو آو)، وهي وإن لم تكن جيدة جدًّا فإنها مرضية لأنها كانت باكورة الموسم. وفي مراسيم تقديم الهدايا تمثلت أمامي الصور التي شاهدتها منحوتة في (به رسه بولس) خير تمثيل، إذ يتقدم رئيس الجماعة وبيده عكاز طويل ومن وراءه رتل من الخدم يحمل كل منهم شيئاً وهكذا تجزأ الهدية إلى أكبر عدد ممكن قصد التفخيم. لقد أصر الخان على أن يطبخ طعام إفطارنا وعشائنا في مطبخه الخاص؛ إنه ولا ريب وفق الذوق الإيراني أو على ما أعتقد أحسن طهياً وترتيباً من طعام (سنه)، وإنهم راعوا أوقات راحتنا.

الفصل التاسع

زيارتنا لوالي سنه - قلعة بانه - حديث الوالي - زواج ابنه - الوالي يرد زيارتي - قسوته في بانه - التهيؤ للرحيل - عوائق غير منتظرة - صعوبة الحصول على دواب الحمل - اعتذار الوالي - سلطان بانه - بدء مسيرنا - رئيس القرية - رفضه السماح لنا باستمرارنا على المسير - موقف سيئ - القرار لشق طريقنا قتالاً - خوف رئيس القرية - سماحه لنا بالمسير - جبال - دخول منطقة البابانيين - أتباع عمر آغا - خرائب قالاجوالان - تلال هدود - الوصول إلى السليمانية

* * *

٧ أيلول:

عين صباح اليوم موعد لزيارتي الخان، وقد وعد بأن يستقبلني في وقت مبكّر قبل اشتداد الحر الذي كنت أفزع من التعرض له، ولكن لم يأتوا ليخبروني باستعداده لمقابلتي قبل العاشرة والنصف. وعندئذٍ امتطينا جيادنا وذهبنا إلى المدينة فاستقبلنا في مدخلها ميرزا عناية الله ورهط من الخيالة، وقد زاد حشدهم في الحرارة وإثارة الغبار الذي اكتنفنا. وعند ارتقائنا تل القلعة وجدنا جماعة من حملة البندقيات من (سه قز) وغيرها

من المناطق الجبلية الأخرى قد ألفوا ممرًّا اصطفوا على طرفيه، وكذلك السربازيون، أو الجنود النظاميون وقد حيوني التحية العسكرية بالسلاح، وما كانوا بأحسن من رفاقهم الذين شاهدناهم في (سنه)، وكان عددهم قرابة المائة والخمسين جنديًّا. وكانت القلعة أو القصر، أو مهما أطلق عليها من اسم، محلًّا بشع المنظر. وجدت الخان جالساً في إيوان غير مملوج بالجص، تحيط به كمية من البطيخ، فنهض ليستقبلني، ماداً يده إليّ وإلى المستر (به ل). لقد خبت فيما كنت أظنه فيه من السلوك والمظهر. وكنت أتوقع أن أرى فيه أنفة وأناقة داود باشا بغداد ولكنني وجدته إيرانيًّا اعتياديًّا خشن المظهر أو بالأحرى مستهجناً، أو شبيهاً لما نعبر عنه بالرجل الطيب، المتواضع الذي لا تلمس الطلاوة في حديثه الذي يقتصر على توجيه بعض الأسئلة المقتضبة وإبداء الملاحظات القصيرة. وكانت قامته أطول من المتوسط، وله وجه قصير مكتنز ولحية خطها الشيب، وحاجبين أسودين كثين كانت استقامتهما وتقطبهما تغطيان أعلى وجهه سحنة لا ترتاح إليها النفس.

ولا بد لي من الإشارة هنا، إلى أنني لم أر مطلقاً إيرانيًّا جليلاً ظريف الشمائل، ولعل لباسهم هو الذي يحرمهم من مظاهر الظرف، إن أطوارهم الخشنة الفظة، وتكلمهم بصوت جهوري أصبحت من الأساليب المعتادة لديهم تقليداً لرجال القبائل، وبطانات القصور؛ وما هم عندي إلا أوباش متأنقون. وكان يجلس مع الخان، موسى خان حاكم (سه ردشت) الذي كان يزور الوالي وسلطان (ساقز)، وهو من المقربين إليه وسلطان (بانه). وجلس عمر آغا إلى جانبهم؛ وكان في جلوسه غير متكلف قليل الاكتراث وكان أوفرهم حرية وأكثرهم جرأة الأمر الذي جعله يظهر كالأمير بينهم. وقف نجلا الخان وراء النافذة وهما على رأس جماعة من الخدم المسلحين، فنجله المقرب إليه محمد علي خان وهو الذي سيقترن بابنة الشاه في عيد النوروز المقبل، كان ولداً غليظاً أسمر

اللون شبيهاً بوالده، أما الأنجال الآخرون الذين رأيتهم فلا يشبهونه. وكان لباس الوالي الخارجي يتألف من شال كشميري أسود، وملابسه الأخرى كانت اعتيادية وما كان يحمل سلاحاً جميلاً أو خنجراً ثميناً. وكل ما كان يزين صدر ديوانه أو عرشه (كذا) ناظور باخرة وعصا مصبوغة باللك ذات قبضة من فضة وإناء فيه ساعة اعتيادية وختمين أو ثلاثة أختام وعلبة آفيون من صنع برمنكهام.

خاطبني بالتركية وقد أصبحت لغة الطبقة الراقية الآن في إيران، وإنني كما ذكرت آنفاً، لا أتذكر إلا القليل مما يستحق التدوين من حديثه لأنه لم يسأل إلا أسئلة قصيرة، وكان يتعمد لتحايل الممقوت في تكرار الأمور التافهة فيجعلك تكررها أنت أيضاً. سألني عن عمري فأجبته أنه ثلاثة وثلاثون عاماً، فأبدى ملاحظة باللُّغة الكردية قائلاً بأنني أظهر وكأنني ابن الأربعين. ثم سألني عن مرضي بسيل من المصطلحات الطبية الشرقية التي بدا لي منها بأنه ذو إلمام فيها، وتكلم عن (مالكولم) وامتدحه كثيراً، وأخبرني بأن (مالكولم) كان قد أهداه الهدايا اللطيفة، ثم سألني عما تكون واجبات المقيم البريطاني في بغداد، وتمادى فسألني عن راتبي، ثم جيء إليه بخمسين بطيخة تقريباً وضعت أمامه فاستل مدية صغيرة برمنكهامية من جيبه وذاق كل واحدة من البطيخ، وقدمت أطباق الحلوى، فأكل وأكلت من الطبق ذاته، واستمر مصرًّا على كسر قطع صغيرة منها بيده وتقديمها إلي. أما الغلايين فكانت تتوارد الواحد بعد الآخر. وسأل كثيراً عن (بونابرت) واستفسر عما إذا كان يشيد الخانات، وقال عنه إنه أصبح من المشاهير. جلست معه قرابة ساعتين، وعند مغادرتي له نهض ورحب بي ثانية، وقال بأنه سيرد زيارتي في القريب العاجل. وقد سألني بوجه خاص عن أتباعه في (سنه) وعما إذا ارتحت إلى معاملتهم، وعما إذا شذ أحدهم في سلوكه نحوي. إن الغضب الذي يبدو على ملامحه، والرعب الذي يستولي على خدمه عندما يظهر ذلك

الغضب جعلاني أعتقد أنه كان رئيساً مخيفاً، وإن لم أسمع ما سمعت عنه من قبل. وفي الواقع إن كل ما سمعته عنه ليؤيد لي بأنه رجل غاشم حقود ظالم، فقد كان الجلد من الأعمال اليومية في (بانه)، وقد ابتزت المقادير الكبيرة من الأموال فيها. لقد نشبت ثورة هنا في الشتاء الماضي يقال إن سببها كانت هذه الأعمال القاسية. ومدينة (بانه) حقيرة قذرة، تكاد لا تستحق أن يطلق عليها اسم مدينة[1] وإنها لم تكن بأحسن حال من القرى التي مررنا بها سوى أنها أوسع منها قليلاً. «والبناية» أو القلعة تقوم على طنف اصطناعي صغير. والأصح أن اسم (بانه) هو اسم المنطقة، أما المدينة فاسمها (به روزه ـ Berozeh) ولكنه غير شائع؛ ويقطنها الكثير من اليهود.

٨ أيلول:

زارني صباح اليوم موسى خان حاكم (سه رده شت)، وقد تكلم كثيراً عن الإنكليز في (تبريز)، وإنه مما يثلج الصدر ويملؤه فرحاً ما يتحدث به الكل عن حسن سلوك أبناء بلادي في إيران.

وفي المساء جاء الوالي ليعيد الزيارة، وقد تقدمه جنوده النظاميون، ومن ورائه عدد كبير من الفرسان. وما كان الموكب ذا روعة كالمواكب التركية فقد كانت تظهر عليه مسحة الحطة والكآبة بالقيافة الإيرانية وعلى الأخص إذا كان جمعهم كبيراً. لقد كان الخان في لباس أبسط من لباسه أمس، إذ كان يرتدي ثوباً خشناً من الصوف مما يلبسه الدراويش. واستقبله السربازيون عند مدخل الخيمة فحيوه بالسلاح وعزفت له الجوقة النشيد الملكي بالطبول والمزامير. وكان بصحبته خان (سه رده شت) وسلطانا (بانه) و(سه قز). إنه أراني عدة أسلحة وسألني عما إذا كانت

---

(١) ويقال إن (سه قز) أوسع منها وأحسن عمراناً.

إنكليزية أو فرنسية، وعن قيمتها المالية وغير ذلك، وقال لي بأن شاه إيران وعده بثلاثة مدافع صحراء وطائفة من المدفعيين لتدريب جماعة من أتباعه عليها وأردف قائلاً: «وأنا شخصيًا سأتعلم وأصبح كما سترى مدفعيًا جيداً كمدفعي إنكليزي. أما رأيت حصون القصر في (سونه)؟ إنني سأضع فيها مدفعاً، وأضع بعض الجاموس والأغنام على التل المقابل لها، وسترى كم سأقتل منها يوميًا» لقد أصبح موقفه الآن وديًا، والحديث معه وإن لم يكن مفيداً مما حواه من المعلومات إلا أنه كان مسترسلاً لا تكلف فيه. ثم التفت إلى موسى خان وخاطبه بالكردية قائلاً: «لقد جذبني والله هذا الرجل إليه»، ثم قال لي: «أترغب في مؤاخاتي؟ إنه من الخير أن يكون للمرء صديق مثلي، فأنا رجل غني». وقد جاء ذكر مكتبتي، فانتهز عمر آغا الفرصة بلباقة وأخبره بأنني أرغب في الحصول على نسخة من كتاب تاريخ كردستان الشهير المسمى بتاريخ الكرد، وكان عند ذاك في أوج بشاشته فقال: «أتريد تاريخ الكرد؟ إنك والله ستحصل عليه»؛ لقد كنت في بحث مستمر عن هذا الكتاب منذ عدة أعوام.

وكان يستحق أن يتحمل المرء عناء السفر إلى (سنه) بغية الحصول على هذا الكتاب وحده[1] ويبدو أنه أخذته مؤخراً سورة دينية فراح يذكر ويسبِّح، وقال بأنه ينوي الحج إلى مكة، ثم سأل بعض الحاضرين عن الوقت، ولما أخبروه به تناول حبة صغيرة من الأفيون وأردفها بقطعة من السكر، ودخنت الغلايين العديدة. ذكرت له رغبتي في الرحيل غداً،

---

(١) توفق المستر ريج في الحصول على نسخة من تاريخ الكرد هذا، ولكنني لا أتذكر الشخص الذي حصل عليه منه. والنسخة الآن في المتحف البريطاني مع بقية مكتبته الخاصة بالكتب الشرقية ـ الناشرة.

ملحوظة: ـ المقصود بهذا التاريخ هو الشرفنامة، للأمير شرف خان البدليسي، راجع الحاشية (١) من الصفحة ١٢ من مقدمة وتمهيد محمد علي عوني، في الطبعة التي نشرها فرج الله زكي الكردي ـ، طبعة القاهرة ـ المترجم.

فرجاني أن أؤجل ذلك إلى ما بعد الغد كي يقابلني ثانية. إنه جاءني في الساعة الرابعة ومكث عندي حتى قرابة الغروب ثم استأذن في الانصراف بلطف وظرف، لقد كان يركب جواداً أو بالأحرى برذوناً ضخماً على برذعة مكسوة بالمخمل، وكان خدمه يجفلون كلما التفت إليهم بغتة أو كلم أحداً منهم.

٩ ايلول:

كان عليَّ أن أزور الوالي اليوم استئذاناً بالرحيل، وكنت قد طلبت إليه أن يضرب موعداً في وقت يكون فيه غير مشغول لأن الأوقات عندي سواسية فأجاب بأنه سيخبرني بذلك. لقد قضى الصبح بطوله في تصفية الحساب مع (بانه). إنه فقأ أعين ثلاثة رجال من أعيان هذا الجزء من المملكة، ونفى نساءهم وبناتهم مع عدد غير يسير من الناس إلى (سنه). لقد شاهدنا رتلاً طويلاً من النساء فوق الخيول يقطعن السهل بحراسة بعض أتباع الخان وهم يسيرون راكبين بين النساء؛ وكانت هذه مشاغل الخان صباح اليوم ومن حسن الحظ أنها لا تبدأ إلا في الحادية عشرة. وكلما كثرت أخبارنا عنه ازددنا كرهاً لوحشيته الطاغية. لقد ذهب بعد الظهر لمعاينة قرية كان قد استلبها وقبل ذهابه إليها بعث إليَّ بخبر مفاده أنه قضى اليوم يعالج أموراً لم يستطع التخلي عنها ويرجو أن يزورني غداً فيودعني فيسير في اتجاه ونسير نحن في اتجاه آخر. وهذا التأخير في السفر أزعجني كثيراً، فأوفدت إليه استمحيه العذر عن التأخر إلى الغد، ولكنه كان قد غادر مكانه، ولم يعد إلا في ساعة متأخرة من الليل.

أويت إلى مضجعي في الحادية عشرة ولم أستقر فيه إلا قليلاً حتى جاء رئيس الفراشين، وهو رئيس ناصبي الخيم، قائلاً بأنه تلقى الأوامر لتقويض الخيام حالاً، فاستغربت من هذه الخشونة المفاجئة وبقيت أنا وعمر آغا الذي حمل النبأ نجهل كيفية تعليله، غير أني قررت الحيلولة

دون ذلك إلا إذا استخدمت قوة متفوقة إزاءنا في تقويض هذه الخيام، وبالرغم من تأخر الوقت طلبت من عمر آغا أن يركب إلى المدينة لمقابلة الوالي واستطلاع خبر هذا الأمر الشاذ فلبى عمر آغا الطلب وبعد نصف ساعة رجع ملاه -كاتبه- بـ«الفقيه قادر». (وهو رجل من أطيب الناس، والكلام في سرك) ليخبرني بأن القضية محض خطأ وإن الميرزاوات طلبوا متوسلين به بأن لا يشتكى لدى الخان، وقد أمسى رئيس الفراشين لفي رعب شديد وقال لو علم الخان بالأمر لفقأ عينيه. وأخبرني عمر آغا بأنه لم ير الوالي ونتيجة لذلك فإنه يفضل البقاء في المدينة ليؤتى بالبغال - التي كان على الوالي أن يهيئها لنا، إذ لا يمكن الحصول عليها دون أمر منه - لنستطيع الرحيل في ساعة مبكرة من صباح الغد. ولقد استصوبت السكوت عن القضية لأنني لم أجد فيها أي إهانة مقصودة، واستنتجت بأن الأمر لم يصدر إلا في نوبة سكر شديد لأن الوالي علاوة على تناوله الأفيون يحتسي النبيذ بوفرة، ومن السهل جدًّا تصور استحالته إلى وحش ضارٍ في مثل تلك الحالات. وهذا الحادث المزعج تركني ساهراً حتى الثانية بعد منتصف الليل[1].

١٠ أيلول:

نهضنا مع الشمس، ولم نجد البغال. وقد أخبرني عمر آغا الذي عاد من المدينة بأنها آتية ولكن تسعة منها فصلت من قافلة من بغداد مرت ببانه بطريقها إلى بلاد الكرج، تلك القافلة التي أنقذتها أمس من دفع الضرائب المضاعفة وبعض التكاليف الثقيلة الأخرى التي أراد أعوان الخان فرضها عليها.

---

(١) مات سائسي حسين المسكين ليلة أمس، ولقد استسلم إلى اليأس منذ أن هاجمه المرض بعد أن تركنا (سنه) مباشرة، وكان شابًا طيباً. ومات حسن أحد ناصبي الخيام في إحدى القرى فاضطررت إلى تركه فيها، وقد مات سائس آخر في السليمانية.

كان طعام الفطور المعتاد يهيأ لنا، وبعد تناوله كان الخان يرغب في مواجهتي ليودعني لقد أخبرني كل من «وكيل الخرج» رئيس خدم الخان، وعبد الله بك، بكل ذلك. فغضبت وقلت لهما بأنني لا أريد بغال القافلة ـ التي أمرت بإعادتها إلى أصحابها، وتأكدت تنفيذ الأمر بعدئذٍ ـ وإنني سأسافر لوحدي تاركاً الأمتعة مطروحة في محلها، ولا أريد مواجهة الخان مطلقاً، وعلى ذلك ركب عبد الله بك وبعض أتباع الخان حالاً مسرعين إلى المدينة خبباً، أما صاحب البغال فبقي بجانبي مع بغاله التي جيء بها إلى مضربنا في تلك الآونة. وأسرع «وكيل الخرج» في تقديم الطعام استرضاءً لي وما كنت حاقداً عليه إذ كان رجلاً خدوماً مؤدباً، وهيأ عمر آغا ثلاثاً أو أربعاً من دواب حمل جمعها من محلات مختلفة لتحميل أهم الأشياء وألزمها والمضي بها. وقد اهتم قبل كل شيء بحقائب سرجي والمزولة، وكان الجمع في هرج ومرج. وبعد أن سارت قافلة الأثقال التي تمكنا من تحميلها ركبت السيدة ريج والمستر (به ل) يرافقهما مريض واحد أو مريضان من جماعتي ورجل يعتمد عليه من رجال العشائر من أتباع عمر آغا وهو ابن عم له، وقد تسلح بندقيتي واتشح بسيف عريض لي اتشاحاً مضحكاً إذ رمى بمنطقته الجلدية العريضة وألواحها المعدنية اللامعة فوق كتفه. لقد أصبح قائد القافلة، وهو بهذه القيافة في وضع يصلح معه أن يترأس عصابة من قطاع الطرق.

وبعد أن سارت القافلة مدة نصف ساعة رجع عبد الله بك مسرعاً ليخبرني بأن الوالي قد استيقظ الآن من نومه وسمع بتأخري عن الشروع بالسفر لقلة الدواب فأمر بأن يؤتى إلي بجواده، وهو مهتم اهتماماً فائقاً بأن لا يكون قد وقع ما يزعجني، ويرجو أن أتناول كأساً من القهوة معه في طريقي الذي يمر بالمدينة، وأنه يرى بأنني أزيده شرفاً لو تقبلت منه برذوناً رهواناً كدليل على رضائي عنه. لقد سررت لهذا التصرف لأن الأمور أخذت تسير سيراً وديًا، وعليه بعد أن وزعت بعض الدراهم على

جمع من الجشعين الذين ضايقوني ولم يقنعوا بما نالوا، وإقناعهم مستحيل، ركبت متجهاً إلى المدينة لتوديع الخان. فوجدته منشغلاً جدًّا بإملاء كتاب على أحد الميرزاوات ـ الكتاب ـ وقد جئنا أمام الخان يكتب ما يمليه عليه بالحرف الواحد. وإني على ثقة بأن الميرزا لو ترك وشأنه لكتب ما أملاه عليه الخان بأسلوب آخر(١).

استقبلني الخان بلطف وأدب على طريقته الغريبة. وكان أمامه ناظور مسرح صغير، وقال لي إنه هدية من رئيس وزراء الشاه له، وطلب مني أن أنظر فيه وسألني عن ثمنه. وقد استغرب لم لا يجسم هذا الناظور الأشباح بقدر ما يجسمها ناظور أكبر، ثم قال ما داموا قد بذلوا هذا الجهد في صنعه فقد كان الأجدر بهم أن يجعلوه بقوة المرقب في التجسيم. ودخل سلطان (بانه) نور الله سلطان وجلس عن بعد، فقدمه الخان إلي بقوله: ـ ياخشى أوغلان، أي إنه ولد طيب ـ وكان لهذا الولد الطيب لحية كثة سوداء طولها قدم تقريباً، وكان خوفه من مادحه ظاهراً عليه جليًّا ـ «وإنه أهدى إليه، أي إلى الخان قرية ـ وهي القرية التي اغتصبها الوالي أخيراً ـ وإنه يريد أن يقيم فيها جنينة تفوق جنينة (خسرو آباد)، ويدعو الناس لمشاهدتها من الموصل، وحلب؛ والقاهرة». وقدمت الآن أطباق الحلوى، وسألني الوالي عن الهدية التي أرغب في أن يرسلها لي، فأجبته أن الكتاب الذي وعدني به، سيكون عندي أثمن الهدايا كلها. فأكد لي بأنني سأحصل عليه، وقال إنه لم يكذب مطلقاً وعليه فهو يعترف بأن لديه نسختين منه، ولكنه يرغب في مقارنتهما، وأنه سيرسل لي بكل تأكيد نسخة منهما مع رسول سريع من (سنه) على أن أعطيه لقاء ذلك بضع علب من البارود، وكرر السؤال عن الهدية التي

---

(١) يختلف أسلوب الكتابة في الشرق اختلافاً كليًّا عن أسلوب الكلام. ويبدو أن ما يعنيه المستر ريج هنا هو لو أن الخان سرد خلاصة الموضوع الذي يريد كتابته إلى ميرزاه لعبر هذا عنه بأسلوب يختلف عن أسلوب الخان ـ الناشرة.

أرغب فيها، وألح عليَّ في ذلك إلحاحاً، ولما رأيت إصراره أجبته بأنني سأكون ممتناً جدًّا لو أرسل إليَّ أي كتاب يعثر عليه ويعتقد بإعجابي به، فلم يقنعه جوابي هذا وألح عليَّ أن أعين الكتاب فقلت له بأنني بعد رجوعي إلى موطني سأبحث عن الكتب التي أحتاجها فأخبره بها فأجابني عند ذاك بأنه سيفتح معاملة معي، أي أنه سيكتب إليَّ عما يريده لأرسله له على أن أفعل مثله. وبعد مكوث قرابة ساعة ودعته، فنهض وصافحني وأسمعني الكثير من كلمات المجاملة وأصر لأخبره عن رضائي التام عنه. سيرحل الخان اليوم من (بانه) في طريق عودته إلى (سنه)، وهذا يبعث الفرح في نفوس سكان هذه الديار.

رحلنا من (بانه) بعد الظهر بنصف ساعة، وبعد أن قطعنا السهل باتجاه شمالي غربي دخلنا وادياً ضيقاً، تحيط به تلال مكسوة بأشجار البلوط، واستمر سيرنا فيه حتى الثانية إلا ربعاً ثم ارتقينا سلسلة تلال صغيرة حائدة عن الطريق، وفي الثانية وصلنا قرية (سوويروه ـ Swearwea)[١] الصغيرة الحقيرة فوقفنا عندها. ووجدت أننا قطعنا الكفاية من المسافة في مرحلة اليوم الأول، إذ بدأنا السير متأخرين. وهذا يوم عودة الحمى على الكثير من جماعتي. وكان يقصد عبد الله بك مرافقتي حتى هذا المكان، ولكنه ارتأى بأنه يكون أعظم فائدة لنا إذا تخلَّف عنا ليرسل الباقي من الأمتعة إلينا ويطلق بأمان وسلام المكاري المسكين الذي حميته، ولذلك ودعته في (بانه) وهو الرجل الوحيد في هذه المنطقة الذي أسفت لفراقه؛ إنه شاب طيب خدوم، مرح.

سار فتى بجانب جوادي من (بانه) إلى هذه القرية، وسألته عن مهنته فأجابني أنه إسكافي، فوددت أن أستطلع ما يدفعه سنويًّا للحكومة فأجاب أنه يدفع توماناً واحداً ضريبة في كل خمسة عشر يوماً، ولكن منذ

---

(١) والصحيح سوير آوه ـ أو آوا Sör- Awa أي «القرية ذات الماء المعج» ـ المترجم.

أن جاء الخان إلى (بانه) دفعت عائلته خمسة تومانات وكاد يموت جوعاً من جراء ذلك، لأن مهنته لا تدر عليه ما يكفي لأداء هذه الضريبة الباهظة.

١١ أيلول:

سطا علينا ليلة الأمس بعض اللصوص، فسرقوا من عدتي سرجين فضيين وبعض الأسلحة المطعمة بالفضة، وحالما أعلموني بالأمر أوفدت علي آغا وهو من أتباعي والفقيه قادر وهو من أتباع عمر آغا إلى أمان الله خان لإخباره بما وقع طالباً منه العثور على اللصوص وإعادة المنهوبات إلينا.

وفي السابعة والنصف رحلنا من (سويرآوا) وبعد أن عدنا إلى طريقنا أمس سرنا باتجاه شمالي غربي في الوادي حتى التاسعة فوصلنا وهداً في الوادي ثم عرجنا عن طريقنا فوصلنا في التاسعة والنصف قرية (نويزكه)، القائمة على تل يحد الوهد من الغرب. كان طريقنا اليوم منبسطاً في الغالب مكتظاً بالأشجار وأكثرها أشجار البلوط والكمثري البرية، أما الأرض فكانت أردوازية وجبسية، وأننا لا نزال في مقاطعة (بانه)، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنها مشتهرة باللصوص. ولما كانت الدواب التي حصلنا عليها في (بانه) غير مكدة ـ وأغلبها من البراذين ـ لم نستطع اجتياز (نويزكه)[1] اليوم، إذ لا توجد قرية أخرى بينها وبين (مه روه) وهي على بعد أربع ساعات في منطقة أصدقائنا البابانيين.

---

(١) معنى (نويزكه) ـ بالزاء والكاف الفارسيتين ـ المصلى وفارسيتها نمازكاه. ومعنى (نويز) في الكردية الصلاة، والظاهر أن الكلمة ممسوخة من كلمة (نماز) الفارسية.

١٢ أيلول:

إن أحمد بك رئيس القرية رجل لا جاذبية في محياه، لقد كان ميالاً إلي المشاكسة. وقد علمنا صباح اليوم أنه لا يريد أن يهيئ لنا الدواب أو يسمح لنا باستخدام دوابنا أيضاً وقال إنه تلقى الأوامر بذلك من سلطان (بانه).

وهذا غير مستبعد كما يبدو، إذ ظهر لي من مذكرة جاءتني من السلطان - الذي لي الحق كله أن لا أرتاح إلى سلوكه نحوي في حوادث أخرى - أنه كان يميل بها إلى الانحياز إلى رجل أوقفناه لما حامت حوله الشبهات القوية التي لها علاقتها باللصوص.

لقد أصبحنا في مأزق حرج، فلقد سافر أمان الله خان، ويبدو أن السلطة الوحيدة التي نستطيع الاعتماد على معاونتها لنا إزاء وقاحة هذا الرئيس، ستنحاز إليه أكثر من مساندتها لنا. إن القرية في موقع حصين وتجمع ثلاثين أو أربعين حامل بندقية، أما جماعتنا فقلائل بحد ذاتهم، وكلهم من الخيالة وقد أنهكهم المرض، وهذا مما يعيقنا عن الاستعداد لمجابهة الطوارىء. وأخذت أشعر الآن بالندم على إعادتي الجنود «السباهيين» إلى السليمانية، إذ محض وجودهم معنا مما كان يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، وبعد المشاورة مع عمر آغا فيما يجب عمله في هذا الظرف الطارىء قررنا السير إلى حدود البابانيين تاركين وراءنا الأمتعة والخيام، فنرسل جماعة مسلحة من الشينكيين - قبيلة جبلية باسلة، على مقربة منا في المنطقة البابانية - لإنقاذ الأمتعة. وقد غادرت قرينتي آنذاك المحل بحماية المستر (به ل) ومحمد رضا جاووش، وبعض الخدم، وكلهم راكبون مسلحون. أما أنا وعمر آغا فتخلّفنا لنتعهد المرضى ونقاوم أي هجوم نتعرض له، هذا ويبدو أن ما لاحظه أحمد بك من موقفنا ومشاورتنا لم يرق له فجاء من فوره وقال بأنه مستعد ليجهزنا بما نحتاجه

من الحمير، وتم الاتفاق، وبعد مصاعب جمة، وتأخير طويل وقسمهم اليمين وتهديدنا لهم أحضرت الدواب فحملنا أمتعتنا وأركبنا مرضانا ودفعنا بها جميعاً على الطريق إلى مسافة لا يستهان بها قبل حركتنا. واستدلالاً بسلوك هؤلاء وببعض ما بدا منهم عند رحيلنا خشي عمر آغا غارتهم علينا في طريقنا، وكنا ولا ريب عازمين على المقاومة، وقد شعرت بالثقة التامة بكفاءتنا في منازلتهم منازلة الند للند إذ كنا فرساناً ماهرين ومسلحين فنظمنا أنفسنا أحسن تنظيم مستطاع لحماية الأمتعة والمرضى والعاجزين منا، واحتفظنا بتلك التنظيمات حتى اجتزنا الحدود بأمان.

ويظهر أن كبير (نويزكه) رأى من الحكمة أن يدعنا نرحل عن منطقته دون أن يمسَّنا بضرر، إذ لم نر له ولأعوانه أثراً بعد ذاك[١].

سرنا في السابعة والنصف، واتجهنا ببطء نحو الطريق الذي تخلّينا عنه أمس فوصلناه في الثامنة. وبعد قليل بدأنا نرتقي الأرض بطريق جيد، وسط غابة من أشجار البلوط الضخمة وأشجار الكمثرى البرية وأشجار تشبه الزعرور ذات ثمر مستساغ، ووقفنا مرتين خلال تسلقنا الجبل الذي كنا نجتازه واسمه (بي لوو) وكان يتجه شماليًّا جنوبيًّا تقريباً، ولكن ارتقاء الجبل من سهل (بانه) كان ارتقاءً تدريجيًّا بدرجة لا يظهر معها للجبل أثر في ذلك الجانب، وعن يسارنا وعلى بعد قليل، يرتفع جبل (سووركه ثوو ـ Soorkeoo)[٢] بسفوحه الهدود وهو يتجه اتجاهاً جنوبيًّا شرقيًّا، ومنتهاه القريب منا مخدد بمياه (بانه) وبجداول أخرى وأنه من الجلي جزء من السلسلة التي كنا نسير عليها، وهو على ما أعتقد نفس الجبل

(١) لقد أرسل سلطان (بانه) لي، أحمد بك رئيس قرية (نويزكه) سجيناً إلى السليمانية لإنزال ما يتراءى لي من العقاب به، ولا ريب أنني عفوت عنه وأرجعته.

(٢) والصحيح «سوور كيو ـ Soor- Kew» أي الجبل الأحمر ـ المترجم.

الذي يحد سهل (أحمد كلوان) والذي اجتزناه في طريقنا من السليمانية إلى أحمد كلوان بالطريق المسمى (تاريله ر)[1] وبعد أن استرحنا وأرحنا الحيوانات فوق قمة جبل (بي لور) استأنفنا السير في العاشرة والنصف. كنا نسير وكأننا في لجة من الجبال تحيط بنا من اليمين واليسار، لقد كان البعض منها يمتد في خطوط مستقيمة والبعض الآخر متكسراً، متشابكاً تشابكاً يستحيل على المرء تخطيطه، ويبدو أن الأرض كانت مغمورة بصفيح الأردواز وبالجبس والصوان.

وبعد قليل وصلنا قمة المرتفع، وبهبوطنا منه دخلنا حدود المنطقة البابانية، وكان المنظر رائعاً بهيجاً، وقد أخذ الطريق بالهبوط توًّا إلى وادٍ عميق ضيق لا يمكن للعين أن تدرك قعره، ثم ترتفع الأرض ثانية في الجانب المقابل إلى ارتفاع أعلى من المستوى الذي نحن فيه، تعلوه قمتان[2] تصل بينهما صهوة، الشمالية منهما على هيئة غريبة التكوين كنا شاهدناها من (سويرآوا). لقد كان منظر البلاد خلاباً فهي غنية بأشجارها ووفرة قراها الخضراء الزمردية، لقد كانت في مجموعها جميلة جذابة، وسلاسل الجبال وهيئتها تتكسر تكسراً بديعاً، وكان اللون الغالب للتربة هو الأحمر الغامق، يتخلله اللونان النحاسي والأخضر الزمردي عند جوانب التلال حيث حددتها سيول المياه وانهارت جروفها. لقد استغرق هبوطنا الساعتين ونحن نمر من بين الغابات الجميلة إلا في بعض الفترات القصيرة جدًّا. وكان النزول هدوداً، وما كان الطريق رديئاً كما يتوقعه المرء وهو في أرض جبلية كهذه، ولا ريب أنه ليس هناك من أمر يبدو أكثر وضوحاً من الفرق بين «كردستاننا» وإيران إذا ما تأمل فيهما المرء من هذه البقعة. إن ما نراه هو أن التربة ذاتها قد تغيرت في طبيعتها وفي

---

(١) والصحيح (تاريه ر) وهذا ما يعرف به اليوم ـ المترجم.

(٢) تقع هاتان القمتان في منطقة (سي وه يل).

لونها، فكل شيء كان مظهراً من مظاهر العظمة والجمال. وصلنا حضيض المهبط بعد الزوال بنصف ساعة فعبرنا جدول (به روزه) أو (بانه) حيث تتصل به جداول أخرى تنحدر من الجبال. وهذا النهر يفصل إيران عن تركيا، وهو يسيل شمالاً إلى الغرب قليلاً ويصب في آلتون صو في أعالي مياه (قالاجوالان)[1].

شعرت بغبطة قلبية لنجاتي من أرض المشاكل والشحاذين ودخولي بلاد الضيافة الحقة، وشعرت أيضاً كأنني عدت إلى داري. ارتقينا المرتفع المقابل ومضينا نسير طوار سفحه، وقد شاهدنا طبقات أحجار سمكها عقدتان أو ثلاث عقد عند الجروف التي كونتها المياه، وهي ملتوية متشابكة تشابكاً غريباً كأنها قطع من مصاغ مخرم، صيغ على الطراز القديم.

وفي الثانية إلا ربعاً وصلنا قرية (مه روي) في منطقة (آلان) وقد استقبلنا هنا الكرد الأقحاح، وهنا يجوز لي أن أتوقع الآن الاستمتاع بالراحة. وتقع القرية في موقع لطيف على جانب الجبل وعلى ارتفاع غير كثير فوق النهر، وقد شاهدنا في الجانب المقابل منه جبل (بي لوو) ممتداً شمالاً وإلى الغرب قليلاً وهو يكون هناك هوة - جرف سحيق - عظيمة من الصخر الأجرد تدعى (بري) ويشاهد المرء من فتحة أو فجوة في هذا الجرف شمال القرية منظراً صخريًّا جميلاً آخر؛ ويزداد الجبل ارتفاعاً وراء الفجوة. وترى مدينة (بي تووش) تحت الجبل باتجاه شمالي غربي وعلى مسافة ثلاث ساعات لا لبعد المسافة، بل لصعوبة الطريق، وعلى واجهة الجبل، قبالة (بي تروش) تقع منطقة بيشدر. وعلى الغرب منا سلسلة من التلال تسمى (كوور كوور) والظاهر أنها تتصل بالجبل الذي وصفته الآن، وتقع على جانبه القريب منا قرية (شينك) وهي على

---

(١) يصب ماء (قالا جوالان) في آلتون صو بالقرب من (شينك).

بعد خمس ساعات، وتقع (كلاله) بجوار (شينك) إلى اليمين أي إلى الشمال، كما تقع (مه ركه) وعلى الجانب الآخر من السلسلة يفصلها نهر عن (بيتوين)؛ وهي على مسافة عشر ساعات.

ويزرع الكثير من التبغ في جوار (مه روي)، والقرويون الآن يجففون أوراقه بنشرها على الحبال والقضبان. دخنت من التبغ على سبيل الاختبار فوجدته معتدلاً في نكهته. ويزرع الماش بكثرة في هذه النواحي، ولمزارعه الخضراء منظر جميل بين التلال. وتكثر الأدغال البرية خاصة في هذه البقاع وهي على وجه الأرض كالديباج.

١٣ ايلول:

سرنا في السابعة فأخذنا توًّا نصعد التل، نحو القمة الغريبة الشكل التي ذكرناها واسمها (كمو ـ Gmo). وتكثر الينابيع في هذه الجبال، يستغل أغلبها المزارعون، بفتحهم السواقي لمياهها حول التلال لتسيل على المنحدرات كلما اقتضى الأمر.

وفي الثامنة والربع وصلنا قرية (ديرى) الجميلة وقد اكتنفتها غابة من أبدع أشجار الحور التي شاهدتها حتى الآن، وكانت ذات أغصان مديدة، وظل وارف. وكانت الجنائن والكروم تحيط بالقرية في كل بقعة من جوانب الجبل، وقد تسلقت الكروم، في أماكن عديدة على الأشجار وتدلت منها وامتدت من الواحدة إلى الأخرى، كجدائل زهور وضفائر أغصان. وهنالك عدد وافر من الينابيع تتدفق من جوانب التلال فتسيل مياهها على جذور الأشجار بشلالات صغيرة لا حصر لها؛ وما كنا نسمع إلا خرير المياه.

ليس من السهل على المرء أن يمر ببقعة بهيجة كهذه دون أن يقف عندها ويتمتع بجلالها، لقد ترجل عمر آغا وترجلت معه تحت ظل شجرة جوز عند ساقية صغيرة، فمد القرويون أمامنا من فورهم فطوراً من العسل

في أقراصه، والزبدة الطرية، والشنين، والإجاص والعنب. بقينا هنا حتى التاسعة والدقيقة العاشرة، ثم غادرنا المكان الجميل آسفين. ووصلنا بعد نصف ساعة تقريباً وكنا لا نزال نرتقي في طريقنا، أعلى جزء من المرتفع وقد كان له مظهر مهيب، لقد كان العدد الوفير من الينابيع تتدفق من الأرض فتسيل مياه جانب منها باتجاه شمالي نحو مياه (بروزه) وتنساب مياه الجانب الآخر على بعد قليل إلى الجنوب فتصب في مياه (شينك). لم نر أشجاراً ولكن الأرض كانت خضراء نضرة لوفرة المياه، ويعرف هذا المكان بـ(هزار كانيان) أو الألف ينبوع. وهنا وصلنا إلى أعلى قسم من طريقنا ولكن على ارتفاع أعلى منا تستوي قمة (كمو ـ Gmo) وصنوها، وهما صخريتان جرداوان. سرنا مدة والقمتان تشرفان علينا؛ لا يمكن اختيار طريق أحسن من هذا الطريق يتاح لي فيه تكوين فكرة صحيحة عن سلاسل الجبال واتصالاتها. لقد كانت سلسلة (سووركيو) على موازاة مع مسيرنا وهي كما توقعت سابقاً تؤلف جبل (قزلجة) أو (تاريه ر)، وتتشعب من هذه السلسلة شعبة تنعطف مستديرة من جبل (سه رسير) ثم تؤلف الجبل الذي نسير عليه الآن أو تتصل به ويقع إلى ما وراء هذا الجبل، أو إلى جنوبه جبل (كورره كازاو) الذي يمتد باتجاه جنوبي شرقي تقريباً نحو (تاريه ر). وفي الأرض التي تتخللهما تلال متكسرة ترتفع إلى كل من السلسلتين بالتعاقب، وتقع القرى والبقاع الخضراء على مسطحات سفوح الجبل حيناً وعلى منحدراته حيناً آخر وكل ذلك يؤلف تبايناً جميل المنظر. فكلما سرنا مائة ياردة جئنا ينبوعاً بارد المياه إذا شربت منها آلمتك أسنانك. وكان للأرض لون نحاسي كبريتي، وكان الطريق مشجراً كالمعتاد وهو وإن كان رخواً صخريًا فما كان رديئاً كنيسم جبلي.

وبعد مدة قصيرة سقط نعل جوادي، ولم أستطع الاستمرار على السير على طريق حجري كهذا وأنا على حيوان ثمين كجوادي قبل إعادة

تنعيله، ولم تمض إلا برهة منذ أن أجزنا للنعال ـ البيطر ـ بالذهاب لزيارة حبيبته الساكنة في قرية مجاورة، وقد أركبناه وجهزناه تجهيزاً شيقاً لهذه الزيارة، ولكن عمر آغا حصل على أدوات التنعيل اللازمة، ونعَّل الحصان بنفسه قائلاً «إنني لا أسوم الجندي الذي لا يحسن تنعيل جواده بفلس واحد» لقد أعاقنا هذا الحادث زمناً ولم نصل قرية (كه ناروو) في منطقة (سي وه يل) قبل الساعة الثانية[1].

١٤ أيلول:

التحق من السليمانية ليلة أمس بعمر آغا الكثير من أعوانه، وقد أخبرني بأن عنده ما يتوف على أربعين خادماً وكلهم من القبليين إلا ثلاثة أو أربعة، وأضاف قائلاً: بأن ليس من صالحه أن يحتفظ بخدم من أهل المدن أو القرى ثم أردف: ـ «إنهم لا يرتبطون بك ارتباطاً قويًّا، ولا يقفون بجانبك عند الشدائد، أما القبائليون فعلى النقيض من ذلك فهم وإن لم يكونوا من قبيلتك أو عشيرتك يتعلقون بك تعلقاً شديداً، ولا يفصلهم عنك الجوع أو العطش أو الفقر أو التعب، كلا ولا الخطر». وسرني كثيراً أن أعلم من رجال عمر آغا نقاهة المرضى من جماعتي في السليمانية.

وفي السادسة والنصف امتطينا الجياد وسرنا، وكان اتجاه طريقنا جنوبيًّا فأخذنا نهبط وهداً حتى حضيض (سه رسير) ثم افترقنا عن الوهد وعبرنا امتداد السلسلة التي قطعناها أمس حيث تتصل بجبل (سه رسير) ثم انحدرنا إلى نهر (سي وه يل)[2] وهو يسيل على طوار (سه رسير) ثم

---

(١) كان جبل (سه رسير) في تمام الجنوب منا وعلى بعد ميل واحد تقريباً. وكان بطريقنا اليوم بمحاذاة سلسلة جبل (سي وه يل).

(٢) يتألف نهر (سي وه يل) من جدول (قزلجة) و(بيستان) ويجري بمحاذاة سفوح (سه رسير) الشمالية.

ينعطف شمالاً وقليلاً نحو الغرب ويتصل بنهر (قالاجوالان) عند (ماوه ت) فيتجه النهران إلى (آلتون صو). وكانت مياهه في محل عبورنا على ارتفاع مع ركاب الخيال، لبضع خطوات ثم يصبح ضحضاحاً، عرضه حوالي اثنتي عشرة، أو خمس عشرة باردة، ولكن مسيله أوسع من ذلك وكثيراً ما يصعب عبوره في الشتاء إلا بالرماث «الأكلاك».

لقد أصبحت الأرض الآن طباشيرية، وانحدرنا إلى سهل (شار بازير) وبعد مدة قليلة ميزنا أليفنا القديم جبل (غودرون) وتلال (كويزه)، وهي جرداء متناسقة ممتدة ما امتد البصر كالأسوار ذات الأبراج. لقد أصبحنا الآن في بقاع الأحجار الرملية، والتكتلات الصخرية، وقد تضاءلت الأشجار بل وانعدمت إلا في أماكن وأماكن. وفي التاسعة إلا ثلثاً هبطنا وادياً ضيقاً كونه نهر (قالاجوالان)[1] وسرنا إلى حيث مدينة (قالاجوالان)، العاصمة القديمة لهذا الجزء من كردستان. بنيت المدينة في هذا المضيق، لأنه تبدو أن الكرد يفضلون هذه المواقع المنخفضة المستورة ليشيدوا فيها مدنهم وقراهم - لم يبق من المدينة أثراً، إلا بعض الأكواخ الحقيرة للقرويين الذين يقطنون المكان - ترجلنا في (سليمان آوه) أو (سليمان آباد) وهي حديقة مندرسة كان قد غرسها (سليمان به به) جد العائلة البابانية الشهير. وهذا الوادي مشهور بفواكهه الطيبة وخاصة الأعناب والرقي منها، وتصدر منه فواكه السليمانية كلها.

---

(١) إن نهر (قالاجوالان). هو نهر (تان كووزي) - راجع حواشي الصفحة ١٦٥ بذاته الذي يتجمع باتجاه (دوله دريز) ويمر بين جبال (كورره كازاو) ويبلغ عرض مجرى (قالاجوالان) نصف الميل تقريباً غير أن مياهه في هذا الموسم منخفضة، إذ تستغل في مزارع الرقي والحقول الأخرى. وتصب فيه قبالة مدينة (قالاجوالان) مياه (جون كوره) المنحدرة من (سروجك) ويتعاظم نهر (قالاجوالان) في الشتاء والربيع وكثيراً ما يملأ مجراه بكامله. ويوجد على مسافة أخرى باتجاه مجراه جسر مشيد من أغصان الصفصاف ملقاة على أعمدة حجرية، وقد جرفته المياه في الشتاء الماضي.

١٥ ايلول:

سرنا في السادسة والدقيقة العاشرة وقد عم الجذل والفرح رجالنا لتوقعهم الوصول إلى السليمانية بعد بضع ساعات. وقد شعرت شخصيًّا بارتياح نفسي بمثل ما يتحسس به المرء عند عودته إلى بيته، والحق يقال إن اللطف وحسن الضيافة اللذين لمستهما في السليمانية هما من العوامل القوية التي تجعلني أن أعتبرها موطناً ثانياً لي. وكان طريقنا كله يرتقي بعد الوادي، أو منخفض مجرى نهر (قالاجوالان) ارتقاءً هيناً، وكان يعارضه خانق عميق حفره سيل جف الآن، وقد انهارت التربة وتقوضت الأحجار الرملية وتدهورت وتراكمت فوق بعضها أكواماً كالأنقاض متبعثرة على غير انتظام[١].

وفي السابعة والنصف وصلنا حضيض جبل (أزمر)، وبعد برهة بدأنا نرتقي ناهداً جزء منه بطريق جد معتدل متمعج على سفح الجبل دون أن يكون هدوداً، وفي الثامنة وصلنا القمة، وبعد أن سرنا جنوباً مدة خمس دقائق بمحاذاة رأس الجبل بدأنا بالهبوط. وما كان القسم الأول من الهبوط رديئاً إلا أن الطريق أخذ بعد ذلك يمر لمسافة قصيرة على حافات مهاوي الجبل وقد أمسى خطراً في مكان أهملت تسويته لنتوء صخرة عظيمة في وسطه، فاضطررنا إلى الزحف من فوقها، بعد أن ترجل كل منا وترك جواده ليشق له طريقاً، فشقت الحيوانات طريقها ببطء وتؤدة وحذر؛ ولقد مر ذلك بسلام. وفي الثامنة والنصف وصلنا أسفل المنحدر الرئيسي، وما زلنا في اتجاهنا الجنوبي ونحن ننحدر انحداراً تدريجيًّا في وادٍ ضيق تكون من الجانب الواحد من سفح الجبل ذاته ومن الجانب الآخر من هضبة متفرعة منه وعلى امتداد موازٍ له. وفي التاسعة إلا عشر دقائق مررنا من فجوة في تلك الهضبة إلى وهد السليمانية وقد ألفناه في

---

(١) وقد شاهدت الطباشير، خلال رحلة اليوم.

التاسعة وقد أصبح اتجاه المدينة جنوبيًّا غربيًّا بعشرين درجة. وفي العاشرة وصلنا خيامنا في حديقة الباشا في (جوارباغ)[1].

وهكذا أتممت السياحة، وما كانت سارة لمرض أعواني، فإنها ولله الحمد كانت أقل عناء مما كان متوقعاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار الحمى التي تعرضنا لها، وضعف بنية البغداديين على تحمل المشاق وتهيبهم، وهم يؤلفون معظم رجال حاشيتي المسؤولين عن إدارتي. وكانت السياحة ذات فوائد جمة، لقد زرت أهم جزء من كردستان وأعجبه، وما أندر الأماكن المعروفة فيها قبل زيارتي لها، تلك الأماكن التي لا يحتمل أن يزورها سائح آخر في القريب العاجل. إن الطرق التي اتبعتها بحكم الصدف على الأغلب، أو نتيجة لقرارات كانت بنت ساعتها كانت لحسن الحظ أحسن الطرق التي مكنتني من الحصول على فكرة عامة عن البلاد وهي الطرق ذاتها التي كنت أحاول مسحها، لو كان لي العلم الكافي بتعميم الخطة العامة لإنجازه.

---

(١) وقد أصبحت محلة من محلات مدينة السليمانية الحالية ـ المترجم.

الفصل العاشر

فشل التطعيم ضد الجدري - وفاة ابن عثمان بك - حزن الباشا - المواقع الأثرية في شهرزور - الإسكندر الكبير والأميرة الهندية - أسماء المناطق - عمر آغا - اضطهاده وحبسه - تعلق أتباعه به - نزاهته - كراهيته لعثمان بك - رحمة الله التاتار - رحلته في الجبال المنيعة المنقطعة التي تسكنها عشائر الكلدانيين المسيحيين - العمادية - نصيحة الباشا إلى التاتار - مصاعبه ومخاطره - المضارب الكلدانية - خبز الرز - دهشة الكلدانيين لرؤيتهم رحمة الله بينهم - اليزيديون - مدينة وان - أسماء القبائل الكردية - حفلة عرس - السيدات يرقصن - مقام المرأة الكردية - لباس الرجال - قصة داره شمانه - شيخ باباني جليل

* * *

٢٣ أيلول:

عند وصولي إلى السليمانية أصبت بخيبة أمل مريرة لعلمي بفشل خطة قرينتي في التطعيم ضد الجدري، لجهل الرجل الذي تعهد بتنفيذها وعجرفته. ويبدو أن اللقاح كان فاسداً، والطفح ناقصاً. لقد أصيب به كل

من لقح من الأطفال عدا واحداً أو اثنين منهم. وكان نجل عثمان بك الثاني، وهو طفل جميل يبلغ من العمر سنة ونصف سنة، ضمن من أصيبوا، وتوفي أمس.

ذهبت صباح اليوم لتعزية الباشا وعثمان بك، فوجدت الباشا بالغ التأثر، إذ كان يحبس دموعه بصعوبة، وقد أجابني على تعزيتي بصوت خافت متهدج وردد ذكر ابن أخيه الصغير مرة أو مرتين بعبارات ملؤها الحسرة والحنان. وانتقلنا رويداً رويداً إلى بحوث أخرى وعدنا إلى موضوعنا القديم المتعلق بعاديات هذه البلاد. إن تحرياتي عن موقع مدينة (شهرزور) دفع الكثير من الكرد إلى التفكير في الأمر. وأفاد الباشا اليوم بأنه يعتقد شخصيًّا بأن المدينة القديمة تقع عند (قيز قلعه سي ـ حصن الفتاة) بالقرب من (بستان سوور) في منطقة شهرزور. ولا يزال هناك خرائب كثيرة، أو بالأحرى أنقاض خرائب عند (قيز قلعه سي) الواقعة على بعد ساعتين من (آربه د) وخمس ساعات من السليمانية، وأن الأهليين لا يزالون يجلبون النورة من تلك الأنقاض. ويدّعي الأهلون بأن (قيز قلعه سي) قد بناها الإسكندر الكبير لأميرة هندية جاء بها من الهند عند رجوعه من حملته عليها، وعلى إثر إصابتها بمرض نصح لها أطباؤها بأن تقطن في مكان مناخه يضاهي مناخ بلادها، فوقع الاختيار على سهل شهرزور لهذا الغرض. و(ياسين ته به) و(كه وره قالا ـ القلعة الكبيرة) خربتان أخريتان في تلك المنطقة، ومحل آخر اسمه (دزكه ره). وخلاصة القول إن منطقة (شهرزور)، أو في الحقيقة هذا الجزء من كردستان كله، زاخر ببقايا الآثار القديمة، وإن كان لا يمكن اعتبار أي واحدة منها خرائب بحد ذاتها.

وعلى بعد ساعة ونصف ساعة من السليمانية، وتحت خط التلال المقابلة يقع (هه زارميرد) وهو موقع تذكر عنه الأساطير، إن عبدة النار أو المجوس، كما ينعتهم الكرد، دافعوا عنه دفاعاً مديداً إزاء الغزاة الأول

من الإسلام، وكان مسرحاً لاصطدام عنيف. ويقال إنه يمكن مشاهدة بقايا التحصينات على محاذاة قمم هذه التلال، بين مسافة وأخرى.

أنوي زيارة (شهرزور) حالما يعتدل الطقس. لقد بدا لي اليوم برهان قاطع على صعوبة الحصول على المعلومات الصحيحة من الشرقيين، حتى من المتصفين بالذكاء المفرط وبالصدق منهم، وكان عندي دليل آخر عن كيفية وقوع السواح في أفظع الأخطاء وأشنعها على غير قصد منهم. فقد أخبرني الباشا نفسه مرة أخباراً لا يقبل الشك بأن اسم قبيلته هو (كرمانج)، أما الآن فقد قال إن الأمر ليس كذلك، بل إن (كرمانج) هو الاسم الذي يطلق على جميع الكرد البابنيين أما قبيلته بالذات فهي القبيلة البابانية، ولم يستطع هو أو غيره من الحاضرين إخباري عن معنى (كرمانج)، ومن أين اشتقت هذه الكلمة. وقد قال أحد السادة من الرجال الحاضرين ـ وأعتقد أنه كان من العائلة ذاتها ـ بأن العائلة البابانية هي فرع من قبيلة (سه ككير) وأن قبيلتي (شينكي) و(كه لالي) تمتان إليهم بصلة القربى، وأن العائلة البابانية قد برزت وذاع صيتها منذ أن انقرض بيت (سوران) القديم، ولم يكن ذلك قبل مائتين من السنين كما ذكرت من قبل. لقد انحدرت العائلة البابانية أولاً من جبل (بيشدر) واستولت على (مه ركه) و(ماوه ت) و(قيزلجة) من الإيرانيين، و(زه نكه نه) من بيت من البيوتات، ولا يزال يسكن قسم من هذه العائلة (كرمنشاه) وهي وإن تتكلم الكردية فلا تعتبر من الكرد الأقحاح ويحتمل أنها كانت من القرويين أو الفلاحين.

وبعد أن فارقت الباشا، ذهبت لمقابلة عثمان بك، وقد أجابني على تعزيتي له بموت ولده بالجمل القصيرة المعتادة «هذا أمر الله، ولا مرد لأمره، أطال الله في عمر الباشا وفي عمرك» وبعد برهة قصيرة بدأ يتحدث ويضحك كعادته، ثم فحص بعض الجياد، وجيء له ببعض أحجار الرخام ليختار منها قطعاً يزين بها جوسقه الجديد وجلب انتباهي إلى أنها أحجار من (قه ره داغ).

يشكو أهل السليمانية كلهم من هبوب الريح الشرقية هبوباً غير اعتيادي في هذه السنة مما جعل الموسم شديد الحرارة شدة لا تطاق وباعثاً على الخمول، ولم ينجوا منه ثلاثة أيام متواليات منذ بداية الصيف وإننا منذ رجوعنا من الجبال ونحن نتلظى بحرارته وببواعث كسله، على الرغم من أن حرارته غير الاعتيادية قد خفت بعض الشيء. وفي خلال هذه الأيام القلائل راقبت طبيعة هذه الريح العنود، فوجدتها تهب هبوباً عاصفاً على شكل تيار مستقيم فوق المدينة، في الوقت الذي لا يهب عند خيامنا التي لا تبعد إلا بضع مئات من الياردات إلا نسيماً خفيفاً، ولم أجد هذا وحده، بل وجدت أنها تهب حول خيمتي، والخيمة ساكنة سكوناً تامًّا لا حراك فيها. وقبل بضع ليالٍ، بينما كانت هذه الريح الشرقية تهب بشدتها عندنا، تمكن ميناس آغا من قطع السهل والذهاب إلى الجبال المقابلة لنا. وفي اللحظة التي عبر بها نهر (تانجرو)، لم يجد لهذه الريح أثراً ولكنها داهمته في المكان ذاته عند عودته.

٢٨ أيلول:

حصلت من عمر آغا على القائمة التالية في مناطق هذا الجزء من كردستان كلها، ابتداء من حدود بغداد[1].

---

(١) (داووده)، تبتديء على مسافة أربع ساعات من كفري. و(ده لو) و(زه نكه نه) و(كوم) و(زه ن) أو (زه ند) وسميت هكذا على اسم قاطنيها، و(شيخان) ونوره) و(جه م جه مال) و(جياسه وز) أي الجبل الأخضر و(كيوه جماله) و(شروان) و(جوبوق قلعه) و(عسكر) و(قالاسيوكه) و(كيردخه به ر) و(بازيان). وهنا تنتهي الحدود الخارجية للسليمانية.

والآن لنرجع إلى (قه ره داغ) التي تحدها (ده لو) و(زه نكه نه) من الغرب والشمال أما من الجنوب فتمتد إلى ديالى. ويعود مضيق (باني خيلان) الواقع على ديالى إلى (قه ره داغ). و(قه ره داغ) إيالة كبيرة تنقسم إلى مناطق عديدة، وتسمى المنطقة التي =

٢٩ أيلول:

أخبرني صديقي الحميم عمر بك في سياق كلامه عن تاريخ حياته وما لحقه أخيراً من الاضطهاد فقال بأن أربعة أو خمسة من أخص رجاله كانوا قد سجنوا معه، وكان السجن رطباً خالياً من وسائل التدفئة، وموسم الشتاء في عنفوانه. وكانوا يأخذون في كل يوم واحداً أو اثنين من رجاله إلى خارج السجن حيث يجلدون جلداً مبرحاً لإكراههم على القول والإرشاد على مخبأ دراهم سيدهم وأمواله وربما كان يجلد الواحد منهم مرتين في اليوم، وبالرغم من ذلك لم يبد الضجر على أحدهم أو اعترف. واجتمع رجاله في أحد الأيام وتوصلوا إلى إخبار سيدهم بأنهم دبروا خطة لاقتحام السجن في تلك الليلة وذبح الحراس والفرار بسيدهم إلى كركوك، ولكنه منعهم منعاً باتًّا عن هذه المحاولة، وكاد رجاله يموتون جوعاً خلال مدة سجنه إلا أنه لم يظهر أي منهم رغبته في تغيير ما هو عليه

= يقع فيها (باني خيلان) ديزيائيش (Dizziaieesh) وتقع فيها (كه وره قالا) أيضاً. (وارماوا) و(سه رجنار) وتقع السليمانية فيها. و(سورداش) ويقع جبل (غودرون) فيها، و(مه ركه) و(بيشدر) ومن بين (مه ركه) و(بيشدر) يمر نهر آلتون كوبري الذي ينبع من (لاجان) إلى مسافة خمس أو ست ساعات غربي (صاووق بولاق). صابلاخ - و(كه لا له) و(شينيك)(*) و(ماوه ت) و(آلان). و(سي وه يل) و(سه رآوميراوه) التي تحدها (ماوه ت) و(سي وه يل) و(آلان). و(بالوخ كابيرون)(**) و(شاربازير) و(به ركه ئوو) + و(سه روجك) و(كل عنبر) و(حلبجة)، التي تحدها (كل عنبر) و(جوانرو) و(وارماوه) و(زهاو). (شه ميران) وهي منطقة جبلية صحراوية تقع على الضفة الأخرى من ديالى. (جه وتان) وتكتب (جفتان) وهي تحادد (قزلجة). و(قزلجة) و(نه رراتوول) ++، و(قه ره حسن) وهي منطقة تلحق أحياناً ببغداد وأحياناً بكردستان وتحدها (كركوك). و(ليلان) و(جه م جه مال) و(شوروآن).

والصحيح - * شينكايه تي **بالخ وكابيلون. + به ركه لوو. ++ ته ره تولوو - المترجم.

من الحال أو ترجيح خدمة أخرى على خدمته. إن أكثر رجال عمر آغا بالإضافة إلى أنهم قبليين، فإنهم سليلو أناس كانوا في خدمة والده، فوالده الفقيه قادر وسكرتيره وزوجته وأخواته وإخوانه الصغار كلهم يعيشون في حرم عمر بك، ويعتبرون جزءاً من العائلة ذاتها، ويشاركه رجاله كلهم السراء والضراء، ويفعلون ما يفعل ويجوعون أو يلبسون الأسمال البالية عندما يجور عليه الزمن، ويكسبون المال عندما يعود إلى منصبه، كل ذلك دون تضجر، أو تأفف، بل إنهم يتلقون كل هذه كأمور اعتيادية لا مفر منها. وعمر آغا نفسه لا يعدو عن كونه مثلاً لهذه الأخلاق وهذا الوداد. فالباشا وإن كان في الحقيقة يوده ودًّا أكيداً إلاّ أنه غلب على أمره بتحريض من عثمان بك الذي يكره عمر آغا فعامله معاملة قاسية جدًّا. ولاقتناع عمر آغا بأن الباشا يوده وللاحترام العظيم الذي يكنه لعبد الرحمن والد الباشا فإنه لم يفكر مطلقاً في التخلي عنه، كما لم يبد تذمره منه إلا عند التحدث إلى من يعتمد عليه من الأصدقاء. وفي هذه الحالة لم يكن كلامه لينم عن تذمر أو تبرم بل إنه صوت توجع أليم ليس إلا. وعندما رثيت لضعف الباشا، أجابني عمر آغا من فوره وبصدق واضح قائلاً: «أؤكد لك يا سيدي بأنه ليس كذلك إنما هذا شأنه إزائي فقط» وما كان قوله هذا تصنعاً بل كان منبعثاً من الصميم، وقد قاله حذراً من أن أجور فأظن في سيده. لقد انحط مستوى عمر آغا المالي لدرجة الفقر المدقع لسوء المعاملة التي يلقاها من جراء عداء عثمان بك له، كما سبق أن ذكرت، وهو لا يخفي سخطه عليه، ومع هذا فهو لا يتشكى بل يبذل أعظم الجهد لكي لا يشعر بضيق ذات يده وحاجته. وبالرغم من مصاحبتي له منذ بضعة أشهر، لم يظهر مثقال ذرة من التلميح أو الرغبة في الحصول على شيء مني، ولو كان أغنى الأتراك في مكانه لما تردد في الاستجداء مني بصراحة خلال نصف تلك المدة. وعندما أوفدت قبل بضعة أيام تاتارا إلى استانبول تلك العاصمة التي أصبحت الآن تحوي كل

ما يحتاجه المرء من المواد الكمالية والضرورية التي قد تغري أي شرقي، وسألت عمر آغا عما يرغب في جلبه له منها، فأجابني لا يتذكر احتياجه إلى أي شيء، وغيَّر مجرى الحديث فوراً. وكان (المصرف) بين الحاضرين فطلب مني أن أجلب له قطعة كهرمان لمبسم غليونه. وعمر آغا لا يتودد إلى عثمان بك، القادر على تحطيمه إذا أراد. وهو يظهر في حضرته أنوفاً على الدوام كأنه لا يخافه ولا يخشاه. ولما سألته لماذا لا يتقرب إلى البك أو يذهب إليه إلا معي أجابني «لأنه أساء معاملتي وإني لا أوده» وصفوة القول إن عمر آغا هو الشرقي الوحيد الذي عرفته حتى الآن خلال اختباراتي الطويلة للعرب والأتراك والإيرانيين، الذي أستطيع أن ألقبه بالفتى «جنتلمن» بكل ما في تلك الكلمة من معنى.

٣٠ أيلول:

وصلتني هذه الساعة رزمة أخرى من (بومباي) يجب إرسالها إلى استانبول. وكان رحمة الله آغا هو التاتار - الساعي - الذي أتاني بها من بغداد وهو الشخص الذي حاول خلال ثورة سعيد الباشا الذهاب إلى استانبول بطريق (العمادية) و(وان). وقد بحثت معه بحثاً طويلاً في هذا الطريق، وهو طريق غريب جدًّا، لم يحاول أي تركي آخر سلوكه[١].

(١) للوصول إلى آسيا الصغرى بهذا الطريق، على المرء أن يمر في البلاد المنيعة المنقطعة التي تقطنها العشائر الكلدانية المسيحية وهم، على ما أعتقد، المسيحيون الوحيدون في الشرق الذين حافظوا على استقلالهم إزاء المسلمين، وقد استعدوا لهم استعداداً قويًّا. وننقل أدناه عن هؤلاء القوم الغريبي الأطوار، ملاحظات وردت في مذكرات المستر ريج «إن أوحش عشائر (جوله مه رك) أو (حه كاري) المنقطعين هم العشائر الكلدانية، وهي أربع وهم لا يعبأون بأمير (حه كاري) ويعيشون عيشة وحشية تامة. فهم يدينون بالديانة المسيحية ومن أتباع نسطوروس ورجالهم مشهورون بقوتهم وضخامة قاماتهم وشجاعتهم، ويقال إن المرور ببلادهم أكثر =

وتنفيذاً لتوصية حاكم أربيل استصحب معه من (عين كاوه)[1] مترجماً كلدانيًا ليعاونه وهو بين عشائر (جوله مه رك) الكلدانية. وذهب من أربيل إلى عقرة أو (ناأوكور ـ Naoukor) وهي على مسيرة يومين باعتبار مسير اليوم الواحد اثنتي عشرة ساعة، وكان الطريق مستوياً بعض الاستواء حتى بدأ التاتار يرتقي الجبل إلى قلعة عقرة، ومن هناك تبعد العمادية مسيرة يومين، يقطعها الراجل في اثنتي عشرة ساعة يوميًا، والطريق جبلي وعر جدًّا. وقد بذل زبير باشا حاكم العمادية الجهد لإقناعه بالعدول عن السفر إذ إنه محفوف بالمخاطر إن لم يكن مستحيلاً ولكن التاتار أصرَّ على رأيه، فأسدى له الباشا عندئذٍ بعض النصائح منها أن يدفع ثمن كل ما يأخذه منهم، وأن لا يبخس قيمة أي طعام يقدم إليه، بل عليه أن يظهر الرضى عنه ويمدحه إذ إن الناس الذين يقطنون البلاد التي سيمر منها وخاصة المسيحيين منهم من أشرس الناس وأكثرهم حقداً، ومن المتقلبين في أهوائهم وأطوارهم وهم سريعو الصراخ والانفعال، وإن أقل تعريض بهم قد يؤدي إلى هلاكه. ثم أعطاه بعض

= خطراً من المرور بين العشائر المسلمة. وهم يسكنون الأصقاع بين (العمادية) و(جول مه رك) وليس فيها إلا عشيرة مسلمة واحدة، ويؤدون أحياناً بعض ضرائب إلى أمير (حه كاري) إذا استرضاهم أو استعطفهم، أما كرهاً فلا. وتمتد منطقة (حه كاري) إلى مسيرة ساعتين من (أورمية) تقريباً ويدفع مصطفى خان الأمير الحالي «بيشكه ش» أو هدية إلى عباس ميرزا حاكم تبريز.

ويقول (كيبون) في معرض كلامه عن هؤلاء القوم المتوحشين إن (الكاليبيين ـ Chalybeans) قد أخذوا اسمهم وخلقهم من طبيعة التربة الحديدية، فهم منذ عهد (سيروز) كانوا مصدر سلسلة لا تنقطع من الحروب والتدمير وإن جاء اسمهم تحت أسماء مختلفة كالكلدانيين (Chaldeans) والزانيين (Zanians) وفي عهد جستنيان (Justinian) آمنوا بالإله واعترفوا بإمبراطور الرومان» ـ راجع الصفحة ١٣٤ من المجلد السابع من «انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقطوها». لندن ١٨٠٢.

(١) قرية بالقرب من أربيل يقطنها المسيحيون وحدهم.



اللوح الرقم (٤)
زوجان نسطوريان من (حه كارى)
من عشيرة (جه لو)

الرسائل وأرفق معه شخصين أو ثلاثة من المطَّلعين على المنطقة. ولكن سفرته كانت سلسلة مصاعب مستمرة، فقد سلبوه ماله وسلاحه ومع ذلك فإنهم منوا عليه بقولهم إنه إنما نجا من أي اعتداء آخر بفضل توصية زبير باشا به. وقد استغرق طريقه من العمادية إلى (وان) ثلاثة عشر يوماً بما في ذلك تأخره أربعاً وعشرين ساعة في (جوله مه رك)[1]. إن منطقة (حه كاري) من المناطق الجبلية المنيعة جدًّا وتمتد مناعتها طيلة الطريق حتى (وان) وهي في أغلب أقسامها مكسوة بالأشجار أو الغابات الكثيفة. وسكانها أوحش من الكرد والعرب الذين شاهدهم التاتار، والجبال فيها شامخة شموخاً متناهياً لدرجة أنك بعد أن تتسلقها أحياناً وأنت تبارح القرية، تسلقاً ملتوياً بطيئاً مدة أربع أو خمس ساعات ترى القرية ثانية وكأنها لا تزال تحت قدميك. أما المراحل اليومية فطويلة جدًّا تبدأ في شهر تشرين الأول قبل شروق الشمس وتنتهي بعد غروبها. وبعد مسير خمسين ساعة من العمادية أدرك التاتار قرية مبعثرة يمتد طولها مسيرة ساعة تقريباً. وكانت هذه مضرب عشيرة من العشائر المسيحية،

---

(١) (جوله مه رك) عاصمة منطقة (حه كاري) الكردية، وتقع فيها أيضاً قوج هاننه س ـ Kotch Hannes مقر البطريرك الكلداني، وهو يقود دوماً فرقة من الجيش في أي حرب تنشب بين أمير (حه كاري) وإيران، التي تقع عاصمته على حدودها بين (جوله مه رك) و(سالماست)، وهو مشهور ببراعته في استعمال البندقية والسيف، كما يجيدها أكثر السراق المدربين من أتباعه. وعنوانه بالكلدانية «قاثوليقا» أي الجاثليق، وهو يقيم في صومعة كبيرة. ويقال إن هناك بالقرب من (جوله مه رك) منجم حديد ومنجم رصاص، وهما ملك أمير (حه كاري) عدا يوم واحد من السنة هو يوم عيد القديس جرجيس حيث يحق لصومعة نسطورية مكرسة لذلك القديس، أن تستخرج من المنجمين ما تستطيع استخراجه من المعدن طيلة النهار. وهذا الدير يقع بين عشيرة النسطوريين المسماة (جوالاخ) وهي على بعد ثلاثة أيام من (جوله مه رك)، وهم يعتقدون أن في يوم عيد القديس تزداد بركة المنجمين بالمعادن أكثر من الأيام الأخر ـ من مذكرات المستر ريج ـ الناشرة.

وأكواخها مشيَّدة من قرم الأشجار، وكان سكانها أوحش الناس الذين رآهم في بلاد المتوحشين هذه. وهؤلاء الكلدانيون على حالتهم هذه يلبسون البرانيط المصنوعة من قش الرز وهي تشبه البرانيط الأوروبية. وهم لا يعرفون الحنطة أو الشعير، ولا يزرعون إلا الرز الذي يصنعون خبزهم منه. وهم يمتازون على غيرهم من الناس بطول قاماتهم وبقوتهم. ولم يستطيعوا إكرام التاتار بغير الجوز والعسل وخبز الرز، وقد استوفوا عن هذا الطعام ثمناً غالياً، وقد أطرى التاتار على هذا القوت إطراءً حارًا نزولاً عند الوصايا التي تلقاها في العمادية، وإن كان التراب والتبن والرماد يساوي مقدار كمية الرز في ذلك المزيج الرديء الذي سموه خبزاً. وهم لا يتكلمون الكردية عدا اثنين أو ثلاثة منهم، أما لغتهم فلم تكن مفهومة تقريباً لدى المترجم العينكاوي. ولقد أظهروا الإعجاب الشديد بهيئة التاتار الذي لم ير من الفطنة، أو حس العاقبة أن يبدي نفس الإعجاب بهم. وقد سألوه ما عساه أن يكون من الرجال؟، فأجابهم بأنه عثماني، ولكنهم لم يفهموا معنى ذلك، وكان من المشين له، وإن لم يجرؤ على إظهار اشمئزازه، لما أفادوا بأنهم لا يعرفون السلطان ولا يعبأون به على أنهم فهموا أنه مسلم فقالوا له حينذاك إنهم أقاموا في مكانهم هذا قبل ظهور نبيه (محمد) بكثير، ومع هذا فإنهم لم يسلبوه، وقد غادرهم وهم معه على أتم ما يكون من الوئام. وقد أخبروه بأنهم لم يسبق لهم أن رأوا خيالاً يمر من جبالهم. وقد شاهد أيضاً الكثير من اليزيديين عبدة الشيطان، ولم ير أمير (حه كاري) الذي ليس له على ما يظهر إلا القليل من السيطرة على رعاياه، وذلك لأنهم كلهم من أبناء القبائل. ولم يكن في (العمادية) و(حه كاري) صنف من الناس يصح القول عنهم بأنهم قرويون أو صنف آخر يقال عنهم فلاحون. وهذا دليل، على ما أعتقد، بأن هذه المناطق هي الموطن الأصلي للكرد والكلدانيين، في حين أن وجود عنصر (التاجيك) أو (التات) في أنحاء كردستان السفلى

كافة يدلنا على أن هذه المناطق إنما هي بلاد دخلها الفاتحون. وفي الأخير وصل التاتار إلى (وان)، ولا ريب أن فرحه بوصوله، لم يكن قليلاً. وقال رحمة الله إن (وان) وإن كانت إمارة كردية ولكنها متمدنة، وقد قال له أميرها درويش باشا بأنه لم يسبق له أن عرف غريباً انحدر من هذه الجبال.

١ تشرين الأول:

هطلت الأمطار مدراراً صباح اليوم لمدة ساعة تقريباً، وكان هطولها سابقاً لأوانه ويعتقد أنها ستضر مشاتل الرز، وهو على وشك النضوج.

وفيما يلي، على ما أعتقد بيان واف عن العشائر أو القبائل القاطنة في ذلك الجزء من كردستان الذي تحكمه حكومة باشا السليمانية.

أولاً: القبائل المتوطنة، والساكنة في مناطق خاصة.

أ ـ في منطقة بيشدر:

عشيرة سه ككير، ونور الديني، وعدد قرى هاتين العشيرتين يقارب المائة قرية، وهم قادرون على حشد ألف حامل بندقية تقريباً.

ب ـ في المناطق المسماة بأسماء عشائرها:

شينكي ٢٠٠ عائلة
كه لا لي ١٥٠ عائلة
} والعشيرتان قبيلتان صرفاً.

ج ـ سي وه يل. إن المنشأ الأصلي لهذه العشيرة مشكوك فيه، ومهما كان الأمر فإنها الآن عشيرة. وأفرادها لا يختلطون بالقرويين.

أما المناطق الأخرى فسكانها خليط منهم القروي، ومنهم القبلي، أي ليست هناك قرية مسكونة من طبقة واحدة من هاتين الطبقتين.

ثانياً: القبائل أو العشائر الرحالة أو التي تسكن المضارب.

أ ـ **الجاف**: هناك اثني عشر فخذاً لقبيلة الجاف. ولا يوجد أكثر من ستمائة عائلة من الجاف الأقحاح ولكن يوجد تحت حماية الجاف الفلول الكثيرة من جميع عشائر لورستان، وكوردستان الإيرانية، وبذلك تصبح قوة القبيلة بمجموعها بضعة آلاف من العوائل، ويمكن للقبيلة أن تجند ألفاً من حملة البندقيات وثلاثمائة خيال للدفاع عن نفسها، ولكن عند التجمع لمصلحة الباشا لا يمكن إقناع القبيلة على حشد هذا العدد. والقبيلة بكاملها تدفع للحكومة جزية سنوية مقدارها ثلاثون كيساً وقد تقل عن ذلك أحياناً. (وكان الكيس ٥٠٠ قطعة من النقود المتعامل بها، فضة كانت أو ذهباً. راجع الملحوظة (١٨).

أما القبائل الأخرى فتدفع نسبيًا جزية أكبر من هذه بكثير لأنها لم تكن قوية قوة الجاف أو محمية حماية كالجاف.

عشيرة شيخ إسماعيلي ٥٠٠ عائلة.

عشيرة كه لهور ٢٠٠ عائلة.

عشيرة مه نديمي ٣٠٠ عائلة.

عشيرة كه لو ـ كه واني ٢٥٠ عائلة ليست من عشائر الجاف.

عشيرة مه رزينك ٨٠ أو ٩٠ عائلة (هذه العشيرة كانت جزءاً من البلباسيين).

عشيرة تي له كو ١٠٠ عائلة.

عشيرة كووسا ٦٠ عائلة (وصحيحها كوستا).

عشيرة هه ما داوه ند ٢٠٠ عائلة (وهي: هه ماوه ند).

عشيرة سوفيا وه ند ٤٠ أو ٥٠ عائلة وهؤلاء قسم من عنصر عشيرة (له ك).

عشيرة كه جه لي ٤٠ عائلة (وهي قرية أيضاً، يسكنها قسم من عشيرة شيخ إسماعيلي).

عشيرة جكني ٤٠ عائلة.

عشيرة زه نكه نه ٤٠٠ عائلة مشتتة في القرى.

عشيرة زه ند ٦٠ عائلة (عشيرة كريم خان، شاه إيران الذي خلعه القاجاريون - عشيرة الشاه الحالي - عن العرش). وعندما جاؤوا إلى هذه البلاد كانوا رحلاً ثم سكنوا القرى والكثير منهم يقطن الآن في (زه نكه باد) كما انخرط الكثير منهم في جيش باشا بغداد.

عشيرة كروه ئي ٦٠ عائلة (وهم الكرويون، أصلهم عرب، وكان هؤلاء يقطنون (قه ره ته به)).

عشيرة لور ٦٠ عائلة (وهؤلاء من الفه وليين).

عشيرة سه ده ني ١٠٠ عائلة (والصحيح صه داني).

عشيرة كوورزه ئي ١٠٠ عائلة (أصلها من كوى سنجاق، وهنالك قرية بهذا الاسم أيضاً).

ولا تعتمد أية عشيرة من هذه العشائر على الجاف، وإن كان الكثير من عوائلهم تحت حماية الجاف، ولم تُذكر عدد أفراد تلك العوائل في هذه القائمة. ولما كانت قبيلة الجاف قوية ومحمية حماية جيدة، يلتحق يوميًّا بها عدد من رجال العشائر الأخرى المضطهدين.

وليس من بين العشائر المذكورة أعلاه عشيرة كاملة، بل هي فلول فقط لعشائر لها أقسامها الأخرى في مناطق (سنه) أو (كرمنشاه) أو (لورستان).



حفلة عرس
السيدات الكرديات يرقصن

٢ تشرين الأول:

على أثر سماعي بحفلة عرس تقام في دار ضواحي المدينة، عزمت على أن أكون أحد المتفرجين فيها، وتحاشياً من جلب الأنظار وضعنا أنا والمستر (به ل) عمامتين من الشال على رأسينا، إخفاءً لملابسنا وارتدينا عباءتين سوداوين فوقها وذهبنا بعد هذا التنكر ليلاً لمشاهدة الحفلة. وبعد مسير طويل وصلنا محل الحفلة وهو دار اعتيادية، فاندمجنا بين جموع المتفرجين الكثيرين فوق سطح الدار وهو لا يعلو عن الأرض أكثر من ست أقدام. وكان فناء الدار وهي مسرح «العرس» تضم حشداً من الكرد من مختلف الطبقات والأعمار، من فتى يلبس عمامة ذات عذبات ملونة إلى وحشي مخيف في فروة من جلد الماعز وكان الكثير منهم يتماسك بالأيدي في رقصة تسمى الدبكة «جوبي» على دائرة غير متصلة المحيط وقد أشغلت ساحة الدار بكاملها تقريباً. والرقص عبارة عن هز الأبدان إلى الأمام والخلف، والمراوحة أولاً بقدم واحدة ثم بالأخرى، وضرب الأرض أحياناً بالأقدام ضرباً قويًا. وقد ذكرني هذا الرقص بالأغنية الإيرلندية Rising on Gad, and Sinking on Sugan أي أنهم يعلون مرة ويهبطون أخرى.

وكانت أفراح قلوبهم تعبر عن نفسها بين الفينة والأخرى بصيحات صاخبة، أما الذين لم يرقصوا فقد ملأوا ما بقي من الساحة واحتشدوا فوق السطوح التي تحيط بفناء الدار من جهاته الأربع. وجلس عدد آخر القرفصاء في وسط دائرة الرقص ومن بينهم الزمار والطبال. وكان المحل مضاءً بثلاثة مشاعل ولكن الجموع لم تكن لتهتم بسحب الدخان والشرر المنبعثة من لهيب المشاعل. وكان الراقصون يرقصون منذ أكثر من ساعة قبل وصولنا إليهم. وبعد أن تمتعوا برقصهم مدة نصف ساعة أخرى توقفت الموسيقى وانصرف الراقصون ليفسحوا المجال لغيرهم، وذلك بهجوم، من صاحب الدار وبعض أصحابه وهم مسلحون، بالعصي

عليهم. وعلى أثر انفضاض الجماعة الأولى بهذه الطريقة وفراغ الدائرة منهم قفز إلى وسط الساحة كردي ضخم أخذ يضحك الناس لبضع دقائق بقفزاته المتنوعة وبعض ألعابه التي مارسها مستعيناً بمقمعة كبيرة كان يحملها. ثم بدأت الموسيقى تعزف ثانية لحن الدبكة (الجوبي) فتقدم رتل من ثلاثين امرأة تقريباً متماسكات الأيدي بخطى وئيدة رشيقة وهن على أتم ما يكون من التزين بالزراكش الذهبية وأثواب الحرير الملونة، دون أي حجاب. لقد كان منظراً بديعاً حقًّا، بل كان أمراً جديداً بالنسبة لي، إذ لم أر حتى الآن النساء في الشرق ـ وخاصة السيدات منهن ـ مختلطات بالرجال بمثل هذه الحرية دون الالتجاء إلى التحجب؛ بل إن نساء العشائر العربية أكثر تحجباً بالنسبة إليهن.

تحرك صنف السيدات هذا ببطء وتموج حول الساحة، وهن في رقصهن يتقدمن حيناً خطوة نحو مركز دائرة الرقص ويتراجعن حيناً آخر، ويهززن قاماتهن ورؤوسهن هزًّا متزناً، ظريفاً كل الظرف. لقد كانت النغمات هادئة متئدة، أما السيدات فلم يقمن بأية حركة نابية في رقصهن، ولم يبالغن فيه. لقد انشرح صدري لهذا المنظر الذي دام قرابة نصف ساعة. ثم انقطعت الموسيقى فانسحبت السيدات إلى بيوتهن، بعد أن تحجبن من القمة إلى الأخمص، وهذا أمر يعتبر في الواقع تدبيراً لا محل له، إذ من شاهد الرقص من الرجال كان أكثر عدداً ممن يحتمل أن يقابلنه في شوارع السليمانية، وأغلبهن كن جميلات فاتنات.

قد يكون من العبث أن نقول بعد وصفنا هذا المشهد بأن النساء الكرديات في بيوتهن أقل تحجباً من النساء التركيات بل والعربيات. ويسمح للرجال من الخدم بالدخول إلى بيوتهن، وهن لسن متحفظات كثيراً في التحجب حتى أمام الغرباء، وعندما يخرجن إلى المدينة يرتدين إزاراً أزرق محققاً كالذي تلبسه نساء بغداد، ونقاباً أسود من شعر الخيل، ومن النادر أن يرخينه فوق وجوههن إلا إذا كن من سيدات الطبقة العليا

وصادفن أناساً لا يرغبن في أن يعرفوهن. إن رئيس خدم ـ حرم آغاسي ـ حرم الباشا الذي يجب أن يكون نزولاً عند العادات الشرقية من الطواشي، وعدد آخر من خدم الحرم، كانوا كرداً أقوياء ملتحين. لم تحاول مطلقاً سيدات كيخسرو بك التحجب حتى أمام جماعتنا، وعندما ذهبت قرينتي لرد الزيارة في خيامهن، وجدت رجالاً بعدد النساء، أما نساء الطبقات الفقيرة، حتى في السليمانية فيتجولن في المدينة سافرات. وقد يشاهدن باكراً، في أيام الصيف وهن في الفراش مع أزواجهن أو عند تركهن مضاجعهن نحو أعمالهن، فوق سطوح الدور المنبسطة المشرفة على الأزقة الضيقة التي لا تعلو عن الأرض أكثر من خمس أو ست أقدام، وعلى الرغم من هذه الحرية وما يبدو عليهن من مظاهر عدم الاكتراث فليس هنالك نساء يسلكن سلوك الحشمة والأدب أكثر من السيدات الكرديات، وهن يفقن بفضائلهن النساء التركيات تفوقاً بعيداً.

إن مقام النساء في كردستان أفضل بكثير من مقامهن في تركيا وإيران، وأعني بذلك أن أزواجهن يعاملونهن على قدم المساواة، وأنهن يسخرن من خضوع النساء التركيات خضوع العبيد ويحتقرنهن[١]. وهناك ما يشبه الاستقرار العائلي في كردستان، وهو أمر معدوم في تركيا تماماً.

---

(١) لم تكن الأمثلة نادرة عن شجاعة المرأة بين النساء الكرديات. زارني فيض الله أفندي الذي كان مرة (ديوان أفندي) عند باشا بغداد وهو رجل حاذق، ذو ولع شديد بالميكانيكيات. ووصف لي أرغناً صنعه، وتمكّن من أن يضرب عليه بعض الأنغام التركية والفارسية. وعند مغادرته لي ومجيء خدمه بجواده وإجتماعهم حوله التفت إليّ وخاطبني قائلاً: إنني أريد أن أريك شيئاً طريفاً في بابه قد لا تكون شاهدته في حياتك. ثم نادى أحد خدمه ليحضر وسألني فيما إذا كنت ألاحظ على الخادم شيئاً غير اعتيادي فأجبته بالنفي، وزدت فقلت إني أرى فتى قويًا فقال لي على أثر ذلك إنه ليس فتى بل فتاة كردية بلباسية، وإنها كانت أحسن فارس وأشجع جندي وأفضل خادم يتصوره الإنسان. وإن سلوكها لا يشوبه شائبة مطلقاً، بل إنها زادت في شرف بنات جنسها، كما زادت بشجاعتها شرفاً على الرجال. وإنها باكر، أراد أحد الأتراك =

ولكن هنالك نوع من العسف يقترفه بعض أمراء الكرد الأقوياء المتطرفين مما لا يمكن الخضوع إليه في تركيا، وهو أنه إذا أحب رجل من تلك الطبقة فتاة فإنه غالباً ما يجبر أبويها على تزويجه منها إذ إن وساوسه الدينية تمنعه من نوالها بطريقة أخرى، وإذا ما ملها طلقها وزوجها من أحد خدمه. والقرويون المساكين خاصة معرضون إلى هذا النوع من الاضطهاد. وعثمان بك هو الأمير الوحيد في هذه العائلة الذي وقع بمثل هذه الجريمة. أما النساء من سبايا الحروب فيتخذن عادة جواري في البيوت - وأغلبهن من اليزيديات، أو من نساء الأصقاع الأخرى من كردستان. والرقص عند النساء الكرديات الهواية الكبرى، فكثيراً ما يتطوعن للخدمة في حفلات الأعراس عندما لا يدعين إليها، وقد يحملن أيضاً الهدايا الصغيرة إلى العروس ليسمح لهن بالرقص، وهن يظهرن للملأ دائماً في مثل هذه المناسبات سافرات مهما بلغ عدد الرجال الحاضرين. والرقصات الشرقية على اختلافها على أسلوب واحد، وقد تكون موروثة من أقدم العصور. والدبكة (الجوبي) طرز من السيرتو الإغريقية أو الروميكا ولكنها أقل إنعاشاً وأقل تنويعاً.

ولباس السيدات في كردستان يشتمل عادة على السراويل التركية العريضة وعلى ثوب فضفاض يحزم من فوقه بحزام ذي عروتين كبيرتين من الفضة أو الذهب. ويلبس فوق ذلك المشلح، وهو على نمط مشالح الرجال، ويزرر عند الرقبة ولكنه يترك غير مزرر من الرقبة حتى الأذيال كاشفاً عن الثوب والمحزم، ويخاط عادة من الحرير المخطط أو المشجر

= في يوم من الأيام بها سوءاً فشقت بطنه قاتلة، إنني لا أتردد من شق بطن سيدي إذا حاول معي ذلك. وهي تفخر لأنها اندفعت بهجومها عدة مرات إلى مدفع معبأ دون أن تتكس أو تصوب رمحها إلا عند وصولها إلى قرب جنود المدفع. وكانت ترتدي لباس الرجال الكرد وعلى رأسها شال حريري. وهي ذات قامة هيفاء، يتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين، ذات ملامح كردية أصيلة وقد لوحتها الشمس.

أو من النسيج الملون أو من القماش الكجرات أو من المقصب الاستانبولي وذلك يختلف باختلاف الموسم أو ثراء صاحبة اللباس. ومن فوق ذلك، يأتي الـ(بنش) أو الصدرية وهي من (الستن ـ Satin) عادة وتخاط كالمشلح، ولكنها ذات كمين ضيقين لا يصل طولهما المرفقين. ويستعضن عن الصدرية في الشتاء باللبادة، وهي رداء من نوع الصدرية إلا أنه مبطن بالقطن. ويلبسن في الشتاء الجاروقة (جاروكه) أيضاً التي تصنع من أنواع الحرير المربع الألوان. وهذه الجاروقة نوع من المشالح أو أردية التدفئة من غير أكمام تشد فوق الصدر وتتدلى من على الظهر حتى تصل إلى تحت الردفين. ولا تعتبر الجاروقة رداءً بذاته إنما يستعاض عنها بالصدرية في أيام المراسم والأعياد، وقد اقتبست عادة لبس الصدرية أو الـ(بنش) من الأتراك أو الإيرانيين، ولذلك نرى أن منزلتها أرفع جدًّا من الجاروقة التي تبدو أنها لم تكن إلا رداءً خاصًّا بكردستان. والنساء الكرديات لا يلبسن البرانص بل يستعضن في أيام البرد عنها بمشلح إضافي أو مشلحين. ويصعب في الواقع وصف لباس الرأس عندهن وصفاً دقيقاً، وهو يتكون من المناديل الحريرية، أو بالأحرى الشالات الملونة بألوان القوس قزح كلها، ينظمنها تنظيماً فنيًّا في الجبهة ويثبتنها بالدبابيس تثبيتاً يجعلن منها تاجاً أو قلنسوة ترتفع إلى قرابة القدمين، أما أطرافها السائبة فتترك مدلاة من وراء الظهر حتى كعوب الأقدام، والثريات منهن يزين جباه توجهن بسفائف ذهبية عريضة يتدلى من كل منها صف أوراق ذهبية صغيرة، ومن كل جانب من جانبي القلنسوة يتدلى أيضاً خيط من المرجان. وهن يلبسن تحت هذه العمامة فوطة كبيرة من الموسلين تلف من الأمام وتعقد فوق الصدر، ويبقى جزؤها الخلفي مسترسلاً على الظهر. وعلمت أن هذه الفوطة لا تلبسها إلا المتزوجات منهن؛ ولا يظهرن كثيراً من شعورهن على نواصيهن، ولكنهن يعنين بالذوائب ويدلين ذؤابة على كل من الصدغين. والنساء الفقيرات من

سكان المدن يقلدن السيدات في طراز لباسهن. أما القرويات في الأرياف فلا يلبسن إلا الجلاليب والسراويل من النسيج الأزرق الخشن، ويحزمن الجلاليب من الوسط بسفائف وجاروقاتهن من قماش أزرق غامق ذي خطوط عديدة بيضاء في حواشيها السفلى وهن يعقدنها من طرفها على صدورهن، ولباس رؤوسهن طاقية صغيرة.

ولباس رؤوس السيدات ثقيل جدًّا، يتحملن آلام شديدة حتى يتعودن على ارتدائه، وغالباً ما يسقط الشعر الكثير من قمم رؤوسهن. ومن الأمور التي يصعب تصديقها أنهن ينمن فعلاً وعماماتهن على رؤوسهن وهن يستعملن وسادات صغيرة لإسناد الرأس عليها ولا يمتلكن من المجوهرات إلا قليلاً، أما حلاهن فتتألف على الأكثر من الذهب والمرجان، وأما حلي الطبقة العامة من النساء فمن المسكوكات الفضية، والقطع المعدنية الصغيرة والخرز البلوري.

ولباس الرجال يشبه اللباس التركي في الشكل والقماس شبهاً كبيراً وقليل منهم عدا الباشا وعائلته من يلبس الجوخ أو الصدريات (بنش) والجبب المصنوعة من الشال الأنقري[1].

اللباس الاعتيادي الخارجي فيخاط كالعنتري[2] أو كالرداء التحتاني، وهو يزرر عند العنق ويبقى مدلى مفتوحاً، ويصنع من الأقمشة الحريرية المطبوع عليها بالورود أو الخطوط، ويستعاض عنه في

---

(١) الـ(بنش) مشلح خارجي والجبة مشلح تحتاني، والكلمتان تركيتان. انتهت حاشية المؤلف. البنش تقابلها كلمة Riding Coat الإنكليزية وهو لباس رسمي كان يلبسه الأتراك أثناء ركوب الخيل ويعبر أيضاً عن الجبة الفضفاضة التي يلبسها علماء الدين في بعض المراسيم ـ المترجم.

(٢) وهو الجلباب، والكلمة مشتقة من كلمة (آنتاري) التركية، يقابلها في العراق الدشداشة، وفي مصر الجلابية ـ المترجم.

الشتاء «باللبادة». ويتمنطق الرجل من الوسط بنطاق ذي أبزمة ذهبية أو فضية، أو مرصعة بأحجار لازوردية. وفوق كل هذا يلبسون العباءة بشكلها المعروف، والذي يميز الكردي بوجه خاص في ملبسه هو عمامته وهي تتألف من «غترة» من القماش الحريري المحقق بالألوان الحمراء والصفراء والزرقاء[١] تتخلله خيوط من الذهب أو الفضة. وتلف هذه حول الرؤوس على أن تبقى النواصي مكشوفة تماماً وللكرد نواصٍ بديعة تنم عن الرجولة، ويتدلى على الأكتاف والظهر الكثير من الأهداب الملونة المخاطة بحواشي هذه الغترة؛ وذلك مما يخلع على الرجال منظراً غير مألوف لا يمكن وصفه وعلى الأخص عندما يخبون جيادهم. وعندما يلبسون الشال الكشميري أحياناً، والقليل من يلبسه منهم، يضعونه فوق أكتافهم بطريقة تترك أطرافه مدلاة على ظهورهم أو جوانبهم ويلبس عامة الناس الأحذية ذات الرباط كالأوروبيين تماماً، وهي إما سوداء أو صفراء مزينة بشلة. وقليل منهم من يستعمل الأحذية الصوفية (كلاش) وقد شاهدتها في إيران؛ وأعتقد أنهم يجلبونها من تلك البلاد.

أما القرويون والفقراء من رجال العشائر فيلبسون الجلباب «الأنتاري» ومن فوقه لباس مصنوع من الشال «شالوون» الخشن مفتوح الزيق، ويحزمونه من الوسط بحزام جلد وبزيم نحاسي، وهم لا يخيطون قماش هذا اللباس إلى بعضه البعض من المحزم فما تحت فتبقى أذياله الأربعة مدلاة كأذيال المعاطف؛ ذيلان من الأمام وذيلان من الخلف. ويكون لون هذا الرداء عادة أسمر أو أبيض أما أطراف الأكمام والصدر فتزين بخيوط مختلفة الألوان، وعمائمهم من قماش قطني خشن بلون أحمر غامق مخطط الحواشي بالأزرق وهم يلبسون العباءة عادة ومن لا يستطيع شراء العباءة أو لا يجد فيها التدفئة الكافية يستعيض عنها بفروة

---

(١) يفضل الكرد رجالهم ونساءهم أبهر الألوان وأسطعها في ملبسهم.

من جزة ماعز بكامل شعرها أو بعباءة من الصوف الخشن الداكن اللون. أما الدارعات فتصنع من اللباد الاعتيادي الأبيض[1]، وهو لباس لا مهارة في صنعه، أو أنها فروات قصيرة من جزات الماعز، وهي من الأردية الفوقانية الشائعة.

ويتسلح الكرد على اختلاف طبقاتهم، فقيرهم وغنيهم، صغيرهم وكبيرهم، بالخنجر، ويضيف الجاف والعشائر الأخرى إلى سلاحهم المقمعة وهو قضيب خشب ينتهي بكرة حديدية، فالخنجر والمقمعة هذه، والسيف وترس صغير ملقى على الكتف، كل هذه تؤلف أسلحة الكردي الماشي، أما الخيال فيضيف إلى هذه الأسلحة الرمح ومسدس بحمالته، ومن يتمكن منهم يلبس في الحرب ثوباً من الزرد وخوذة فولاذية ويتسلح المشاة عادة بالبندقيات الطويلة الثقيلة ذات المساند الملقطية لإسنادها عليها عند الرمي.

تجند عشيرة (الشينكي) أكبر عدد من المشاة ويعتبرون هدافين ممتازين. ويجند الجاف أيضاً نصيبهم من المشاة ولكن لا يعتمد كثيراً على خدمات المجندين من أبناء العشائر خارج مناطقهم، أو بالأحرى في المعارك التي لا تمس مصالحهم الشخصية.

٤ تشرين الأول:

وصل السليمانية اليوم رجل من (داره شمانه). وعمر آغا الذي يعلم بأنني أتطلع إلى طرائف الأمور وأرغب في استقصائها، ذهب فوراً

---

(١) وفي الكردية (كه به نه ك). انتهت الحاشية. وهذا معطف من اللبد يلبسه الرعيان، أما إذا كان على شكل صدرية لا ردان لها فتسمى (كوله بال). والغريب أن الاسم العام الشائع الآن في كردستان الشرقية لهذا النوع من اللباس هو (فرنجي) - المترجم.

لمقابلته ووعدني بأن يأتيني به غداً وأطّلع منه في الوقت ذاته على القضية الغريبة الرومانتيكية التي تتعلق بأصل العائلة البابانية. وعلينا أن نعلم قبل ذلك أن (داره شمانه) قرية صغيرة في بيشدر كانت مركز البابانيين قديماً، وسكان القرية الحاليون كلهم من ذلك البيت، أو بالأحرى أن البيت الباباني منهم، وهم يفاخرون الآخرين بذلك مفاخرة بينة وقد يأتي البعض منهم بين الفينة والأخرى إلى السليمانية، فيكرم عبد الرحمن باشا أبناء عمومته الجبليين هؤلاء وعند رجوعهم منها يحمّلهم الهدايا التي تتناسب واحتياجاتهم وحالاتهم. وهم يرفعون معه الكلفة بل يتقدمونه في حضرته بوصفهم الفرع الأقدم في الأسرة. وقد ترى قرويًّا انحدر من قريته ومضى إلى السليمانية يسوق أمامه حماراً فيذهب إلى الباشا ويجلس إلى جانبه قبل أن يدعوه الباشا إلى الجلوس ويسحب غليوناً قصيراً قذراً فيملأه ثم يقدح لنفسه ناراً يولع غليونه بها ويدخن منه قليلاً ثم يقول: «والآن يا ابن العم، قل لي، كيف حالك؟». لنرجع إلى القصة:

كان هناك أخوان في (داره شمانه) هما الفقيه أحمد وخضر وقد قاسيا الآلام الكثيرة من البلباسيين، الذين كانوا أقوى الناس في بيشدر. وكان الفقيه أحمد، شجاعاً أنوفاً، فهجر القرية غاضباً وقد أقسم ألا يرجع إليها إلا إذا أصبح في مركز يستطيع به الانتقام لنفسه. ذهب إلى استانبول وانخرط في خدمة الحكومة. ومن المصادفات العجيبة أن السلطان كان في حرب مع الإفرنج ـ وقال الراوي، إن هؤلاء الإفرنج هم الإنكليز ـ وكانت الحروب في تلك الأزمنة تشن على هيئة مبارزات فردية، فنزل الميدان بطل من أبطال الإفرنج وراح ينازل أشجع فرسان الأتراك مدة أربعة أو خمسة أيام وقد تغلب عليهم فرادى وقتلهم. فتطوع الفقيه أحمد لمنازلة هذا العدو المغوار فأرسل عليه السلطان يسأله عن موطنه. وبعد أن اقتنع بمظاهر الرجل سمح له بأن يقدم على المجازفة وقد أعطاه جواداً وزوده بما يحتاج من السلاح. فنزل إلى الميدان وتغلب على الفارس

الإفرنجي، وعند ترجله لقطع رأس الفارس، بوغت بكون عدوه المصروع فتاة راحت تستعطفه وتعده بقبوله زوجاً لها إذا منحها الحياة. فأخذها إلى معسكر الأتراك رمزاً لانتصاره فسأله السلطان عمّا يرغب فيه من مكافأة على صنيعه فاستعطف إرادته ليمنحه لقب (بك) وينصّبه على قريته مع تمليكه القرية وأراضي (داره شمانه) ملكاً أبديًّا. وقد كان متواضعاً في طلبه كريماً، أو قصير النظر في الواقع إذ لو طلب كردستان بكاملها لنالها دون ريب. وقد رجع إلى وطنه غانماً فخوراً بعد أن قنع كل القناعة بما أحرزه مع قرينته الجديدة. وقد رزقه الله منها طفلين هما (بابا سليمان) و(بوداخ كيخان) وعلي أن أذكر هنا بأن اسم الفتاة الإنكليزية كان كيخان، وقد نافس البلباسيين منافسة مستمرة وانتزع منهم السلطة وحط من مكانتهم كثيراً. وفي يوم من الأيام عندما كان غائباً غزى دياره الكثير من البلباسيين غزواً ضارياً فامتطت كيخان جوادها ودحرتهم جميعاً وكان يتراوح عددهم بين الأربعمائة والخمسمائة، وقتلت الكثير منهم. ثم استدعت سكان (داره شمانه) وخطبت فيهم قائلة «يا رجال داره شمانه، لقد منحني الفقيه أحمد حياتي، وأنا في قبضته. وكنت بانتظار اليوم الذي أرد صنيعه إليه، وهذا كل ما أتمناه وكل ما انتظره. والآن عليكم أن تخبروا الفقيه أحمد بما رأيتم، إذ إنني ذاهبة إلى حيث لا يراني ثانية، وقولوا له بأنني أطلب منه أن لا يلحق بي فذلك لا يجديه نفعاً، وسألحق به الأذى إذا فعل، ويعلم الله بأنني لا أرغب في ذلك» قالت هذا ولوت عنان جوادها وهمزته وغابت فوراً عن الأنظار.

«وعند رجوع الفقيه أحمد استغرب مما حدث، وكان استغرابه متوقعاً، وقد حزن لفقده زوجه كيخان فقرر اللحاق بها على الرغم من منعها له. وقد لحق بها في وادي (خردان)[1] الكائن في بيشدر،

---

(١) لم يتحقق المترجم هذا الاسم.

فاستعطفها لتعود معه. فأجابته قائلة: «إن هذا لمستحيل، إنك مسلم وأنا إفرنجية. وإني لذاهبة إلى موطن آبائي، فوداعاً، وإياك أن تقترب مني وإلا أصابك مني الأذى» ولكن الفقيه أحمد المتيم أصر فرفعت رمحها وطعنته في كتفه فسقط وولت هاربة، ولم تبتعد كثيراً حتى شعرت بأنها قد قابلته بقسوة إزاء لطفه معها عندما كانت حياتها بين يديه، كما أنها رأت أن بعلها وإن كان مسلماً، فإنه كان أباً لأولادها، فرقّت له ورجعت إليه فوجدته لا يزال على قيد الحياة فوضعت على جرحه مرهماً قويًّا دفع عنه الخطر ويسر له الإسعاف، وما كان إسعافه ببعيد، فتركته ثانية إلا أن الزوج العاشق الغيور لم يقلق راحته بعد أن التأم جرحه وشفي إلا ما قاساه من معاملة زوجه الخشنة غير أنه بقي عند رأيه في ملاحقتها وإرجاعها، فطاردها حتى وصل فرنكستان ـ بلاد الإفرنج ـ وذات مساء ألقى عصا الترحال في مدينة كبيرة، سمع فيها أصوات الطرب والأنس، وكانت ـ المهترخانة ـ الموسيقى تعزف والمشاعل موقدة وغير ذلك من الاستعدادات والترتيبات التي تتخذ عادة في أفراح الـ«طوى»[1].

«ظل حائراً في أمره يبحث عن مكان يقضي فيه ليلته، وأخيراً قرر أن يترك أمره للأقدار تفعل ما تريد، وأن يرحل إلى حيث يقف جواده. فأرخى العنان له فوقف الجواد عند باب دار امرأة عجوز فضيفته عندها، وبعد أن تردد سألها عن الأفراح التي شهدها فأخبرته أن بنت الملك كانت قد ذهبت لمحاربة المسلمين، وأنها رجعت من الحرب أخيراً بعد أن غابت عدة سنوات وأنها ستتزوج من ابن عمها. فتوسل الفقيه أحمد إلى الامرأة العجوز لتدبر أمر السماح له بدخول حفلة الزواج كمتفرج، وقد وافقت العجوز أخيراً على أن يتنكر في لباس النساء. وهكذا استطاع أن يكون بالقرب من كيخان الجميلة وزوجها العتيد في أثناء مقابلتهما

---

(١) كلمة تركية معناها العرس.

الأولى. تقدمت السيدة، وقد قابلها العريس الفظ من فوره بصفعة على أذنها قائلاً لها: «أنت يا من كنت أسيرة عند المسلمين، أنت يا من الثاث شرفها، كيف تجرئين على الظهور أمامي؟» أما العروس فقد صرخت من ألم الضربة وصاحت بالكردية وقد أصبحت متمكنة منها «أواه يا فقيه أحمد، أين أنت الآن مني؟» وفي تلك اللحظة اندفع الرجل المستجار به فقتل العريس الفظ وهرب مع العروس الجميلة إلى استانبول، وقد أكرمه السلطان زيادة على كرمه السابق له.

«وقد رجع الفقيه أحمد وعروسه المتعلقة به الآن إلى بيشدر، فعاش معها عيشة وادعة راضية ما تبقى من أيامه. وقد استولى قبل وفاته على مناطق بيشدر، ومه ركه وماوه ت، وقد خلفه في منصبه نجله الأكبر بابا سليمان، وهو الجد الأكبر لأمراء السليمانية الحاليين. وقد احتل ما تبقى من مناطق كردستان والتي هي تحت سيطرته الآن. أما نجله الثاني بوداغ كيخان فمات دون خلف».

لقد سمعت بعض الشذرات من هذه القصة، وقد قصَّها لي الباشا بصورة معقدة، وكان يتباهى بانحداره من سلالة كيخان الأوروبية، وقد قال لي بأنه قد يمت بصلة القرابة إلي. ولكنه نسب الحادث إلى جد بابا سليمان. وقد قصصن سيدات العائلة القصة نفسها تقريباً للسيدة ريج.

وفي هذه القصة التي دونتها كما سمعتها من الراوي دون أية إضافة أو تحوير الشيء الكثير من روح الفروسية والبطولة، الأمر الذي لم يعتده الشرقيون، في الوقت الحاضر على الأقل. والحادث بذاته بعيد كل البعد عن أسلوب مخيلتهم. والظاهر أن القصة مبنية على حوادث واقعية ربما حدثت في زمن أقدم جدًّا من الزمن الذي حدده الراوي في روايته. وقد يكون من الطريف، أو المستغرب إذا أمكن العثور على علاقة ذلك الحادث بأقاصيص البطولة أو الفروسية في عهد الصليبيين، أو عهد صلاح الدين الأيوبي. وكان صلاح الدين أميراً كرديًا. ويحتمل أن قد حور في

أسطورتها الرواة الجهلاء من الكرد الذين لا يمكنهم أن يتصوروا سلطاناً مقصوداً غير سلطان استانبول، كما أنهم يميلون إلى أن ينسبوا مثل هذه القصة الجديرة بالاعتبار والشهرة إلى الجد الأول لبطلهم المحبوب بابا سليمان، وحياته معلومة لديهم ولها من الشهرة بحيث تتقبل مثل هذه التلفيقات. وإنني على استعداد لذكر الأمثلة الكثيرة للتعقيدات المتشابهة في العهود والتواريخ التي يذكرها أو يرجع إليها الرواة الشرقيون.

وعلى أثر ملاحظة الباشا ولعي الشديد واهتمامي بالتاريخ الكردي، تلطف فأرسل في طلب أحمد بك أحد كرام أبناء عائلته، ويقال إنه في العام المائة من عمره وهو حائز على احترام أبناء جلدته لأنه يحفظ عن ظهر قلب الكثير من أساطير تاريخ عائلته. وقد أخذت هذه الأساطير تندثر الآن يوماً بعد يوم وإن كان الكثير منها يستحق في الحقيقة الاحتفاظ به بجدارة. والشيخ البابانى الجليل هذا يعيش في مقاطعته في شهرزور.

الفصل الحادي عشر

كآبة الباشا وحزنه - نجله الأكبر يرسل رهينة إلى كرمنشاه - مرض نجله الأصغر - فتنة بين أفراد عائلته - أحمد بك الداره شماني - عشائر راوندوز - مراسيم الجنازة عند الكرد - العائلة البابانية - شجرة الأمراء البابانيين - موت ابن الباشا الصغير بالجدري - تأثر الباشا - سليمان بك - تجارة السليمانية - الحديث مع عثمان بك - رغبة الباشا في التنازل عن منصبه - عمر آغا - ذكاؤه ودقته - المقارنة بين الكرد والأتراك والإيرانيين - لقمان - زيارة لوداع الباشا - محادثات دينية - عثمان بك يستدعى لتسنم منصبه - رفضه الامتثال - ميزات الخلق الكردي - هروب خالد الدرويش الكبير - زيارة الباشا الأخيرة إلى المستر ريج - حديث شيق - حزن الباشا لفقده ولده - خلقه - التهيؤ للرحيل من كردستان - الحزن على فراق أهل كردستان

* * *

٧ تشرين الأول:

كنت في زيارة الباشا صباح اليوم، وقد وجدته كئيباً أشد الكآبة، مهموماً، وقد ضاق صدري لكآبته وهمه، ويحزنني أن أرى الرجل

الفاضل حزيناً. لقد أرسل ابنه الأكبر عبد الرحمن بك وهو صبي في السابعة من عمره قبل ثلاثة أيام إلى كرمنشاه رهينة، وأصيب ابنه الصغير أخيراً بالجدري كما دبت فتنة كبيرة بين عائلته. لقد ضايقه عثمان بك مضايقة شديدة بإجباره على الكلام معي لكن حديثه كان سطحيًّا لشدة وطأة الحزن عليه. وجاء أحمد بك لمقابلتي، وهو الشيخ الكردي العجوز الذي أرسل الباشا في طلبه من أجلي. إنه، وهو لم يتجاوز الثانية والتسعين من عمره، شيخ جميل المحيا، إلا أن ذاكرته أصبحت مشوشة بحيث بات من الصعب الحصول على جواب مباشر منه لما تسأله عنه إلا إذا بقيت مترقباً الوقت الذي يخطر له فيه خاطر فيبدأ الحديث بنفسه؛ ففي ذلك الوقت وحده تستطيع معرفة ما تريد معرفته منه. وعندما عرف حقيقة أمري قال على الفور «آه، نحن أقرباء وقد كان أجدادنا أقرباء» إنه يقصد بكلامه ولا ريب، ذكر قصة كيخان الفتاة الإنكليزية والفقيه أحمد الزعيم الكردي، تلك القصة الرومانتيكية. ولكنني عندما استوضحته المزيد انتكس وتراجع. وقال لي الباشا إنه بانتهازه فرصة جمع أشتات أفكاره استطاع الحصول على المعلومات التالية - «إن بابا سليمان كان أصغر إخوته الاثني عشر، وكان اسم والده مير سليمان[1] وسمي بابا سليمان بهذا الاسم لوفاة والده قبل ولادته، وقد استولى على جميع هذه البلاد بعد أن طرد الأتراك والإيرانيين منها، ولم ينل كل ذلك دون جهد كبير وطالع متباين، وأخيراً تواطأ الأتراك والإيرانيون عليه فطردوه من كردستان السفلى، فاستقر عندئذٍ في راوندز[2] وترك قرينته وأولاده فيها

---

(١) مير سليمان، هو النجل الأكبر لمير محمود أو محمود بك، بك بيشدر. وعليه فإن بابا سليمان حفيد مير محمود الذي يسند البعض مخاطر كيخان الرومانتيكية إليه. والكثيرون يرجعون بذلك إلى ما قبل عهد بابا سليمان بمدة بعيدة.

(٢) راوندز قلعة إحدى العشائر الكردية المستقلة، وكان آمرها مصطفى بك. وهي قائمة فوق جبل مرتفع جدًّا من جبال زغروس، وقد بتره الزاب من أحد جانبيه، وليس في =

ميمماً شطر استانبول. وقد كان ذلك في عام (١١١١هـ)[1] ـ لقد خلد ذكرى الحادث أو تاريخه في قصيدة قيلت في الزلزال الكبير الذي وقع في (تبريز) قبل الحادث ببضع سنين ـ وفي استانبول استرعى انتباه السلطان، فأصبح وزيراً أو باشا براية ذات ثلاثة ذيول. وهو إما أن يكون قد فتح (باباداغ)[2] أو كان حاكماً فيه وقد سمي باباداغ نسبة إليه؛ ومات في هذه البقاع. وبقيت هذه الأقسام من كردستان تحت حكم الأتراك باسم لواء أو أيالة شهرزور، وكانت كركوك عاصمة تلك الأيالة. وكان ذلك قبل أن تستعيد العائلة البابانية سيطرتها عليها بعهد قديم.

= الجانب الثاني منه من الطرق التقريبية إلا المضايق الضيقة، وهي محصنة للدفاع تحصيناً قويًّا. والراوندزيون رماة ماهرون. لقد أرسل (عباس ميرزا) قبل بضع سنين جيشاً لمنازلتهم فاضطر على التراجع تاركاً مدافعه وراءه، وهذه المدافع الآن في قلعة راوندز، ورجال هذه العشائر متوحشون إلا أن القوافل تمر عادة في منطقتهم بسلام، ولكنها تدفع باجاً أو ضريبة فقط. وعشائر راوندز تشبه في ملابسها أعالي العمادية إلا أن لهجتها تقارب لهجة كوى سانجاق.

لا يمر الزاب بجبل (راوندز)، والواضح أن المستر (ريج) قصد بالبتر مضيق (كه لي علي بك) المتكون بزلزال لا نعرف تاريخه فجرى في واديه المتكون ما نسميه الآن بـ(روباري راوندز)، وهذا يصب في الزاب عند (بيخمه) ـ المترجم.

(١) أي سنة ١٧٠٠ ميلادية. وعندما نريد أن نقلب السنة المسيحية إلى السنة الهجرية علينا أن لا نتذكر فقط بأن التقويم الهجري بدأ في ١٥ حزيران ٦٢٢م. بل أن نعلم بأن سنتنا هي ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وست ساعات وإحدى عشرة دقيقة، بينما السنة الهجرية أو القمرية هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثماني ساعات وثمان وأربعون دقيقة ومن ذلك نعلم بأنه ليس هناك سنة هجرية تتقابل على الدوام مع أية سنة ميلادية معينة، كما أننا لا نستطيع معرفة أية سنة ميلادية من تاريخ مر ذكره في التقويم الهجري، إلا إذا كان يوم السنة معلوماً أيضاً. وإن بدء السنة الهجرية يمكن حسابه ومعرفته بالانتباه إلى تلك الشروط. لقد أعلمني بذلك أحد الأصدقاء ـ الناشرة.

(٢) لم يتحقق المترجم هذا المكان واسمه.

وقد أيدت ذكريات الكثيرين ما سبق الكلام فيه.

شاهدت عن بعد وأنا في طريقي اليوم إلى القصر ثلاثة أعلام عسكرية فظننتها قطعة عسكرية كبيرة تسير، إلا أنني استغربت عندما علمت أن هذه الأعلام تتقدم جنازة، وهذه عادة خاصة بكردستان، أما في كرمنشاه فإنهم يشيعون النعش إلى مرقده بالموسيقى والغناء.

وعندما بحثنا اليوم مع الباشا في تاريخ كردستان، تجرأت فذكرت استغرابي لقلة اطلاعه على تاريخ عائلته. فأجابني بأدب واحتشام بأن ذلك التاريخ لا يستحق التدوين ولم يكن تاريخ عائلة مالكة، بل هو تاريخ قبيلة متواضعة. فأجبته ولكن عائلته عريقة شريفة، فأجابني بأنها لم تكن موغلة في القدم، ولم يصبح أبناؤها باشوات إلا منذ عصر واحد، فقلت له بأنني أعرف سلالة عائلته منذ ذلك العهد فوقع قولي في نفسه موقعاً حسناً، وتحركت عنده على الفور عصبيته القبلية وعزته العائلية فانجلت ملامح وجهه وداخله انتعاش لم يكن اعتياديًا. ولا يخلو مطلقاً الرجل الذي نزل بنفسه إلى درجة التواضع الديني مثل الباشا من الزهو والافتخار عند طرق هذه المواضيع. وقد قال بعد ذلك بأنه غير شغوف بالتاريخ ما خلا تواريخ الأولياء والأنبياء وبالقدر الذي يمكنه من الوقوف على أحوال عصورهم. أما غير ذلك من التواريخ فإنه لا يقرأ منها إلا الشاهنامة.

٩ تشرين الأول:

فاجأني عمر آغا في هذا المساء مفاجأة سارة إذ جاءني بلفافة طويلة من الورق كالحمائل أو التعاويذ في وعاء من جلد يحمل على الدوام داخل الجيب. وكانت اللفافة تحتوي على سلالات أمراء العائلة البابانية، من عهد سليمان باشا حتى يومنا هذا. إنه بحث عنها جاداً حتى عثر عليها عند أحد الكرد الذين اعتاد أجداده أن يدونوا الوقائع في تلك اللفافة مع ذكر التواريخ، واقتدى هو أيضاً بهم. وكانت الأوراق مكتوبة بالفارسية

ولهذه الأوراق قيمتها العظمى التي لا تقدَّر إذ إن ما فيها من المعلومات ستكون الحلقة المتممة لتاريخ الكرد فيما لو أسعدني الحظ وحصلت على نسخة من ذلك السفر المفيد. بادرت حالاً إلى ترجمة ما تضمنته هذه اللفافة المدهنة.

١٠ تشرين الأول:

جاءني عمر آغا اليوم بكتاب قديم يحتوي على شذرات في الشعر الديني ونبذ في الحساب والتطبيب، وقد دوَّن فيه صاحبه بعض التواريخ والحوادث. وقد اقتطفت البعض منها[١].

١٢ تشرين الأول:

يؤلمني جدًّا أن أعلم بأن نجل الباشا الثاني أحمد بك قد توفي صباح اليوم متأثراً من إصابته بالجدري. لقد كان طفلاً أنيساً متعلقاً بنا التعلق كله. ولقد بذل المستر (به ل) جهده معه وزار الطفل مرتين. ولكنه لم يستطع إقناع أبويه لإعطائه الدواء، أو وضعه في مكان معتدل البرودة، وإن كانوا في النهاية اتبعوا وصايا المستر (به ل) الأخيرة بعض الشيء واعترفوا بتأثيرها المباشر على حالة الطفل. وكان الباشا في حالة حزن مؤلمة، والكرد جميعهم مولعون بزوجاتهم وأولادهم، وهم في الحقيقة أولاد في غاية اللطف والجمال؛ أما التركي فلا يهتم بالفريقين[٢].

---

(١) راجع الملحق.

(٢) والدليل الذي يمكن أن يؤتى به من جملة الأدلة التي تؤيد هذا الزعم هو السطور التالية التي اقتبسناها من مذكرات أخرى للمستر ريج: - زارني قبل بضعة أيام (ديوان أفندي) زيارة رسمية. وفي خلال الحديث ذكر لي بهدوء تام بأنه قد دفن ولده وكان طفلاً محبوباً في الشهر الثاني عشر من عمره إذ قال: «ذهبت صباح اليوم ودفنت ولدي، ثم ذهبت إلى المجلس» قال ذلك دون تأثر، أو إظهار أية علاقة له في الأمر - الناشرة.

كنت قد عزمت على السياحة في شهرزور، لمشاهدة تلك المنطقة من البلاد وهي أهم مناطق كردستان من الناحية الأثرية إلا أنني أجلت السياحة على أثر مرض نجل الباشا، وقد تحسس لذلك كثيراً، أما الآن وقد مر الزمن وبطؤ علينا الأمر فيجب أن نتهيأ للسفر إلى الموصل.

١٤ تشرين الأول:

ذهبت اليوم لأعزي الباشا. وكان ذلك واجباً صعباً بقدر ما كان ضروريًا وديًا وقد بدا لي بجلاء أن قلبه كاد يتفطر على الرغم من تجلده ومحاولته إخفاء ما يعانيه بكل رجولة. وقد صعب علي جدًّا أن لا أشاطره أحزانه، أو أن لا أشعر برهة كأنني فقدت ولدي. لم أر مطلقاً فاضلاً فياض الشعور والإحساس في أي بلد كالباشا، إنه يحب زوجته وأولاده حبًا جمًّا لا يضاهيه في ذلك إلا أحسن الرجال في أوروبا. وقد بدا عليه نوع من الذهول المخيف اعتراه بغتة فودعته وروحي مثقلة بالأحزان.

ذهبت لزيارة عثمان بك، فوجدته جالساً في جوسقه الذي لم يتم بناؤه بعد، وهو يتمتم بالصلوات ويسبّح بمسبحة، وعلائم الجد تعلو محياه. ومن الجلي أن بعض الأمور كانت تشغل باله، لكنها لم تكن كلها محزنة. كلمني عن كمنجة كنت أهديتها له قبل مدة، ورجاني أن لا أنسى شراء الأوتار له. إن ثمة فرقاً كبيراً بينه وبين الباشا.

ذهبت بعد الظهر لتعزية سليمان بك، فوجدته متأثراً تأثراً لا يقل عن تأثر الباشا وإن ظهر أهدأ منه وأكثر جلداً فقدرته تقديراً زائداً على إحساسه، وهو في الحقيقة فتى يستحق الاحترام إلا أن رزانته لا تتناسب مع عمره، وهو متعلق كثيراً برجال الدين والدراويش وليس في تعلقه هذا مسحة من التقشف أو التعصب، وهو يشبه في سيماه المرحوم عبد الرحمن باشا أكثر من شبهه بأخويه، إذ إنه أطول منهما وأكثر بدانة وعيناه الزرقاوان الجميلتان تعكسان على ملامحه صور الكرامة المطمئنة.

وكلما قابلته ازددت حباً له وتعلقاً به. لقد ذكرت له عزمي على الرحيل من كردستان في القريب العاجل، فشعرت بأسفه وأسف غيره من الكرد جميعاً، وقد بذلوا جميعاً كل ما في وسعهم لأعدهم بالعودة إلى بلادهم في العام المقبل. وإنني أشعر بحزن عميق حقًّا كلما خطرت ببالي مفارقة هؤلاء الناس المخلصين، واحتمال عدم رؤيتي لهم ثانية. وأشعر بأنني سأقضي ردحاً من الزمن لا يستهان به، قبل أن أحظى بالعيش بين أناس يبذلون ما في وسعهم في سبيل إعزازي بلطف عميم، وضيافة كريمة أينما ذهبت وحللت.

١٥ تشرين الأول:

لم تكن تجارة السليمانية تجارة واسعة، وهي بوجه عام منحصرة بين السليمانية والأماكن المدونة في أدناه، وتنقل بواسطة القوافل:

تبريز: تخرج عادة إلى تبريز قافلة واحدة في كل شهر، لكن ذلك لم يكن بانتظام. وتعود القافلة محملة بالقز، والأقمشة الحريرية وغير ذلك، ويصدَّر أكثر القز إلى بغداد، أما الأقمشة فتستهلك في كردستان، وصادرات السليمانية إلى تبريز هي التمر والبن وغيرهما من المواد التي تجلب عادة من بغداد.

أرضروم: تخرج سنويًّا قافلة واحدة على الأقل من السليمانية إلى أرضروم، وهي تحمل التمر والقهوة وغير ذلك فترجع بالحديد والنحاس والبغال. وهم يشترون الكثير من هذه الحيوانات ويستوردونها وأحسن بغال هذه البلاد من أرضروم.

همدان وسنه: تصل شهريًّا من هاتين المدينتين قافلة صغيرة محملة بالدهن والفواكه المجففة والعسل والفولاذ الوارد من أطراف بحر قزوين.

كركوك: المتاجرة مع كركوك مستمرة دائمة، وتستورد منها الأحذية وبعض الأقمشة القطنية الخشنة. أما صادرات السليمانية إليها فهي البقول والعسل والعفص والسماق والفواكه والرز والدهن والقطن والأغنام والمواشي. وكركوك في الحقيقة سوق رائجة لجميع منتوجات كردستان.

الموصل: والمتاجرة مع الموصل مستمرة بعض الاستمرار. وتستورد منها الأحذية والغتر والخام والأقمشة القطنية الملونة، ومنتوجات الشام وديار بكر وغير ذلك. أما الصادرات إليها فالعفص وغيره.

بغداد: المتاجرة بين السليمانية وبغداد دائمة وتستورد السليمانية من بغداد التمر والبن والمنتوجات الهندية والأوروبية والأقمشة. أما الصادرات إليها فهي البقول والتبوغ والجبن والدهن والسماق والصمغ والشحم والصابون الاعتيادي ـ صابون الشحم.

١٦ تشرين الأول:

جاء عثمان بك لزيارتي هذا المساء وجلس عندي مدة ساعتين. ولقد تطرق كثيراً إلى شؤون بلاده وخصني بسر رجاني أن أكتمه وهو أن الباشا يفكر جاداً في التنازل عن منصبه، وأنّه بذل قصارى جهده لإرجاعه عن عزمه. وهذا ما يقدر عليه ويزيده شرفاً إذ لو تم تنازل الباشا عن منصبه لخلفه هو في منصبه. وفي الواقع إنني عالم أن أمير أو شهزادة كرمنشاه قد عرض المنصب عليه أكثر من مرة. لقد قال لي عثمان بك بأنه سمر مع الباشا ليلة أمس حتى بعد منتصف الليل محاولاً أن يثنيه عن عزمه، قائلاً له ما دام الله منَّ عليه بالمنصب الذي هو فيه فعليه أن يستمر على أداء فرائضه فيه، وليس من حقه أن يتبع هواه وميوله. أما رغبة الباشا فمخضرة في العيش بسلام والاعتزال مع زوجته وأولاده. وقد أردف

عثمان بك قائلاً: «ما دام فيَّ رمق من الحياة، فلن أدع أخي يتنازل عن منصبه وإنني لأرجو الله أن يمكّنني من ذلك».

أرسل لي الباشا بعد الظهر من يعتذر عنه لعدم تمكنه من زيارتي في الأيام الأخيرة وكان يقول في اعتذاره إليَّ «ولكنه يعرف الحال التي أنا فيها. إنني أحببت ذلك الطفل أكثر من حب يعقوب ليوسف».

١٨ تشرين الأول:

أطلعت عمر آغا مساء اليوم على بعض مخططاتي[1] وقد عجبت كثيراً لإدراكه لها. وقد ذكر لي أسماء عدة أماكن وأسماء قمم التلال، وبيَّن لي المحلات التي يجب إدخال بعض العوارض الأرضية عليها في تلك المخططات، وكنت قد أهملت رسمها أو ذكرها إذ لم أشاهدها، كما صحح لي بعض أقسامها، بل إنه أدرك أصغر التلال التي مررنا بها في طريقنا. وهذا دليل واضح على ذكائه وعلى صحة مخططاتي في الوقت ذاته. لقد قابلت في بغداد كثيراً من الناس الذين درسوا الرياضيات بوجه خاص ـ كما يسمونها ـ ولكنهم لم يستطيعوا الإحاطة ولو قليلاً بالخرائط أو المخططات.

أما عمر آغا، فحالما تناول كراسة التخطيط بيده وجه المخططات الواحد بعد الآخر إلى استقامة طرقنا وتابعها بأصبعه دون أي تردد. وإن كونه جبليًّا مما يزيد في ذكائه الفطري، وفي اعتياده على اتباع سلاسل التلال، والنظر إلى قعور الوديان، ذلك لأن جميع سكان البلاد الجبلية يدركون تفاصيل المخططات بسهولة فمثلاً إن الذي وضع خريطة الجبل الأبيض المجسمة والبلاد المجاورة له كان حلاقاً من (شامونيا). وقد

(١) كانت هذه المخططات للبلاد الواقعة بين السليمانية و(سنه) و(بانه) حيث ساح المستر ريج أخيراً وبصحبته عمر آغا ـ الناشرة.

رسم القرويون خريطة التيرول الجميلة. وإني أتعهد بتعليم عمر آغا بعد بضعة دروس كيفية استعمال المزولة وكيفية رسم مخططات الميدان. ولم تخطر لي هذه الفكرة من قبل مع الأسف إذ كان في الوقت مجال متسع لي لأقوم بذلك في السليمانية قبل مغادرتي لها إلى (أحمد كلوان). وكان في إمكاني وأنا في سياحتي التي تلت مكوثي فيها أن أدعه يتمرن على رسم المخططات تحت إشرافي. إن الفوائد التي يجنيها العلم من رجل قوي الملاحظة يجوب مجاهل هذه البلاد التي تسترعي الاهتمام لا شك إنها عظيمة جدًّا، وقد يستطيع بدوره أن يعلِّم غيره فينشر العلم والمعرفة.

وأرى بوجه عام، إن الكرد شغوفون جدًّا باستقصاء المعلومات ولكنهم قليلو الاعتداد بأنفسهم مهملون لشأنهم، وإنهم أسهل تعليماً من الأتراك، بل أعتقد أنهم أسهل تعليماً من الإيرانيين أيضاً، إذ إن هنالك بعض الأمور التي يستطيع الإيراني أن يقتبسها بسهولة، إلا في مجال الأدب والعلم لأنه يحسب نفسه متفوقاً على الأمم الأخرى فيها تفوقاً عظيماً. والتركي يعتقد الاعتقاد الراسخ بتفوقه في جميع الأمور وهو يزدري ازدراءً مراً بكل أمر يدركه أو يفهمه. إن «سنونواً واحداً لا يأتي لنا بالصيف»[1]. فرجل أو رجلان في أمة متعطشة إلى العلم والرقي ليسا إلا من الشواذ في كيانها العام. وهكذا فالعزم الطبيعي للفكر البشري وحيويته، يخترق أحياناً الحجاب الذي يقيمه أمامه التعجرف والتعصب، وهناك القليل حتى من بين أكثر الأقوام والأمم وحشية من لا تستطيع أن تنجب في مختلف أدوار تاريخها رجلاً يسبق عصره وبلاده. لقد كان كتاب (جهان نما) أو (جغرافية الحاج خليفة)، سفراً جليلاً جدًّا في حينه، وكان يضم كل المعلومات الجغرافية التي يجدها المرء في الكتب الأوروبية في ذلك العهد، وكان الحاج خليفة رجلاً مثقفاً منوراً بالنسبة

---

(١) ضرب مثلاً إنكليزيًّا، يقابله من الأمثال البغدادية: «يد واحدة لا تصفق» ـ المترجم.

إلى أي تركي آخر، ولكن لم يعقب الحاج خليفة أحد، ومن من الأتراك يطالع الآن جهان نما؟ أو يكون لديه فكرة قياسية عن العالم بل عن بلاده نفسها؟ فإنه إذا تعلم الرياضيات والجغرافية، فهو يراجع بكل تأكيد كتب إقليدس والمجسطي، وقصة الأقاليم السبعة القديمة، وبحر الظلمات وربع الأرض المسكون، وهو قلَّما يجسم نفسه متاعب التفكير فيما إذا كانت تلك النظريات تتفق مع التطورات والاكتشافات الحديثة.

إن المطابع في استانبول، لم تقم حتى الآن بواجب تثقيف الشعب، إلا أنها طبعت بعض الكتب الجيدة، وقلَّما يطلبها أحد، بل لا يطالعها حتى الذي يحصل عليها. والآثار الوحيدة التي طبعت ونشرت وتهافت الناس عليها هي القواميس. و(عباس ميرزا) معني الآن بتأسيس مطبعة في تبريز. ترى هل ستفيد هذه المطبعة الإيرانيين أكثر مما أفادت الأتراك مطابع استانبول؟ والأمة لا تتقدم بالقوة والإكراه أو بمجهود فردي، مهما كان تقدميًا أو قويًا ومع ذلك فإن للإيرانيين كفاية أوسع من كفاية الأتراك، ولو كانت استانبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد من الوقوف في صف الأمم الأوروبية. والدين الإسلامي هو الذي يحول دون الرقي فلا يمكن لأمة أن تتمدن وهي مسلمة. والإسلام دون استثناء، دين يعيق التقدم ويشجع على الجمود وعلى النفاق والزلل. لقد تدخل محمد في كل شيء، وسمم كل شيء مسه. وقد جعل كل شيء سواء أكان علماً أو فناً، تاريخاً أو أخلاقاً من الأمور الدينية، وأقام الموانع إزاء الرقي والتقدم، وإزاء أي تفكير أو تطور حديث في أية ناحية من تلك النواحي[١]. والتركي يكفِّر كل من يعتقد بأي أمر تاريخي قديم سبق أن

---

(١) سمعنا هذه النعرة، نعرة بعض المستشرقين، كثيراً وقرأنا عنها كثيراً. وقد علمنا واقع الحال أن هؤلاء أحد اثنين: إما أنهم من المغرضين المتجاهلين، وإما أنهم من الجاهلين الضالين في جهلهم. والغرض والجهل كلاهما يبعدان المرء عن الصدق والصواب. وبعد هذا، فالرد على هذا الرأي نافلة، وإضاعة وقت، وفي ذلك الكفاية ـ المترجم.

أبدى محمد رأيه الحاسم فيه. ذكرت مرة تاريخ الإسكندر لمؤلفه (آريه ن) فأبدى عمر آغا رغبة شديدة في الوقوف على الحوادث الواردة في مثل ذلك المصدر القديم الموثوق به. وعندما سردت عليه القصة، وكان يبدو أنني تطرقت إلى أمر يناقض العقيدة الإسلامية قال أحد الكرد الشنكيين من الحاضرين بأن ذلك التاريخ قد يكون قديماً كقدم الإسكندر نفسه، لذلك لا يمكن الوثوق به، إذ إن نبينا قال كذا وكذا فيه. وهذا ما أحمد في عمر آغا رغبته في الاطلاع على هذا الكتاب وقد أردف الشنكي قائلاً: «كان اليهود والنصارى في زمن الرسالة يوجهون إلى محمد الأسئلة المتنوعة في حوادث تاريخهم القديم امتحاناً له ليروا فيما إذا كان يجيبهم صواباً أم خطأ وليظهر لهم رسالته السماوية. وقد أجابهم على أسئلتهم بكلام الله، وهو محفوظ في القرآن وفي الحديث.

ويعتقد بعض المسلمين أن الإسكندر الكبير كان نبيًّا، ويعتقد البعض الآخر أنه بطل من الأبطال، كما يعتقد بعضهم بنبوة لقمان، والآخر بولايته[1].

---

(١) أنقل الملحوظة التالية من كتاب المكتبة الشرقية Bibiliothèque Orientale لمؤلفه (هه ربى لوت) «إن السورة ٣١ من القرآن هي سورة لقمان»، ويدّعي محمد أن الله قال: وآتينا لقمان الحكمة.. إلخ. من الآية - ويدّعي بعض العلماء المسلمين بأنه كان ابن أخت أيوب، وعليه فهو وارث للنبوة حقًّا وأنه كان نبيًّا. ويدّعي أحد المؤرخين بأنه أحد أولاد باعور بن ناقور بن تارح وهكذا يصبح ابن أخ إبراهيم. ويخبرنا مؤرخ آخر بأنه ولد في عهد داود وعاش حتى عهد يونس وعلى هذا نستطيع أن نقول إنه عاش بضعة قرون بل إن بعض المؤرخين يدّعي بأنه عاش ثلاثمائة عام. هذا وإن أكثر العلماء المسلمين يتفقون بأن لقمان لم يكن في عداد الأنبياء، فقد كان وضيع المولد، وكانت مهنته التجارة أو الخياطة، ويقول البعض إنه كان راعياً. ويتفق الجميع على أنه كان من نوبيًّا أو من الحبشة أي من الزنج، ذوي الشفاه الغليظة الذين يؤتى بهم من هذه البلاد ويباعون في الأسواق وكان لقمان منهم فجيء به وبيع إلى الإسرائيليين على عهد داود وسليمان. وفي يوم الأيام عندما كان في =

١٩ تشرين الأول:

زرت الباشا اليوم زيارة الوداع. فوجدته أكثر استقراراً من ذي قبل، ولكنه ما زال مغتماً يتنهد باستمرار تنهداً عميقاً. وكان معظم حديثه اليوم في مواضيع دينية كعادته. وقد سألني عن عدد الأناجيل سواء السماوية منها أو الموضوعة من قبل البشر بوحي من الله، وهل سيظهر المسيح وينشر سلطانه على الأرض، أو هل أنه سيظهر يوم الحساب فقط. ثم تكلم عن الدجّال[1] وعن يأجوج ومأجوج وغير ذلك، وكان لطيفاً

= قيلولة دخل بعض الملائكة غرفته فحيوه دون أن يظهروا أنفسهم له. فلم يرد التحية عليهم لأنه سمع الصوت ولم ير أحداً. ولكن الملائكة استمروا بقولهم «نحن رسل الله ربنا وربك أرسلنا إليك لنخبرك بأنه سيجعلك ملكاً وخليفة له في الأرض» فأجاب لقمان: «إذا كان هذا أمر الله بأن أكون ما تقولون فأمره نافذ وأرجو أن ينعم علي بفضله لأتمم إرادته، وإذا خيرني الله بما أرغب فيه من العيش، فإني أفضل البقاء على ما أنا عليه من الحال وإنه سيرضاني ويحميني من أن أكفر بنعمته وإلا فعظمة الحياة ستكون النقمة بذاتها علي» لقد أرضى لقمان الله بجوابه هذا فأنعم عليه على الفور بالحكمة في أعلى درجاتها ومكّنه من تعليم النوع البشري ما يقارب العشرة آلاف مثلاً، وقول كل منهم أثمن من العالم بكامله. جلس لقمان في يوم من الأيام بين جماعة كبيرة كانت تستمع إليه، فمر بهم يهودي من أعاظم اليهود فرآه محاطاً بالمستمعين، فسأله عما إذا كان هو ذلك العبد الأسود الذي كان يرعى أغنام أحد الناس، فرد عليه بالإيجاب، فأجابه اليهودي بقوله إذن كيف أصبحت في هذه المنزلة من الحكمة والفضل؟ فأجابه باتباعي ثلاثة أمور اتباعاً صادقاً وهي: «أن أقول الحق على الدوام، وإن أوفي بعهدي، وأن لا أتدخل بما لا يعنيني». ويذكر أحد المؤرخين بأن داود سأل لقمان في أحد الأيام كيف نهض في ذلك الصبح، فأجابه لقمان: «إنني نهضت من خلال ترابي» فقدر له داود قوله واحترمه، وعظم فيه حكمته وتواضعه. ويخبرنا مؤرخ آخر بأننا نجد ضريح لقمان في (رامه) وهي مدينة صغيرة بالقرب من القدس، وهو نوبي المولد يهودي المذهب، وقد دفن بالقرب من الأنبياء السبعين، الذين ماتوا في يوم واحد بالقرب من القدس.

(١) الدجال هو الكذّاب أو المخادع. وهو يعني أيضاً ذو عين واحدة وحاجب واحد =

كعادته، وقد قال لي بأنه سيراني قبل مغادرتي المدينة، وأنه سيزورني غداً في مخيمي.

ذهبت بعد ذلك لزيارة عثمان بك وكان في مظهر الجد على عادته، إلا أن نوعاً من مسحة العزم والقسوة كانت تبدو عليه، ومثله مثل الرجل الذي أسند ظهره إلى الجدار. ويبدو أن محمود باشا يصر ـ بناء على توصية باشا بغداد ـ إصراراً شديداً على أخيه ليتقبل منصبه وهو حاكمية كوى سنجاق. وهذا ما يرفضه عثمان بك، إذ إنه يخشى أن يتغلب الأتراك عليه فيتسلموا أزمة الأمور بأيديهم حالما يتنحى هو عن طريقهم الأمر الذي يعني خراب بلاده المحقق. إن باشا بغداد لا يرغب في تضامن العائلة، ولا يحتمل مطلقاً وحدتها، وهو الذي كما كنت أظن، وكما تأكد لدي، نجح في جر الاضطراب على عبد الله باشا وهو الآن يسعى لتنحية عثمان بك وإحلال التنابذ بينه وبين أخيه. أما تصرف عثمان بك، فقد كان في جميع الحوادث الأخيرة تصرف الرجل الشريف الذي لا يحمل في دخيلة نفسه إلا الخير للبلاد وضمان منافعها. وخطأ الباشا الكبير هو ضعفه واحترامه للأتراك الاحترام الكلي، المنبعث في الحقيقة عن الشعور الديني، وكثيراً ما استغربت ضعف الباشا النفساني في هذا الشأن. ومن المؤسف أن يلاحظ المرء شدة انخداعه بباشا بغداد، الذي اعتاد أن يذكره بقوله «أفندمز» أي سيدنا. فلو كان يقدر قوته ومصالحه حق قدرها، لكان من المحتمل أن يجعل باشا بغداد منقاداً إلى ما يريد وإلى معاملته المعاملة اللائقة به. أما عثمان بك، فلا يذكره أو ينعته إلا بكلمة «الوزير».

= وهكذا يسمي المسلمون المسيح الدجال، (أهذا ما توصل إليه ريج؟ ـ المترجم). وينعتونه بهذا النعت. ويعتقدون بأن عيسى المسيح وقد دخل القدس وهو على ظهر حمار فسيدخل الدجّال كذلك القدس، وهم يعتقدون بأنه سيظهر في آخر الزمن وأن المسيح حي ـ كما يعتقدون ـ سيقابله عند هبوطه من السماء ثم يموت بعد أن يتغلب عليه.

وبعد مكوثي عند عثمان بك مدة، جاء المصرف، فخاطبه عثمان بك بنبرة حازمة قائلاً: «لا فائدة من الكلام في الموضوع» فالباشا هو أخي الأكبر وأميري، وله أن يعاقبني، وإن شاء له أن ينتزع مني ما أملكه، ولكنني لا أذهب إلى كوى سنجاق.

ودعته بعد مدة وجيزة، وسمعت بعد ظهر اليوم بأن الباشا أرسل إليه الأوامر الصارمة ليذهب إلى كوى سنجاق، وإلا يحرمه أملاكه ويمنع الناس عن زيارته. وأخذ يندب على رؤوس الأشهاد ضعفه الذي اضطره إلى الانصياع لمقترحات عثمان بك خلال السبع سنوات الماضية من حكمه.

ومهما كانت أغلاط عثمان بك، فمن المؤكد أنه تصرف تصرفاً شريفاً في جميع الأمور التي وقعت أخيراً. إنه أقنع أخيه بألا يتنازل عن منصبه، ورفض دعوة أمير كرمنشاه بالذهاب إليه، وفي كلتا الحالتين كان يعلم العلم اليقين بأنه يصبح باشا لو فعل ذلك. ومما يحزنني أن أرى مثل هؤلاء المخاليق الأتراك يبذرون بذور الشقاق بين أعضاء هذه العائلة المحترمة.

قررت قبل مغادرتي هذه المدينة أن أوجه بعض الكلمات الطيبة إلى صديقي القديم عبد الله باشا. قال لي عثمان بك إن ما حدث إنما كان بدس الأتراك وحيلهم، ومما لا ريب فيه أن عبد الله باشا بريء من أكثر الأمور التي أسندت إليه. وقال لي أيضاً بأن الباشا لان في المدة الأخيرة وطلب من باشا بغداد أن يسمح له بالإفراج عن عمه، ولكن داود باشا لم يوافق على ذلك. فقلت له إنني أعتقد عن يقين بأن ليس هناك ما يمكن أن يلحق به شرًّا إذا ما أحجمت شخصيًّا عن إيقاع الضرر به لمدة قصيرة. فقال لي عثمان بك سوف لا يلحق به الحيف مطلقاً، ونحن لسنا كالأتراك، إذ ليس فينا من يمس منه شعرة، وإن أعطي الدنيا بكاملها.

كان في خدمتنا رجل همجي يدعى محمد جاورش، وكان هذا من

رجال عمر آغا مثلما كان أبوه في خدمة عائلة عمر آغا. وكنا نتمشى خارج الدار قبل بضع ليالي، فوددت أن أتحدث مع عمر آغا الذي كان يتقدمنا بمسافة قليلة ببعض الأمور فنادى محمد جاووش سيده بأن صفر له، وعمر آغا الذي يبدو أنه يدرك تمام الإدراك هذا النوع من المناداة، أدار بوجهه على الفور ليرى من المنادي. وقد أرادت قرينتي أن تهدي أحد الخدم الذين مرضوا فروة صغيرة فسألت محمد جاووش عن الثمن فأجابها الرجل بالكردية التي يتكلمها بصعوبة، ولم تسألين عن الثمن؟ إنه يتراوح بين الخمسة والعشرة قروش، ولكن إذا كنت تريدين الفروة لك، فإني أوصيك بأن تفصلي لك صدرية من اللباد. وهذه الصدريات أو الستر تصنع من اللباد الاعتيادي المستعمل في بطانة السروج والسمرات، أو في المداث اللبادية، وهي تصنع بقطعة واحدة يلبسها الرعاة والطبقة العامة من الكرد المعرضين إلى تأثيرات الجو؛ ويحتمل أن زوجة محمد جاووش تلبس واحدة منها.

والكرد لا يلغطون أو يتصايحون فيما بينهم عند الكلام كالإيرانيين، ولكنهم معتادون على الصياح المفاجىء والصراخ فإذا أراد الكردي أن ينادي آخر، أو يجذب انتباهه إليه صاح بأعلى صوته «هو حه مه كه هو ـ بتطويل النداء ـ حه مه كه هو، هو، هو، ووررا، ووررا» فيجيبه المنادى بالصيحة نفسها. وهكذا يتنادى الجاف أيضاً، ويكلمون بعضهم البعض من تل إلى تل، والكرد نادراً ما يقطعون الطريق قطعاً مستقيماً وبسكون، مهما كانت مسافته أو مدته. بل إنهم دون أي سابق إنذار أو سبب تراهم يصرخون ويطاردون على ظهور خيولهم مسرعين ثم يعودون إلى أماكنهم وذلك عند مسيرهم أو أسفارهم. فعندما كان عمر آغا قائماً بمهمة في كردستان الإيرانية، أوفد رجلين من أتباعه ذات ليلة إلى قرية لا تبعد كثيراً عن الطريق ليشتريا خبزاً، وذلك لطول المسيرة. وكانت الليلة حالكة الظلام، وبعد انقضاء مدة طويلة سمع أصوات الفارسين يعودان باتجاهه

وهما يتطاردان بسرعة فائقة فوق الصخور. ولما كانت المنطقة غير مأمونة أو كانت بالأحرى على غير وئام مع العائلة البابانية فقد تبادر إلى ذهن عمر آغا بأن الأعداء يعقبون رسولية فتهيأ ورجاله الذين معه للقتال وأشهروا أسلحتهم ولكن الأصوات انقطعت على الفور، انقطعت مدة من الوقت دون أن يقف على كنه ما حدث، فاضطر إلى الاتجاه بحذر نحو مصدر الأصوات حيث بوغت بالعثور على جواد لا راكب عليه، ووجد الخيال مطروحاً على الأرض، أما الخيال الآخر فقد ترجل إلى جانبه وظل حيث هو ممسكاً عنان جواده. وقد ظهر أن الرجلين بعد أن اشتريا الخبز رجعا ووضعا مقداراً من الدراهم رهاناً للسباق بينهما، وبدأ السباق على الفور وكانت الأرض غريبة عنهما وهي صخرية وعرة والليلة حالكة الظلام، مما أدى إلى سقوط أحدهما وانكسار عظم فخذه.

والكرد فرسان شجعان لكنهم يجهلون أصول الفروسية، إذ يندفعون بخيلهم على أية أرض وبأية سرعة كانت، وهم يستديرون وينعطفون بخيلهم دون رحمة أو شفقة. وهم يقومون بكل هذه الحركات بخشونة، وبقوة وبالالتصاق على ظهور الخيل وحسب، وهم لا يحسنون معرفة نسل الجواد المعرفة الجيدة. وإن خيولهم جميعها حتى العربية منها، تصاب بعد حين بالعاهات وتمسي كذلك جفولة شرسة. والكردي يفضل الجواد العزوم الشرس، إذ يعتقد أن ذلك مما يظهر المهارة والشجاعة في فارسه. أما العرب، فعلى خلاف ذلك فهم فرسان ماهرون هادئون. ولك أن تركب جواداً ركوباً مريحاً وأنت تسير وراء العربي أو وراء التركي في بعض الأحيان، أما وراء الكردي فلا. هذا والكرد يعتنون العناية كلها بخيلهم وهنالك الكثير من رجال الكرد الذين يسوسون جيادهم بأيديهم. ولا يستبعد أن يعلفوها العلف الكثير، ويدفئوها الدفء الجيد، الأمر الذي يجعلها أقل تحملاً للمشاق التي يخطر ببال المرء وقوعها بين هؤلاء القوم. لقد تفشت في هذه الأيام بينهم الرغبة في اقتناء الجياد العربية وكثيراً ما يدفعون المال

الوافر دون مبالاة ثمناً للخيول غير المعروفة الأصل. وهذه الرغبة أخذت تقضي على تشجيع توليد وتربية الخيول الكردية الأصيلة التي يمكن اعتبارها من أحسن الجياد وأقواها احتمالاً للمشاق وأقدرها على أداء الخدمات للفروسية الباهرة. أما الآن فقد اندرست هذه الجياد تقريباً واستعيض عنها بالجياد الهجينة المستوردة من بغداد ومن البلاد المنخفضة. ولا تتناسل الخيول العربية في كردستان إلا نادراً. فمهورهم كلها من النوع الاعتيادي ولا تملك من مزايا الخيول العربية إلا القليل.

والكرد كشافون ماهرون وأكفاء في الحصول على المعلومات الكثيرة عن معسكرات العدو، فهم يتسللون إلى قلبها بمهارة فائقة، بل إلى خيمة آمرها بذاته. وعندما حاربوا باشا بغداد، سهلت القضية سهولة عظمى لوجود عدد كبير على الدوام من جنود الكرد الاحتياط المضطهدين في الجيش التركي. وقال لي عبد الله باشا إن أخاه عبد الرحمن باشا أرسل في وقعة من الوقائع[1] كرديًّا إلى معسكر باشا بغداد لكن الرجل لم يستطع الحصول على المعلومات التي كان يريدها فرأى من الأفضل أن يقبض على أحد جنود المعسكر ويأتي به أمام عبد الرحمن باشا ليستجوبه كما يريد. والكرد ميالون إلى الموسيقى ميلاً شديداً وأغلب موسيقاهم حزينة، وبعض قطعهم وأغنياتهم كـ(مه لكي جان) و(مه ن كوزه به ناز) - الزاء الفارسية - و(ئه زده نالم) أغنيات رقيقة على بساطتها. وللكثير من أغنياتهم أدوار تتناوب. ونغمات الحصادين وهم يغنون (شيرين وفرهاد) أعادت إلى ذاكرتي أغنية أصحاب زوارق الغندول في البندقية وهم يرددون أغنية تاسسو.

---

(١) عندما كان عبد الرحمن باشا على فراش الموت، قاسى أهله وأقاربه الصعاب في تهدئة باله وأعصابه في النزع الأخير إذ كان في حالة هياج شديد، وهو يكرر القول بأنه يموت على فراشه بهدوء وحطة بينما كان يرغب في أن يكون نصيبه من الموت في ميدان الوغى والشرف. وهذا شعور لم يكن مما يظهره الشرقي كثيراً.

لم أشاهد مطلقاً أناساً ذوي أجسام قوية صحيحة من الجنسين النساء والرجال كما شاهدت ذلك في كردستان، بالرغم من سوء الأحوال الجوية. والكرد بوجه عام قوم أقوياء أصحاء. والأطفال منهم أيضاً ذوو بشرة نقية، ووجوه موردة. أما الطفل البغدادي فتعلو وجهه الصفرة، وبطنه بارزة ناتئة وجسمه مسقوم عليل فكأنه مصاب بالكساح، وإذا لمسته نفر وانكمش على نفسه. أما الطفل الكردي فمخلوق صغير نشيط مرح، قوي، يتصف بالبشاشة والألفة.

٢٥ تشرين الأول:

هرب صباح اليوم الشيخ خالد الشهير. وعلى الرغم من أن هروبه كان مفاجئاً وسرِّيًا فإنه استطاع أن يصطحب زوجاته الأربع معه، ولم يعرف حتى الآن الوجهة التي سار فيها. لقد وضعه الكرد قبل بضعة أيام في منزلة ترتفع على منزلة الشيخ عبد القادر[١] وقد اعتاد الباشا أن يقف أمامه ليملأ الغليون له، أما اليوم فإنهم ينعتونه بالكافر، ويرددون الروايات العديدة عن غطرسته وكفره وزندقته. لقد أضاع الشيخ منزلته إثر وفاة نجل الباشا إذ ادَّعى أنه سيشفيه من مرضه، وأنه بحث في سجل الله عن أمره.. وغير ذلك وقد تباينت الروايات عن سبب هروبه، وقال البعض إنه صار يبذر بذور السوء بين الباشا وإخوانه الذين أرادوا أن يواجههم بالأمر في حضور الباشا. وقال الآخرون إنه بدأ بوضع أسس مذهب جديد، وأراد أن يجعل نفسه سيد البلاد الدنيوي. ولقد قيل عنه ولا ريب الكثير واتهم بأمور أكثر مما يمكن في الحقيقة اتهامه بها فالعلماء والسادة وعلى رأسهم الشيخ معروف[٢] كلهم يكرهون الشيخ خالداً وقد بزهم كلهم عندما كان له سلطانه.

---

(١) ويقصد المستر (ريج) به، الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ بالكاف الفارسية ـ المترجم.

(٢) تلقى المستر ريج من رئيس علماء الكرد الرسالة الغريبة التالية، وذلك قبل رحيله من =

وقد هرب أيضاً يوسف بك شقيق الشيخ خالد وحاكم بيشدر والتجأ إلى عباس ميرزا، الذي يقال إنه نصبه حاكماً على (سه رده شت) علاوة على حاكمية بيشدر التي عليه أن يستمر فيها بحماية عباس ميرزا.

لقد قطع الباشا علاقته بعثمان بك وجرده من جميع حاكمياته وأملاكه وقد كان هذا دون ريب بتأثير خدع وحيل تركية. وهكذا تقوض هذه العائلة التعسة أركانها بنفسها بالشقاق والفتن وتتعرض إلى دسائس السلطات المجاورة لها، وليس بين هذه السلطات من يستطيع التدخل في كردستان بالقوة إذا أرادت.

زارني الباشا مساء اليوم الزيارة الأخيرة. وقال لي عند دخوله الخيمة إنه يشعر كأنه زارني زيارته الأولى أمس من حيث المكان والوقت والنمط. وفي فترات الحديث أجبته بأنه مهما كان يشعر بقصر الوقت الذي قضيته عندهم، فإن هذه المدة قد مكنته ليقوم نحوي بأمور لن أنساها طيلة ما تبقى لي من العمر. لقد وجدته اليوم متأثراً أكثر مما سبق،

= السليمانية بمدة وجيزة.

إلى كبير قومه، باليوزبك.

السلام على من اتبع الهدى، الذي أباركه وأرجو له الله هدايته إلى الصراط المستقيم.

في بدني طفح جلدي مستديم منذ عدة أشهر، فأملي أن تكتبوا لي وصفة قد أشفى باستعمالها فأدعو لكم بالخير.

ولدي صديق حميم وهو الآن مثقل بالضعف البدني الحاد، فإذا كان لهذا الداء من دواء فأرجو أن تبينوا لنا خصائصه فيعود مريضنا مسروراً إلى حالته السابقة. وأرجو أن لا تقطع الرجاء للاهتداء إلى عبادة الله وإلى نوال السعادة التامة.

الفقير «معروف»

انتهت الحاشية. والشيخ معروف والد الشيخ كاكه أحمد الشهير. والأول مدفون في (كردى صه يوان) ـ بالكاف الفارسية ـ قرب مدينة السليمانية، أما الثاني فمزاره في الجامع الكبير منها ـ المترجم.

ويحتمل أن ذلك نتيجة ما قام به من العمل في خصامه مع أخ كانت له السطوة الكلية عليه، ذلك العمل الذي أغلى فيه الدم فنسي حزنه بعض النسيان. وقد تحور الحديث تدريجيًا إلى حالة بلاده وإلى الانشقاق القائم بين أبناء عائلته. وقد سعيت لأحرك فيه شعوره القومي والعائلي، ولكن دون جدوى. بيد أنني كنت أحس بوجود قليل من الحماسة عنده، عندما كنت أتطرق إلى تاريخه القديم، والمنزلة التي قد ينالها قومه بين الأمم المستقلة، إلا أن تلك الحماسة ما كانت إلا سراباً. إن أخلاقه تتصف باللين والتواضع الممتزجين بالأوهام والقنوط مما يجعله منقاداً كل الانقياد إلى ما ترسب في أعماقه من الخزعبلات المثبطة التي أتردد في القول بأنها من صنع الدين، لقد وجدته متجرداً تجرداً تامًّا من كل ما يتعلق بنفسه وببلاده، وذا فطرة عنيدة لا تطاوع الغير. وكان يظهر الصلابة إزاء كل مناقشة لي معه وأخيراً قلت له مازحاً إذا كان قد عزم على استعمال مهارته في إيجاد العراقيل لإصلاح بلاده فلم يعد هناك ما يمكن عمله ومع ذلك فقد تضرعت إلى الله لينعم بالرفاه والقوة على عائلته وبلاده. فأجابني بأنه لا يمكن أن تصبح بلاده أو عائلته يوماً ما قوية، ما دام في العائلة هذا العدد من الأعضاء الأقوياء. فأصررت على رأيي في أن ذلك ممكن، فأجابني: «نعم هذا ممكن إذا ابتلانا الله بطاعون لم يترك إلا واحداً منا». فقلت له ثانية، إن ذلك ممكن دون الحاجة إلى الطاعون، وإن الله على كل شيء قدير، فقال لا ريب إن الله قادر على إطفاء نار جهنم ولكنه لا يطفئها، ثم ذكر رغبته في التخلي عن منصبه فأجبته أن عليه أن يقوم بواجب المنصب الذي اختاره الله له، فقال: «لا شك في ذلك ولكنني أعجب كيف قضت إرادة الله أن تجعلني حاكماً، فقلت له إن ذلك كان لصلاح هذه الآلاف من الناس، فأجاب: «أواه ما أشد الحساب الذي عليّ تأديته في الآخرة، فلم أوافقه على رأيه وقلت له في الحقيقة إن معاملته للناس كانت على الدوام معاملة حسنة، وإنه كان رحيماً بكل فرد

منهم، وإنه لا يمكن بصورة من الصور الحيلولة دون طبع البشر الذي سبب وقوع بعض الاضطرابات في مملكته، مما قد يكون غافلاً عنها، أو لا طاقة له على إخمادها. فأجابني والصدق يغمر محياه «اسمعني يا بك، إنما يحكم على المرء بأعماله، لا بنواياه، وأنا لوحدي المسؤول عن تأدية الحساب يوم الدين عن كل ما يقع من الاضطراب في حكومتي». لقد أنكر داود باشا جميل هذا الباشا وعامله بالخيانة والغدر، ولكنه الآن كسبه كل الكسب ببضع كلمات طيبة، وهو الآن في الحقيقة متعلق بداود باشا كل التعلق، وقد أكد لي محمود باشا بأن الباشا سيخدم داود باشا طيلة حياته؛ ولم يكن قول محمود باشا مجرد ادِّعاء.

وبعد حديث شيق دام ساعة ونصف ساعة، نهض الباشا ليعود. وعندما ودعني انخفض صوته وارتجفت يده وهو يصافحني، وكنت شخصيًّا مكروباً مثله لمفارقتي إياه. لقد رجا أن يراني ثانية، وإني أخشى أن لا نرى بعضنا مرة أخرى. إنه من الصعب أن تفارق المفارقة الأخيرة رجلاً عديم الاكتراث، فكيف وأنت تفارق رجلاً توده وتحترمه، كان محمود باشا رجلاً محبوباً جدًّا في الحقيقة، وإنني سأتذكره على الدوام بشوق، فملامحه النقية لا تنم إلا عن الطهر والإخلاص والبساطة. وما كنت أتوقع مقابلة رجل مثله في الشرق كما أنني أخشى أن لا يجد المرء الكثير من أمثال هذا الرجل في بيئات أرقى. إن المرء ليلمس الحزن والرقة في خلقه، وذلك مما يجعله رجلاً لطيفاً جذاباً، فهو الإحساس بعينه. إنه لم يتغلب حتى الآن على ما داهمه من الأحزان لوفاة ولده، وإنني أدوِّن رأيي مطمئناً لما أقول في أن ليس هناك رجل في الشرق يحب أولاده وزوجته كحبه لهم. دخل عل حزمه مساء أمس للمرة الأولى بعد المصاب، فناداه طفل من أبناء أخيه بكلمة بابا. لقد كان الاسم وصوت الطفولة الذي ردد به الاسم أكثر مما يحتمله، فصرخ وسقط على الأرض مغمياً عليه. هذا مع العلم أن الدين الإسلامي يمنع الأحزان وأن الإفراط

في الشعور إزاء المرأة، أو الولد من الأمور الشائع نكرانها أو الازدراء بها بين أتباع الإسلام، الأمر الذي يعزز جمود الشعور وصلابة النفوس. لقد أصبح الباشا من أقوى الناس تمسكاً بدينه في الشرق، إلا أن تمسكه هذا لم يعطه التعصب والركود في الإحساس. إن طبيعته المثلى ارتقت فوق المعتقدات الإسلامية المنحطة[1]. وربما كان بإمكان رجل أسوء منه خلقاً أن يكون أكثر ملاءمة لحكم كردستان. وإن محمود باشا لم يكن بالزعيم الذي تحتاجه تلك البلاد لأن فضائله جديرة برجل يعيش عيشة خاصة، إذ إنه كان لين العريكة جدًّا كثير الثقة بغيره ولا يقدِّر نفسه إلا بأقل مما تستحق؛ ومع كونه شجاعاً في ميدان القتال فقد كانت تعوزه جرأة المدني اللازمة. لقد جعله الدين والتفكير قليل الاكتراث بالأخطار كما أفقده الحزم والعزم أيضاً. لقد كان بميسور أي رجل أن يقوده، فكان يركن إلى أي فرد يتقدم لمعاونته حتى في الأمور التي تخالف رأيه الراجح ومع أنه كان بشخصه مثالاً للصدق والشرف، فقد كان يجهل أساليب أرباب الدهاء الذين كانوا يموهون أسوأ خططهم الجهنمية بالصبغة التي ترضيه. وعلى الرغم من وقوعه مراراً على خدعهم كان يظل على ثقته بهم، ذلك لأنه كان ببساطة الطفل الصغير ووداعته. فلقد استطاع داود باش مؤخراً أن يفسد أخيه عليه وحاول تحطيمه. لكنه وجد الآن من مصلحته أن يكتسبه إلى جانبه وأظهر له كثيراً من التودد والاحترام، وقد تناسى محمود باشا كل ما حدث في الماضي.

جاءني سليمان بك ليلاً ليودعني. لقد كان شاباً طيباً أكثر حيوية وعزماً من أخيه، فلم يتكلم عن كردستان بعبارة اليائس وقد قصصت عليه قصة حرب السبع سنوات فأصغى إلى حديثي باهتمام زائد.

---

(١) عفا الله عن ريج، يظهر لنا أنه أراد أن يمدح شخصاً ارتقى خلقاً بوسيلة، فذم الوسيلة ذاتها، ولا ندري كيف يوفق بين هذا وذاك ـ المترجم.

بدأ هذا الجزء من سياحتي بوصوليَ إلى السليمانية، وسينتهي برحيلي عنها. وسأسافر غداً إلى الموصل بطريق (آلتون كوبري) و(أربيل).

وإنني أبارح كردستان بأسف لا حد له، فما كنت أتوقع مطلقاً أن أجد فيها أطيب الناس الذين لاقيتهم في الشرق كله. فقد عقدت الصداقة فيها، وعوملت بإخلاص متناهٍ أينما حللت، وبلطف وبضيافة لا حد لهما؛ وأخشى أنني سوف لا أنتظر مثل هذه المعاملة خلال سياحتي المضنية، ولسوف تبقى هذه الذكريات عالقة في قرارة نفسي ما حييت.

* * * * *

هكذا أنهى المستر ريج الجزء الأول من كتابه هذا بهذا الفصل. وقد أراد المترجم أن لا ينهي هذا الجزء إلا بإضافة الفصل الثاني عشر إليه وهو الفصل الأول من الجزء الثاني من الكتاب. وبهذا الفصل يصل (ريج) إلى الموصل، تاركاً السليمانية ومارًّا بـ(آلتون كوبري) و(أربيل) وغيرهما من المدن والقرى عابراً الزابين. ويعتقد المترجم أن صفحة الرحلة الثانية تبدأ بيوميات (ريج) عما شاهده في الموصل ونواحيها وما كتبه عنها وعن سفره منها بطريق النهر راكباً الرمث ـ الكلك ـ حتى بغداد وإتمامه رحلته من بعدها.

* * * * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني عشر

الرحيل من السليمانية - وصف البلاد - قرية ده ركه زين - عمر آغا - نجله - مضيق (ده ربه ند) - مغادرة كردستان - أخبار من السليمانية - خيبة عمر آغا - سهل جميل - قرى - طنف اصطناعي - نهر كابروس (الباء فارسية) أو الزاب الصغير - آلتون كوبري - مخيم فارس آغا - خسته - مشاهدة أربيل للمرة الأولى - وصف المدينة - سهل أربيل - كوكه مه لا (الكافان فارسيتان) - جبل مقلوب - قرية (كلك) اليزيدية - نهر الزاب أو (لي كوس) - مظهر البلاد - نهر الخاور أو (بومادوس Bumadus) - الحاج جرجيس آغا - مدينة كرمليس - خرائب نينوى - الوصول إلى الموصل

* * *

٢١ تشرين الأول:

ودعنا الكثير من الإخوان بأسف لا مزيد عليه، وامتطينا جيادنا في السادسة والنصف تقريباً من صباح اليوم فرحلنا من بستان صديقنا الباشا الكريم الحكيم، وسرنا فوق أرض متموجة من سهل السليمانية مارّين بقرية آق بولاق - آبلاغ - الكبيرة وهي عن يسارنا. فالسهل جميعه في هذه

الأماكن مرتفع أكثر إلى الجانب الغربي منه، وهو يستمر بالانخفاض إلى أكثر من نصف الطريق إلى التلال المقابلة. وبعد ميل ونصف الميل تقريباً من السليمانية وصلنا إلى (تانجرو) أو نهر (سه رجنار) وهو الذي عبرناه في طريقنا من بغداد وقد أصبح الآن ساقية صغيرة، وإن كان عرض مجراه لا يقل عن المائة باردة وكانت قرية (ألياسه) ـ قلياسان ـ على ضفته اليمنى. وبعد مرورنا من قرية (باوين مرده) ـ باوه مرده، أي الأب الميت ـ في التاسعة وخمس وعشرين دقيقة جئنا إلى قرية (كيله سبي) أو (ته به ره ش) وهي تقرب قليلاً من أسفل الرابية التي نصبنا خيامنا عليها في طريقنا إلى السليمانية من بغداد. نزلنا هنا لقضاء اليوم بالرغم من رداءة القرية، وكان القرويون جميعهم مشغولين بجمع محصول الأقطان، وقد زاد حالهم في بهجة المنظر. والأرض في هذه البقعة يرويها جدول صغير يسيل جنوباً مع انحراف إلى الشرق، فيصبّ في نهر (تانجرو) وكان جبل (غودرون) ـ بيره مه كروون ـ ونحن في هذا المكان ماثلاً أمامنا كجدار صخري يمتد نحو الشمال الغربي والجنوب الشرقي. وكانت السلسلة الغربية من التلال مرئية لنا وهي أمامنا على بعد ميل ونصف الميل، يحدها بوجه عام، أفق أو خط صخري، يزداد ارتفاعاً كلما امتدت التلال إلى الجنوب. وكانت الصخور مرئية أيضاً في جوانب التلال بأوصال متشققة، وكأن التلال هذه كانت تلالاً متفتتة. وإلى مسافة ميلين أو ثلاثة أميال إلى الشمال تتشعب من هذه التلال سلسلة منخفضة تتصل بجبل (غودرون) وكأنها تستر وادي السليمانية من ذلك الاتجاه. ويقع على هذه السلسلة المنخفضة طنف (كه رماوه) وبقاياه[1] وإلى أبعد من ذلك، فيما وراء (غودرون)، تشمخ صخور (كوور كوور) العظيمة الجرداء.

---

(١) يمر أحد الطرق بين السليمانية وكوى سنجاق بـ(كه له وانان)، ويستمر في منطقة (سورداش) متوازياً مع (غودرون)، والمسافة ١٤ ساعة. انتهت الحاشية. وتسمى القرية عند هذا الطنف في يومنا هذا بـ(كه رمه كاني) ـ المترجم.

درجة الحرارة ٨٥ في الثانية بعد الظهر، و٥٩ في العاشرة بعد الظهر.

٢٢ تشرين الأول:

ركبنا في السادسة والثلث من صباح اليوم واضطررنا إلى السير في الاتجاه الشمالي الغربي إلى مسافة لا يستهان بها تخلصاً من أرض موحلة. وكان الهواء عند طلوع الشمس قارصاً، وبعد السابعة بقليل وصلنا إلى جبل (طاسلوجه) حيث يتسع خط التلال عندها عرضاً وينخفض كثيراً، ولم تكن قنن تلولها صخرية كما كانت تظهر بفترات على قمم التلال الأخرى من السلسلة، وهي تزداد ارتفاعاً فوق السهل نحو الجنوب الشرقي، وقد يكون ذلك بسبب انخفاض السهل في ذلك الاتجاه نحو نهر ديالى، وكذلك الأمر في سهل (بازيان) ذلك السهل الذي انحدرنا إليه بعد ارتقاء متدرج جدًّا في نحو الساعة الثامنة. وهذا السهل ينشطر من وسطه بخط تلال أوطأ من تلال (قه ره داغ) التي يظهر أنها تنتهي عند جنوب طريقنا بقليل والمتكونة من الأحجار الرملية وطبقاتها مرتفعة إلى الشرق ومنحرفة انحرافاً مائلاً إلى الغرب. وقد صادفنا في هذه الأماكن بعض الرجال ومعهم فلو جاؤوا به من كركوك لبيعه في السليمانية. لقد أعجبني الحيوان وبدأت أتساوم عليه فاشتريته بمائة وخمسين قرشاً عيناً[١]. ولم تعقنا هذه المعاملة عن طريقنا، إذ إن الباعة رجعوا من حيث أتوا وصاروا يتساومون معنا ونحن دائبون على المسير[٢].

---

(١) إن قيمة القرش العين في ذلك الزمن تتراوح بين الشلنين والشلنين ونصف الشلن.

(٢) إن الصخرة العمودية التي لاحظت سمتها في السليمانية كما دونته في ملحوظاتي الفلكية باسم (آردالان) كانت على يميننا باتجاه شمالي غربي. وهي قمة فوق التلال التي تؤلف الحدود الغربية من سهل أو وادي السليمانية.

وفي العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين انعطفنا إلى الجنوب الغربي نحو قرية (ده ركه زين)، والتلال التي تشطر السهل تنعطف نفس الانعطاف ثم تنتهي مباشرة بصورة تدريجية. وتقع (ده ركه زين) تحت سلسلة صغيرة من التلال الآتية من (ده ربه ند) وتمتد نحو التلال التي تشطر السهل، وهي تنتهي قبل الاتصال بها تاركة فجوة في القسم الغربي من سهل (بازيان). وصلنا إلى القرية قبل الحادية عشرة بعشر دقائق ونصبنا الخيام في أرض مخيمنا السابق.

كان سكان القرى التي مررنا بها بأجمعهم في حقولهم يجمعون محصول الأقطان، وكان منظرهم مبهجاً فرحاً، بل منظراً فريداً، إذ إن الطرق في الشرق كله تكون عادة هادئة خالية، إلا في مثل هذا الموسم. وسكان قرية (ده ركه زين) من أصل تركماني، وهم لا يزالون متمسكين بلغتهم، ومظاهرهم تميزهم تمييزاً كافياً عن القرويين الكرد. ويسرني أن أذكر بأن عمر آغا، صديقنا العظيم، لا يزال مهماندارنا. إنني راجعت الحكومة في السليمانية لتعيد إليه بعض القرى التي انتزعت منه بطريقة مزرية. وقد وعدوني بذلك إرضاء لي، فبقي عمر آغا في السليمانية لاستلام القرى، غير أنه أرفق أغلب رجاله معي. إن ما يقارب المائتين من الرجال يعدون من محسوبيه، ويعتمدون عليه في عيشهم. وفي كردستان تصبح عائلة كهذه العائلة عشيرة آجلاً أو عاجلاً. وقد تعلق بي اثنان من أتباعه وهما «فقي قادر» و«آوره همان» ـ عبد الرحمن تعلقاً شديداً، فكانا يتبعانني أينما ذهبت ويقتفيان كل حركاتي. فإذا وقفت وقفا بجانبي، وإذا نظرت إلى شيء أصغيا إلي وتفرّسا في وجهي أولاً ثم وجها نظرهما إلى الاتجاه الذي أنظر إليه، وقد كانا أتبع لي من الظل.

وصل الليلة «آولا» ـ عبد الله ـ نجل عمر آغا الأصغر، وهو طفل في السابعة من عمره، إلى مخيمنا من السليمانية، ومعه صبي آخر لا يتجاوزه في العمر كثيراً. إنه استأذن والده بمرافقتنا، وعلى إثر إجابة والده له

انسل خفية منه وهو يتناول طعام الإفطار، فرزم أمتعته القليلة وشد السرج على جواده وجد في السير حتى قطع بمرحلة واحدة المسافة التي لم نقطعها نحن إلا بمرحلتين.

درجة الحرارة ٥٦ في السادسة ق.ظ، و٨٤ في الثانية ب.ظ، و٦٤ في العاشرة ب.ظ.

٢٣ تشرين الأول:

رحلنا صباح اليوم في السادسة والنصف، وسرنا في وادٍ بين خط صغير من التلال يقع وراء (ده ركه زين) مباشرة وخط آخر يقابله وهو متجه من الشمال الشرقي أيضاً من (ده ربه ند) نحو (بازيان). وفي السابعة والثلث اجتزنا (ده ربه ند) وكانت طبقات الجبل منحنية في كل جانب من جانبي الجبل كأنها تحاول تكوين المضيق. وفي خارج المضيق مباشرة ترتفع عن الأرض طبقة من الصخور موازية للجبل كأنها قسم من أنقاضه؛ وفي خارجها كلها في أسفل الجبل، وهو امتداد جبل (قه ره داغ)[1] كانت الطبقات منحنية ومتموجة بصورة عجيبة، وفي رأس المضيق خربة مربعة كالحصن في داخلها بئر اكتشفت في الأيام الأخيرة، وجدرانها مشيدة بأحجار كبيرة.

ومن مضيق (ده ربه ند) سرنا باتجاه جنوبي غربي، وقد ارتفع أمامنا

---

(١) يمتد (قه ره داغ) حتى (ده ربه ندى بازيان). وبعد أن يمتد قليلاً مستقيماً كجدار، يتجه قليلاً ويمتد إلى الغرب فيؤلف (جه رمه لا) ثم ينعطف بكثرة إلى الغرب فيؤلف هضبة (خال خالان). ويقل ارتفاع (قه ره داغ) طيلة الهضبات من (سه كيرمه) وهي مرتفعة جدًا تعلو غيرها من الجبال في المنطقة. أما (جه رمه لا) و(خال خالان) فلا يعتد بعلوهما، ويظهر أن تربتهما ترابية فقد كانت سفوحهما مخددة مشققة، وبعد مسافة قليلة مباشرة ينتهي ويتلاشى هذا الخط من التلال. و(آقجه له ر) منطقة تقع وراء (جه رمه لا) تمتد حتى نهر (كوى سنجاق) وهي تحتوي على عشر قرى.

خط تلال (كيشه خان) و(قه ره حسن) الصغيرة المخددة وهي تمتد إلى الشمال الغربي، والجنوب الشرقي. وقد انخفض توًّا مستوى الأرض عن يميننا انخفاضاً وعراً خرباً، ويبدو أن انخفاضها بلغ عمقاً يزيد على المائة قدم، وكأنها تغيرت تغيراً عجيباً وخطت فيها نتوءات من أحجار رملية خطوطاً متوازية بفجوات متساوية، وكلها منبطحة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكانت شأن غيرها من الطبقات التي مررنا بها، ترتفع نحو الشرق وتنحدر نحو الغرب انحداراً كبيراً جدًّا. وكان قعر هذا المنخفض متشققاً أيضاً، خددته مجاري المياه. ويشاهد المرء بوضوح في الكثير من هذه الشقوق والأخاديد آثار نترات البوتاس، ولون التربة على العموم أحمر غامق ضارب إلى السواد. وقد انحدرنا إليها في السابعة والنصف، وبقينا نسير بين طياتها طيلة مرحلتنا لهذا اليوم.

وبعد مدة قليلة جئنا إلى قرية (شيخ ويسي) الصغيرة في منطقة (شوان)، وقد وجدنا هنا أنفسنا قد حدنا قليلاً عن الطريق فانعطفنا إلى الجنوب بخمس وأربعين درجة إلى الغرب للعودة إلى طريقنا الأصلي.

وشاهدنا الكثير من شجر الدفلة على ضفتي جدول ماء صغير، ووصلنا إلى طريقنا الأصلي في التاسعة إلا ربعاً، وكان للأرض المحيطة بنا منظر غريب جدًّا، فكأنها تخططت بسطور مائلة متوازية مكونة من طبقات أحجار رملية متشققة، ونشزت عن وجه الأرض فبرزت فوق الأديم بروزاً قليلاً.

وفي العاشرة والنصف وصلنا إلى قرية (غزالان) الكبيرة[١] فرأينا فيها بعض اليهود. والظاهر أن سكنة هذه المنطقة هم من الطائفة المسماة بـ(جراغ سونديره ن) أي مطفئوا الأضواء، وبعد رحيلنا من هذه القرية بقليل بدأت الأرض ترتفع أيضاً، وأصبح طريقنا متكسراً جبليًّا ووصلنا إلى

(١) وصحيحها (غزاوان Gazavan) كما جاءت في الخرائط الحديثة ـ المترجم.

مراحنا هذا اليوم في قرية (غوولوورم كووه ـ Ghulum Kowa)[1] في منطقة (شوان) في الدقيقة العاشرة بعد الزوال، وقد سرنا مدة خمس ساعات وأربعين دقيقة، وكانت سفرتنا لهذا اليوم سفرة غير مريحة في طرق متعبة في منطقة وعرة، وكنا نشاهد تلال كركوك من موقعنا هذا وكأنها نجد منبسط يهبط هبوطاً متدرجاً متكسراً متخدداً إلى بقعة الأرض الواقعة بين تلك التلال وبين (ده ربه ند). درجة الحرارة ـ ٦٢ في السادسة قبل الظهر، و٨٤ في الثانية بعد الظهر، و٦٤ في العاشرة بعد الظهر.

٢٤ تشرين الأول:

ركبنا جيادنا كالعادة في نحو السادسة إلا ربعاً فخرجنا صاعدين من الوادي الضيق الذي تقع فيه قرية (كوولوونكه وه) وقد أمسى أديم الأرض مزيجاً من التراب والحصى، يغطي أضلاع الأحجار الرملية التي شاهدناها في كل منخفض مررنا به يوم الأمس، أما لون التربة فلم يعد بمثل الحمرة السابقة. وهذه البقعة من الأرض تلية وإنني لأعتقد بأن جميع البقاع الحصباوية الأخرى تلية أيضاً تتخللها أودية وعرة عميقة، تقطعها مجاري المياه التي تبلغ أحياناً عمق ستين قدماً، والأرض في هذه الأماكن لا يظهر من طبقاتها إلا التراب حتى وإن كانت مقاطعها بمثل هذا العمق، ولا تظهر فيها الأحجار الرملية، وإن الحصى الذي شاهدته كان إما من الأحجار الرملية أو من المرمر أو الجبسين أو أحجار النورة. اجتزنا واديين عميقين

---

(١) هذا ما جاء في النص، وقد جاءت الكلمة في الخرائط الحديثة (غوولام كاوا ـ Ghulam Kawa) وأقربها إلى اللفظ الكردي (كوولوونكه ره) ـ الكاف الأولى فارسية وقد جاءت في رحلة المنشيء البغدادي بـ(كله كوه)، وذكر المنشيء اسم قرية «كل كبود» ـ الصفحة ٧٥ من رحلته ـ ولم يذكرها ريج في رحلته، كما أننا لم نحققها ولم نعثر عليها في الخرائط، والظاهر أن الاسم لم يكن إلا ترجمة إلى (كوولوونكه ره) ـ المترجم.

بعض الصعوبات وكان الارتقاء منهما نهوداً أكثر من انحدار نزولهما وذلك بعد وصولنا بمسافة قليلة إلى قرية (كوولوونكه وه). إننا لا نزال في منطقة (شوان)، والإدارة فيها تتبع أصولاً لم أتمكن من إدراك كنهه؛ فالمنطقة تابعة إلى (كركوك) ولكن القرويين تابعون إلى كردستان. وهذه المنطقة تراجع في شؤونها السليمانية تارة و(كوى سنجاق) تارة أخرى. ومن (كوولوونكه وه) ينعطف طريقنا نحو مرتفعات هذه المنطقة التلية المتشققة الأركان، وهذه هي الحقيقة، لم تكن إلا امتداداً إلى منطقة (قه ره حسن) وهي في حالتها الآن جرداء قاحلة تماماً، إلا من بعض الشجيرات في الوديان، لا يرى المرء فيها خضرة حيثما وجه نظره. لقد تذكرنا كثيراً وهاد كردستان البهيجة تلك الوهاد الجميلة حتى في موسم ذبولها في الخريف. ولا يزال (غودرون) شامخ الرأس من بعيد.

ومجاري المياه التي شاهدناها اليوم وفي الأمس، كانت تجري عن يسارنا. وفي السادسة والنصف تشعب طريقنا إلى الجنوب قليلاً من طريقنا إلى كركوك. وبعد الثامنة بقليل اضطررنا إلى الوقوف لمدة قليلة، لإعادة نعال سقط من حافر جوادي. وكانت كل من (خال خالان) و(كوى سنجاق) في تمام الاتجاه الشمالي منا. واستأنفنا المسير في الثامنة والنصف، وكانت الأرض الآن أقل تشققاً، أو أن تشققها أقل عمقاً من سابقتها، وفي العاشرة إلا عشر دقائق وصلنا إلى قرية (قفار) وهي منتهى مرحلتنا اليوم. وكان أغلب القرويين في خيامهم بجوار القرية؛ والأرض والقرويون هنا تابعون إلى كركوك. لقد سرنا اليوم مدة ثلاث ساعات وخمس وثلاثين دقيقة.

التحق بنا عمر آغا في الليلة الماضية وقد أخبرنا بأن عثمان بك رضي أخيراً بالذهاب إلى كوى سنجاق. وعمر آغا المسكين لم ينجح في طلبه لاستعادة قراه، وقد جاء بجميع رجاله وأفراد عائلته إلا النساء منهم؛ إنني سأبذل كل ما في وسعي من أجله.

درجة الحرارة ـ ٥٠ درجة في السادسة ب.ظ. و٨٨ درجة في الثانية ب.ظ.

٢٥ تشرين الأول:

سرنا في السادسة من هذا الصباح. وكان اتجاهنا شماليًّا غربيًّا بثلاثين درجة ونزلنا إلى وادٍ يسيل فيه جدول يروي الكثير من القرى، ويدير الكثير من الطواحين التي تعلوها الحصون الصغيرة، وتحيط بها عدد من الأشجار؛ ومظهرها من بعيد أشبه بكنائس القرى. ويأخذ الوادي بعد ذلك بالانحدار متسعاً نحو السهل، والمعتقد أنه سهل (كوك ده ره) والجدول يصب في (كوبري صو). لقد مررنا بقرى كثيرة؛ ومن بين القرى الكبيرة التي شاهدناها قرية اسمها (عمر بك). لقد وصلنا الآن سهلاً واسعاً جميلاً، وإن كان أديمه لا يزال حصباويًّا فإنه غني بالمزارع، وأراضيه صالحة لزراعة الحبوب. والقرى الكبيرة متبعثرة، في جميع الاتجاهات فيه. وإحدى هذه القرى كانت في أول مدخل السهل، وفي جوارها طنف اصطناعي صغير، وإنني لم أتمكن من معرفة اسمها. وكانت تلال (قيزبير ـ Kizbeer)[1] أمامنا وهي تمتد عن يسارنا والسهل يصل حتى سفحها، أما عن يميننا فكانت تمتد الأرض المتكسرة التلية التي غادرناها الآن.

وفي السابعة اجتزنا قرية (كوك ته به)[2] وطنفاً كبيراً جدًّا عن

---

(١) لم يتحقق المترجم هذه التسمية. وقد جاءت في النص تارة (قيزبير) وتارة (كي بير) واستناداً إلى وصف الكاتب يظهر أنه يقصد بها تلال (آوانه داغ) وهي السلسلة الممتدة بموازاة طريق (آلتون كوبري) ـ (الكوير) إلى شرق (قه ره جوق داغ) مباشرة. ويسميها الأهلون اليوم (زووركه زه را) وهذا وصف أكثر من أن يكون اسماً.

(٢) علم المترجم أنه لم يبق لهذه القرية من أثر الآن سوى تل صغير يطلق عليه (كوك ته به). والظاهر من وصف الكاتب أن هذه القرية كانت بالقرب من قرية (كوكجه) القائمة الآن.

يسارنا، وكان في تمام الاتجاه الغربي وعلى بعد يقل عن الميل من الطريق، وكان الطنف أشبه بهرم ناقص ينشأ من جانبه الشمالي الغربي طنف أوطأ منه، ومنظرهما أشبه بالآثار «البابلية». وبعد نصف ساعة تقريباً اجتزنا طنفاً أصغر قريباً من طريقنا ووصلنا في منتصف النهار إلى (آلتون كوبري). كان اليوم شديد الحرارة ومرحلتنا أطول مما كنت أتوقع، وقد قضينا فيها ست ساعات ونصف ساعة.

انحدرنا نحو النهر[1] من فوق أرض تعلوها الحصى الكبيرة. إن صخور النهر وقاعه كلها حصوية جلمودية. وليس بإمكانك مشاهدة المدينة إلا عند انحدارك إليها. وشاهدنا على الضفة الجنوبية من النهر معسكراً لقطعة كبيرة من مدفعية الصحراء والمدفعية الثقيلة؛ وقد وصلت الآن من استانبول أغراض باشا بغداد وخدمه. وكانت هذه القطعة مؤلفة من أربعة رعائل؛ وسرية من المدفعية الثقيلة وخمسة عشر مدفعاً صحراويًّا، وحمولة خمسمائة بعير من الذخيرة. مررنا من فوق الجسر المرتفع المسنم الذي رمم أخيراً ثم اجتزنا المدينة ومنها عبرنا جسراً آخر وخيمنا فوق أرض بطحاء بالقرب من الأحياء اليمنى أي الشمالية الغربية من المدينة.

يبعد دجلة عن آلتون كوبري مسيرة ثماني عشرة ساعة، ويمكن قطع المسافة على رمث (كلك) خلال نهار واحد عندما يفيض النهر، أما في هذا الموسم من السنة فيستغرق الوصول إلى دجلة مدة ثلاثة أيام. لقد عبرت المدفعية المار ذكرها أعلاه النهر خوضاً وكان عمق المياه على طوار سد ينحدر في وسط النهر يتراوح بين الثلاثة والأربعة أقدام[2] وتبعد (كوى سنجاق) الواقعة على خمس وثلاثين درجة من الشمال الشرقي

(١) إن (آلتون صو) أو (كابروس) القديم، سماه أبو الفداء بالزاب الصغير.

(٢) وقد خاضت هذه القوة الزاب الكبير أيضاً.

مسافة اثنتي عشرة ساعة بمسيرة جواد سريع، وبمسافة ثماني عشرة ساعة بمسيرة القافلة. ويوجد طريقان إليها، فالواحد على الضفة اليمنى من النهر الذي يفترق من (كوى سنجاق) بعد ست ساعات منها والطريق بكامله متكسر، تلي، غير أنه لا يعترضه جبل يقتضي اجتيازه. وعلى الضفة اليمنى من النهر على بعد قليل من أسفل الجسر شاهدنا بعض المرافيء ومخازن الحبوب وغيرها. وفي هذا المكان تفرّغ الأرماث الواردة من (كوى سنجاق) أحمالها، كما تشد وتحمل الذاهبة منها إلى بغداد. والنهر قابل لملاحة الأرماث بين (كوى سنجاق) ودجلة. وعرض النهر في أعالي المدينة يبلغ الميل الواحد تقريباً، وهو يجري بفرعين يتصلان في أسفل المدينة بعد أن يستديرا حولها ويجعلاها كالجزيرة والفرعان لا يستهان بهما. وغالباً ما تجرف مياه النهر البيوت الكثيرة في الربيع وحينذاك تحيط المياه بالمدينة تماماً وقد توحد الفرعان. ويسيل النهر في جانب الجسر الكبير عند جرف صخري «متحجر» على ارتفاع واحد مع الجسر تقريباً، ثم يرتد الجرف المرتفع إلى مسافة ربع الميل وبعد ذلك يبدأ بالعلو تدريجيًّا. وفي الجانب الشمالي سهل رملي صخري منخفض تحده تلال متكسرة على مسافة ميل واحد تقريباً. والظاهر أن هذه الفسحة كانت معرضة إلى طغيان مياه النهر في زمن من الأزمنة حتى حدودها التلية. وتلال (كي بير) بقممها المسطحة وسفوحها المتكسرة تحيط بنا من اليسار، ويقال إنها تنتهي في منطقة (شه مامك) الكردية، وإلى ما وراء هذه التلال في الاتجاه الذي يمر النهر من بينها نرى (قه ره جوق).

درجة الحرارة ـ في السادسة ق.ظ ٥٩ درجة، و٩٠ درجة ب.ظ و٦٢ درجة ب.ظ.

٢٦ تشرين الأول:

سرنا في السادسة صباحاً باتجاه غربي في منطقة تركناها بين النهر وبين التلال المتكسرة، أو الأرض المرتفعة التي تبدأ في أعلى المدينة فتمتد مبتعدة من الأرض التلية التي رحلنا عنها، والتي تأتي ثانية في تلال (كي بير). وفي السادسة والثلث تشعب الطريق إلى (شه مامك) فابتعد إلى اليسار، وبعد مدة قليلة وصلنا إلى منتهى المنطقة. وهنا عبرنا تلالاً رملية منعزلة، وقد بدأ من بعدها مستوى الأرض يرتفع ارتفاعاً محسوساً، وأخذت الأرض عن يسارنا تتخدد وترتفع نحو تلال (كي بير)، وعلى يميننا على مسافة كبيرة امتداد للأرض التلية المتكسرة التي رحلنا عنها، وتسمى هنا باسم (هه له جه وبستانه) وهي ناحية من نواحي (كوى سنجاق)[1]، وشاهدنا إلى وراء هذه امتداد جبل (ازمر) وعلى بعد شاسع من ورائه ترتفع جبال أخرى عالية.

مررنا بقرية (مخزومة) عن يسارنا ونهر صغير يصب في (آلتون صو)[2] ويظهر أن الطريق الذي نسير عليه كان فيما مضى معلماً بتلال صغيرة اصطناعية متباعدة عن بعضها بمسافة ساعة أو ساعة ونصف الساعة، وقد شاهدنا بعضاً منها. والأرض وإن كانت حصوية قليلاً، إلا أنها كانت سهلاً جيداً يمتد إلى (كي بير) وإلى (هه له جه وبستانه). وكنا نشاهد عدة قرى في كلا الجانبين عن اليمين وعن اليسار والزروع كثيرة والقرويون يحرثون الأرض.

وفي العاشرة وصلنا إلى مضرب فارس آغا رئيس عشيرة (دزه يي) في قرية (قوش ته به) وقد سميت باسم أحد التلال الصغيرة التي ذكرناها.

---

(١) والآن تتبعان ناحية (قوش ته به) التي أصبحت ناحية مركز أربيل ـ المترجم.

(٢) أعتقد أنه من الغلط أن نسمي النهر بآلتون، والكلمة لم تكن إلا علماً للجسر لأن تشييده كلف مالاً كثيراً، وآلتون تعني الذهب، أو المال.

وعشيرة (دزه يي) كردية كانت تابعة فيما سبق إلى (كوى سنجاق)، وقد فصلها باشا بغداد عن كل من (كوى سنجاق) و(أربيل) وجعلها تحت سلطته المباشرة؛ وهذا مما جعل العشيرة لا تبالي بأحد. لقد طرد فارس آغا ممونِنا قائلاً له إنه غير تابع إلى وزير بغداد، أو باشا كردستان أو شاه إيران، بل إنه سيد نفسه، يعيش في بلاده، ويرفض قبول الضيوف فالأفضل لنا أن نذهب إلى (أربيل). وعلى هذا لم يبق لنا أمل، وفي الحقيقة كان الأفضل لنا والأرجح أن نستمر في طريقنا فنكسب يوماً، فاستأنفنا طريقنا بعد توقف بضع دقائق. وفي الحادية والنصف ترجلنا عند جدول ماء صغير لتناول كوب من القهوة وابتعد حملة الأثقال عنا مسافة. ثم ركبنا في الثانية عشرة وسرنا باتجاه شمالي، وفي الواحدة والنصف بعد الظهر تراءت لنا (أربيل) باتجاه شمالي شرقي بعشر درجات، وبعد مدة قليلة ظهرت معالمها واضحة، وعندها رسمت منظرها[1]. لقد كان منظر الطنف المسطح الذي، ربما كان مدفناً للأرساسيديين، تعلوه القلعة ومن ورائه جبال الكوردوشيين، منظراً قشيباً حقًّا. لقد استقبلنا قرب المدينة نائب حاكمها على رأس خمسين أو أربعين خيالاً تركيًّا يتقدمهم العرفاء والطبالون. لقد كنت في غنى عن شرف هذا الاستقبال، إذ كاد الغبار يخنقنا قبل ترجلنا. ووصلنا إلى محلنا في الثالثة والنصف، وقد سرنا اليوم ثماني ساعات وأربعين دقيقة.

أقمنا خيامنا عند (كهريز)، أو قناة ماء تعود إلى الحاج قاسم بك[2] على بعد قليل من الجنوبي الغربي من المدينة. وقد خيمت قبلنا بالقرب منا جماعة صغيرة من عشيرة حرب العربية. وظهر لي أن العرب، بعد

---

(١) راجع اللوح.

(٢) ولا يزال هذا الكهريز ينعت باسم كهريز قاسم آغا وهو والد المرحوم يعقوب آغا كبير وجهاء أربيل وأحد شعرائها البارزين - المترجم.

مضي وقت طويل على آخر عهدي بهم، أنهم أناس قذرون صفر الوجوه غير محبوبين؛ أما سكان أربيل فكرد وأتراك.

وفي طريقنا اليوم مررنا بقافلة ذاهبة إلى بغداد تحمل بصلاً وبذور البصل. وكان بانتظاري في (أربيل) مضيفي القديم (حسين) آغا وقد أوفده باشا الموصل لمرافقتي. لقد قررت البقاء في (أربيل) مدة يوم أو يومين لإراحة جماعتي، وكراء بغال أخرى وتوديع عمر آغا[١].

درجة الحرارة ـ ٥٨ درجة في الخامسة ق.ظ. و٩٤ درجة في الثانية والنصف بعد الظهر و٥٩ درجة في العاشرة ب.ظ.

٢٧ تشرين الأول:

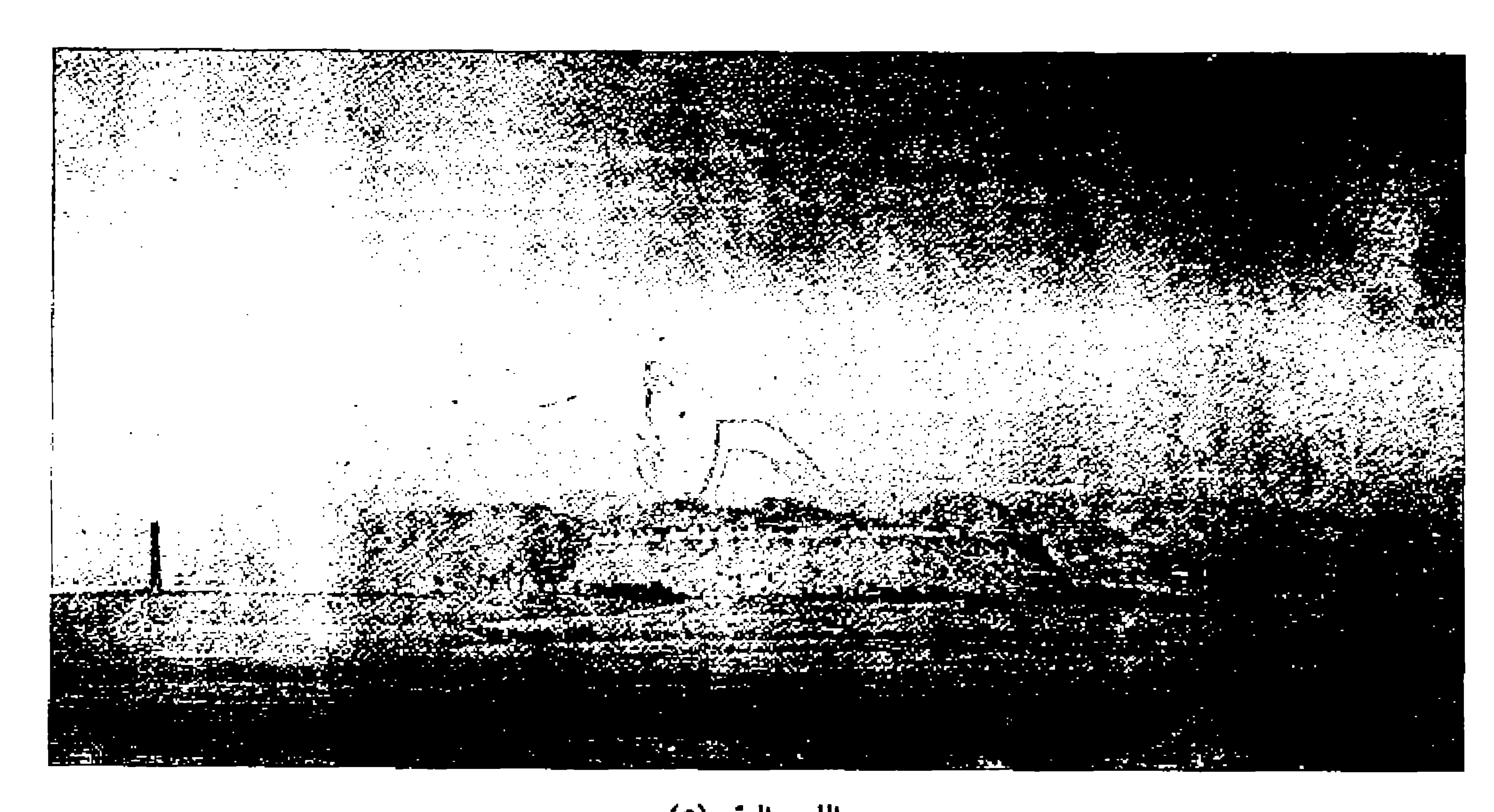
نهضت مع الفجر، وبدأت أعمالي فوراً[٢] فذهبت أولاً إلى المنارة القديمة، وهي أبرز مظاهر المدينة. أما جامعها فمنهدم خرب[٣]، وقد نبشت أسسه كلها وأخرجت أنقاضها وآجرها. وارتفاع المنارة مائة وواحد وعشرون قدماً، ومحيط قطرها واحد وعشرون قدماً وهي قائمة على قاعدة مثمنة طول كل ضلع منها تسعة أقدام وإحدى عشرة عقدة ويتراوح ارتفاعها بين الثلاثين والأربعين قدماً، وفي داخل قطرها درجان لولبيان لا اتصال بينهما حتى الشرفة أو الصحن، والصحن متهدم مع ما يعلوه من قمة المنارة التي لم يسلم منها إلا بعض ما تبقى من الساق الذي يعلو الصحن عادة. والمنارة مشيدة على طراز منارة (طاووق) ويظهر أنها تعود

---

(١) لا نجد ذكراً لهذه الشخصية الشريفة بعد الآن. لقد افترق والمستر ريج عن بعضها في (أربيل) والأطناب في ذكره مما يحزن، وسكوت مذكرات المستر ريج عنه دليل على التأثر.

(٢) راجع الملحق.

(٣) ولا أثر اليوم حتى لهذه الخرائب، وقد تملك أرضها الناس وجعلوها مزارع ـ المترجم.



اللوح الرقم (٥)
مدينة أربيل
كما رسمها المستر ريج عام ١٨٢٠

إلى عهد الخلفاء، أو بالأحرى إلى عهد أمراء (أربيل). وكانت الخرائب تحيط بها، وهي أكوام من الأنقاض كأنقاض بغداد القديمة. وكانت بقايا السور والخندق ظاهرة، سيما من جانب مخيمنا الذي ضربناه بالقرب منها. ويبدو أن المدينة كانت فيما مضى جد واسعة؛ وربما كانت بسعة بغداد الحالية. وتقع (أربيل) عند سفح الطنف الاصطناعي، وعلى الجانب الجنوبي منه خاصة؛ وفيها حمام واحد، وخانات وأسواق. ويقع قسم من المدينة فوق الطنف ويسمى هذا بالقلعة. وهنالك إلى الشرق من المدينة، وبالأحرى إلى شمالها قليلاً منخفض يدعى وادي (جي كونم) يقال إن تيمورلنك نصب خيمته فيه، عندما حاصر (أربيل)، وإن شيخاً دينيًّا من (أربيل) نشر الرعب في جيشه فأخذ يتفرق فصاح تيمورلنك عند ذاك بالفارسية قائلاً: «جي كنم» أي «ماذا أعمل؟» فأصبحت العبارة علماً للوادي[1].

درجة الحرارة - ٥٢ درجة في الخامسة ق.ظ. و٩٠ درجة في الثانية والنصف و٦٤ درجة في العاشرة ب.ظ.

٢٨ تشرين الأول:

استأنفت استطلاعاتي في فترات من هذا اليوم، وأنا محاط بجمع غفير من الأربليين وقفوا على شكل نصف دائرة عن بعد، وغلايينهم في أيديهم وأفواههم وهم يتحدثون فيما بينهم عما أعمله. ولكن لم يضايقني أحد منهم مطلقاً. ولم أتمكن من إخفاء ابتساماتي كلما تذكرت ما لاقاه (دي لامير) - لو صحت المقارنة - في جوار باريس والتي تختلف عما ألقاه أنا في هذا الوسط الغريب المتوحش بدون حرس ولا خدم، وأنا وحيد. كان تخميني لارتفاع الطنف الاصطناعي الذي تعلوه قلعة (أربيل)، مائة

(١) هذه أسطورة، لم نسمع عنها قبلاً - المترجم.

وخمسين قدماً، وقطره أربعمائة ياردة، ولا أشك أنه كان فيما مضى أكثر ارتفاعاً، ويحتمل أن (قاراقللا ـ Caracalla) قد هدم ذروته. فقد حدث قبل مدة بينما كان الحاج عبد الله بك يشيد بناية فوق الطنف، أن اكتشف العمال لحداً فيه جثة لم تغير الأيام معالمها، ولن الجثة لم تلبث أن تفتتت بعد أن تعرضت للهواء قليلاً. فإذا صح ظني أن هذا الطنف كان مدفناً للآرساسيديين، أليس من المحتمل أن تكون تلك الجثة لأحد ملوك البرثيين؟ ولقد أخبرني الحاج قاسم بك بأن باطن الطنف مقسم إلى شقات مبنية بالآجر الكبير الحجم، الخالي من الكتابات. وقد تأكد الحاج من ذلك عند تنقيبه في سرداب بيت له في القلعة. وقد يخمن ارتفاع الطنف بأربعين ذراعاً كبيراً.

وهناك أسطورة محلية خاصة بأربيل هي أن (داريوس)[1] هو الذي بنى أربيل، وهذا أمر غريب في بابه إذ لا توجد في أية قصة شرقية أو تاريخ شرقي أية صلة بين دارا وأربيل، والشرقيون عموماً يجهلون أمر معركة (أربيل) أو (كوكه مه لا).

وتكثر الأرانب والغزلان في سهل أربيل، مع أسراب لا حصر لها من القطا. وتصاد الصقور البالابانية في هذا السهل أيضاً، وتصدر إلى كردستان خاصة.

درجة الحرارة ـ ٧٠ درجة في السادسة ق.ظ. و٨٤ في الثانية والنصف ب.ظ. و٧٤ درجة في العاشرة ب.ظ.، الريح جنوبية شرقية، والجو مغيم.

---

(١) إن لفظة (داريوس) أو (دارا) مثل لفظتي (فرعون) و(قيصر) تعني لقباً لا اسماً وعليه فإن هذه الأسطورة تفيد أن المدينة قد بنيت من قبل أحد ملوك تلك السلالة.

٢٩ تشرين الأول:

كان الأمس يوماً مزعجاً، فقد كان المناخ يشبه مناخ كرارة[١] فالأرياح تهب عاصفة من الشرق والشرقي الجنوبي، والجو مملوء بالغبار الذي غطى كل شيء وملأ أعيننا وخياشيمنا وأفواهنا. وسرنا اليوم في الخامسة والنصف صباحاً باتجاه شمالي شرقي، وبعد ساعة تقريباً مررنا بقرية (ره شكي)[٢] على الجانب الأيسر من طريقنا وهنا يتشعب طريق آخر إلى اليسار ويتصل بالطريق الرئيسي ثانية عند قرية (كرده شير). والظاهر أن الأرض مزروعة بكاملها زرعاً جيداً، وهي أكثر تموجاً من الأرض الواقعة في جنوب (أربيل). وكان القرويون منهمكين بالحرث، وهو خدش بسيط لسطح الأرض ليس إلا. وقد شاهدنا ثوراً صغيراً وحماراً يجران محراثاً وقد ربطا إلى فدان واحد.

والظاهر أن الجبال في هذه المنطقة تنعطف نحو الشرق فتشكل قوساً، ثم تعود فتتجه نحو الغرب عند (الزاب). ولقد أصبح بإمكاني أن أميز الآن عدة سلاسل، الأولى هي الأرض المتكسرة، ولم تكن هذه إلا امتداداً لجبال (شوان) والثانية التلال وهي مرتفعة قليلاً يرتفع عليها تل أو تلان، وسلسلة أخرى صخرية أمام (زغروس) التي تشرف فوق الجميع، وتظهر أنها أكثر ارتفاعاً وتكسراً في قممها من أي مرتفع أو قسم منها شاهدناه حتى الآن. وتتبين خطوط التلال على ما أعتقد، أكثر تقارباً مما كانت عليه في كردستان. وقد شاهدنا أمامنا جبل (مقلوب)، وإلى مسافة

---

(١) كرارة موقع على دجلة على بعد بضعة أميال من بغداد، وقد اعتاد المستر (ريج) وقرينته أن يخيما فيه بعد انتهاء موسم الحر الشديد وذلك اعتباراً من أول تشرين الأول حتى نهاية كانون الثاني. وفي خلال هذه المدة كثيراً ما تهب الرياح الشرقية الجنوبية، وقد جاء ذكر هذه الرياح هنا لتأثيرها، سيما فيمن يعيش تحت الخيام ـ الناشرة.

(٢) وصحيحها (ره شكين) ـ المترجم.

من يساره جبل (قه ره جووق) وهو جبل يقال إنه يمتد حتى (الجزيرة) و(ماردين). وإلى يمين (مقلوب) نرى سلسلتين عموديتين من التلال. وهما تمران من (عقره) وتؤلفان مع (مقلوب) منطقة (ناوكور)[١] وهي منطقة غنية جدًا في إقليم (العمادية).

كانت الأرض تزداد تموجاً كلما تقدمنا، إلا أنها لم تكن مضرسة تضرساً كبيراً ولم تكن فيها ظواهر خاصة. وبين الفينة والأخرى كنا نشاهد ربوة أو ربوتين صغيرتين، كان الطريق يتعقب الطريق نفسها التي شاهدتها في الجانب الآخر من أربيل. وفي الثامنة والنصف تقريباً اجتزنا موقع (كرده شير)، وهو حصن صغير يعلو ربوة وقرية صغيرة في سفح الربوة، ويقال إن هذا منتصف الطريق إلى الزاب. وبعد مدة وجيزة اجتزنا قرية (كرده شير) الصغيرة، وهي عن يميننا. لقد أخذ مستوى الأرض الآن بالانخفاض وكان الزاب إلى يميننا وعلى ضفته قرية (بشير) وفي الحادية عشرة وصلنا إلى قرية (كلك) على ضفاف الزاب[٢] الحصوية وكانت ضفة النهر المقابلة لهذا المكان ترتد ثم تبرز في أسفل المجرى على حين ترتد الضفة التي نحن عليها، ويتكون من ذلك سهل تتراوح سعته بين الميل ونصف الميل حيث يتشعب الزاب في هذا السهل إلى فرعين أو ثلاثة فروع. انحدرنا إلى هذا السهل، فاجتزنا فرعين من الزاب لا يتجاوز عمق

---

(١) (ناوكور) وصف لموضع أو حالة المنطقة ـ وهي سهل يقع بين سلسلتين من التلال. فالتلال أو السلسلة الواقعة إلى شرق (ناوكور) هي امتداد لجبل (ازمر)، وتسمى بجبال (عقره) ثم (ناوكور) و(زعفرانية): ـ (زاخو). وعلى هذا يكون أول جبل اجتازه (زه نيفون) والعشرة آلاف. واللُّغة الكردية كغيرها من اللغات الجبلية غنية جدًّا بالمصطلحات المتعلقة بوصف العوارض والحالات الطبيعية.

(٢) يطلق الكرد وأهالي هذه البلاد على نهر الزاب اسم (زه رب) ويظهر أن لفظة الزاب اقتبسها العرب عن اللُّغة الكلدانية وأن اشتقاق هذه اللفظة كما أوردها (بوكارت) صحيح ومقبول.

الماء فيهما بضع عقد على أكثر تقدير. وفي الحادية عشرة والنصف وصلنا الفرع الرئيسي منه عند الضفة اليمنى وهي جرف حصوي. فعبرناه برمث. أما جيادنا وخدمنا فعبروه من مخاضة في أسفل المجرى، حيث لا يكاد عمق الماء يزيد على الأربعة أقدام وحيث ينبسط المجرى إلى مسافة عريضة، وكان عرض النهر في المكان الذي عبرناه منه لا يتجاوز الأربعمائة قدم في أضيق نقطة منه، ولكنه في عمق يتراوح بين القامتين والثلاث قامات ونصف القامة. وكان التيار يجري بسرعة عقدتين أو ثلاث عقد وكان الماء شفافاً ولونه بزرقة السماء، ويفيض النهر غالباً في موسم الربيع فيطغى على السهل بكامله. وتقع قرية (اسكي كلك) اليزيدية على الجرف عند المعبر، حيث قضينا ليلتنا، وحيث شاهدنا الكثير من معارفنا اليزيديين[1] الذين كانوا في حراستنا في سفرتنا السابقة.

كان سيرنا بطيئاً في الساعة الأولى من هذا اليوم ثم أصبح جيداً طيلة ساعات النهار الباقية، وتقدر المرحلة الواحدة للقافلة بسبع ساعات، إلا أننا قطعناها بخمس ساعات وخمس وخمسين دقيقة.

وتوجد مخاضات عديدة في النهر بين القرية ومصب الزاب بالقرب من (كشاف) عند دجلة، التي تبعد مسيرة خمس ساعات[2] ويتلاشى (الخازر) أو (بومادوس ـ Bumadus) بالزاب على مسافة ثلاث ساعات من

---

(١) وينعتهم الكرد البابانيون بـ(داسني). انتهت الحاشية. (وذلك نسبة إلى جبل (داسن) الواقع إلى شمال الموصل حيث كانوا يقطنون ـ المترجم).

(٢) فيما يلي مخاضات نهر الزاب ـ (١) عند (سطيح) وهي قرية عربية بعد (كشاف) مخاض رديء جدًا، عميق، وقعره من أحجار كبيرة زلقة. (٢) عند شميسات وهي قرية عربية؛ مخاض رديء بعد سطيح، قريب من (أورده ك). (٣) مخاض بعد (أورده ك). (٤) عند أسكى كلك ـ كلك القديمة ـ وهو أحسن المخاضات كلها. (٥) عند بني كلك ـ كلك الجديدة ـ. وهناك ثلاث مخاضات بعد يني كلك، وهي تقع بين كلك الجديدة وبين الجبل، ولم تكن أي من هذه المخاضات قابلة للعبور =



اللوح الرقم (٦)
زوجان يزيديان من (سنجار)

أسفل هذا المكان. و(الخازر) ينبع من صخرة على بعد خمس ساعات وراء (عقره). والنهران (الزاب) و(الخازر) كثيرا التمعج، وتقع قرية (أورده ك) في أسفل ملتقاهما مباشرة على الضفة الغربية من الزاب. وإنني اقتنعت القناعة التامة بعدم وجود أي وادٍ، أو مجرى، أو عين ماء عند الزاب بعد ملتقاه بالخازر.

درجة الحرارة ـ ٦٨د، في السادسة ق.ظ، و٨٨د في الثانية والنصف ب.ظ. و٦٨د في العاشرة ب.ظ.

٣٠ تشرين الأول:

سرنا في السادسة والخامسة والعشرين وكان مستوي الأرض بوجه عام يرتفع عن النهر بمقدار قدمين. فكان الارتفاع الأول من مستوى الماء إلى القرية عند الجرف الحصوي، ثم يعقب هذا الارتفاع سهل منبسط يتلوه الارتفاع الثاني وهو بمستوى الجروف تقريباً، وهو على نحو خمسة عشر قدماً وكأنه كان ضفة النهر في الأيام السالفة. سرنا من القرية إلى المرتفع الثاني، وبعد أن انحدرنا إلى السهل اتجهنا في الساعة السابعة غرباً، وسطح الأرض بين نهري الزاب و(بومادوس ـ الخازر) متموج لكنه لم يكن وعراً أو متكسراً. وكان القرويون يحرثون الأرض في أماكن عديدة. وفي التاسعة والخمسين وصلنا إلى نهر (بومادوس) أو (نهر الخازر) الذي يشبه الزاب تماماً، فإن جروفه كجروف الزاب حصوية عالية ترتد هنا وهناك، فتكوّن سهلاً بينها وبين مجرى النهر ذاته. إننا لا نزال نسير في السهل باتجاه غربي، ـ وكانت قرية (منكوبه) تعلونا وهي على ضفة النهر ـ والنهر على يميننا وقد خضناه في الساعة الثامنة والدقيقة

= الآن، فإنها تتلاشى عند سقوط الأمطار الأولى. (ملحوظة ـ ويلفظ الأهلون كلمة «أورده ك» بـ«وه رده ك» ـ المترجم).

العاشرة. وكان ماء المخاضة على عمق واحد من أوله إلى آخره وهو يتراوح بين القدمين ونصف القدم والثلاثة أقدام، حيث كان يصل تقريباً إلى ركابي جوادي، أما عرضه فكان نحو الثلاثمائة قدم. وكان النهر الآن في موسم انخفاضه وهو أسرع من الزاب في جريانه. وفي الربيع يفيض فيضاناً يغمر السهل حتى جروف ضفتيه فيصبح خوضه مستحيلاً لكنه لا يبقى على ذلك المستوى المرتفع أكثر من يومين ويقال إنه ينبع من محل على مسافة قريبة من (عقره) ولم يكن ساحله الغربي الذي وصلناه بعد أن خضنا النهر، مرتفعاً كساحله الشرقي، والأرض تهبط بعد الساحل الغربي هبوطاً تدريجيًّا - إذا صح التعبير - فتنقلب إلى سهل واسع مستو على امتداد البصر، وأغلب أنحائه مزروعة. وتقع قرية (سارا خاتون) على بعد قليل من أسفل المخاض[1] ومن النهر سرنا باتجاه شمالي غربي، وفي الثامنة والنصف (٦٨د. إلى الشمال الغربي) أصبح اتجاه (قه ره جووق) باتجاه واحد مع (مقلوب) الذي اختفى وراءه. وقبل أن يغيب عنا (مقلوب) شاهدنا على جانبه الشاقولي، وفي وسطه تقريباً، دير (مار متى) أو (القديس متى) وهو دير له قدسيته العظمى بين نصارى هذه الأنحاء. وشاهدنا أيضاً على قمة (قه ره جووق) بقايا كنيسة وكان تقدمنا من (بومادوس) أسرع من ذي قبل.

استقبلني الحاج جرجيس آغا[2] وهو صديق قديم لي، وموظف التشريفات المعين لمرافقتي، وراء مخاض (بومادوس)، وكان معه جماعة من القاووقليين[3] وقد أوفده باشا الموصل ليرافقني ويرحب

---

(١) يتصل الخازر بالزاب تحت (اسكى كلك) بمسافة ثلاث ساعات قافلة أو ساعتي خيال، وقبيل محل التلاقي، تقع قرية (أورده ك) على ضفته الغربية.

(٢) ضابط من ضباط باشا الموصل.

(٣) أو ضباط الحكومة، وهم يُنعتون بالقاووقلي نسبة إلى العمائم الخاصة التي يرتدونها. (والأصح أن يقال نسبة إلى نوع لباس الرأس الذي يرتدونه، وهو =

بقدومي إلى منطقته، فسرنا سوية إلى قرية (كرمليس) وهي قرية كلدانية حقيرة، وقد دخلناها في العاشرة إلا ثلثاً بعد أن سرنا سيراً حثيثاً طيلة اليوم. وتقدر مسيرة القافلة بساعتين ونصف الساعة إلى (بومادوس) ومثلها من (بومادوس) إلى (كرمليس). وكانت (كرمليس) فيما مضى مدينة مهمة وقد خربها (نادر شاه) وهي الآن قرية حقيرة، قذرة جدًّا شأن غيرها من قرى النصارى في الشرق، وفي القرية كنيسة واسعة وقديمة جدًّا يظهر من التاريخ المكتوب عليها أنها رممت قبل مائة وثلاثين عاماً، وهي اليوم آيلة إلى الانهدام. وهناك كنيسة أصغر منها، شيدت في زمن غير بعيد، وهي بناية حقيرة المنظر. ويوجد وراء القرية على بعد نصف الميل من خيمتنا (٨٠د. إلى الشمال غرباً) طنف اصطناعي قديم. وقد تسلقته لتثبيت اتجاهات بعض المناظر المحلية بالبوصلة، وقد نجحت في ذلك بعض النجاح، إذ كانت الشمس مائلة نحو الغروب، وكان هبوب الريح يجعل الأشباح البعيدة غير واضحة كما أن إبرة البوصلة لم تستقر على حال. وكانت القرى تظهر لنا في كل ناحية من نواحي السهل، وكل شيء منبسط أمامنا انبساط سطح البحر.

ويعتقد الميجر (ره نه ل) بأن (كرمليس) هي (كوكه مه لا)[1] ولكن يظهر مما كتبه (اريه ن ـ Arrian) و(كوينتوس كورتيوس) بأن (كوكه مالا) كانت واقعة على ضفة (بومادوس) وعلى هذا لا يمكن القول بأي وجه بأن (كرمليس) كانت على ذلك النهر. وفي الحقيقة أنه يصعب علينا أن نبت في أي من القرى العديدة القائمة في هذا السهل، وعلى طول مجرى (بومادوس) كانت (كوكه مالا). وإننا نعلم جيداً بأن (كوكه مالا) كانت،

= قلنسوة محشوة قطناً ومطرقة. وكلمة «قاووق» تركية تعني التجويف، راجع حاشية الصفحة ١٤٣ـ المترجم).

(١) راجع الصفحتين ١٥٣، ١٥٤ من كتاب نظرات في تاريخ حملة كورش لمؤلفه ميجر (ره نه ل).

حتى في عهد الإسكندر قرية لا شأن لها، الأمر الذي جعل الإغريق يطلقون على الموقعة الحاسمة اسم (أربيلا) لأنها كانت أقرب موقع مهم من ساحة المعركة. وقد ذكرت (كوكه مالا) دون غيرها بغية تعيين موقع المعركة، أما اليوم فليس لنا إذا أردنا أن نعثر على موقع (كوكه مه لا) إلا أن نستمد ذلك من معلوماتنا عن السهل، لكن هذا أمر لا طائل منه إن لم نقل إنه مستحيل. وإنني لا أجد أي سبب يجعلني أن أختار (كرمليس) دون غيرها من القرى التي تحيط بها باعتبار أنها (كوكه مالا)، وقد يكون الجهل بموقع المكان والاشتقاق الغريب لاسمه هما الداعيان لاختيارها. وتقع (كرمليس) في وسط السهل تقريباً[1] وليس في موقعها أمر يسترعي الأنظار.

درجة الحرارة ـ ٥٨ درجة في السادسة قبل الظهر، و٨٠ درجة في الثانية بعد الظهر و٦٤ درجة في العاشرة بعد الظهر.

٣١ تشرين الأول:

امتطينا الجياد في السادسة والربع، والطريق من هنا إلى الموصل باتجاه ٧٥د. شمالي غربي. سرنا في السهل المنبسط حتى الثامنة ثم أصبح وجه الأرض حصويًا غير منبسط. أما السهل فلا يزال ممتداً على بعد عن يميننا. وفي الثامنة والنصف جئنا إلى أرض أكثر ارتفاعاً، وقد اختفى السهل عن أعيننا في كل الأنحاء. ولم تمض برهة إلا وانحدرنا إلى مجرى نهر اسمه (شورده ره) أو الوادي المالح وكان يابساً، أما في الشتاء والربيع فلا يمكن عبوره أحياناً لمدة يومين أو ثلاثة أيام من جراء المياه والأوحال.

---

(١) ينبع جدول صغير من (تارجه للا ـ ترجلله)، فيمر في (شاه قولي)، فيؤم (كرمليس). وفي هذه القرية يستغل لإرواء زراعة القطن، وعندما لا يستغل كله للزراعة في (كرمليس)، تمر مياهه من جوار (قه ره قووش) حيث تعلوه قنطرة ذات قوس واحد ثم يصب في دجلة.

ومررنا هنا بقافلة جمال محملة عفصاً ونحاساً في طريقها إلى بغداد.

وفي التاسعة والدقيقة الخمسين وصلنا إلى سد كبير، ثم إلى منخفض يشبه الحفرة ثم إلى سد آخر، والأتراك الموصليون يعتبرون هذه أول (نينوى) أو مطلعها، وبعد مدة وجيزة وصلنا إلى حفرة أخرى وجدار، ويظهر أن ذلك مما يدل على أنه كان لنينوى سوران. وفي الأسفل أو عند هذا الجدار الثاني توجد عين ماء أو بئر يعلوها قوس من بناية قديمة، مؤلف من أحجار كبيرة ويسمى هذا البئر بـ(داملاماجه) ويعتقد الأهلون بأن في مياهه شفاء للكثير من الأمراض ليس لخصائصها الطبية بل لبعض الأمور الخرافية المنسوبة إلى البئر وكلهم يعتقدون بأنها مسكونة من الجان، ولا يجرؤ أحد على التقرب منها بعد حلول الظلام وقد أخبرني حسين آغا أنه مر في ظلام ليلة من الليالي بالبئر فسمع دقات طبول وضجيجاً صاخباً من داخلها فحث جواده هرباً ذلك لأن الرجل الذي يجرؤ ولو بغير قصد على الوقوف لمشاهدة الجان فإنه إما أن يموت لساعته وإما أن يفقد صوابه. ولقد ذقت الماء فوجدته عذباً، وكان صافياً ونقيًّا.

مكثت عند البئر عشر دقائق، واستأنفت المسير ماراً بمنطقة نينوى، بمحاذاة قرية (نبي يونس) وهي عن يسارنا. لقد أمست أسوار نينوى الشرقية ركاماً حصوية، وكأنها طبيعية. ووصلنا إلى ضفة دجلة في الدقيقة الخامسة والعشرين بعد العاشرة. فعبرناه بمعبر إلى مسكننا الذي اتخذناه طيلة مكوثنا في الموصل، وهو جنينة نعمان باشا الواقعة إلى جنوب المدينة، والتي هيأها لنا صديقي اللطيف الباشا، وذلك لأن الإقامة فيها قد تكون أفضل من الإقامة داخل المدينة.

وتقدر المرحلة من كرمليس إلى الموصل بأربع ساعات. أما نحن فقد سلخناها بأربع ساعات وربع الساعة. وقد كانت مسيرتنا جيدة إن لم تكن ممتازة.

درجة الحرارة ـ في السادسة صباحاً ٥٨ وفي الثانية بعد الظهر ٧٨.

الملاحق



الملحق الأول

شذرات من مذكرات السيدة ريج
في رحلتها من بغداد إلى السليمانية

ملحوظة: لقد طوى المترجم من مذكرات السيدة (ريج) كل ما جاء في يوميات بعلها ـ إلا ما ندر ـ من وصف الرحلة والأرض والطرق، واعتنى بوجه خاص أن يثبت ما دونته في يومياتها عن النسوة، والحياة النسوية.

* * *

١٦ نيسان ١٨٢٠:

وأخيراً، بعد أن أخرتني زائرات عديدات حتى الساعة الثانية عشرة، ودعت دار المقيمية وذهبت لأداء بعض الزيارات مودعة. ذهبت أولاً إلى صديقتي الكردية (صالحة خانم) زوجة سليمان باشا، فلم أجدها تغبطني مطلقاً على رحلتي هذه إلى جبال موطنها. إنها وصفت لي انسحاباً أو تقهقراً يضاهي تقهقر العشرة آلاف، كانت فيه بصحبة زوجها وهو يتراجع من (كوى سنجاق) إلى (كرمنشاه) فوق جبال (ره وه ند ـ Revend) في منطقة عشيرة (بلباس) الكردية، وهي من أوحش العشائر المستقلة، وكان قد حرضهم باشا بغداد على مهاجمة زوجها وقتله. وقد استمروا في قتال دائم حوالي أربعين يوماً.

وها أنا أنقل كلماتها كما هي، قالت: «كثيراً ما كان الرصاص

يتطاير من حولي من كل ناحية، وأنا ممتطية جوادي، وحينما وليت وجهي لم أكن أرى إلا القتلى أو الجرحى مجندلين على الأرض حولي» إنهم نجوا وشعروا بسرور السلامة بشجاعة أتباعهم ومساندة بعض الأصدقاء الأوفياء لهم مساندة جاءت في حينها. كانت الخانم جميلة حسناء، مكتملة الأنوثة، نحيفة القد رشيقة الأمر الذي لا يتفق والمخاطرة الفريدة التي انغمرت فيها، فقد كانت تقص عليَّ قصتها بهدوء وتؤدة وتواضع. ودعتها ميممة شطر حرم الكهيا لتوديع صديقتي الحميمة الوفية (حنيفة خاتون)، ومن الغريب أنني وجدتها غاضبة كل الغضب لذهابنا إلى بلاد وحشية جدًّا مثل كردستان تاركين راحة بغداد ومباهجها. فارقتها عند الغروب وأنا حزينة، وذهبت إلى بستان صالح بك وهي تبعد عن المدينة مسيرة خمس دقائق؛ للمبيت عند والدته وغيرها من السيدات التركيات الصديقات اللاتي اجتمعن هناك لتوديعي.

كان زوجي قد ذهب إلى بستان الحاج عبد الله بك التي تبعد عن بغداد مسافة ثلاثة أميال، وقد دعي لقضاء ليلته هناك. ومن هذا المكان بدأت سياحتنا. لقد كانت الليلة ممطرة عاصفة. وقد استغربنا جميعاً لرؤيتنا زوجة الحاج عبد الله بك تدخل علينا في الساعة العاشرة تقريباً؛ إنها امتطت جوادها، وقطعت في هذا الجو الرديء وفي الظلام ثلاثة أميال بغية قضاء ليلتها الأخيرة بصحبتي.

١٧ نيسان ١٨٢٠:

بعد نوم ساعتين نهضت مع الفجر فودعت صديقاتي الكريمات، وقد أخذ الحزن منا جميعاً كل مأخذه. وأصرت ضابط خاتون زوجة الحاج عبد الله بك على مرافقتي حتى دار الحديقة فأركبتها وبنت أختها الجميلة الصغيرة فاطمة خانم تخت رواني، كما أركبت خادمي (تقي)

على حمار وركبت أنا وأم ميناس التي رافقتني في سفرتي هذه المحفات (الكجوات) واتجهنا إلى حديقة البك، وخدمي يحيطون بنا على ظهور جيادهم. هذا ولم يسمح لنا صديقنا بأن نمر بداره دون أن ننزل عنده ونتناول بعض المرطبات.

ولما كان زوجي على وشك الشروع بالمسير عند وصولنا، وكانت الآداب الشرقية تعيب المرء إذا اعتنى بزوجته أكثر من اعتنائه بأمتعة سفره، أو إذا سمح لها بأن تصحبه في موكبه أو قافلته قبلت الدعوة وانتهزت الفرصة لتناول فطور جيد قبل الرحيل، وقد قطع زوجي وصحبه في الوقت نفسه مسافة لا يستهان بها من الطريق.

رحلت عند الساعة العاشرة، وصديقاتي الكريمات وحاشياتهن يبتهلن متمنيات لنا أطيب الأماني. ركبت التخت روان؛ وفي وصف التخت روان أقول إنه محفة مثبتة على عمودين متوازيين في المقدمة وعمودين متوازيين آخرين في المؤخرة تحمل على ظهور البغال ويعلوها غطاء من قماش أحمر مزوق من الزوايا الأربع بالأكر المذهبة، أما خادماتي فقد ركبن (الكجوات) وهذه أشبه بأقفاص يحمل اثنان منها على البغل الواحد وعلى كل من جانبيه لتعادل الحمل، ولسمنة أم ميناس ونحافة (تقي) المسكين فقد كان من الأمور الصعبة المضحكة أن يوضع في كجاوة (تقي) كمية من الأحجار لتعادل ثقل الجانب الآخر. ومهما كان الأمر فالسفر في الكجوات لم يكن مريحاً، إذ على الراكب أن يجلس فيها القرفصاء.

وكان يرافق ركابي ستة فرسان، ما عدا الخدم والمكاريين.

وعند الخامسة وصلنا مخيمنا بالقرب من قرية (دوخله)......

٢١ نيسان:

. . . . بدأت السماء تمطر عند شروعنا بالمسير، وبعد مدة وجيزة هبت ريح جنوبية شرقية شديدة فكف المطر وصحت السماء صحواً جميلاً. وكانت أم ميناس منزعجة انزعاجاً شديد طيلة الطريق، وبالرغم من شعوري بالإشفاق عليها، لم أتمالك نفسي من الضحك إذ كان في سيمائها وفي ملامح وجهها التي كانت تنم عن اليأس والقنوط ما يثير الضحك، وكذلك في وضع دابتها المسكينة التي تطوي بها الأوحال وهي على ظهرها غير مطمئنة لراحتها. وصلنا (جوبوق) في العاشرة.

. . . . . بقيت والحق يقال أرتجف حتى انبلاج الصبح، إذ لم أكن أعلم ماذا يخبىء لنا الدهر في كل لحظة، وأقل الاحتمالات شراً هو أن نبتل، أو أن تتقوض الخيمة علينا. لقد كانت ليلة من ليالي (بايرون).

٢٣ نيسان:

. . . . . . وفي العاشرة وصلنا (ده لي عباس) على قناة (الخالص) وما هي إلا بقايا قرية. وكنا نشاهد القرى في جميع الأنحاء المحيطة بنا إلا أنه لم تقع إحداهن على طريقنا مباشرة. أخبرنا بعض القرويين من قرية (آدانه كوى) المجاورة، أن الأمطار استمرت عندهم لمدة ثمانية أيام متوالية، وأن الأرض بكاملها قد غمرتها المياه. وقد قلقوا كثيراً في ليلة الخميس لمرور ثلاث أكر نارية، أو صواعق فوقهم، وكانت آتية من الغرب ومتجهة نحو جبال حمرين. . .

٢٤ نيسان:

. . . . . بلغنا نهاية تلال ينعتها الأهلون بجبال (حمرين) وذلك بعد السابعة بقليل، وفي هذه الساعة ألمت بأم ميناس آلام شديدة حتى باتت تعتقد في الحقيقة أن ساعتها قد اقتربت. لا يستطيع مجازف، يتسلق جبال

(تشيم بورازو ـ Chim- Borazo) أو (الجبل الأبيض ـ Mont Blanc) أو (هه مه لايا)، أن يقدر جرأته وشجاعته مثلما شعرت أم ميناس عندما رأت نفسها آمنة مطمئنة فوق هذه الروابي الصخرية. امتطيت جوادي تخفيفاً عن إتعاب بغال التخت روان، ولتغيير وسيلة السفر، أما حاشيتي فقد تبعتني على مسافة قصيرة لكي استطيع الركوب سافرة عن وجهي. وما كان بحراستي أحد إلا ميناس. وهكذا بدأت بالانحدار من التلال....

.... والمنظر من أعالي قمة الجبل، وإن لم يضاه المنظر من أعالي (زورا) فإنه يبعث الرضى في نفس من يحب المناظر التي تقترب في جمالها من حد الإبداع؛ في نفس من قد حرم من مثل تلك المشاهدة مدة طويلة. فالمروج الخضراء والقرى البعيدة ونهر ديالى الفياض المتمعج في السهل وحتى الجبال النائية كلها كانت بديعة سارة على الرغم من تواضع هذه المناظر التي أثرت في نفسي التأثير الكلي. وبعد انحداري من التلال وأنا على صهوة جوادي، وبعد التمتع بقليل من الراحة، دخلت محملي ثانية قبل العاشرة.

.... و(قه ره ته به) قرية تركمانية، فيها تكية للدراويش القادريين، وقد تكون قديمة جدًّا؛ دفن فيها أحد سلاطين بخارى المشهورين، وكان قد انزوى في هذه القرية في عهد الخلفاء العباسيين......

وفي الجهة المقابلة من القرية، يقوم طنف آخر اتضح أنه أنقاض حصن قديم. وسكان هذه المناطق مبتلون بأمراض العين كسكان بغداد، وكانت النسوة يترددن بإلحاح على خادماتي ويضايقنهن بطلب السكر الإفرنجي، أي السكر الأوروبي[1] وهو دواء مهم لأمراض العين في جميع أنحاء الشرق.

---

(١) المعروف في العراق بـ(شكر كله) أو (قند) ويعلم المترجم أن الأهلين في بغداد =

بلغت درجة الحرارة في التختروان في الساعة الثانية بعد الظهر ٩٠د.

٢٥ نيسان:

نهضنا على عادتنا بعد الرابعة بقليل. وكان صباحاً رائقاً جميلاً، والنسيم شماليًا غربيًا عليلاً، وكنت جالسة على بساطي تحت شجرة بانتظار دعوتي لركوب التختروان، وبعد أن رحل الرجال وجدت كثيراً من النسوة وقد اجتمعن حولي، وكانت إحدى النساء المسكينات في حالة بؤس وشقاء شديدين لما أصاب عائلتها من القسوة المخيفة التي تعرضت إليها. لقد تزوجت ابنتها قبل مدة من ابن عمها الذي طلقها أخيراً برضاء الطرفين ـ والطلاق أمر شائع بين الطبقة العامة من المسلمين ـ وتزوج بعد مدة من امرأة أخرى، فاقتدت المطلقة به وتزوجت من رجل آخر. ومن المؤلم أن نذكر بأن زوجها السابق قد قتلها إثر زواجها دون أن يكون لذلك سبب، فأرادت الأم الشقية الذهاب إلى بغداد لترتمي عند أقدام الباشا شاكية، لكنها لم تجرؤ إذ إن الجاني هددها بتعقّبها وقتلها إذا سارت خطوة واحدة في تحقيق هذا الغرض. فهي أرملة ولها ولد وحيد لا يزال صبيًا وهو يسعى لتسليتها ويعدها بأنه سينتقم لأخته عندما يبلغ أشده. . . .

وكاد يسقط التختروان من الضفة في الأوحال، فارتجفت بل أصابتني رعدة إلا أنني لم أنزعج، وسمعت صرخة من آمنة خاتون (أم ميناس) تعبّر عن خوفها من أن تراني وقد تحطمت على الأرض أوصالاً. ولكن قوة المكارين ونشاطهم أنقذاني من التعرض للخطر.

= وغيرها كانوا يرغبون في رأس (الكله) وهو قمة المخروط من قطعة السكر، ويكون عادة مثقوباً فيميعونه على النار ويصبون المائع في العين المريضة، وكلمة (كله) بتشديد اللام والهاء الساكنة ـ كلمة تركية معناها الرأس ـ المترجم.

وفي الثانية عشرة وصلنا (كفري) فوجدنا مساكن مريحة قد خصصت لنا في دار مزارع تركي كريم، كان من الأثرياء سابقاً، أما الآن فقد أنزلته مشاركة الحكومة التركية لثروته إلى الدرك الأسفل من الفقر. وقبيل رحيلنا من بغداد كان قد أخرجه المستر (ريج) من الحبس، وأقنع الباشا بأن يعفيه من دين عليه للحكومة مقداره ألف قرش.

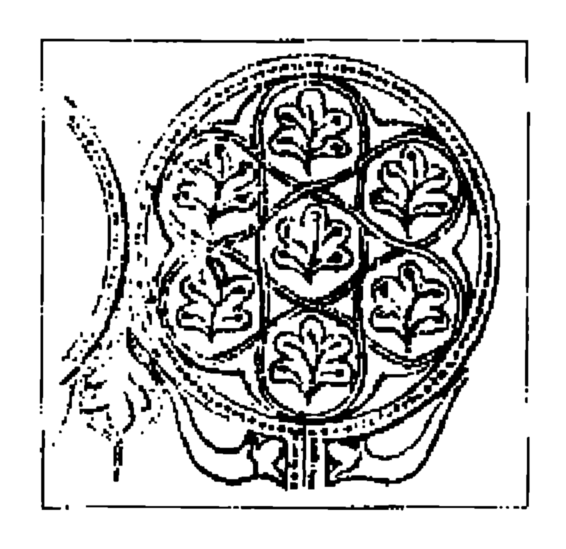
قبل مدة تزيد على الخمسة عشر عاماً، كانت قرية (قه ره ته به) تشمل على سبعمائة دار أما الآن فليس فيها إلا خمسة وخمسون داراً. فلقد اضطر أكثر الأهلون إلى الهجرة إلى بغداد تخلصاً من مضايقة حكامهم لهم. وهذا ينطبق على جميع القرى في هذه الباشوية، وغيرها من باشويات الإمبراطورية التركية.

٢٦ نيسان:

يوم استراحة للحاشية والبغال. امتطينا صهوات جيادنا بعد تناولنا الفطور لمشاهدة بعض الخرائب التي اكتشفها المستر (ريج) يوم أمس خلال تنزهه عصراً، وكانت تبعد عن القرية بمسافة عشر دقائق وهي في مجرى السيل.

وجدنا الشمسية وقد نصبت لنا، وبساطنا وقد فرش، ومحمود جاد في الحفر، فأرسلنا المستر (به ل لي نو) ليرى بعض الخرائب الأخرى التي لا تبعد كثيراً، وليخبرنا فيما إذا كانت تستحق عناء الذهاب إليها لمشاهدتها. وبعد مدة قصيرة كشفنا عن غرفة صغيرة مبنية جدرانها بناء خشناً بالأحجار السائبة المرصوفة بعضها فوق بعض وقد جصصت جدرانها ونقشت بنقوش متقاطعة، كان بعضها بديعاً حقًّا. ويبدو أن أرض الغرفة كانت مفروشة بالجص البسيط وكذلك السقف الذي صبغ بلون قرمزي غامق ونقش بالأزهار أو بالريازة العربية. وكانت الخطوط الأساسية لهذه النقوش باللون الأسود، محاطة بلون أحمر لامع الأمر

الذي حيرنا، إذ لم نذكر بأننا سمعنا ببناء إيراني قديم بزخارف إغريقية.



ولجنا مدخل هذه الغرفة وكان سليماً، وكشفنا عن قسم من غرفة أخرى كانت أقل جودة من الأولى. ويبدو أن الغرفتين تؤلفان قسماً من عدد غرف صغيرة جدًا يصح التعبير عنها بالسراديب أو الأقبية وهي تمتد نحو الغرب الجنوبي الغربي وإلى الشرق الشمالي الشرقي، وشاهدنا آثار خمس أو ست منها. واتضح لنا أن الجانب الشمالي منها قد دعم أو أسند إلى دعائم صغيرة مستديرة. وقد كشفنا النقاب في الغرفة الأولى، وهي أكثر الغرف غرابة، عن قطع من مادة سوداء تشبه فحم الخشب. وعبثاً حاولنا أن نعثر على كتابة أو قطع من المسكوكات......

٢٧ نيسان:

أنا اليوم منحرفة الصحة انحرافاً أستطيع معه أن أستأنف السفر أو أصحب الرجال، في جولة بقصد البحث في الخرائب في مكان اسمه (اسكي كفري)، على مسيرة ساعتين حيث أسعدهم الحظ باكتشاف أنقاض أغلى فائدة وأوسع ساحة من أنقاض أو خرائب أمس، وإن كانت تختلف عنها من حيث الطراز والنوع. فأينما حفروا عثروا على عظام وأنقاض. فأية كثافة من النفوس كانت في هذه البلاد المقفرة من سكانها الآن؟

لقد جاءنا الأهلون اليوم ببعض المسكوكات الأرساسية[1] والساسانية والكوفية وختم روماني وآخر ساساني وكانت الكتابة على الأخير واضحة كل الوضوح. وهذا مما قد يكشف عن غموض هذه الخرائب ويلقي ضوءاً عليها.

كا اليوم قائضاً مزعجاً، إذ كانت الرياح جنوبية شرقية. ومن المتوقع وصول والدة محمود، باشا السليمانية غداً إلى هنا، في طريقها إلى بغداد، ويقال إنها ذاهبة إليها لمفاوضة داود باشا في أمر السلم بين الفريقين. لقد صحبها ابنها الأصغر عثمان بك، حتى الحدود التركية[2] إنهم سلكوا طريق (سه كيرمه) أو الطريق المستقيم مخترقين الجبال، ومارين بإبراهيم خانجي. وقد علمنا أنهم استخدموا ما ينوف على الألف قروي لتمهيد السبيل أمامهم، إذ لولا ذلك لما أمكن طرقه وهذا ما لا يدعو إلى ندمنا على القرار الذي اتخذناه للسير بطريق أسهل ندخل به كردستان، وإن كان أطول مدى.

٢٨ نيسان:

رحلنا من كفري في السادسة، وأطفال القرية يتبعوننا ويغمروننا بالأزهار....

وكان الرجال والنساء جادين في المزارع إلا أن الفتور كان ظاهراً في عملهم، فقد كانوا يحصدون الزرع بمناجل صغيرة بالية كالمدى التي يستعملها البستانيون في إنكلترا في تشذيب حدائقهم....

وفي الثانية بعد الظهر وصلنا السيل الذي يمر من جوار (طوزخورماتو) واسمه (آق صو) وهو ينحدر من الجبال الكردية عند

---

(١) والأرساسيون، سلالة انبعثت من الإيرانيين الفرثيين - المترجم.

(٢) تقصد حدود باشويتي بغداد والسليمانية - المترجم.

(إبراهيم خانجي). وبعد أن استدرنا في طرق ضيقة جميلة تكتنف الجنائن جانبيها وتتدلى خلالها أشجار الزيتون والإجاص والبرتقال فوق رؤوسنا مثقلة بثمارها وأزهارها، ويعلوها الآلاف من اليمام وهي تردد الأغاريد الخلابة، وصلنا دار (عمر بك) الجميلة الجديدة في الثانية والنصف وقد أخذ السرور منا مأخذه، إذ قد أخذ التعب مني نصيباً كبيراً؛ وقد فرحت كثيراً بما هيأه لي (كلود) بنفسه من فراش وثير وفاكهة طيبة.....

٢٩ نيسان:

على أثر اعتزامنا البقاء هنا لمدة يوم أو يومين لإراحة الدواب، ذهب الرجال لزيارة بعض المنابع النفطية الكائنة في الفتحة التي فتحها السيل بين التلال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من القرية....

لقد علمنا بقرب وصول عدد من السعاة (التاتار) من استانبول، وكلنا رجاء أن يصلوا قبل أن نبتعد عن طريق بغداد.

وقد بلغنا من أخبار بغداد، أنَّ من المتوقع أن يقبل كل من العاصيين الفارين جاسم بك، وصادق بك العفو الذي صدر عنهما فيرجعا. أما الأخير فقد ألح في أن يكون المستر (ريج) كفيله، فهو لا يعتمد على غيره ويقول إنه يعود إلى ولائه على الفور دون شك أو خوف، إذا أعطاه الـ(باليوز) بك، المستر (ريج)، وعداً بكفالته. لقد كان هذا أمراً خارجاً عن نطاق الإمكان، إذ إن الحكومة ستطلب ولا شك من المستر (ريج) أن يكون مسؤولاً عن حسن سلوك هذا الرجل الشاب الذي وإن كان مستعداً لربط نفسه بأي يمين يطلبه منه المستر (ريج)، وذلك لأن الفتى المسكين لا يركن على وعد أبناء بلاده، كما أن المستر (ريج) لا يعتمد عليه مهما كانت الأيمان التي قسمها مغلظة. لقد مرت بنا تجارب محزنة في هذا الباب، وهي قضية الأخ الأكبر لهذا الشاب، وهو المرحوم سعيد باشا الذي اضطر المستر (ريج) أن يتعهد بكفالته لصيانة

حياته، وقد حلف بالقرآن بحضور الباشا ورئيس الوزراء والمستر ريج وغيرهم بأنه لا يتشبث بالهروب من بغداد ولكنه هرب فعلاً بعد مدة قصيرة، واتخذ الشقاوة مهنة وأصبح باشا وقتل نفس الرجل الذي حفظ له حياته وماله بتوسط من المستر (ريج)......

٣٠ نيسان:

كلود منحرف المزاج كثيراً بتأثير حمى صفراوية شديدة اضطرته إلى الركون إلى الهدوء.

كان صباحاً رائقاً صحواً، والنسيم شماليًا غربيًا عليلاً، ولكن الغيوم تلبدت بعد الظهر، وأمطرت السماء قليلاً أعقبها رعد يسمع من بعيد، ويظهر أن الجو في بغداد لم يستقر بل هو عاصف أيضاً مثل جونا. لقد أمطرت السماء بلا انقطاع نهاراً وليلة فجعلت المرور في الأزقة مستحيلاً.

بقي (كلود) مريضاً طيلة اليوم، وقد زادت وطأته عند المساء فرجوته أن يتخلى عن فكرة السفر غداً.

١ أيار:

قضى المستر ريج ليلة هادئة، ولما كان اليوم جميلاً جدًّا فقد رغب كل الرغبة في عبور سيل (طاووق) قبل هطول أمطار أخرى تجعل عبوره مستحيلاً، ولذا رأى أفضلية الرحيل من (طوزخورماتو).

وجرياً على العادة، لم أتحرك أنا وحاشيتي إلا بعد رحيل الرجال بنصف ساعة، وقد تحركوا في السادسة. وكان النهار بديعاً أنعش زوجي العزيز.

وعلى الرغم من لطافة قرية (طوزخورماتو) فقد كنت مرتابة في

كونها صحية لكثرة مشاتل الشلب فيها. و(كلود) لم يمرض هذا المرض الشديد، إلا بعد وصولنا هذا المكان. لقد شعرت أنا أيضاً بالانحراف وشكت حاشيتنا ذلك.

وبعد أن ودعنا (طوزخورماتو) الخادعة اجتزنا جماعة تدعى بالتركية (ده لي دومه ن)[1] وهي جماعة متشردة، مهرجة تحترف الغناء، وكانت جماعة مضحكة جدًّا، وبظهورهم تعالى الفرح والطرب في نفوس أتباعنا. لقد كانت الجماعة مؤلفة من سبعة أو ثمانية أشخاص ممتطين الحمير الصغيرة الهزيلة، وعليهم الأسمال البالية وهم نحاف هزيلون أيضاً. وكان أحدهم، ويظهر أنه المهرج الأول بينهم، واضعاً فوق قاووقاً[2] قديماً قطن بطانته بارز من خروقه. لقد كان يمتطي حماراً قزماً حتى ظهر كأنه يمشي على الأرض من فوقه إذ إن قدميه لم تكونا تعلوان عن الأرض إلا عقدتين تقريباً. لكن كل من علي آغا، ورئيس الخدم جواديهما وأغارا عليه ليلعبا معه الجريد، وطاردا حماره وهو عليه وأوقعا قاووقه على الأرض وصارا يداعبانه قفزاً ونطًّا، لتسلية الناظرين. . . . .

وكنا كلما تقدمنا في طريقنا نلاحظ قلة الأراضي المزروعة وكثرة المراعي الغنية، ووجدنا جماعات من المسافرين رجالاً ونساءً وأطفالاً أكثر مما شاهدناه منذ رحيلنا من بغداد.

وأخيراً عند منتصف النهار وصلنا (طاووق جاي) أو سيل طاووق العظيم الذي زاد في مخاوف أم ميناس وكربها، وهي لم تذق الطعام ولم

---

(١) (ده لي دومه ن) يعبر بهذا التعبير التركي عن الرجل الفظ الطباع، ولكن كما يظهر من النص أنها جماعة من الغجر ـ المترجم.

(٢) الـ(قاووق) لباس رأس تركي قديم. ومعناه اللفظي (الشيء الفارغ الجوف) وقد جاء في حاشية الكاتبة ما يلي: ـ «لباس رأس مبطن بالقطن، يلبسه جميع رجال الحكومة التركية وضباطها». والواقع أن القاووق نوع من ألبسة الرأس العديدة التي لبسها الأتراك وألبسوها. راجع حاشية الصفحة ١٤٣ للاستزادة ـ المترجم.

تنم ليلة أمس لمخاوفها منه. وهذا النهر ينبع من جبال كردستان القائمة على مسافة قليلة من يمين طريقنا، وتستغل مياهه في الصيف في الإرواء ولا يزيد في الخريف عمق مياهه على القدم ونصف القدم، وإننا نستند بقولنا هذا على خبرتنا السابقة إذ عبرناه في شهر تشرين الأول من سنة ١٨١٣ في طريقنا إلى استانبول. أما وقت فيضانه وخطورته فهو الشتاء والربيع حيث تهطل الأمطار الغزيرة على الجبال فجأة فيصبح متفرعاً، تملأ المياه مجراه كله وهو نصف الميل عرضاً فيجري جرياناً سريعاً مخيفاً جارفاً معه الصخور العظيمة. وقد يباغت سيله وفيضانه المسافرين وهم وسط مجراه، ومن هنا نشأت مخاوف آمنة خاتون..

وقد ذكره بطليموس باسم (كوركوروس ـ Gorgus) وزه نيفون باسم (فيسكوروس ـ Phiscus) ودانفيل باسم (اودورنه ـ Odorneh).

وفي الثانية وصلنا (طاووق) ولجأنا إلى مكان مريح، ولقد استغربت للأمر. فإن منظر القرية منظر قذر وهي تقع في سهل خصب، غزير المياه. ومن بقايا الخرائب الكثيرة التي تحيط بالقرية من كل ناحية يبدو لنا أنها كانت فيما مضى مدينة واسعة الأرجاء. وكل ما بقي منها هو من عهد الخلفاء الذين يبدو والحق يقال، إنهم كانوا حكاماً مثقفين إنسانيين كغيرهم ممن سبقهم من الحكام، وإن البلاد كانت غاصة بالنفوس في عهدهم كما كانت في عهود سميراميس وخسرو وغيرهما. و(طاووق) أو (داقوق) في العصر الثالث عشر كانت مركز الأبريشية الكلدانية، وكانت ولا ريب تشتمل على عدد كبير من المسيحيين ولا يزال يشاهد فيها أنقاض ما يسمونها بالكنيسة.

٢ إيار:

قضيت ليلة مزعجة لا راحة فيها، ساورت النوم خلالها الأحلام المزعجة مما جعلني أفضل الأرق عليه. وغلبني النوم عند الفجر، وعندما

استيقظت استغربت إذ لم أسمع صوتاً يدل على التهيؤ للرحيل ورأيت الناس أكثر ميلاً إلى الفتور والكسل لقضاء اليوم هنا بحجة كون السماء ملبدة بالغيوم والمطر محتمل الهطول، إلا أن شكيمتنا لم تلن؛ فموسم الصيف آخذ بالتقدم وإذا ما تأخرنا كثيراً فقد نجد أنفسنا في غمرة الحر قبل أن نقطع السهول. إن السفر بعد الساعة الثامنة صباحاً في الضواحي القريبة من بغداد المتأججة يعد من الأمور المستحيلة.

يؤسفني أن أقول إننا سنبتعد الآن عن طريق البريد كما سيتراءى لك إذا كنت تتذكر[1] شيئاً يتعلق بسياحتنا السابقة إلى استانبول. وإننا الآن نضيع آخر فرصة لنا في مقابلة التاتار (ساعي البريد) الذي يقال إنه يقترب منا بخطوات حثيثة يحمل رزمة خاصة بنا.

يرغب المستر (ريج) في أن يوصي مأمور البريد في (طاووق) حتى يوفد الساعي إلى السليمانية مباشرة من (طاووق) عند وصوله إليها ولكنه علم أنه إذا لم تصدر الأوامر السريعة من حكومة بغداد فالقرى لا تعطي الجياد لهذا الغرض. وعدا ذلك قد يظن حاكمنا المتوجس المرتاب داود باشا أن لوصول الساعي من استانبول علاقة بسفرنا إلى كردستان، هذا السفر الذي لم يرق له في الواقع وما كان راضياً عنه، فالتركي لا يعتقد بالسفر ترويحاً للنفس أو طلباً للاستشفاء، وقد يتذرع أحياناً بهذه الأسباب لكنه لا يضع على الدوام أمام عينيه بعض الدوافع الخفية التي لا يعترف بها وهو لا يصدق أي شخص يرغب السفر طلباً للراحة فقط. ومهما كان داود باشا يعتمد مباشرة في شؤونه على قوته أو مقدرته في خداع الآخرين فإنه لا يرتاح لأية خطوة يتخذها الآخرون، وإنه إذا لم يصدق الأسباب المنتحلة لهذا العمل، فإنه يعتقد أن وراءها أموراً يقصد بها أذاه. فهو

---

(١) يظهر للمترجم أن السيدة أرسلت يومياتها إلى أهلها كرسائل وعندما نشرت رحلة زوجها، جمعتها وألحقتها بها.

يسيء الظن في كل أحد ولا يصدق أحداً. ويسوءني أن أقول بأن الناس جميعاً يرتابون منه، ولا يصدقه أحد.

إنني مضطرة ـ ويسوءني أن أعترف بذلك ـ إلى الانتظار مكرهة عدة أيام قبل أن أرى علامة بريد (مردخ) المحبوبة. فأي مكان هذا الذي سأتسلم فيه كتباً خطها أعز الناس وأكثرهم كمالاً وأحبهم إلي، كتباً ممن يقطنون الأنحاء الجميلة في أبدع وأسعد بلاد العالم. أواه لو كان باستطاعتي أن أعطيكم فكرة عن البلاد الوحشية المحرقة التي نحن فيها؛ حقًّا عليكم أن تحبوا إنكلترا وطنكم العزيز.

رحلنا في السادسة والثلث، ومضينا نسير حتى الثامنة في أوحال كثيرة ومزارع حبوب جميلة حتى وصلنا قرية في نهاية سلسلة طويلة من تلال واطئة، تنعت في هذا المكان (مطارا) ولكنني أعتقد أنها لم تكن إلا امتداداً من تلال كفري. استدرنا كثيراً في مضيق تكسو أرضه الأحجار الرملية، ويجري فيه جدول ماء لطيف والصخور الكبيرة منتشرة في جميع أنحائه. وقد جابهنا المصاعب الكثيرة في سحب التختروان في بعض الممرات الضيقة الزلقة. والبغال المسكينة كانت تنزلق انزلاقاً رديئاً، ولم تنج من السقوط على الأرض أحياناً إلا ببذل جهد جهيد. وبعد أن جاوزنا الممر جوبهنا ببحر مرعب من تلال الأحجار الرملية الجرداء، ممتد إلى أبعد ما يدركه البصر، لا خضرة فيها إلا بعض مزارع حبوب قائمة في القليل من أنحائها......

.... وبعد الحادية عشرة بقليل وصلنا قرية (ليلان) وهي على بعد خمس ساعات من كركوك، فوجدنا فيها كوخاً أخلي من قاطنيه لسكنانا. تعود هذه القرية إلى عبد الله أفندي متولي الإمام الأعظم، وقد تعرفت على عائلته في بغداد معرفة جيدة. وهو الآن هنا، وقد أرسل إلينا هدية مؤلفة من خمس قطع من الجبن الطري اللذيذ، وبعض الزبدة الباهرة واللبن الرائب، إنني لا أستطيع وصفه، لكنه من أجود مستحضرات

الحليب التي عرفتها حتى الآن. لقد أكلنا أكلة مترفة قد يعبر عنها بالغذاء في مثل هذه الساعة من النهار بفضل ضيافة الأفندي الكريم.....

٣ أيار:

سررنا كل السرور لتخلصنا من ملجأنا القذر، وسررت كل السرور لركوبي تختروانى ونجاتي من النسوة الصاخبات اللواتي كان لهن مظهر الرجال واللواتي أحطن بي في اللحظة التي ركب زوجي العزيز فيها جواده وتركني، فإنهن لم يجرؤن على الاقتراب مني طالما كان بجواري، كن يكدن يمتن تلهفاً لاستراق نظرة إلي.....

.... وبعد التاسعة بقليل وصلنا مضرب يوسف آغا في وادي (ليلان)، وهو عبد كرجي من عبيد باشا بغداد وحاكم هذه المنطقة المسماة (قه ره حسن)، وهو صديق قديم للمستر (ريج) وقد أظهر كرماً كبيراً عندما أصر على تضييفنا جميعاً على وفرة عددنا. لقد نصبت خيمة لنا فوق مرتفع صغير يعلو النهر الذي أحببته....

وكان كل ما حولنا منعشاً، الأمر الذي جعلني عاطفية على حد تعبير (كلود)، على الرغم من أنه كان يشاركني هذا الشعور وإن بذل جهده لإخفائه. ويظهر أن حرماننا منذ أمد بعيد من مشاهدة مثل هذه المناظر هو الذي جعلها تسحرنا وتخلب نفوسنا أكثر من غيرها من الأماكن الشهيرة التي رأيناها في إنكلترا، أو سويسرا أو إيطاليا. تمشينا في الوادي بين الأنجم وجمعنا الأزهار والأوراد البرية ثم فوجئنا بعليقة زهر بري، فنسينا كل شيء غير هذا الزهر. وكدنا نعيد منفانا الموحش إذ شعرنا بأننا أصبحنا في إنكلترا.

وعند المساء زارتني عقيلة يوسف آغا، وكانت متحجبة حجاباً متقناً، فدخلت خيمتي زاحفة من تحت سجوف الخيمة لكي لا يشاهدها أحد. لقد تملكها هذا الحرص على ما أعتقد، إثر زواجها من التركي،

وهي عربية، وليس فعلها ذاك من عادات العرب. وعندما بارحتني زائرتي، قمنا للنزهة ثانية، وأخذ منا الأسف مأخذه عندما أجبرنا الظلام والتعب على العودة إلى خيمتنا.

٥ أيار:

ترويحاً للبغال وتخلصاً من وجات التختروان في سيرة فوق الطريق المعروف عنه متعباً، ركبت في الخامسة والنصف جوادي غير آسفة.....

وبعد الحادية عشرة بقليل وصلنا قرية (ده ركه زين) القائمة عند مدخل سهل جميل جدًّا، ويقال إنه كثير الأفاعي. وكانت هذه أخباراً غير سارة بالنسبة لنا، إذ نصبت خيمنا في وسط عشب مرتفع.

لقد لاحظنا في هذا المحل، طنفاً آخر يشبه الطنف الذي خيمنا فيه أمس واسمه (كوبارا)[١].

أجفلت جفلة عنيفة مساء اليوم، حين شاهدت أم سبع وسبعين كبيرة تدبّ بسرعة فوق البساط التي كنا جالسين عليه. ولو كان فراشي مطروحاً على الأرض لما استطعت النوم بعد الذي رأيت، إلا أنني أشكر سريري السفري الإنكليزي الصغير فقد ارتميت عليه لتعبي الزائد، ونمت نومة هادئة دون أن ترعجني الأفاعي أو أمهات السبع والسبعين.

٦ أيار:

نهضنا في الرابعة صباحاً، واستمتعت ثانية بركوبي حصاني المريح، ركبنا في الخامسة والنصف وقطرات الطل الوفيرة تبلل الأعشاب، وسرنا في سهل جميل محاط من جميع الجهات بالتلال الواطئة الجرداء والقرى

---

(١) والصحيح (كوباله).

وبقاع المزارع الصغيرة منتشرة فيه هنا وهناك، مع ما كان يكتنفه من المراعي.

لقد ولجنا الآن كردستان بعض الشيء فأحاطت بنا جبالها. أما اللُّغة المعروفة فيها فهي الكردية فقط. لقد بدأنا توًّا بملاحظة الفرق في ملامح الكرد من أبناء العشائر والقرويين، فالعينان عند أبناء العشائر متباعدتين والأنف أقنى والجبين واسع والأبدان ضخمة، والأعضاء متناسقة وهم ذوو هيئات عسكرية. أما سيماء القرويين، فإنها منتظمة، وعيونهم ناعسة، وملامحهم ألطف من ملامح أبناء العشائر. لكن القروي لم يكن طويل القامة أو حر السلوك والاستقامة كأخيه العشائري. وهذا الأمر ليس من الأمور العسيرة الفهم، فأبناء العشائر هم الأسياد وأبناء القرى هم العبيد.....

٨ أيار:

خيمنا اليوم في بستان من بساتين الباشا متصلة بالمدينة تماماً، إذ إن دخولنا البلدة في هذا اليوم لم يكن ليتفق والترتيبات التي اتخذها أصدقاؤنا الكورديكيون، ولذلك اضطررت إلى التخلي عن الركوب كما اضطررت على إخفاء نفسي إخفاءً تامًّا في التختروان، إذ كان من المتوقع أن تتجمهر الجماعات المتزاحمة من الناس للتطلع إلى وجوه الأوروبيين الذين يدخلون بلادهم لأول مرة، وأن ملابسهم الخاصة والجنود والهنود الذين يرافقونهم سيثيرون فضولهم ذلك لأنهم أولاً شغوفون بكل ما له علاقة بالحرب، وثانياً وبوجه خاص لانتهازهم فرصة مشاهدة جنود يظهر عليهم للوهلة الأولى أنهم مسلمون، وكذلك الهنود والأوروبيون....

عندما نزلت من التختروان، عجبت كل العجب حين لم أر غريباً حول مخيمنا على الإطلاق فكان يضاهي سكون مخيمنا على ضفاف دجلة. لقد خرج رجال المدينة البارزين لاستقبال (كلود). إنهم شربوا

القهوة وجلسوا قليلاً دون أن يظهر منهم ما يشير إلى تطفلهم في النفوس أو إلى أية بادرة مخالفة للسلوك بل كانوا أناساً مهذبين التهذيب العالي؛ وقد انصرفوا بعد ذلك.

لقد صدرت الأوامر المشددة من الباشا بإنزال العقاب الصارم في من يقترب من مخيمنا، مهما كانت منزلته إلا إذا أوفده هو، الأمر الذي لم يهدف منه إلا تأمين راحتنا. وإلا كما يقولون، وإنني أصدق حقيقة قولهم، لأحاط بنا الرجال والنساء والأولاد طيلة النهار من الصباح حتى المساء ليتطلعوا إلى هذا المنظر الجديد عليهم.

بعد وصولنا بقليل، وصل تاتار، من استانبول، قصد بغداد أولاً هو لا يعلم برحيلنا منها في سفرنا هذا. والرزمة التي أتانا بها الساعي كانت تحوي نعي الملك في ٢٩ كانون الثاني، ووفاة (دوق كه نت) في ٢٤ من الشهر ذاته. فتحت البريد وأنا ارتجف وقد استولى علي، كما هي عادتي شعور الفرح الذي يمازجه الخوف، وإنني جابهت الخيبة الكبرى إذ لم أعثر على الكتابات اليدوية المحبوبة، بل حتى ولا على سطر واحد من خط (مردخ). لقد ضاق صدري للأمر إلى أن رأيت اسم والدي في أحد الجرائد اليومية الصادرة في أواسط شباط فارتحت قليلاً.

ونظراً لوصول أخبار وفاة الملك، كان يجب إعادة التاتار فوراً. كما يجب علينا أن نتخلى عن لذة مطالعة الجرائد. لكن ذلك لم يمنعنا من إلقاء نظرة خاطفة على حقول أعداد جريدة (ايفنينك مه لس ـ Evening Mails) الصادرة حتى الرابع عشر من شباط، وهذا ولا شك تاريخ متأخر إذا ما لاحظنا وصول البريد إلى بغداد، وإرساله منها إلينا. لقد قطع التاتار المسافة بين بغداد وبين مكاننا الآن بأربعة أيام بطريق (سه كيرمه) وهو أقصر طريق، وفي بلاد مجهولة تقريباً ووحشية. قرأنا الخطب القيمة التي ألقاها والدي العزيز في تأييد لائحة قانون الرقع والطوابع التي نرجو أن يكون قد نجح فيها لتحقيق المصادقة على هذه

الأمور الخطيرة، إذ كانت هنالك قوة توقف سيرة وزرائنا الإنكليز الحاليين الجائرة عند حدها. يبدو أن قتل (دوق دوبه رري ـ Due de Berri) كان السبب في إثارة شعور رهيب في فرنسا، وهو شعور عدائي لم يسبق له مثيل نحو عائلة (بووربون) التعسة التي تستدعي الإشفاق بالرغم من الجنايات التي اقترفتها. فما هي الفضيلة التي باستطاعتنا رجاؤها من أوروبا إذا كانت إنكلترا نفسها التي اعتادت أن تنظر الشعوب إليها نظرة احترام قد انحطت إلى الحضيض.

وصَلَنا مع هذا البريد متاع وافر للقراءة من (جورنو ديه سافان ـ Journaux des Savans) و(جورنو ديه دام ـ Journaux des Dames) و(أدنبره اند كورته رلي رفيو) وقد وصلتنا كل هذه الجرائد والمجلات في الوقت الملائم بعد سياحتنا المديدة هذه. إنني أخشى أن لا يكون (زه نيفون) ومن كان معه من اليونان عند زحفهم في (كاردوكيا)، قد ذاقوا لذة تسلم الرسائل من اليونان، أو لذة تسلم (مورنينك كرونيكه ل) من إسبارطة، أو آخر عدد من مجلة (آثينس رفيو ـ Athen's Review).

وبينما نحن منهمكون في لذتنا هذه التي جعلتنا ننسى مكاننا وما يحيط بنا كل النسيان، جاءتنا رسالة من محمود باشا حاكم السليمانية الحالي يخبر (كلود) بها أنه يرغب في زيارته بعد صلاة العصر الأمر الذي جعلنا في حاجة إلى ترتيب وضعنا والتهيؤ لاستقباله....

وعلى أثر تحية الجنود له ظهر أنه أدرك معنى الاحترام الذي قوبل به، إذ إنه رد التحية بإحناء رأسه إلى صدره. وفيما أتذكر وقد كنت أختلس النظرات لمشاهدته عن بعد من وراء سجوف خيمتي أنه كان رجلاً صغير البدن قصير القامة، لم يكن فيه ما يسترعي الانتباه أو يميزه عن غيره في مظهره. وإنه على تناقض غريب مع رجاله الذين كانوا جميعاً ذوي أبدان ضخمة وهيئات عسكرية. إنه أكبر الأنجال الخمسة للمرحوم عبد الرحمن باشا الشهير، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً،

ذو طبع رقيق إنساني وإن كان يفتقر إلى العزم والحزم. وكان على جانب عظيم من التقوى الأمر الذي جعله ينقاد إلى أرباب الدين والعلماء، وما كان هؤلاء من أثقف الناس في أي قسم من الإمبراطورية الإسلامية؛ والمعروف عن طبقتهم هنا أنها طبقة متعصبة عنيدة. لكن الباشا كان ذا حلم ولين ولم يخضع إلى تعصبهم، لكونه سوداوي الطبع فقد كان يميل بطبيعة الحال إلى النظر إلى الأمور التي تكتنفه نظرة قاتمة.

وعند المساء تمشينا داخل الجنينة، وكان الهواء معطراً بشذى الورود. إنني أشعر بالنفور الشديد من الرحيل من هذا المكان المبهج إلى المدينة التي لم تظهر لنا جاذبيتها والتي يقال إن بيوتها خربة. إنني أفضل البقاء حيث أنا، ولكن قد أظهر الباشا الكريم الطبع، الخلوق، رغبته في انتقالنا إلى المدينة فلم يعد لي إلا أن أضحي برغبتي إرضاءً له.

١٠ أيار:

وكان للموكب عند دخوله المدينة استعراض باهر لكثرة المشتركين فيه وتنوع أزيائهم. لقد تألف الموكب من الكرد والأوروبيين وهم جميعاً في بزاتهم الرسمية المبهجة، فالجنود الهنود بطبولهم ومزاميرهم والخيالة الروس بأبواقهم[١]، والضباط من الأتراك المسيحيين وحتى اليهود والخدم التابعون لدار المقيمية كل هؤلاء كوّنوا شارة للعظمة البدائية الخليطة، وكان الأوروبيون في مظهرهم الموحد المنسق يسترعي الأنظار بوجه بارز، والموكب بكامله لم يكن إلا رمزاً ناطقاً عن أوروبا وآسيا.

يبدو أن الباشا قد أظهر رغبته القوية في سكنانا المدينة، وهو يرى أن رجوع المستر (ريج) إلى مخيمه لم يكن فألاً حسناً. وأخيراً رضخ

---

(١) لم يذكر المستر (ريج) في مذكراته هذه الخيالة - المترجم.

المستر (ريج) لهذه الرغبة معتقداً أنه من الأفضل أن ينزعج ولايرتاح عوضاً من أن يمس شعور هؤلاء الناس اللطفاء الكرماء أو أن يخالف معتقداتهم. لذلك جمعنا أثقالنا وركبت تخترواني أيضاً فأسدلت ستائره القرمزية وشدت شداً محكماً من جميع أطرافها لكي لا يرى أحد قلامة ظفر مني، بالرغم من ارتدائي المئزر[1] وإسدالي البرقع، وفي مثل هذه الحالات التي أنا فيها حيث تضطر حرم رجل له منزلته إلى المرور علانية بين حشد من الناس، يجب أن لا يظهر منها حتى أطراف حجابها. هكذا وصلت الدار التي خصصت لإقامتنا، ومن الصعب أن أسميها داراً قبل أن أرى شيئاً من السليمانية أو من سكانها. وكانت الأصوات المستمرة الواطئة ـ التي كنت أسمعها من حولي وأنا أمر في محملي المغلق علي، الدليل الوحيد لدخولنا المدينة. وإن إعجابي وحبي للعاصمة والبلاد وأهلها انقلب الآن إلى كره ونفور نحوها جميعاً لرداءة المكان الذي خصص لإقامتي، ومن الأمور التي كانت تتطلب شجاعة عظمى أن أخاطر بدخول كومة من الخرائب كانت ماثلة أمامي في ساحة الدار الخارجية. وقد استجمعت قواي وولجت الدار وورائي كل من المستر (به ل لي نو) والطبيب الإيطالي الصغير، وأخذ أولهما ينفخ مزيلاً الغبار بفطنة وأخذ الثاني ينفض ما علق بكتفه منه باستهجان مقلداً. . . .

ليس لي أية علاقة بالديوان خانه ـ ولا يحتمل أن يكتب لي نصيب مشاهدتها، فترتيباتها تضاهي ترتيبات الحرم تماماً، أما حالتها فأردأ منها. إنني أشفق على المستر (به ل لي نو) ورجالنا الذين سيمكثون فيها.

---

(١) وقد جاءت في النص (جرجف) وهو قطعة من القماش الحريري المحقق بمربعات بيضاء وزرقاء وحافاتها موشاة بالقصب المذهب تلف الجسم بكامله إلا الوجه الذي يستر ببرقع مصنوع من شعر ذيول الخيل (وكان يسمى هذا النوع من البرقع ولا يزال في بعض أنحاء العراق بالخيلية ـ المترجم). وهكذا تتحجب لابستها، وهي تتمكن من الرؤية من خلال البرقع بوضوح.

٢٠ أيار:

مرت فترة طويلة لم أدون مذكراتي فيها، ومنذ دخولي السليمانية بلغت حياتي من العزلة بحيث لم أر إلا القليل الذي يستحق التدوين، ولكنني كنت كثيرة الكتابة عن طريق الرسائل. فمنذ دخولي الدار لم أبرح الحرم إلا مرة واحدة للذهاب إلى الحمام.....

٦ حزيران:

علي أن أقضي اليوم بصحبة عائلة الباشا، ولما كانت العادة في الشرق توجب على الزوار أن يقضوا يومهم - بالمعنى اللفظي - في الزيارة، أكملت استعدادي في العاشرة، فجاءتني امرأة من القصر لتدلني على الطريق إلى الحرم. لقد صحبتني أم ميناس وخادماتي، وسرنا متحجبات تحجباً كاملاً ولم يكن علينا أن نمشي كثيراً لأن بيتنا كان قريباً من القصر، إن مدخل الحرم لا يمر من ساحة القصر الخارجية، بل كان من وراء الحرم ذاته وكانت بابه صغيرة جدًّا اضطررت على الانحناء كثيراً لأستطيع المرور منها.

استقبلتني هنا الكيوانيات - القهرمانات - ومن ورائهن رهط من الجواري وقد سارت قهرمانه عن يميني وأخرى عن يساري وقادتاني إلى السلم فصعدناه، وعند باب غرفة واسعة استقبلتني زوجة الباشا نفسها، ومن ورائها إحدى شقيقات الباشا وعدة سيدات من العائلة. أديرت القهوة[١] والحلوى و(الشرابت) والغلايين كما هو المتبع، وقد ضاق صدري وانهدَّت قواي لمراسيم المجاملات المعتادة هذه. ولكنني رأيتهن بعد انتهاء هذا الفصل من المجاملة الضرورية قد تخلين عن كل

---

(١) لم يأت ذكر الشاي حتى الآن في مذكرات الزوجين، ويظهر أنه ما كان معروفاً في العراق في ذلك العهد - المترجم.

المراسيم، ورجعن إلى دماثة أخلاقهن وبشاشتهن وعدم تكلفهن وهن يسعين سعياً حثيثاً لإراحتي.

إن عادلة خانم، زوجة الباشا هي بنت عثمان بك، وعلى هذا فإنها من أقرباء زوجها. وفي الحقيقة أن جميع أعضاء هذه العائلة العديدين قد تناسبوا وتزاوجوا فيما بينهم؛ وهم لا يتزاوجون مع الغرباء. وعادلة خانم في السبعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمرها، وهي طول من غيرها من نسوة العائلة، حنطاوية اللون سوداء الشعر، ذات عينين ناعستين، ومظهر جميل لا غموض فيه، وملامح رقيقة، جذابة في سيمائها. وقد دل مظهرها على أنها حزنت كثيراً في أيامها، فقد رأيت في تصرفها الاستسلام الجليل والتؤدة الرزينة الأمر الذي أثر فيَّ التأثير كله. وهي زوجة الباشا الوحيدة وهما مرتبطان ببعضهما كل الارتباط، وقد زادهما حزنهما المشترك لموت الكثير من أولادهما الذين أودى الجدري بهم، حباً وتعلقاً. ولم يكن عندهما الآن إلا طفل واحد[1] وهي وإن كانت تحن إليه حناناً رقيقاً فإنها تتحدث عنه وكأنها لا تتوقع بقاءه لها ولزوجها. فكانت إذا نظرت إليه ترقرقت عيناها بالدموع وقالت: «إنه ليس لي، إنه لله، ولا مرد لأمره». حدثتها عن ضرورة تلقيحه ضد الجدري فأصغت بعناية إلى ما حدثتها عنه من فوائد التلقيح، لكن اليأس كان لا يزال بادياً عليها في توقع عدم جني أية فائدة منه.

لقد شجعتني وأحيت أملي، في قبولها العمل بما قلت لها إذا جلبت لها اللقاح، ولكنها أنهت قولها بالكلمات التالية: «لا بد من الانصياع إلى إرادة الله، فالله أعلم، وعلينا أن نثق به» لقد عزمت على الكتابة فوراً

---

(١) كنت مخطئة في ذلك، إذ كان لها ولدان، كان أكبرهما رهينة في كرمنشاه، ويحتمل أن قد أصيب بالجدري سابقاً، وإن قلق أمه لم يكن كالقلق الذي تشعر به نحو طفلها الأصغر الذي لا يزال معرضاً لخطر الإصابة بالجدري والذي تتكلم عنه وحده.

ليرسلوا لنا اللقاح مع ساع سريع، وإنني سأفرح الفرح كله إذا استطعت تخليص هذا الطفل الصغير الجميل من ذلك المرض القاسي القتال. إن الآلاف من البشر يذهبون ضحية هذا المرض في كردستان. ويحتمل أن الناس إذا علموا بأن الباشا لقح طفله الوحيد ضد الجدري فإنهم سيرغبون بالسماح لنا بتلقيح أطفالهم أيضاً، وعندئذٍ سوف لا تكون سياحتنا إلى كردستان بدون فائدة تذكر إذا وفقنا إلى تخفيف وطأة الجدري الفتاك؛ وإن لم نوفق إلى القضاء عليه قضاءً كاملاً.

لقد قضت مضيفتي السنين الكثيرة في بغداد في عهد طفولتها، وقد تعلمت التركية أيضاً ولكن عدم ممارستها لها جعلها لا تتكلمها إلا بصعوبة، وقد بذلت ما تستطيع لمحادثتي. قضيت والحق يقال يوماً طيباً معها، ومع جماعتها العديدات ورجعت إلى الدار في الخامسة وأنا أقل تعباً مما كنت أتوقع[1].

---

(١) هنا تنتهي مذكرات السيدة (ريج)، ولم تتطرق إلى ما بعد ذلك من الرحلة ـ المترجم.

رجاء

راجع عنوان الملحق الثاني في الصفحة ٣٦٣

تكرر اسم (حوش كه ره ك) الوارد في الملحق الثاني كما تكرر في الفصل الأول من الرحلة، وقد تحققنا أنه معروف الآن بين الأهلين باسم (حوش كه رو) ويقع المكان بجوار قرية بهذا الاسم بين مدينة (خانقين) وقرية (قوراتو) التي كان خط السكة الحديدية الممتد إلى (قوراتو) يمر بجوارها، وهي إلى جنوب قرية باسم (علي آغا). ويطلق أحياناً على هذا الموقع الأثري اسم (قصر حوش كه ررو ـ بتشديد الراء). وجاء اسمه في الخرائط الحديثة، تارة بـ(Kori ـ كوري) وتارة بـ(Kuru ـ كوررو)، وقد أخبرني الأستاذ بشير فرنسيس في مديرية الآثار القديمة العامة أن جاء اسم المكان في (Mannuel Histoire D'Architect) لمؤلفه (فرانسوا به نوا) بلفظة (Kauri ـ كوري)، وقد اثبتناه في الملحق الثاني كما يلفظه الأهلون وهو (حوش كه رو) ـ المترجم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الملحق الثاني

رحلة إلى أطلال (زنداق) وقصر شيرين وحوش كه ره كا... إلخ عند حدود كردستان الجنوبية خلال شهري آذار ونيسان ١٨٢٠

وهي نبذ من كتب كتبها المستر (ريج) خلال رحلته هذه.

* * *

خان السيد في بعقوبة:
ليلة ١٨ آذار ١٨٢٠:

هاأناذا هنا، على الرغم من توصياتك الملحة لي بأن لا أبتعد عن (أورته خان)[١] فإنني في الواقع وجدت النهار من الصفاء، والخان من القذارة، ونفسي من القوة، ما جعلني أفكر في أنه من الحيف أن أقضي وقتي في كهف مثل هذا، فجازفت بالتقدم ولم أجدني أسوأ حالاً مما كنت فيه، بل إنني لأشعر بتحسن كبير عما كنت أعانيه خلال اليومين الأخيرين. فقد فارقتني أعراض الصداع، وأصبحت من النشاط ما يمكنني من السفر فوراً إذا اقتضى ذلك، وإن كنت سأحتاط لنفسي كثيراً. إن الأرض الممتدة بين بغداد وهذا المكان من أكثر البراري التي شاهدتها انبساطاً وقحولة. أما الأقسام الأخرى من الصحراء بجوار بغداد فتعد (بليون ـ Pelion) و(أوسسا ـ Ossa) و(تامبه Tempe) إذا قورنت بالصحراء

---

(١) خان النص (النصف)، وشهرته في يومنا (خان بني سعد) ـ المترجم.

التي أنا فيها. بلغنا في الساعة الثالثة والنصف قناة (النهروان)[1] وهي على الأقل بعرض نهر (ديالى) الذي بلغناه في الساعة الرابعة بعد الظهر. وعندما علمت بأن صديقنا القديم حاجي عمر كان قد سافر إلى بغداد أول الأمس، قررت البقاء في هذا الخان، فوجدته جيداً. ويقع هذا الخان على جهة بغداد من نهر (ديالى) قبالة قرية (بعقوبة) مباشرة، وقرية (الهويدر)[2] التي لا أميل إلى مشاهدتها. وسوف أرحل في صباح الغد إلى (شهربان). لقد أتيح لي مذ قدمت إلى هنا أن أرصد القبة الزرقاء، فرصدت ارتفاع الشمس تسع مرات والشعرى اليمانية ثماني عشرة مرة ورجل الجوزاء اليسرى ثماني مرات، ثم انصرفنا لتناول طعام العشاء.

وقد آن لي أن أغتنم فرصة تدوين رسالتي هذه التي وعد المكاري بأن يحملها إليك. وأرجو أن تعطيه العطية المعتادة إذا وفى بوعده. إنني لم أكتب يومياتي بعد ولعلني سأكتبها قبل النوم.

شهربان، في ١٩ آذار:

بارحنا الخان بعد شروق الشمس مباشرة، واجتزنا نهر (ديالى) بعبارة قرية (الهويدر) وقد كانت جروف النهر عالية هدود، وهي في

---

(١) «في عام ٥٩٠م خرج (كسرى برويز) ملك الفرس من (طيسفون) لقتال (بهرام) القائد الثائر الذي ظهر أمام عاصمة الإمبراطورية بجيش لجب فنشبت بين الفريقين المعركة التي عرفت بمعركة (النهروان). ويذكر المؤرخ (ديربي لو) إن كسرى اندحر في هذه المعركة. ومن غريب ما يذكره المؤرخ أن هذا الملك اضطر إلى الفرار والالتجاء إلى دير قد لا يكون بعيداً عن (طيسفون) و(النهروان) وهناك انضم إليه فريق من أنصاره. أما اليوم فإن هذه الأراضي جميعها خرائب متواصلة ولا أثر فيها للمؤسسات النصرانية. (راجع الصفحة ٩٩٦) من كتابه المكتبة الشرقية. وراجع الصفحة ١٨٧ من المجلد الثامن من انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية لمؤلفه (غيبن).

(٢) وجاءت في الأصل (هويده) غلطاً ـ المترجم.

بعض الأماكن أشبه بالجدار، والأرض عند الشاطىء مشققة، خددتها مياه المطر. وعمق النهر قرابة الثمانية عشر قدماً. وقد أزفت الساعة الثامنة قبل أن عبرت جماعتنا النهر مع أننا سرنا عند مطلع النهار. ووجدت أشجار النخيل تكتنف القرى الواقعة في هذه النواحي من كل جانب.

وفي الساعة العاشرة مررنا بما يشبه قناة قديمة على جانبها تل مرتفع فوقه ركام من الطابوق وبعض قطع الرخام. ويسمى هذا على ما أذكر (ليسيه ـ Lissia) إذا صح الاعتماد على الشخص الذي ذكر لي هذا الاسم. لكن تسمية المواقع في هذه الأنحاء تختلف أحياناً اختلافاً بيناً. وفي هذه الأماكن أضرحة عديدة للأئمة منتشرة هنا وهناك، ويقال إنها أضرحة أولئك الجنود من المسلمين الذين توفوا من جروحهم بعد عودتهم من معركة (قصر شيرين)، فدفن كل منهم حيثما قضى وأصبح من الشهداء. وقد لاحظت على طول الطريق بقايا أطلال من مباني الطابوق كانت أحجارها مبعثرة في الأنحاء. ومررنا ببعض مروج جميلة وقنوات عديدة تتفرع من صدور الجداول الرئيسية، وقد تركنا (خرنابات) وغيرها من القرى عن يسارنا، وفي الساعة الثانية بلغنا قنطرة ذات قوس واحد فوق قناة (مهروت) التي تصب شمالاً في نهر ديالى، فتوقفنا حتى الساعة الثالثة عند مرقد الإمام السيد مقداد الكندي.

بلغنا شهربان في الساعة الرابعة، وأنا الآن متمدد بقامتي فوق الأرض لا أستطيع أن أرى وأن أكتب. فقد كانت سفرتنا جد مزعجة من جراء ريح جنوبية قوية كانت تهب بشدة فتثير بوجهنا سحب الغبار الذي أرهق الإنسان والحيوان معاً. وأرجو أن تخبري ميناس بأن البغال هنا رديئة جدًّا. فقد كانت تكبو في كل ميل من الأميال، ولم نستطع بلوغ نهاية مرحلتنا بها إلا بشق الأنفس؛ ولقد وعدوني هنا باستبدالها. وتقدر المرحلة بين (بعقوبة) وهذا المكان بتسع ساعات. والأرض على طول الطريق جد منبسطة تقاطعها القنوات في كل مكان. ولما شرعنا بالمسير

ثارت بوجهنا زوبعة مصحوبة بالرعد والمطر. فما إن هدأت حتى هبت علينا الرياح الجنوبية الشرقية التي ما زالت ترهقنا حتى هذه اللحظة. على أنني بتمام الصحة باستثناء عيني اللتين التهبتا بفعل الرياح والغبار.

قابلنا هنا (سعدون آغا) حاكم البلدة الذي كان من قبل يقطن دارنا القديمة، فلم يسمح لي بالإقامة في الخان كما كنت أرغب وإنما أفرغ لنا أحد البيوت وأعده لإقامتنا. وقد وجدت هنا سليم بك أيضاً، بعد أن عزل من حاكمية خانقين. وحضر الاثنان معاً لزيارتي بعد أن تأكدا من ارتياحي إلى مقامي، ثم أرسل لي سليم آغا طعاماً شهيًا أصبح من نصيب جماعتي، لأنني كنت قد فرغت توًا من تناول وجبة من الدراج «والكاري» ـ البهار، عند وصول ذلك الطعام. وكنت قد رجوت سعدون آغا رجاءً خاصًا أن لا يكلف نفسه بإرسال أي طعام، الأمر الذي لم يستحسنه أفراد جماعتي. وأرجو أن توفدي من يشكر زوجته على مزيد عناية زوجها بأمرنا، مع أنني في الغالب سأقدم له هذا الكتاب ليرسل إليك بوساطته. وقد قيل لي إنني بعد مبارحتي المكان، سوف لا تتاح لي الفرص المؤاتية للاتصال بغداد حتى وصولي إليها. لقد كان بالإمكان أن تعد سفرتنا مريحة لولا هذه المطايا الرديئة. ففي آسيا الصغرى كلها لا يوجد شيء أردأ من البغال. الحر آخذ بالازدياد، ومن الخير لنا أن نسرع بمغادرة بغداد للشروع في رحلتنا الكبرى إلى كردستان.

شهربان، ٢٠ آذار:

لقد قمت بعدة اكتشافات مهمة، إن مغامراتي اليوم فاقت ما كنت آمله، وما شاهدته هنا من الناحيتين الجغرافية والأثرية استحق عناء السفر من بغداد، هذا وليس بإمكاني أن أحدثك الآن عما وجدته إلا قليلاً. فلقد كان عمل اليوم شاقاً، زادت في مشقته ريح جنوبية حارة كانت تهب رهاء. لكنني، ولله الحمد، متعب فقط وليس بي أثر للصداع.

خرجت صباح اليوم لمشاهدة الأطلال المسماة (زندان)[1] وهي تبعد مسافة خمسة أميال إلى الجنوب من المكان الذي نحن فيه. وفي منتصف الطريق إلى الأطلال حدث ما لم أكن أفكر به، إذ طلب إليّ دليلي وهو معمار معروف من (شهربان) أن أعرج على جانب من الطريق لمشاهدة حصن قديم. وعلى هذا اجتزت قناة أو قناتين، فإذا أنا أمام أطلال بلدة ساسانية لا تقل اتساعاً عن (طيسفون) وكانت أسوارها على نفس النمط والطراز، والمكان مملوء بالأنقاض والخرائب. إن هذا الموقع لا يبعد أكثر من مسيرة ربع ساعة عن (شهربان)، بل إن حدود البلدة الشمالية أقرب من ذلك بكثير. وكانت أقسام السور الجنوبية والغربية، وقد دخلنا المكان من هذا القسم الأخير، بحالة جيدة، وهي كبيرة الشبه بأسوار (سلوقية) و(طيسفون). ومع أن هذه الأطلال تعرف بيغداد القديمة (اسكى بغداد) فإن تاريخها يرجع إلى عصور ما قبل الإسلام. وتتذكرين بأنني قد عينت موقع (دستجرد) في (زندان)، ولم أكن بعيداً عن الصواب في حدسي. فإنني أصبحت الآن أكثر اعتقاداً بأن (اسكى بغداد) ما هي إلا أطلال تلك العاصمة الملكية[2].

تقدمنا بالمسير وعثرنا على خرائب ساسانية أخرى. وفي منتصف الطريق إلى (زندان) بإزاء السيد (سلطان علي) لاحظت سورين ساسانيين متوازيين يمتدان إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي، وهما على بعد ستمائة قدم من بعضهما، ويبلغ طولهما مثل هذه المسافة تقريباً، مثل أسوار سلوقية تماماً، ولاحظت آثار القصب بين كل طبقة من الطابوق.

---

(١) وتعرف بين الأهلين تارة بـ(زندان كسرى)، وتارة بقلعة (خسرو) وجاءت باسم (زندان كسرى) في رحلة المنشئ البغدادي لمترجمها الأستاذ عباس العزاوي ـ المترجم.

(٢) كانت (دستجرد) أحب قصور (كسرى برويز) ملك الفرس إليه، أقام بها سنوات عديدة، مؤثراً إياها على (طيسفون) عاصمة إمبراطوريته. والمؤرخ غيبن ـ بالكاف الفارسية ـ المعروف بدقة أوصافه الجغرافية التي تفوق أحياناً بوضوحها وصحتها ـ



(زندان)

وبعد أن جاوزنا هذه الأطلال بلغنا (زندان) وهي تبعد مسيرة خمس وأربعين دقيقة للراكب عن اسكى بغداد، وهي أطلال على جانب عظيم من الغرابة والأهمية، وتختلف الاختلاف كله عن كل ما شاهدته حتى الآن. فقد كانت مبانيها من الطابوق المفخور المتين، وأغلب ظني أنها

= رواية شاهد عيان، عندما يأتي على ذكر الحملة الثالثة للإمبراطور (هرقل) ضد الدولة الفارسية سنة ٦٢٧م. ، يعين تخميناً موقع (دستجرد) في هذا المكان في سياق وصفه زحف الجيوش الرومانية على (طيسفون) بعد معركة (نينوى) إذ يقول: «وإلى الشرق من دجلة، عند نهاية جسر الموصل، كانت مدينة (نينوى) عامرة في العصور السالفة. ولما كانت حتى أطلال هذه المدينة أثراً بعد عين منذ عهد طويل، فقد أصبح موقعها ميداناً فسيحاً قام في رحبته الجيشان بحركاتهما الحربية.

وقد صمدت خيالة الفرس حتى السابعة من الليل. وفي حوالي الساعة الثامنة انسحبت إلى معسكرها الذي ظل سالماً. فحملت أمتعتها وتفرقت إلى كل جانب، لا لقلة ثباتها، وإنما لأن القيادة كانت تعوزها. على أن (هرقل) بنشاطه المعهود لم يتردد في استغلال ظفره. فقد احتلت طلائع جيشه بعد أن قطعت ثمانية وأربعين ميلاً بأربع وعشرين ساعة، كافة الجسور الممتدة على الزابين الأعلى والأسفل وأصبحت مدن آشور وقصورها مفتوحة أمام الجيوش الرومانية للمرة الأولى. وقد ظلت المناظر الخلابة تستهويهم حتى دخلوا (دستجرد) العاصمة الملكية. وعلى الرغم من =

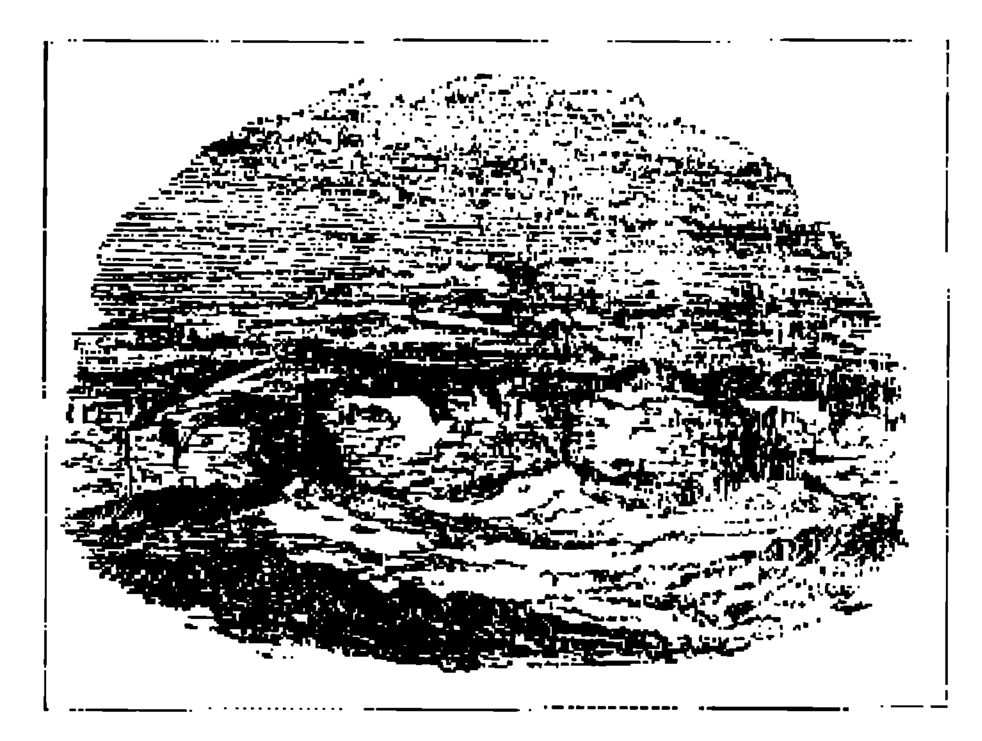
كانت ضريحاً ملكيًّا. ويبلغ طول هذا الطلل اثنين وثلاثين سلسلة من السلاسل الصغيرة ذات الخمسين قدماً وعرضها عند القمة ستة وأربعون قدماً وست عقد وارتفاعها ستة عشر قدماً وعشر عقد، وفي بعض أطرافها أعلى من ذلك. وللبناية اثنا عشر برجاً أو دعامة ما زالت قائمة، وأربعة أخرى في الناحية الشمالية متهدمة.

ويبلغ قطر كل من هذه الأبراج البارزة عن البناء ثلاثة وثلاثين قدماً وخمس عقد وعرضها من جانب السور تسعة أو ثلاثين قدماً وثماني عقد، وتبلغ المسافة التي تفصل بين البرج والآخر ثمانية وخمسين قدماً وست عقد ويوجد بين البرج والآخر ثلاثة أزواج من المزاغل. هذا في الواجهة الشرقية من البناء، أما في الواجهة الغربية فيوجد سور متين لا أبراج فيه، باستثناء كوة تقابل البرج القائم في الجهة الأخرى. وكانت الكوة الأخيرة منها بحالة جيدة يعلوها قوس محدودب. ويبلغ ارتفاع الكوة عشرة أقدام وست عقد وعرضها قدمين وعشر عقد، أما عمقها إلى الداخل فعلى ما قدرته يبلغ واحداً وأربعين قدماً ونصف القدم، وتنتهي بممر ضيق يقابله جدار متين؛ أما قمم الأبنية الباقية وسقوفها فقد تهدمت جميعها.

وقد نقبنا في داخل البناية الواقعة إلى جانب البرج من هذا الطلل، فوجدنا بأن المزاغل التي مرَّ ذكرها تفضي إلى ممر أو مضيق ربما يوصل إلى البرج الواقع إلى الجهة المقابلة.

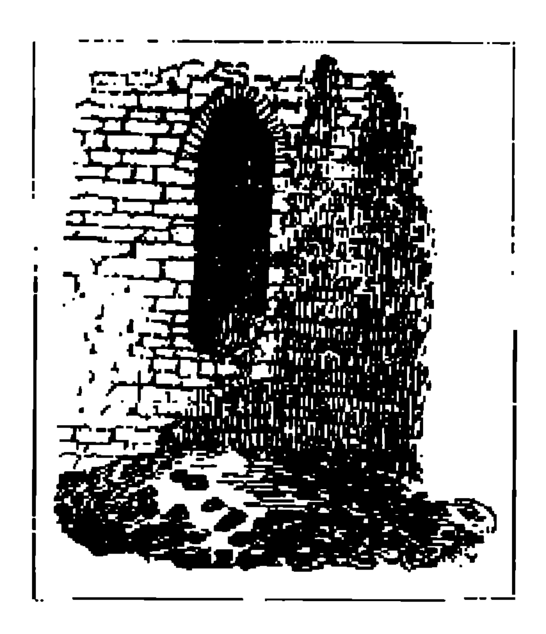
= أن معظم كنوزها كانت قد نقلت أو أنفقت، فإن الغنائم التي أصابها الرومان قد فاقت ما كانوا يؤملونه بل إنها أشبعت جشعهم. ثم إن (هرقل) واصل زحفه من قصر (دستجرد) حتى أصبح على بعد أميال قليلة من (المدائن) أو (طيسفون) حيث أعاقته شواطيء نهر (أربا ـ Arba) لصعوبة اجتيازها، وقسوة الطقس، وقد وقفت بوجهه حصون العاصمة المنيعة».

راجع الصفحات ٢٤٨ـ ٢٥١ من المجلد ٨ من انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية.



طرف (زندان) الشرقي

وكان سقف البناية كله يتألف من طبقات عديدة من الطابوق بوضع مسطح كما يستبان من الجزء الظاهر في الجهة الشرقية، حيث كان محطماً ومهدماً على طول البناء، وفي الجانب الغربي يصل السقف إلى حافة البناء الذي يبلغ في هذا الاتجاه ارتفاعاً أعلى من الجانب الشرقي الذي ضبطنا قياسه.



كوة في (زندان)

وعند الكوة الخامسة من الجهة الجنوبية الغربية وجدنا بقايا طلل يستند إلى السور كأنه بقايا دعامة أو نتوء وربما كان مرقاة، أما الناحية الشمالية من الأطلال فكانت خربة تماماً. وقد بنيت دور عديدة في (شهربان) وغيرها من الأنقاض التي نقلت من (زندان).

وكانت الصحراء من الجهة الغربية تظهر مرتفعة على طول الجبهة إلى مسافات قليلة. كان فيها آثار مبانٍ أخرى، لأن سطح الأرض كان مغطى بكسر الطابوق.

إن هذه البناية العجيبة مشيدة بالطابوق و«المونة» الجيدة، وعلى جانب عظيم من المتانة، ولم أعثر على أية كتابة في الطابوق الذي شاهدته كما أنني لم أجد هناك لبناً غير مفخور أو طيناً أو قصباً. وفي عدد من الأماكن وجدنا تجاويف عديدة أصبحت الآن مملوءة بالتراب والأنقاض ومن غريب ما عثرنا عليه في هذه الأطلال قطعة نقد صينية من نحاس.

على أن هناك أموراً أخرى تتعلق بما اكتشفته اليوم سأحتفظ بها حتى نتلاقى لأنني لم أباشر بعد الأرصاد الفلكية في هذا المكان.

سنرحل غداً عند مطلع الشمس إلى (قزيل رباط) وهي على مرحلة هينة. ولقد عزمت على إرسال هذا الكتاب صحبة البغالة العائدين، لأنني سأعيد من هنا كافة البغال الرديئة محتفظاً بالجيدة منها، وسوف أتزود بما أحتاجه منها من القرية.

إن رسول الحاكم قد خرج الآن من زيارتي وعرض عليَّ أن يضطلع بمهمة إرسال هذا الكتاب. ولكم تمنيت أن أتلقى هنا أخباراً منك، لأنني عازم على أن أضرب في طول هذه الأماكن وعرضها، وسوف لا يتاح لي أن أتسلم كتاباً منك قبل وصولي إلى ضواحي بغداد. ولقد استعلمت توًّا عن وجود طريق أخرى أغلب ظني أنني سأتبعها، لأنها ستمر بي خلال

أماكن غريبة إلى (كفري)، وهذا هو الطريق الذي كنت آمل من أمد بعيد أن أتأكد منه، والذي ما كنت أظن أنني سأستطيع التأكد منه يوماً ما.

لقد أقام لي سليم آغا حفلة لهو وقد كان يبذل قصارى جهده لتسليتي. فأحضر لهذا الغرض الجوق الموسيقي من القرية، الأمر الذي ازعج (به ل لي نو) كثيراً. وقد أخذ الجوق يعزف أغنية «بريازي يازدم» - ومعناها: - كتبت كتابة - ويقول سليم آغا أن سيدات بغداد شغوفات بهذه الأغنية.

تأكدي، واكتبي لي إلى (كفري)، وإني سأكون فيها بعد خمسة أيام بعون الله. فإذا كنت لا تجدين من يسافر إلى (كفري) مباشرة فلا بأس من إيفاد رسول خاص، وعلى كل حال إني أرى ذلك خير طريقة.

درجة الحرارة في هذا اليوم ٦٦، والجو رائق جميل.

٢١ آذار:

غادرنا (شهربان) في حوالي الدقيقة العاشرة قبل الساعة السابعة، وسرعان ما سررنا لبلوغنا أول أرض مرتفعة منذ بارحنا بغداد، فكانت المناظر أشبه بالمروج الإنكليزية، وبعد فترة وجيزة بلغنا جدول (بلدروز) الجميل فاجتزناه فوق قنطرة جيدة ذات قوس واحد.

وفي الساعة الثامنة والنصف بلغنا (تلال حمرين) وهي لا ترتفع في أي مكان أكثر من مائتي قدم. والسلسلة الأولى أو الجنوبية منها مؤلفة من أحجار رملية جرداء بطبقات منحنية ومن ورائها فجوة ملأى بالأطناف كأنها تلال محطمة، ومن بعدها تأتي السلسلة الشمالية وهي من تراب وأحجار، وفي أسفل التلال جدول صغير يصب في نهر ديالى.

انحدرنا من تلال حمرين بمنحدر هين إلى سهل يدعى دشته[1]

---

(١) «دشت» كلمة فارسية ومعناها السهل - المترجم.

تنتشر فيه بعض الأكواخ العائدة إلى كرد (سوره مه ني)[1] الذين يفدون إلى هنا في هذا الموسم لزراعة التبغ. وقد كانت قبائل (الخزرج)[2] و(بني ربيعة) و(بني ويس) العربية تقيم هنا قديماً للزراعة، لكنها قد تفرقت في الأيام الأخيرة.

ولقد سألنا مسافراً صادفناه عن بعد (قزيل رباط) عن ديالى، فأعجبني جوابه «بر جوبوق ايجمه» أي «أمد وقت يستغرقه تدخين غليون»[3].

وكان مسيرنا في طريق سبخة موحلة، ولكن وجدنا زرعاً كثيراً على كلا جانبيها.

وكانت سلسلة تلال أخرى ظاهرة وراء (قزيل رباط) موازية لتلك التي غادرناها توًّا، تلك هي تلال (خانقين) التي تبدأ عند كركوك وتتجه نحو (لورستان).

وعندما كنا نقترب من (قزيل رباط) التي بلغناها وقت الظهيرة شاهدت تلالاً صغيرة من الأنقاض على يسارنا وهي لا تستحق الذكر. وهناك طنف اصطناعي في قرية (بارادان) ذو مظهر غريب. وعند مغرب الشمس خرجت إلى شرفة الدار التي حللنا بها، ومنها استطعت رؤية نهر ديالى الذي يبعد عنا زهاء الميلين.

وبفضل مساعي محمود جاووش[4] علمت بوجود بعض الأطلال

---

(١) جاءت في الأصل (سوره مه ني) غلطاً من (سوره ميري) أي طائفة الرجل الأحمر ـ المترجم.

(٢) الخزرج، قبيلة قديمة كانت سيدة (المدينة) عند هجرة (محمد) إليها وكان (أبو أصيبعة) ينتمي إليها. وقبيلة ربيعة، التي كان لها الحول في البلاد العربية ما هي الآن إلا عشيرة لا يعتد بها. وإن عرب (عنزة) ينحدرون من هذا الأصل.

(٣) ويعبر العوام في يومنا هذا عن ذلك بـ«شربة جكاره» ـ المترجم.

(٤) أحد خدم المستر ريج ـ الناشرة.

بالقرب من (قصر شيرين) وهي خرائب لم يسبق لأوروبي أن زارها. فاستأجرت دليلاً يقودنا إليها.

ولقد سمرت ليلاً في حفلة كان القرويون يقيمونها بمناسبة عرس عندهم. وكان منظراً قشيباً لعبت فيه السيوف ودارت حلقات الرقص على ضوء المشاعل.

والناس هنا يتكلمون بالتركية والكردية، واللُّغة الفارسية شائعة في هذا المكان أما العربية فلا. ويقال إن دخل خزينة (قزيل رباط) يبلغ حوالي ٧٠,٠٠٠ قرش.

درجة الحرارة بين الساعة الثانية والثالثة ب.ظ. ٧٣، والريح جنوبية، والأفق مغبر.

٢٢ آذار:

امتطينا جيادنا في السابعة إلا ثلثاً هذا الصباح، وفي موقع يدعى (كه رميه) - بالكاف الفارسية - شاهدت تلَّين لا أهمية لهما، والظاهر أنهما اصطناعيان. وفي الساعة السابعة بلغنا جدول (قزيل رباط)، وكانت الأرض صخرية وعشبها قليل يكفي لرعي الأغنام، وقد شاهدنا قطعاناً كبيرة من الغنم والماعز.

وفي الثامنة إلا ربعاً بلغنا التلال، وكانت السلسلة الأولى منها ترابية خددتها الأمطار وشققتها كثيراً ثم جاءت سلسلة من الأحجار والحصى مندمجة بتربة خفيفة، وكانت تظهر بعض الأحجار الرملية في أنحائها. ومررنا بمضيق قليل العرض يدعى (صاقال طوتان) أي «ماسك اللحية» كناية عن اللصوص العابثين في هذه المنطقة، ومنه انحدرنا إلى سهل وبعبارة أخرى إلى وادٍ مملوء ببقايا تلال ركمة مغطاة بالتربة التي انحدرت إليها من التلال التي تعلوها.

وفي التاسعة بلغنا (يه ني جه ري ته به ـ تل الينكشاري) الذي يعد منتصف الطريق بين (قزيل رباط) و(خانقين) وقد أخذ طريقنا يتلوى بين التلال، وبعد أن اجتزنا سلسلة ثانية منها شرعنا ننحدر انحداراً تدريجيًّا باتجاه خانقين، وكانت التلال التي مررنا بها أعلى بقليل من تلك التي اجتزناها نهار الأمس، وكلها حصوية ترابية، وكانت الصخور الرملية تظهر هنا وهناك بطبقات مائلة نحو وسط التلال.

وسهل خانقين معشوشب جميل، تقاطعه في الأنحاء بعض خطوط التلال، والأرض مملوءة بالحجارة. وكانت الحبوب الهندية والتبوغ مزروعة فيها. وفي أعالي (ألوان)[1] يزرع الرز أيضاً الأمر الذي يجعل الجو في موسم الخريف مزعجاً جدًّا. وقد قيل لي بأن كمية الغلة الاعتيادية في هذه الأراضي تبلغ عشرة أضعاف البذور. وقد وجدنا عشائر كردية منتشرة في كل مكان من هذا السهل المعشوشب لترعى مواشيها.

توقفنا في السهل نصف ساعة أوفدت خلالها مأمور منازلنا (قوناقجي) وكانت الجبال تمتد إلى يميننا وهي تشرف على إقليم (كيلان) ـ الكاف فارسية ـ وأمامنا جبال إيران ظاهرة وراء زهاو الكردية. وبعد أن اجتزنا ربوة صغيرة انحدرنا إلى البلدة الصغيرة أو قرية (خانقين) فبلغناها في الثانية عشرة والربع، حيث وجدنا خاناً أنيقاً من بناء الفرس، لكننا بدلاً من الوقوف هنا عبرنا نهر (الوند) وهو جدول جبلي سريع يجري من الجنوب إلى الشمال ويصب في ديالى على بعد قليل من (قزيل رباط) فوق قنطرة جميلة ذات ثلاثة عشر قوساً بناها محمد علي مرزا[2]، واتخذنا مقرنا في (حاجي قه ره) على الضفة المقابلة.

---

(١) يقصد نهر (الوند) ـ حلوان ـ المترجم.

(٢) هو الابن الأكبر لشاه إيران وحاكم كرمنشاه. وقد كلف بناء القنطرة ٢٠٠,٠٠٠ قرش. وكان في هذا المكان جسران آخران جرفتهما المياه.

٢٣ آذار:

مرت بنا ليلة عاصفة. ورياح هذا الصباح شمالية غربية. وقد علمت توًّا بوجود طريق تؤدي من هنا إلى (قه ره ته به)، أظنني سأتبعها.

وكنت اليوم أتلهى بالنزهة في الأماكن المجاورة والجلوس في بستان حيث استمعت إلى موسيقى كردي عجوز من قبيلة (سووزمه ني)[١] التي اشتهر أفرادها بالموسيقي والرقص. وكان هذا العجوز يعزف عزفاً لا بأس به على «كمان» محلية أو رباب ذي وترين بأنغام مطربة. وقد عاد مرة أخرى في المساء ليطربني فأنشد عدة أغاني بدائية باللُّغة الكردية.

درجة الحرارة في الثالثة ب.ظ. اليوم ٦٦.

كفري، ٢٧ آذار ١٨٢٠:

ها أنا ذا هنا بعد أن قمت برحلة أكثر ما تكون غرابة وأهمية. وقد كانت من الغرابة والتوفيق بنتائجها مما تعد من المشروعات التي نصممها أحياناً من غير ما تتاح لنا إمكانية تطبيقها. فقد غادرنا خانقين في الرابع والعشرين منه برفقة سليم آغا الذي أصر على مصاحبتي في سفرتي، ومعه جماعة قوية من حرسه الخيالة، وذلك تفادياً للخطر الذي قد نتعرض له من مؤخرة حرس جيش أمان الله خان[٢] عدا قطاع الطريق الذسين يقال بأنهم يحتلون المضائق في هذه المنطقة وأن عددهم يبلغ ٥٠٠ خيال. وكنا نبعث بعض الحرس في الطليعة والجناحين، كما كان (به ل لي نو) والسيد المعروفين بقوة بصرهما قد انفصلا عنا وسارا أمامنا يتطلعان إلى الطريق. والأراضي هنا جبلية، والركوب لمدة خمس ساعات مريح جدًّا.

---

(١) وصحيحها (سووره ميري).

(٢) هو حاكم إيالة (سه) في كردستان الإيرانية.

وفي الساعة التاسعة بلغنا (قالاي سه لزي)[1] ـ قلعة سه لز ـ وهي حظيرة تشبه حظائر الغنم شيدها على هيئة «ده ربه ند» ـ مخفر حرس ـ عبد الله باشا جد فتاح باشا الزهاوي، لكنها هجرت منذ مدة طويلة.

وفي الحادية عشرة والنصف لما بلغنا خان (قصر شيرين) وجدنا الكل في ارتباك من جراء غزوة أمان الله خان الأخيرة. وأخذ القرويون المساكين وهم من التركمان الـ(ده ركه زين)، يقصون علينا قصصاً محزنة عما أصابهم. وقد علمنا بأن الخان أصبح على بعد أربع ساعات منا، في منطقة الباشوية الكردية بزهاو[2] حيث باشر أعمال العدوانية ضدها.

ضربت خيمتي فوق أكمة معشوشبة جميلة تشرف على نهر (الوان). أما المستر (به ل لي نو) فقد أقام في خيمة صغيرة اتخذها مرصداً على مقربة منا، وأشغل في مؤخرتنا سليم آغا ورجاله مكاناً أقل ملائمة. وقد ألف الحرس من بنادقهم نوعاً من البطريات، كما أقام السيد[3] ومحمود والخيالة وغيرهم جماعتين من الحرس. وأخذوا يرددون بصوت مرتفع كلمة مرور هي: «كل شيء على ما يرام» وكان البوق ينظم تبديل النوبة للحرس فكان صوته يجلجل بين الجبال، فأخذ معسكرنا هيئة عسكرية مهيبة لكنه لحسن الحظ لم يحدث ما يستوجب إظهار بطولتنا.

سلخت ثلاث ساعات تجولت خلالها بين أطلال قصر خسرو (كسرى)[4] وقد خبت فيما كنت أتوقعه. والحقيقة أنني منذ قيامي بزيارة طاق كسرى مؤخراً لم أشهد حتى الآن بناءً يعادله عظمة. فالأطلال التي أزورها الآن على جانب كبير من الخشونة، لا روعة في تصميمها أو

---

(١) جاءت في الخرائط الحديثة (سه بزي) ـ المترجم.

(٢) إن باشوية زهاو تابعة لباشوية بغداد وهي تنقسم إلى قسمين، (ده رنه) أو (زهاو). والجبال في تلك المنطقة، وسهل (باجه للان).

(٣) يقصد به آغا سيد، أي المنشئ البغدادي ـ المترجم.

(٤) هو (خسرو به رويز) ملك الفرس (من آل ساسان) وحفيد كسرى أنو شيروان، تزوج =

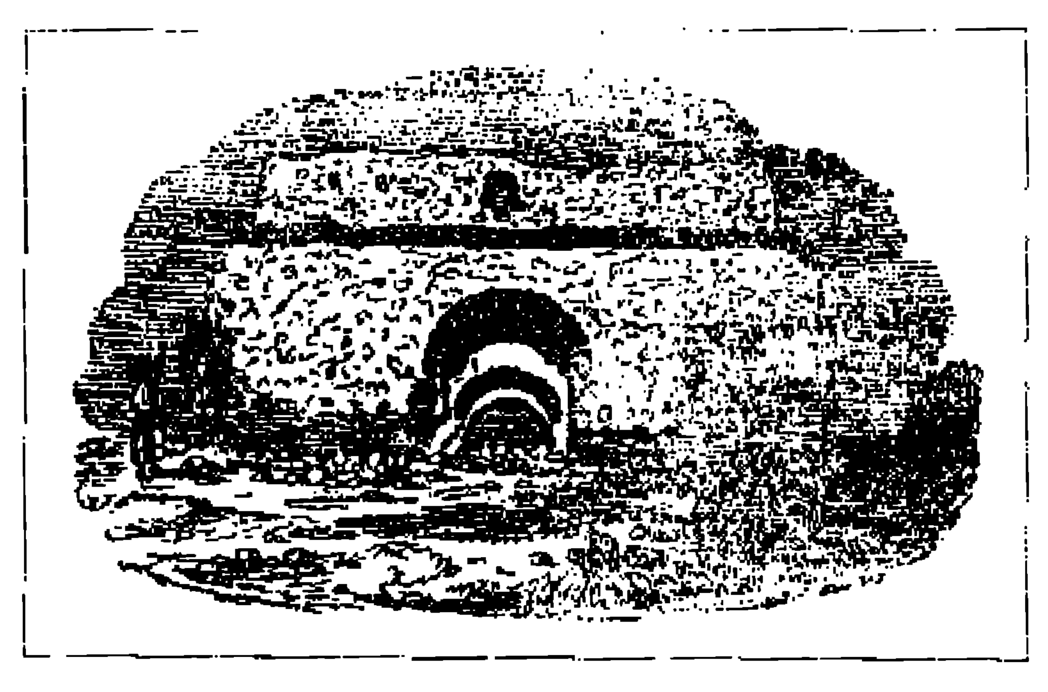
سعتها. وليس من المعقول أن تكون مدينة كانت قائمة في هذا المحل. وعلى كل حال ليست هذه (دستجرد) وإنما هي أحد قصور الصيد التي كان ملوك ساسان يترددون إليها.

وعلى ناحية التل وراء الخان وجدت سياجاً مربعاً أشبه بالحصن محاطاً بأبنية مكورة، إذا صح التعبير، كان داخلها سالماً من العطب وهي صغيرة المساحة تشبه قمعاً مقلوباً. وكان طرازها المعماري من أخشن ما رأيته. ويظهر أن بناءها مؤلف من حصاة كبيرة مستديرة مكومة فوق بعضها دون اهتمام أو ترتيب، فوق طبقة كثيفة من «المونة» الخشنة.

وعند الزاوية الجنوبية الغربية فوق مسيل وجدت بقايا قنطرة من الطراز الخشن نفسه، تقع على مسيرة عشر دقائق مما نسميه المدينة. وقبل بلوغها مررنا بتلال مؤلفة من طبقات عمودية متوازية من الصخور الرملية، وقد حاول رفاقي إقناعي بأنها آثار أبنية. ومن الغريب أن هؤلاء كانوا على استعداد للاندهاش من أي شيء يرونه. إذ كانوا يهتفون بكلمة «عجائب..» كلما وقعت أبصارهم على طلل لا أهمية له، وكانوا أحياناً يعلقون بقولهم إن من المستحيل أن تقام بناية على هذا الطراز في الوقت الحاضر.

= من ابنة الإمبراطور (موريس) التي يغلب الظن بأنها بطلة القصة الشرقية المعروفة «خسرو وشيرين» و«فرهاد وشيرين» وهذه البطلة قد تشرفت بأن وضع أنشودتها باللُّغة الألمانية جوزيف فون هامه ر في قصيدته «شيرين» وإن من أراد الإطلاع على تفاصيل أكثر عن حياة هذه البطلة والقصائد التي نظمت فيها ليجدها مسهبة في الكتاب الذي صدر أخيراً بقلم أحد المستشرقين البارزين العاملين بعنوان «تاريخ الشعر العثماني».
أما البلدة التي يقال إن (كسرى به رويز) كان قد بناها إكراماً لشيرين فاطلق عليها اسمها وصف أن موقعها بين بلدتي (حلوان) و(خانقين) ويروى أن كسرى قال لشيرين «إن الملك أمر جليل لو دام إلى الأبد» فأجابته بقولها «لو كان الملك مما يخلد لما وصل إلينا» ـ الناشرة.

أما البلدة ففي محيط غير منتظم لا تزيد مساحته على الميل الواحد. ولها أربعة مداخل كان الغربي منها أفضل حالاً. وأنا الآن أشرع بوصف هذه الأطلال حسب الترتيب التي شاهدتها به، فقد كان أول ما شاهدناه بعد اجتيازنا السور، وإلى الشمال الغربي مما أسميه القلعة بـ(١٥) درجة، بناء مربع الأركان يتجه إلى الجهات الأربع الأصلية، وكان ذرع طول كل ضلع منها ثلاثة وخمسين قدماً، أما ارتفاعه فلم أضبط قياسه وقد يكون أربعين قدماً. وفي كل ضلع من البناء بوابة مقوسة فوقها نافذة ضيقة. أما السقف، ويظهر أنه كان معقوداً فقد تهدم. والبناية كما ذكرت خشنة الإنشاء يكسوها الطابوق الأحمر الغليظ، وكانت تقسيمات النوافذ والأبواب من هذا الطابوق أيضاً، وكان قسم منه ظاهراً في مكانه. ووجدت إلى الجانبين الشمالي والجنوبي ساحات صغيرة مربعة على جوانبها حجرات صغيرة منهدمة وإلى الجانب الشرقي منها آثار بناء طويل يحتوي على شقة ضيقة، يظهر أنها كانت معقودة السقف.



قصر شيرين

أما الخرائب الرئيسية في واجهة هذا البناء الذي كان يذكرني بأطلال دارا، فقائمة في قلب المدينة. والظاهر أنه كان دكة واسعة تعلوها

القباب، مقسمة إلى ممرات ضيقة وحجرات. وفي الناحية الغربية من الجهة الجنوبية يقوم شبه مجاز ينتهي بباب عند كلا طرفيه. وكان هذا المجاز مفتوحاً من جهته الشمالية ويفضي إلى حجرات وغرف قائمة بمفردها، وأغلب ظني أنها كانت في السابق جزءاً من الدكة أو الرصيف. وإلى الجهتين الشرقية والشمالية والجانب الشرقي من الواجهة الغربية كان البناء كاملاً. وعلى كلا جانبيه مرقاة مزدوجة قائمة على العقود التي تسند الرصيف وهي واضحة كل الوضوح. ولا يزيد طول كل واجهة حسب اعتقادي على مائتي قدم وارتفاعها من ثمانية إلى عشرة أقدام، وهذا أعلى قسم في بقايا هذه الأطلال. وبناء الأقسام جميعها متشابهة من حيث الطراز.

وهناك أمام المدخل الشرقي وعلى امتداده، وجدت سياجاً مستطيلاً يتألف من أحجار مستديرة مكومة فوق بعضها، والساحة التي تتخللها مزروعة في الوقت الحاضر. وقد شعرت ببعض الشك في أول الأمر في كون هذه الحظيرة قديمة أم حديثة. لكن جميع الحاضرين في هذا المكان أكدوا لي بأنها قديمة فأصبحت أميل إلى الاعتقاد بأنها كذلك ولعلها كانت صهريج ماء قائماً أمام القصر. وكان السور من الجهة الشرقية بحالة جيدة. ولكنني لم أجد أثراً للأبراج في أية جهة منه. ويظهر أن هذه كانت حظيرة بسيطة بدون دفاع. أما المدخل الخارجي فكان مؤلفاً من بابين مزدوجين فوقهما قبة معقودة في الأزمنة السالفة، وإلى كل من جانبيهما غرفة كانت معقودة أيضاً. والسور كله مشيد بالصخور الرملية المستطيلة الشكل. أما أقواسه فمؤلفة من قطع كبيرة من الصخور الرملية. ويبلغ عرض البوابة الواحدة خمسة عشر قدماً وثلاث عقد، ولعلها كانت بارتفاع يناهز العشرين قدماً في الأقسام التي لا تغطيه الأنقاض.

رسمت مخططين لهذه الأطلال. ويقع خط العرض في (قصر

شيرين) حسب التخمين الإجمالي ٣٤ درجة و٣٠ دقيقة و٣٩ ثانية شمالية.

وفي اليوم التالي بعد أن مرت بنا ليلة قارصة البرد توجهنا نحو أطلال (حوش كه رو) التي لا يعرف عنها شيء حتى الآن. وهي واقعة في باشوية زهاو الكردية التي سبقت الإشارة إليها في (قزيل رباط). نهضت عند طلوع الشمس على الرغم من البرد؛ وأثناء ما كانت الخيام تقوَّض، ذهبت لإلقاء نظرة على الأطلال التي نسيناها نهار الأمس، إنها وراء القلعة من ناحية الخان وكانت قائمة فوق أعلى مرتفع في هذا المكان، فوق جبهة التل المشرف على الخان. وكانت هذه الرابية مستديرة في أعلاها، وقد بنيت من جميع أطرافها أو أحيطت بسياج تتخلله الفجوات. وكان بناؤها من الطابوق الأحمر الغليظ. أفلا يمكن أن تكون هذه «دخمة فارسية» أي المحل الذي يلقى عليه الموتى؟. أما التلال المجاورة فكانت من الجبسين؛ والتربة حمراء سبخة في بعض الأماكن. وقد عثرت عند أسفل الرابية والخان على بقايا أساسات قديمة. لكنني على يقين من أنه لم تكن هنا بلدة. وإنما قصر للصيد، كما أنني لا أعتقد أنه كان بناء داخل السياج عدا القصر الذي مر بنا وصفه.

امتطينا جيادنا في السابعة فشرعنا نسير في تلال موحشة بين العشائر الكردية التي كانت من عنصر أرقى من عشائر ماردين[١] ومررنا بإبل لأمير كرمنشاه كانت ترعى، كما صادفنا جماعات عديدة من عشائر (زه نكه نه) مع عوائلهم. وكنا كلما مررنا بجماعة من الكرد أو مضارب لهم يصر سليم آغا على أن ينفخ جنودنا بأبواقهم زاعماً أن ذلك «هيبتلي»

---

(١) كان المستر ريج وأسرته خلال إقامتهم في (ماردين) في رحلة سابقة من بغداد إلى استانبول قد تعرضوا إلى مصاعب بل أخطار من الكرد الرحل الضاربين بجوار البلدة. وهم أناس مشاغبون خارجون على القانون غدارون ـ الناشرة.

أي مما يزيد في هيبتنا. وبالحقيقة إنني أستطيع أن أؤكد لك بأني وجدت الأبواق تزيد في هيبتي أكثر مما لو أضيف إلى رجالي خمسون جنديًا آخرين. وقد صرح الكرد بأنهم عرفوا أنني الـ«ايلجي» أي السفير، من الأبواق التي ترافقني، سيما أولئك الذين سبق أن تعرفوا إلى الجنرالين (مالكولم) و(يارمولوف). وعلى ذكر يارمولوف أقول إن كمنجاتيًا كرديًا عجوزاً عزف لي رقصة قوزاقية قال إنه تعلمها من الجوقة التي كانت تصحب يارمولوف. أما على ذكر الأبواق فأقول إنه حدث في (حوش كه رو) أن اهتاج جوادي وانتصب واقفاً على رجليه وهاجم جواداً آخر كان بالقرب منه فقابله هذا بالمثل. ومن جراء ذلك سقط حامل البوق الذي كان واقفاً بين الجوادين على الأرض فوق الأحجار المتبعثرة. فخيل لمن كانوا معي أن قحف رأسه قد تهشم فصاروا يهنئونه على سلامته، وقد قال: ـ «لم أكن خائفاً على رأسي وإنما كنت أفكر بِالبوق الذي أحمله إشفاقاً عليه من الانفعاص»؛ ولكنه لم يتعطب.

وصلنا إلى أطلال (حوش كه رو) في التاسعة والنصف. وكان الطريق إليها يتلوى بين التلال لكن اتجاهنا العام كان شماليًا بثمانين درجة إلى الغرب من (قصر شيرين). و(حوش كه رو) يشبه (قصر شيرين) الشبه كله ولكنه أقل تداعياً منه، الأمر الذي سهل لنا رسم مخطط له. وهنا قابلنا بعض الكرد الـ(بتاره وه ند) من أتباع أمير كرمنشاه وهم على جمال يفوق المعتاد ونشاط وأدب، فقدموا لنا لبناً رائباً لذيذاً وجبناً طريًّا تمتعنا منه بأكلة شهية قبل شروعنا بفحص الأطلال.

وتتألف أطلال (حوش كه رو) أولاً من سياج من جدران حجرية ذات شكل غير منتظم يتبع تموج الأرض. وهي أقل امتداداً من أسوار قصر شيرين، غير أنها لا تضم أية خرائب. وعلى بعد نحو مائة ياردة إلى الجنوب توجد البناية التي جئت خصيصاً لمشاهدتها وهي التي يطلق عليها (حوش كه رو) ويزعم بعض الكرد أنه المكان الذي كان (كسرى) يربي

فيه أفراسه، وأنه كان يجلب الحليب لتغذية أفلائه عن طريق قناة منقورة في الصخور لا تزال بعض آثارها ظاهرة على بعد نحو ساعة من (قصر شيرين)، لكننا لم نجدها جديرة بالزيارة. أما كرد الـ(بتاره وه ند) الذين كانوا معنا فيزعمون أن (حوش كه رو) كان قصراً أو حصناً لشابور. وكان طراز بنائه يشبه طراز (قصر شيرين) ولما كان أحسن حالاً منه فقد أتاح لنا فرصة دراسته وتفهمه كما فعلنا (بقصر شيرين).

ويحتوي (حوش كه رو) كالبناء الذي سبق لنا وصفه صحناً أو رصيفاً يستند إلى عقود تؤلف قاعات صغيرة معقودة أشبه بالأقبية أو السراديب وقد أصبحت اليوم مأوى شهيراً لقطاع الطرق. وكانت أحسن هذه الغرف حالاً تلك الواقعة إلى الجهة الشمالية، وقد علاها السخام من النار التي يوقدها اللاجئون إليها في فصل الشتاء. وشكل هذا الصحن المحدد من جهاته الأربع طولاني. وقد قمت بقياس جبهته الشمالية فوجدتها ثلاثمائة وأربعين قدماً من ضمنها البناء الواقع على الواجهة الغربية، أما ارتفاعه فكان خمس عشرة قدماً ونصف القدم، وعرضه من الشمال إلى الجنوب يقدر بنصف طوله من الشرق إلى الغرب. وفي نهاية جبهته الغربية بقايا بناية القصر الذي دخلناه من منحدر يمكن الخيال أن يهبط منه. وإلى جانبي المنحدر ساحة صغيرة فوقها غرف معقودة. وبناية القصر عبارة عن أكوام من خرائب غرف صغيرة كلها مبنية بالصخور الرملية المستديرة، وهذه الصخور تغطي الأرض في تلك المنطقة بكثرة مدهشة حتى سهل (بين كودره). وعند المنتهى الشرقي من الواجهة الشمالية والجنوبية مرقاة مزدوجة، والساحة من أسفل الواجهة الجنوبية. وقد قال لي آغا سيد إن هذا البناء يذكره بالمباني التي يشيدها شاه إيران حيثما يعسكر بجيشه. وعلى بعد نحو مائة ياردة إلى الجهة الشمالية الغربية يوجد بناء غريب يستند إلى جدران السياج من الخارج، وهو مفتوح من أعلاه، ولا يزيد ارتفاع حيطانه على العشر أقدام. وهذا البناء يحتوي أولاً على ساحة مكشوفة في جانبه

الشرقي قياسها نحو سبعين قدماً مربعاً تحيط بها الأقواس من كل جانب، ثم على ممرات ضيقة جدًّا يظهر أنها كانت معقودة في أكثر أقسامها، فإن قواعد أقواسها ما زالت قائمة؛ ومن بعدها ساحة مكشوفة كالأولى ثم سياج أكبر. ويوجد في الشمال ممران ضيقان يحدهما سور السياج. ويصعب القول فيما إذا كانت هذه البناية جميعها مسطحة في الماضي شأن صحن القصر، إذ إنني لم أشاهد في الساحة آثار أنقاض يمكن القول بأنها قد تساقطت من السطح لكن الممرات كانت معقودة بلا ريب.

وقد زعمت جماعتي في الحال أن هذا كان محل الخدم، وفي الحقيقة أنهم زعموا أموراً اسوأ حدساً من هذا. وكانت البناية كلها من الصخور الرملية وكل ما شاهدته حتى الآن من الآثار الساسانية لم يترك لدي فكرة حسنة عن ذوقهم وعظمتهم. وأكبر ظني أن هذه الأطلال وتلك التي شاهدتها في (قصر شيرين) إنما كانت قصوراً للصيد وحدائق نعرف أن ملوك الساسانيين كانوا يمتلكونها، ولعل هذه الأبنية كانت فخمة المنظر يوم كانت محلاة بالنقوش الكثيرة ومموهة بالذهب ومزينة، أما في حالتها الخربة الحالية فليس فيها ما يدهش. ولا توجد في هذه الأنحاء أطلال أخرى غير تلك التي وصفتها.

لم نقض ليلتنا في (حوش كه رو) وإنما غادرناها في الساعة الحادية عشرة فسرنا في سهل (باجه للان) من أعمال باشوية زهاو، حيث تمكنت من تسجيل نقاط جغرافية مهمة، وحل بعض الأمور المعقدة التي لم يمكن توضيحها بوسائل أخرى، سيما تعقب مجرى نهر (ديالى) بكامله. وقد استأنفنا طريقنا فوق قمم الجبال حتى الساعة الواحدة، حيث انحدرنا إلى السهل، فشاهدنا نهر (ديالى) يتلوى بعيداً عن جهتنا اليمنى، وعلى شاطئه تل اصطناعي مرتفع يدعى (شيروانه) وكان السهل على ما يظهر مزروعاً جيداً، فهنا أخذت نسبة التراب تزداد على كمية الصخور المدورة التي مرَّ ذكرها.

وفي الساعة الثانية إلا عشر دقائق بلغنا (بين كودره) وهي قرية كبيرة يملكها حسن آغا من رؤساء الكرد في (باجه للان). وقد هرع لزيارتي في خيمتي وكان يرتدي حلة قشيبة مقصبة بالذهب عليها عباءة من الفرو الثمين ارتداها لهذه المناسبة، وكان يتكلم التركية بذلاقة وهو مضياف كبير لم يسمح لي بشراء أي شيء من قريته باعتباري «مسافره» أي ضيفه الخاص. وفي اللّيل خرجت القرية بأجمعها لرقصة الدبكة «الجوبي» على أنغام الطبل الكبير والمزمار. ولزيادة أنسنا جعلوا سليم آغا ينضم إلى حلقتهم. وقبل أن يبدأ الاحتفال قدم حسن آغا لزيارتي وقد تم الاتفاق على أن يعد رمثاً «كلكا» نتمكن به من عبور ديالى الذي يبعد نحو نصف ساعة عن هذا المكان[١].

امتطينا جيادنا في الساعة السابعة من الصباح التالي، وهنا ودعت دليلي الكيس سليم آغا فعاد إلى خانقين. أما أنا فقد سرت مع رئيس هذه المنطقة نحو (ديالى) التي بلغناها بعد ساعة من الزمن. وكان طريقنا إليها مستنقعاً كونته مياه النهر الفائضة. وقد شاهدنا كثيراً من أشجار الصفصاف والحور، وبعد مغادرتنا القرية مباشرة مررنا بأكوام من الخرائب تدعى (قطار ته به سي)[٢] أي تل الحجل، وقد زعموا بأن (أنوشيروان) كان يضع بغاله هنا؛ وقد شاهدنا أطلال أبنية كثيرة على طول نهر ديالى.

وحالما بلغنا نهر ديالى عبرته جيادنا سباحة بمساعدة بعض العربان، وأعد رمث «كلك» لعبورنا نحن وأمتعتنا. ولما كان الرمث صغيراً فقد

---

(١) إن المسافة بين (بين كودره) وزهاو تسع ساعات، وإلى خانقين بطريق الجبال مباشرة ثلاث ساعات. و(بين كودره) تقع على الجنوب ٨٠ درجة غرباً من (حوش كه رو) وهي معدودة من الأراضي الإيرانية.

(٢) لم يتحقق المترجم تركية هذه التسمية. ولعل أن تكون كلمة (قطار) جاءت غلطاً من (القطا) وعندئذٍ لا يصح ترجمتها بـ(تل الحجل). والقطا في التركية «باغرتلاق».

اضطررنا للعبور بالتناوب الأمر الذي أخرنا زهاء خمس ساعات. وكان عرض النهر الرئيسي حوالي أربعمائة ياردة. وقد أعلمنا الزعيم الكردي بأنه في موسم الفيضان يصبح عرضه ميلاً ونصف الميل، عدا ما يصب منه في المستنقعات التي مرَّ ذكرها. وقد وجدت القطن والتبغ يزرعان في الأراضي المجاورة، وكان العرب من قبائل (بني عجيل) و(العزة) ضاربين على شواطىء النهر. والرمث الذي عبرنا النهر عليه كان من عمل أفراد العشيرة الأخيرة، ويقبض (حسن آغا) بدل التزامه مبلغاً يتراوح بين المائتين والثلاثمائة قرش. وقد تم نقلنا جميعاً بسلامة على الرغم من وهن الرمث وشدة تيار النهر الذي كان أشبه بالماء المتدفق من فم الخرطوم.

وكان أحمد آغا[١] قد تولاه الذهر لمجرد التفكير في مهمة عبورنا على هذه الشاكلة. فلما رأى أننا قد عبرنا بسلام طفق يجهش بالبكاء ويقول: «آه يا سيدي كنت أرجح أنك تسير خمسة أيام على عبورك ـ ولعله كان يقصد نفسه ـ هذا النهر الرهيب. أما (جيت سنغ)[٢] فكان يتمتم طيلة مدة عبورنا البسملة: ـ «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الرحمن الرحيم».

عدنا إلى الركوب في الجانب الأيمن من النهر في الواحدة والنصف فمررنا أولاً فوق تلال ثم انحدرنا إلى أرض رسوبية وبعض الأراضي التي كانت قد غمرتها المياه سابقاً فبلغنا قرية (زه نكه باد)[٣] وهي مسقط رأس ابن الكيوانة[٤] لكنه كان غائباً، وكان وكيله رجلاً

---

(١) أحد خدم المستر ريج.

(٢) أحد خدم المستر ريج، وكان هندوكيًا فأسلم.

(٣) ٣٠ درجة إلى الجنوب الغربي.

(٤) «كيواني» لقب رئيسة الخادمات أو «دووأننا» في حرم باشا بغداد ـ الناشرة. (و«دوأننا ـ Duenna» كلمة فرنسية، تعني القهرمانة ـ المترجم).

مؤدباً. وعلى بعد ثلاثة أميال من القرية شاهدت على الشاطىء الأيسر وتحت سلسلة التلال مباشرة، قرية (ده كه) وهي على بعد ساعة من (زه نكه باد).

كان وصولنا في الساعة الرابعة والربع، فوجدنا الحاكم قد خرج لسرقة الأغنام حسب العادة المتبعة في الحدود. ويبلغ بدل التزام (زه نكه باد) ٥٥,٠٠٠ قرشاً سنويًا. وهي تقع على بعد ميل واحد بخط مستقيم عن نهر ديالى الذي شهدناه يتلوى على يسارنا على بعد يسير منذ أن عبرناه بجوار (بين كودره)، وهو يجري باتجاه شرقي على مقربة من قرية (زه نكه باد). وقرية (زه نكه باد) قاعدة ذلك الإقليم بلدة حقيرة، تكاد أن تكون مهجورة، وأكثر من نصفها خرِب، وقد كانت أحسن حال فيما مضى كما تدل عليه بقايا حمام ومسجد كان قد بناه سليمان باشا جد عبد الرحمن، باشا السليمانية، وقد أقمنا في هذا المسجد؛ وقد ذكر فيه اسم المسيح للمرة الأولى[١].

وإلى الشمال، على بعد بضع مائة ياردة عن القرية شاهدنا طنفاً مرتفعاً مربع الشكل يدعى «قه لان ته به سي» وإلى جواره طنف آخر أصغر منه يشبه تلال أطلال معبد بابل. ولا يستخرج الطابوق من هذين الطنفين ولكنه يستخرج بكثرة من الجانب الآخر من القرية حيث توجد تلال عديدة كلها أطلال تدعى «خست كه ن» والظاهر أنها آثار بلدة قديمة.

والجو في هذه الأراضي المنخفضة مزعج جدًا بسبب المستنقعات وكثرة المياه. وعلى بعد ميلين من غربي (زه نكه باد) توجد قرية مماثلة تدعى (مه نايتوه) تكتنفها أشجار النخيل وجوُّها مزعج بصورة خاصة،

---

(١) يظهر لنا أن المستر ريج يتجاهل أو أنه يجهل منزلة السيد المسيح في الإسلام وعند المسلمين ـ المترجم.

وفي هذا الإقليم قرى عديدة أخرى هي عبارة عن مجموعة أكواخ من طين حقيرة مسقوفة بالقصب.

لقد عانينا الأمرّين طيلة يومنا من شدة الحر. وشعرت بالتعب بعد مسيرة ثلاث ساعات أكثر مما كنت أشعر به بعد مسيرة عشر ساعات.

بارحنا (زه نكه باد) قبيل الساعة السابعة، وفي التاسعة بلغنا (كوشك زه نكي) المنسوبة على ما يظهر إلى الأتابكة، وقيل لنا إن فيها بعض الخرائب. ولقد وجدنا هذه عديمة الأهمية وهي مؤلفة من حطام طابوق خشن وأساسات من الطابوق فوق قمة طنف مستدير. وأخبرنا بوجود أطلال على بعد يسير حيث يوجد كثير من الرخام، لكننا لم نذهب لمشاهدتها. إن رواية الناس في تاريخ الخرائب الموجودة في هذه النواحي مما يمكن الركون إليها بوجه عام، وعلى الأقل فيما يتعلق بعهدين من عهود التاريخ هما العهد الذي سبق النبي محمد والعهد الذي خلفه. فهم لا يعرفون سوى عهد الكاوور (الكفار) وعهد المسلمين؛ وعلى هذا فهم قلّما يخلطون بين آثار العهد الأول والثاني.

تركنا التلال إلى يميننا وتوجهنا نحو (كفري صو)[١]، وهو أحد مجاري الماء التي تنحدر من هذه الجبال نحو سهل (كفري)، حيث تستهلك في إرواء الزروع. فبلغنا النهر في الساعة الحادية عشرة فوجدنا قعره مجموعة عظيمة من الحصو تخترقها ساقيتان أو ثلاث من الماء الرقراق.

وكانت التلال المار ذكرها تعترض طريقنا وشاهدنا مجارٍ عديدة واسعة للجداول المنحدرة منها كانت في هذا الوقت يابسة، ويبلغ عرض بعضها بضع مئات من الياردات.

---

(١) ٣٠ درجة إلى الشمال الغربي.

استأنفنا طريقنا بين الجبال وشاهدنا إلى يميننا (اون ايكي إمام) حيث توجد ينابيع للنفط على بعد مسيرة ساعة ونصف من هنا «كفري» فبلغناها بعد الظهر بقليل وقد برح فينا الحر، ولم أكد أتمتع بقسط من الراحة حتى شرعت أكتب إليك هذه القصة. وقد كانت المرحلتان الأخيرتان اللتان قطعناهما رهيبتين من شدة الحر مع أننا قد وصلنا إلى هنا في الساعة الثانية عشرة والنصف. إن رجالي كلهم منهوكون تعباً، أما أنا، فللّه الحمد، بصحة جيدة وإن كنت شديد العناية بأن لا تفوق أتعابي ما تتحمله قوتي.

ولقد حللنا هنا في نفس المكان الذي حللناه عند سفرتنا إلى استانبول، وقد كدت أبكي عندما شاهدت الشجرة القائمة إلى جانب الجدول الصغير في باحة المكان حيث تناولنا طعام الغداء معاً في سفرتنا الخالدة تلك[١].

وقد أصبحت بلدة (كفري) أكثر تداعياً ونفوسها أقل عدداً منذ كنا فيها. وقد استغرب الناس عندما عرفت طنفاً لم أره منذ سبع سنوات، وكنت قد شاهدته من طرق مختلفة. وعلى بعد نحو الميل عن البلدة اكتشف الناس مؤخراً ينبوعاً للنفط.

يا ترى هل أنت على استعداد لرحلتنا المقررة إلى كردستان؟ ليس لدينا وقتاً نضيعه لأن الشمس تكاد تشويني، كما أنني لن أوافق على السفر ليلاً. ولقد سجل المحرار اليوم في خيمتي ٩٠ درجة في الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر.

سيغادرنا الليلة أو صباح الغد محمود بك رئيس خدم القصر وأرجو أن يسلمك كتابي هذا. إنه يجتاز بعض المصاعب فافهميها منه وانظري

---

(١) يشير هنا إلى المرحلة التي قطع فيها المستر ريج وزوجته ١٥٠٠ ميل في رحلتهما من بغداد إلى استانبول على ظهور الخيل في سنتي ١٨١٤- ١٨١٥- الناشرة.

إذا كان باستطاعة أحد أن يساعده. إنه صديق مسكين ذو قلب طيب. درجة الحرارة في خيمتي ٩٠.

كفري[١]. ٢٨ آذار:

أصبحت توًّا أسعد رجل في العالم عندما تسلمت كتابك المؤرخ في ٢٣ منه، بعد حفلتك المفرحة. وقد كان مرورنا في هذه النواحي من السرعة بدرجة أن رسولك العربي صار يبحث عني حيث لا أدري حتى عثر عليه أخيراً سليم آغا في مكان ما وأرسله إليّ صحبة حارس ورسالة رقيقة، وبذلك أضاف حملاً جديداً إلى المعروف الذي سبق أن طوق به عنقي. حقًّا إنني لم أستطع أن أجد اللفظة الإنكليزية المناسبة، لذلك استعملت لفظة اقتبستها من لغة أهل الغال. فإن أفكاري أسرع من أن يلحق بها قلمي. ويظهر من سياق رسالتك أنك كنت قد كتبت إليّ رسالة أخرى قبل هذه جواباً إلى كتابي إليك من بعقوبة. فإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون (إسماعيل كوسيد) قد تسلّمها، وأنه سيرسلها رأساً إلى (ويللوك)، أو أن أحد العربان ما زال يبحث عني في عرض الصحراء، أو لعله سقط أسيراً بيد أمان الله خان وكرده. إننا كنا ننتقل بسرعة البرق بين الجبال وبين السهول بحيث كان من الصعب اللحاق بي بعد مغادرتي (خانقين). فكأنني قد غطست في خانقين وظهرت ثانية في كفري.

إن ميناس قد أرفق رسالتك بعلبة كبيرة من البسكويت. وقد ظهرت على وجه (كورد اوغلو) الرزين تقطيبة رهيبة استعاض بها عن ابتسامة استخفاف عندما شاهد محتويات العلبة وهو يفتحها، محتويات تلك العلبة التي أرسلت من بغداد على وجه السرعة.

وفي الليلة نفسها التي ثارت عندكم العواصف، مرت بنا عاصفة

---

(١) تقع كفري عند الممر إلى كردستان تماماً وهي محاطة بسور من طين.

مماثلة كانت تهب من الجنوب الشرقي ونحن في خانقين. لكن الريح انقلبت ريحاً شمالية غربية حالما غادرنا حدود باشوية بغداد في خانقين. على أننا لم نكد ندخل هذه الحدود ثانية في (زه نكه باد) حتى عادت الرياح تهب جنوبية غربية، ومن ثم اشتد الحر الذي لا يطاق. وقد سجل المحرار اليوم ٨٩ درجة.

قمت اليوم بنزهة جميلة في الأراضي الأميرية في (كفري). وهي واقعة على بعد بضع مئات من الياردات وراء المدينة حيث تكوِّن روافد (كفري صو) الرئيسية الممر الذي يؤدي إلى كردستان، باختراقها طريقاً في تلال الجبسين المحيطة بكفري. وإلى الجهة الشمالية من المضيق يشق النهر تلًّا عالياً إلى شقين عموديين يبلغ ارتفاعهما زهاء مائتي قدم. وهناك نهر آخر يقال إن مياهه أكثر عذوبة تندفع على نفس القهر الحصباوي وإن كانت تأتي من ينبوع آخر على بعد نصف ساعة وتتصل بالنهر الأول عند الرابية؛ وهذان النهران في مثل هذا الموسم من السنة عبارة عن ساقيتين لا شأن لهما. لكن القعر الحصباوي العظيم الذي يشغل المنخفض الواسع برمته يدل على أن الفيضان المفاجىء يكون عادة شديداً هائلاً، بحيث إن سيوله تدحرج من أعالي الجبال قطعاً كبيرة من صخور الجبسين قدرت وزن كل منها بطن واحد. والقمة المواجهة لكفري عمودية تنتهي بالسهل مباشر لكنها أقل هدوداً من جبال كردستان.

والناس هنا يمتدحون ماء كفري كثيراً ويقولون إنه يساعد على الهضم. أفلا يمكن أن يكون ذلك ناشئاً عن مروره فوق أرض متشعبة بالنترات والجبسين التي تجعل فيه خصائص إسهال خفيف؟ والحقيقة إنني وجدت الماء خفيفاً عذب المذاق ليس فيه الثقل الذي نحسه في مياه الصخور، فإن هذا الماء لا طعم له.

وقد أصر جماعة من مهرجي (ده لي دومه ن) على أن يمثلوا أدوارهم أمامنا هذه الليلة. وهؤلاء على ما أظن ينتمون إلى الغجر

ويعرفون في بعض أنحاء إيران باسم (ته ت) وهم أشبه بالبازكارية في الهند. أما تهريجهم فعبارة عن ألعاب قبيحة يسرُّ لها الأتراك كثيراً؛ على أن بينهم بعض الموسيقيين البارعين.

إن ساعيك العربي ينتظر رسالتي هذه ليشرع في طريق عودته بعيد حلول الظلام. ولا شك أنه اعتاد مثل هذه السفرات غير الاعتيادية. أما خطتي في الوقت الحاضر فهي مشاهدة كسوف الشمس نهار الغد هنا، وفي اليوم التالي نشرع بعودتنا إلى بغداد فنمضي ليلة في (قه ره ته به) وهكذا نقسم طريقنا إلى مراحل قصيرة تفادياً لحر النهار.

٢٩ آذار:

خرجت صباح اليوم لمشاهدة الرابية الجبسينية فتسلقتها حتى القمة، وهناك على الرغم من كثافة الأفق سجلت مزولتي عدة نقاط.

والجبال التي اخترقناها بطريقنا تمر إلى الجنوب من كفري، والطريق الآتية من بغداد تقاطعها هناك ومن ثم تنخفض فتتلاشى نحو الصحراء في نقطة اجتيازنا الطريق خلف موقع (اون ايكي إمام). أما سلسلة كفري فهي متكسرة نهود في اتجاه بغداد، وفي نواحيها سلاسل ثانوية من الجانب الآخر طريق (طوز خورماتي)[١]. والجبال في هذه النواحي جبسينية قليلة التربة وهي مزروعة في بعض نواحيها. وفي الجهات المقابلة أي الجنوبية الشرقية من المنخفض تتألف القمم من التراب والحصى وقد انحدرت أكوام كبيرة منها إلى المنخفض. والحصى هنا أنواع عديدة، وهو مسبوك في التراب على هيئة كتل متراصة، والأرض مكسوة بالحصو يمازجه الجبسين. وتنمو مقادير كبيرة

---

(١) تستقي طوز خرماتو من آق صو وهو نهر صغير ينبع من كردستان ويمر بإبراهيم خانجي.

من الأزهار البرية هنا، بعضها طيب الرائحة، ومن بينها الشقائق وزهر الخشخاش البري القرمزي البديع؛ وتحوم حولها الحباحب أو ذباب الأحراش.

إن أجود الأراضي الزراعية في منطقة (كفري) واقعة في (اسكي كفري)، لأن الأراضي المجاورة للبلد كثيرة الأحجار لا تصلح للزراعة الواسعة. وفي موسم الربيع وحتى يتم الحصاد يخرج أهالي كفري إلى اسكي كفري فيقيمون في الخيام السوداء، ومعهم نساؤهم وأولادهم.

وفي الليلة الماضية هب نسيم عليل من الناحية الجنوبية الشرقية لكنه انقلب اليوم إلى عاصفة هوجاء من الناحية نفسها تحمل سحب الغبار الأمر الذي أخشى أن يعيقني عن عملية الرصد هذه الليلة.

وقد سجل المحرار في خيمتي ٩١ درجة في أشد ساعات النهار حرارة.

٣٠ آذار:

غادرنا (كفري) في السابعة إلا ربعاً صباح اليوم فمررنا بجبلين واقعين إلى ٢٢ درجة من الجنوب غرباً وبعد الثامنة بقليل مررنا بجبلين صغيرين يدعيان (تل ـ ايشان)، ثم عبرنا (كفري صو) وهو الآن يابس ليس فيه سوى مجراه المملوء بالحصى. وكان السهل هنا أبيض بفعل السبخ الذي يكسوه كأنه الثلج. وقبيل الساعة العاشرة بلغنا (جمن كوبروسي) ـ جسر جمن ـ وهي قنطرة جديدة جيدة فوق (جمن) الجدول البطيء البشع المملوء بالقصب الذي يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر قدماً بحيث لا يكاد الماء يرى من خلاله. أما الماء فمملوء بالعلق. ولا شك أن الفيلسوف الوارد ذكره في قصيدة الشاعر (وردزورث) كان يجد لنفسه هنا عملاً متيسراً. والناس هنا يأكلون لب القصب الأخضر من كعوبه. وقد مررنا ببعض مضارب للعرب يرعون أغنامهم في مراعيها.

توقفنا عند (جمن كوبروسي) زهاء الساعة ونصف الساعة ثم استأنفنا مسيرنا باتجاه شرقي ١٥ غرباً نحو (قه ره ته به) فممرنا بسلسلتين من الجبال بينهما وادٍ أو قعر. وتقع (قه ره ته به) عند سفح السلسلة الأخيرة فبلغناها في حوالي الساعة الثانية إلا ربعاً، وتبلغ هذه المرحلة مسيرة سبع ساعات. وقد شاهدنا اليوم قطيعاً كبيراً من الغزلان. وشاهدنا إلى يسارنا عند دخولنا البلد مقبرة فيها عدد من القباب الصغيرة كانت تظهر كأنها قرية.

وقد بلغ بدل التزام (قه ره ته به) من الحكومة هذه السنة أربعين ألف قرش. وهي تستقي من قناة تأتيها من (ديالى) في أعلى (زه نكه باد) وأهم حاصلاتها القطن والذرة أي الحبوب الهندية ويزرع فيها مقادير قليلة من الرز.

ويدّعي أهالي (قه ره ته به) بأنهم من التركمان وهم يتفاهمون باللُّغة التركية وحدها. وبين سكانها عدد من العلي اللهية والإسماعيلية أو (جراغ سوئديره ن).

كان اليوم رائقاً بارداً والهواء يهب عليلاً من الناحية الشمالية الغربية. وقد سجل المحرار ٨٢ درجة.

٣١ آذار:

ركبنا صباح اليوم في الساعة السابعة إلا ربعاً. وسرعان ما اختفت آثار الزروع ودخلنا سهلاً قاحلاً ليس فيه إلا بعض الأعشاب المتبعثرة، والباقي أرض سبخة كثيفة كأنها مغطاة بالثلوج.

توجهنا نحو الجنوب إلى جسر (نارين) فبلغناه في حوالي الساعة الثامنة. وهو جسر جيد قائم على ست عقود من بناء سليمان، باشا بغداد. ومن ثم اتجهنا إلى اتجاه جنوبي بـ(١٥) درجة غرباً نحو جبال حمرين

فكانت هذه إلى يميننا و(نارين) إلى يسارنا. وبقينا نسير باتجاه جنوبي غربي نحو سفح الجبال فبلغناها في الساعة العاشرة والنصف. ووجدنا أقسامها الأولى مؤلفة من الحصاة والتراب وهي تتدرج علواً خفيفاً، فبلغنا قمتها في الحادية عشرة إلا ثلثاً وهي أعلى الأراضي المحيطة بنا، ورصدت بمزولتي نقاطاً عديدة. وكان للأراضي المحيطة بنا كما شاهدتها من أعالي القرية منظر فريد. فقد كانت سلاسل التلال تظهر كأنها جبال محطمة تتعاقب على شكل موجات بحر جمدت أمواجه فجأة. وكان نهر (ديالى) يظهر جليًا على بعد قليل من المضيق، وهو يتلوى ويأخذ مياه (نارين). فلما تقدمنا إلى الأمام أخذت تبدو أمامنا الصخور الرملية وهي دائماً على طبقات مائلة نحو الجانب الشمالي من الجبال، وكانت قطع هذه الصخور البارزة من التلال، في أماكن عديدة، مستديرة متموجة كأن مياه البحر قد نحتتها فصقلتها.

ورأيت في مكان آخر طبقة من الطلق حملت معي أنموذجاً منه. وأخيراً أصبحت الأرض كلها صخوراً رملية وانتهت الجبال بسلاسل كثيرة متوازية. وكان بعضها حديث العهد لا يزيد ارتفاعها عن الأرض أكثر من عشرة أو اثني عشر قدماً. وفي الجبهة الجنوبية تلال غير منتظمة تنحدر إلى الأرض نحو الجهة الشمالية وقد شق أحد باشوات الترك بين إحدى هذه السلاسل طريقاً ضيقة قبل زمن بعيد. ويظهر مما لاحظته في الكتابة المنقوشة على الحجر كما أتذكر أن هذا الباشا كان يدعى حسن. هذا والسبخ منتشر هنا في بعض الأماكن.

غادرنا هذه الجبال القبيحة المنظر عند الظهيرة، وكان طريقنا باتجاه جنوبي تقريباً. وقد تركنا واجهة الجبل الجنوبية إلى يسارنا وأخذنا اتجاه جنوبي شرقي (٤٠) درجة إلى (ادنه كوى) فبلغناها في الساعة الواحدة والثلث، وتقدر هذه المرحلة بثماني ساعات.

و(أده نه كوى) قريبة من مجرى الخالص وهي قرية كبيرة على

مقربة من (ديالى) كانت فيما مضى أكثر ازدهاراً وفيها جامع ومنارة، وبدل التزامها في هذا العام (٢٠,٠٠٠) قرش.

وقد أعد لنا وكيلنا داراً في القرية فوجدنا فيه عدداً كبيراً من دود القز دائباً على عمله، لكن الرائحة قد أثرت في رأسي فاضطررت أن أهجر البيت إلى الحديقة حيث ضربت لي خيمة فشعرت براحة كبيرة.

وأهل هذا المكان من التركمان وهم من السنّة والشيعة ومن مطفيء الأضواء؛ وهنا ينتهي التفاهم باللُّغة التركية. فالأهلون من هنا إلى بغداد من الفلاحين والقرويين العرب. وقد صادفنا في طريقنا اليوم بعض الأعراب من عشيرة المهدوية[1] كما صادفنا في سهل (قه ره ته به) مضرباً لعشيرة (الكروية) العربية، وقد خرج زعيمها بقصد مرافقتنا كحرس شرف ومعه ستة من رجاله كلهم فرسان مسلحون؛ لكنني صرفتهم بلطف. وقد سجل المحرار ٨٢ درجة.

١ نيسان:

غادرنا (اده نه كوى) في الساعة السادسة والنصف فلاحظت عن بعد آثار خيالات غريبة تتحرك. فعلمت أنها جيوش جرارة من الجراد قد ملأت الأرض بلون أصفر لماع. وبعد أن غادرنا القرية بلغنا نهر (ديالى) وصرنا نتعقب شاطئه بمسيرنا. وقد شاهدنا على عرض النهر سدوداً مصنوعة من الحطب غايتها رفع مستوى الماء لإسقاء الجداول الكثيرة التي كانت تقاطع طريقنا في كل ناحية. ودأبنا على المسير باتجاه غربي نحو الخالص وهو أكبر قناة رأيتها، وكانت تجري إلى يسارنا ووراءها نهر ديالى. فمررنا بمرقد (السيد مبارك) وهو مقام للزيارة.

---

(١) علمت بأن كافة قصابي بغداد ينتمون إلى هذه العشيرة. انتهت الحاشية، وصحيحها (المهدية)، وهي من القبائل القيسية كالكروية.

وبعد الساعة الثامنة بقليل وصلنا إلى (ده لي عباس) حيث توجد قنطرة رديئة على الخالص، وأخذت القرى الواقعة في هذه المنطقة تظهر في الأفق الواحدة تلو الأخرى. كذلك كانت قرى خراسان ظاهرة للعيان على الجانب الآخر من ديالى. وكان طريقنا في بادىء الأمر باتجاه ٥٥ درجة جنوبيًا غربيًا، ومن ثم ٢٠ درجة جنوبيًا غربيًا. وفي الساعة العاشرة والنصف بلغنا (جوبوق) وهي قرية عربية حقيرة عندها قنطرة فوق جدول صغير من توابع الخالص ويأتي من ناحية (سراجق). ويصب هذا الجدول في (ديالى) مقابل (بويوك أبي صيدا) على مقربة من ديالى ولا تبعد عن (جوبوق) إلا بضع ياردات. وهذا الجدول عبارة عن مصرف لمياه نهر ديالى عندما تفيض فجأة فيضاناً عالياً. وعندئذٍ يفتح صدره لصد قوة المياه التي لولاها لكانت تحدث بنهر الخالص أضراراً جسيمة ولغرقت الأراضي المجاورة وتلفت الزروع وما يزيد من مياه العظيم[1] يصب في هذا الجدول عند (جوبوق).

٢ نيسان:

لقد اضطررنا طيلة الليل أن نحترس لأنفسنا من اللصوص الذين اشتهرت بهم هذه المنطقة. وعند الصباح هبت النسمات العليلة من الناحية الشمالية الغربية فتغير الجو ورحلنا في الساعة الخامسة والنصف ونحن أشد ما نكون نشاطاً ومرونة، فوجهنا طريقنا نحو (خان مصبح) الواقع إلى الغرب منا، وصرنا نتعقب مجرى (ديالى) الذي كان يتلوى قريباً عن يسارنا.

(١) جاءت في الأصل «Azemia» فأرجعت إلى العظيم. وأخبرني الأستاذ عباس العزاوي «بأنه لا يفيض نهر (العظيم) إلى ما ذكره المؤلف، وإنما تتجمع سيول جبل (حمرين) من جهة (العظيم) في محل يقال له (أبو فراش)، فإن كثرت مياه أبي فراش فاضت إلى المزارع العديدة وأغرقتها. وحينئذٍ يسد صدر (الخالص) وتوجه المياه إلى نفس مجراه بالقرب من جدول (جوبوق) فتصب في (الخالص) تصريفاً للمياه» ـ المترجم.

وفي الساعة الثامنة إلا ربعاً وصلنا إلى (خان مصبح)، حيث ترجلنا لتناول القهوة ورصد بعض النقاط بالمزولة. وفي الساعة الثامنة والنصف غادرنا الخان وبعد الساعة العاشرة بقليل شاهدنا النهروان الرائع يمر باتجاه شمالي غربي بـ(١٠) درجات وكانت (خرنابات) تبعد نحو الميل عن شرقنا. وبعد مسير ساعة بلغنا بعض الأقنية اليابسة الموازية للنهروان ومنها بلغنا مرقد (السيد محسن) وهو مزار على جدول صغير يأتي من (الخالص)، وعند الظهيرة وصلنا إلى (طوبراق قلعه) وهو طنف مربع قليل الأبعاد ويسمى أيضاً (مجيليبة). وعلى مسافة قليلة من شماله شاهدنا بعض الأطلال حيث وجدنا بعض الناس منهمكين باقتلاع الطابوق منها وإرساله إلى بغداد لتعمير بستان يوسف بك[1] وكانت على بعض هذا الطابوق علامات تشبه رسم الأصابع الخمس وعلى بعضها دائرة مشوهة يظهر أنها رسمت عليها بالأصابع عندما كان الطابوق طريًّا. وكان الطابوق خشناً ولم يكن بحجم طابوق بابل، ومقاديره في هذا المكان عظيمة. وأغلب ظني أن هذه الأطلال ساسانية، فقد وجدت بها شبهاً بالأطلال التي شاهدناها في (قالان ته به) في (زه نكه باد) وغيرها من الطنوف الاصطناعية في هذه الأنحاء.

وفي الساعة الثانية إلا ثلثاً بلغنا قرية (الحويش) وقد جئناها من طريق غير مطروقة أغلبها صحراء قاحلة مجدبة لم نجد فيها ما يستحق الاعتبار كثيراً أو قليلاً سوى خنزيرة برية هائلة الحجم يتبعها ستة خنازير.

كان النهار لطيفاً منعشاً وقد سجل المحرار ٧٧ درجة.

٣ نيسان:

غادرنا الحويش في الساعة السادسة والنصف فبلغنا دار المقيمية ببغداد عند الظهيرة.

---

(١) هو الابن الأكبر لباشا بغداد.

الملحق الثالث

معلومات مستقاة من الأهلين عن الجزيرة والبلاد المجاورة لها[*]

ملحوظة: قد لا يكون للمعلومات التالية في زمننا هذا خطورة جغرافية، ولكن رأى المترجم أن يثبتها كما هي.

* * *

هناك قسمان من الكرد ضمن منطقة حكومة الجزيرة وهما (البوهتانيون) أو (البوتانيون) و(الآشيتيون). و(الآشيتيون) يقطنون بوجه عام السهول جوار (نصيبين) وجبل آغا ـ جيم فارسية ـ ونظراً لما أصاب الحكومة من وهن مؤخراً فقد أصبحوا أقوياء، أشداء المراس.

جوميش كه زه ك ـ إمارة كردية، تبعد عن (أرغني) اثنتي عشرة ساعة بالقرب من بحيرة (كول باشي) ـ كاف فارسية ـ في جبل طوروس.

جه رنه ك ـ جيم فارسية ـ إمارة كردية أخرى تبعد عن (أرغني) ثماني ساعات عند جبل طوروس.

عائلة بايزيد، من عشيرة سيبكي.

(*) وهم يسكنون في الوقت الحاضر جبل (الطور) ـ المترجم.

فنيك ـ حصن يقوم في شمال الجزيرة على مسافة أربع ساعات، وعلى الضفة الشرقية من دجلة[1].

ايس ـ على مسافة أربع ساعات من شرقي دجلة و(فنيك).

به شيرو ـ بشيري ـ تتبع إلى ديار بكر وهي على مسافة ست ساعات على طريق (رضوان) حيث يقطن الكرد البرازيون.

زه ركي ـ كاف فارسية ـ تقع بين (بتليس) و(سعرد) و(موش) وهي منطقة، مقرها (ده رزه ني) وتبعد أربع ساعات عن (سعرد).

روزه كي ـ بالزاء الفارسية (وصحيحها روسكي ـ المترجم)، قبيلة كبيرة تقطن حوالي (بتليس).

وعلى مرحلة واحدة من سيللوك، مزار مسيحي كبير اسمه (جه ن كه دي ـ Chengede) أو جه ن كه للي ـ Chengelli)، وهنا أيضاً دير (سوورب قارابت) وهو دير القديس يوحنا المعمدان. وهو يبعد عن (موش) ست ساعات بالقرب من (ميغاكيات)، وهو رافد يصب في الفرات. وهذا الدير مزار له شهرته العظمى بين الأرمن بعد (جه مبازين)، فهم يذهبون أولاً إلى (قيصرى)، وفيها دير شهير، اعتقاداً منهم أن رأس القديس يوحنا مدفون فيه، ثم يأتون إلى (جه ن كه دي) ومن بعدها يتجهون إلى (جه مبازين)، ويروون عن الدير الرئيسي الكثير من القصص الخرافية، فالقديس هناك مشهور بتعليم الناس الفنون والتجارة كلها ـ إلا الموسيقى ـ ولا يسمح بدنو النسوة منه إكراماً لـ(هيروديا ـ Herrodias). وفي الدير بئر عميقة تتعالى منها أصوات الجان المحبوسين كما يدّعي الأرمن، وتشاهد حولها الأنوار في

(١) يذكر آميانوس في الصفحات ١٥ و١٨ و٢٦ من كتابه العاشر، (به زاب ده) ـ بازبدي ـ (في نيك).

كثير من الأوقات، خاصة بعد هطول الأمطار القليلة؛ وهذه مظاهر طبيعية ولا شك.

به ل غين ـ أربع ساعات من (فنيك) شرقي دجلة.

آرزه ن ـ واسمها المعروف هه رزين ـ محل بين (ديار بكر) و(سعرد) وهو قريب من الجبال.

باتمان: جسر خرب فوق نهر سعرد، على مسافة ثلاث ساعات فوق المدينة، وهنالك خرائب بلدان مهجورة الآن و(باتمان جاي) هو نهر (سعرد)، أو نهر دجلة الأصلي.

ويقال إن هنالك أنقاضاً أو بقايا جسر فوق دجلة بالقرب من الجزيرة.

حسن: وهو جبل يؤلف قسماً من (طوروس) و(زغروس)، بين ديار بكر و(بالو) ـ باء فارسية ـ و(موش)، ليس ثمة ممرات ولا طرق تؤدي إليه، وسكانه مستقلون استقلالاً تامًّا ويسمى الكرد سكان تلك النواحي بالـ(زازا)، ويبدو أن هذا لقب تهكمي، ويعني تلعثماً أو تلكؤاً أو كلاماً غير مفهوم.

تقوم (رضوان) على بعد ثماني ساعات من (هه زو) وإن عائلة (هه زو) قديمة جدًّا، ومحترمة أيضاً.

كوفرا ـ مدينة تبعد عن (سعرد) بمسافة ست ساعات، وتقع على طريق (بتليس) في منطقة (شيروان) وقلعة (شيروان) تبعد عن (كوفرا) بمسافة ساعة واحدة فقط. ورئيسها «بيكها» قوي ومستقل، وهو ينتمي إلى فرع حديث من عائلة (حسن كيف) أي أنه أيوبي من سلالة صلاح الدين الأيوبي. وهنالك منجم من الذهب في (شيروان).

(ايروون Iroon) تتصل بـ(سي كوزه) و(جوقور) وهي تبعد عن (كوفرا) بثلاث ساعات وتستورد بغداد الكستنة من هذه الأماكن.

والمسافة بين (سعرد) و(شيرين) ثلاث ساعات، وبينها وبين (معدن) ست ساعات وبينها وبين (هيزان) ست ساعات أيضاً على وجه التقريب.

(كه رني) تبعد بمسافة ساعتين عن (هيزان) ويتراوح بعدها عن (شيروان) بين الأربع والخمس ساعات وهي منطقة منقطعة جدًّا، جبلية وعرة. وبين الكرد الذين يقطنون هذه الأماكن، عشيرة (عمبرلو) وجنكني ـ كاف فارسية ـ ويدّعي أحد رؤسائهم أنه من أصل ساساني.

(كوركيت ـ Koor Keat) نهر تمر منه بعد رحيلك من (طوبراق قلعه) بثماني ساعات بطريق (طوبراق قلعه) ـ (بايزيد). وهو ينحدر من جبال (قاغزمان) بالقرب من (قارص) ويصب في الفرات. وكثيراً ما يفيض فيضاناً عظيماً، لكنه حتى في تلك الحالة لا يحتوي إلا على القليل من المياه ومخاضاته خطيرة لكثرة الحفر الكبيرة في قاعها ولشدة جريانه، لذلك لا بد من اصطحاب الأدلاء على الدوام عند عبوره.

(آوى ماسي) أو نهر السمك، ويقال إنه نهر كبير كالزاب، ويجري بين (شوشيك) و(خاموور)، وهو ينبع من جوار (ارجش) بالقرب من بحيرة (وان) ويصب في الفرات بالقرب من (مه لاز كرد). ويكثر فيه سمك النقط.

(خاموور) موقع سميت باسمه منطقة من مناطق (بايزيد) وهو يقع في وسط الطريق بين (بايزيد) و(موش). و(شوشيك) تبعد عن (خاموور) مسافة ثماني ساعات.

ليس ثمة نهر يصب في بحيرة (وان) ويبدو أنها أعلى أقسام نجد (أرمينيا). وهناك الكثير من الخرائب في (أخلاط)، وهي مهجورة تقريباً الآن وتقوم خرائب كثيرة أيضاً بالقرب من (آجاواز) ـ عادل جواز ـ وقد جرفت مياه البحيرة قسماً منها، إلا أنه لا تزال على ضفاف البحيرة أنقاض

لمدينة تضاهي مدينة بغداد في سعتها، و(بين كول) بحيرة تقوم في وسطها صخرة صعبة المنال ينبع فيها (آرراس) أو (آراكس).

ويجري تحت الأرض نهر يبعد عن (بايزيد) مسافة أربع ساعات ويصب في (آرراس) ومجراه غير مرئي، إلا أن خرير المياه تحت الأرض يسمع بوضوح من فوق كل مكان من مجراه، ويرى المرء مياه النهر الخضبة عند تلاقي النهرين بكل وضوح على شكل دوامات[١]. وقد تشبث الناس دون جدوى للحفر في قاع مجراه الذي ظهر أنه عميق جدًّا.

وعلى الصخرة التي بنيت عليها قلعة (بايزيد)، رسوم محفورة تمثل ثلاثة رجال يحمل كل منهم عكازاً بيده ومتأبطاً كتباً.

إن قلعة (مه كس) حيث ينبع نهر دجلة الشرقي، تبعد إلى ما وراء (جوله مه رك) مسافة إحدى عشرة ساعة. ويتدفق النهر من مغارة في الجبل وهو في بداية مجراه أعظم من رافد (ديار بكر). كما أنه يمر بالقرب من (سعرد)، وعبوره صعب جدًّا حتى في أيام انخفاضه تلك الأيام التي تدعى بالصيهود. ويصب فيه رافد (ديار بكر) عند (ته لله نافرو) ـ فاء فارسية ـ بين ديار بكر والجزيرة. والطريق إلى مه كس من سعرد كما يلي:

من سعرد إلى:

	ساعة
(قورماس)، ـ قلعة تعود إلى بك شيروان	٤
ده ركه ن	٤
به رواري	٦

---

(١) تعرف الواحدة منها بين العوام بـ(سويرة) وجمعها (سويرات) (بتشديد الواو) التي تنشأ من التقاء تيارات المياه ـ المترجم.

وهذه عشيرة تابعة إلى الجزيرة وهي عشيرة كبيرة عزيزة الجانب. إن العسل والشمع في هذه المنطقة يستوردان منها.

مه كس	...	...	٦
	المجموع	...	٢٠

و(مه كس) تعود الآن إلى (هه كاري)، ويحكمها أحد أقارب مصطفى خان جوله مه رك.. ومن (سعرد) إلى (ديار بكر) ٣٤ ساعة، بالطريق التالية:

			ساعة
ته لله ناقرو	...	...	٥
رضوان[1]	...	...	٥
ره جير خراب	...	...	٤
سينه كه ري (عشيرة كردية رحالة)	...	...	٦
بله ى دوون	...	...	٨
ديار بكر	...	...	٦
	المجموع	...	٣٤

إن فرع ديار بكر من نهر دجلة يمر بـ(رضوان) و(حسن كيف)، قبل أن يصب في نهر دجلة الأصلي ويقطن كرد (محله مي) في المغارات المتشتتة، والواقعة على ضفاف دجلة وعددها كثير ويقال إنها قديمة جدًّا، وفي داخلها الحجر والغرف.

ينبع نهر (الخابور) الذي يمر بـ(زاخو) من جبال العمادية، وله أربعة منابع. وقد خلط (ماكدونالد كيننه ر) بينه وبين نهر (سعرد). و(فيشخابور) هو اسم النهر المزدوج من (الهيزل) و(الخابور).

---

(١) تبعد رضوان بمسافة أربع ساعات عن (حسن كيف) على الضفة الشمالية من دجلة أو نهر (ديار بكر) و(رضوان) على جانب (ديار بكر) و(حسن كيف) على جانب (ماردين) من النهر.

و(الهيزل) يبعد بمسافة ساعة أخرى بين (زاخو) و(سلوبي). وهما يلتقيان تحت (زاخو) ويلتقي نهر (شاخ) بهما[1].

الطريق من الموصل إلى الجزيرة:

	ساعة
تل أسقف	٦
نمير (قرية يزيدية يقطنها رئيس يزيدي - ثم مخاض الهيزل	٦
تل كشان	٦
زاخو	٣
سلوبي، وهي في المنطقة التي يقع فيها جبل جودي ...	٥
الجزيرة	٥
المجموع ...	٣١

الطريق من (الجزيرة) إلى (سعرد):

	ساعة
فينيك: حصن قديم جدًا ومشهور، جاء ذكره في تاريخ الكرد	٤
جه وليك (جيم فارسية)	٨
ته لله نافرو: ملتقى فرعي نهر دجلة	٣
سعرد	٥
المجموع ...	٢٠

الطريق من (سعرد) إلى (بتليس):

	ساعة
سي كووز (شجرات الجوز الثلاث)	٦
بتليس	٦
المجموع ...	١٢

(١) هنالك نهر آخر بهذا الاسم بالقرب من (مه كس)، في منطقة (هه كاري).

الطريق من (بتليس) إلى (أرضروم):

	ساعة
جاقور	٦
خاص كوى	٨
جه ويرمه	٣
صو للوق: (جسر خشبي فوق الفرات)	٥
جاركور	٥
أروزه	٧
إلى آراس	٨
ده لي بابا	٥
قزلجة	٤
ومن فوق جبل إلى أرضروم	٥
المجموع	٥٦

الملحق الرابع

سلسلة أمراء العائلة البابانية من (سليمان بابا) أو (سليمان به به) حتى باشا (السليمانية)

		عام		مدة الحكم	
				شهر	سنة
١- سليمان بك غازي (أي بابا سليمان) نجل مير سلمان. بدء مزاولته الحكم	...	١٠٨٨هـ	١٦٧٧م[١]	-	٤
٢- ته مير (تيمور) خان بك	...	١١١٠هـ	١٦٩٨م	-	٤
٣- بكر بك	...	١١١٥هـ	١٧٠٣م	-	١٣
وهنا مرت فترة، حكم فيها المتسلمون[٢] الأتراك كردستان	...	١١٢٨هـ	١٧١٥م	-	٤
٤- وبعد أربع سنوات حكم خانه باشا كردستان مدة ثلاث سنوات. ثم حكم (سنه) مدة سبع سنوات بعد أن استولى عليها وبنى جامعاً فيها، خربه أمان الله خان قبل عام أو عامين	...	١١٣٢هـ	١٧١٩م	-	٣

(١) أضاف المترجم التاريخ الميلادي تسهيلاً للرجوع.

(٢) جاءت في الأصل المسلمون (بتشديد اللام) غلطاً ـ المترجم.

		عام	مدة الحكم	
			شهر	سنة
٥- نواب خالد باشا، نجل بكر بك	...	١١٣٥هـ ١٧٢٢م	-	٤
٦- فرهاد باشا	...	١١٣٩هـ ١٧٢٦م	-	٢
٧- خالد باشا (ثانية)	...	١١٤١هـ ١٧٢٨م	-	١٥
٨- نواب سليم باشا	...	١١٥٦هـ ١٧٤٣م	-	٤
٩- نواب سليمان باشا	...	١١٦٠هـ ١٧٤٧م	-	٣
١٠- سليم باشا (ثانية)	...	١١٦٣هـ ١٧٤٩م	-	١٤
١١- سليمان باشا (أيضاً). وقد شنق سليم باشا في بغداد بمكائده. وبنى سليمان الجامع والحمام في (زه نكه باد). وكانت كل من (زه نكه باد مندلي). و(بدرة جصان) على عهده جزء من كردستان	...	١١٦٤هـ ١٧٥٠م	-	١٠
وقد تفشى الطاعون الكبير في عهده عام	...	١١٧١هـ ١٧٥٧م		
١٢- محمود باشا نجل خانه باشا وقد قتل في معركة دارت بينه وبين سليمان باشا	...	١١٧٤هـ ١٧٦٠م	٥	-
١٣- سليمان باشا (أيضاً)	...	١١٧٥هـ ١٧٦١م	-	١
١٤- أحمد باشا نجل خالد باشا	...	١١٧٦هـ ١٧٦٢م	-	١
١٥- سليمان باشا (أيضاً)	...	١١٧٧هـ ١٧٦٣م	٢	-
١٦- أحمد باشا (أيضاً)	...	١١٧٧هـ ١٧٦٣م	٥	-
١٧- سليمان باشا (أيضاً) وقد قتله الفقيه إبراهيم	...	١١٧٧هـ ١٧٦٣م	-	١
١٨- محمد باشا نجل خالد باشا ووالد خالد بك	...	١١٧٨هـ ١٧٦٤م	-	٨

	عام	مدة الحكم شهر	مدة الحكم سنة
١٩- أحمد باشا (أيضاً) ...	١١٨٦هـ ١٧٧٢م	٣	١
ملحوظة: ـ هو والد إبراهيم باشا وخالد باشا الحالي والأخ الأكبر لمحمود باشا			
٢٠- أسر محمود باشا في أحمد كلوان[1] أحمد باشا الحالي والأخ الأكبر لمحمود باشا ...	١١٨٧هـ ١٧٧٣م	-	٢
٢١- تغلب أحمد باشا ثانية على محمود باشا الذي ساعده على مراد خان في (سه رسير) و(جوراتا) ...	١١٨٩هـ ١٧٧٥م	٣	١
٢٢- رجع محمود باشا من إيران ثانية. بمعاونة شفيع خان القائد الزندي ولكنه تقهقر ورجع إليها ...	١١٩٠هـ ١٧٧٦م	٩	-
٢٣- رجع ثانية من محمود على سردار. وقامت معركة بين محمد باشا وخسرو خان. خان (سنه) بالقرب من (سه ري بار) وقد اندحر الأخير شر اندحار ...	١١٩١هـ ١٧٧٧م	-	١
٢٤- جاء كلب علي خان القائد الزندي لمساعدة أحمد باشا. وأجلسه ثانية على دست الحكم وهرب محمد باشا إلى (كوى سنجاق) ...	١١٩١هـ ١٧٧٧م	-	-

(١) هرب أحمد باشا بمساعدة القوات التركية بعد أن أسره أخوه محمد باشا واستولى على الحكم مدة ستة أشهر. وهرب محمد باشا بدوره إلى إيران. وعاد ثانية مع مراد خان، وقد اندحرا في (سه رسير).

		عام	مدة الحكم	
			شهر	سنة
٢٥- رجع محمد باشا مع تيمور باشا، باشا (كوى سنجاق) فقاتلوا أحمد باشا عند (كلي زه رده) قتالاً شديداً استمر لمدة ساعة بالسلاح الأبيض والسيوف والخناجر وكانت الخسائر فيه عظيمة. قتل تيمور باشا وأسر محمد باشا ففقعت عيناه فوراً من قبل أخيه أحمد باشا الذي توفي بعد سبعة عشر يوماً في (قه ره داغ) إثر رجوعه إلى (قالاجوالان)	...	١١٩٢هـ ١٧٧٨م	-	-
٢٦- نواب محمود باشا والد عبد الرحمن باشا قتل في معركة (يه ل تيمار) بين (ساقز) و(صاوروق بولاق) من قبل (بوداق خان) أمير (صاووق بولاق) الذي كان يقاتله	...	١١٩٣هـ ١٧٧٩م	-	٥
٢٧- نواب إبراهيم باشا. مؤسس السليمانية ألقى القبض على حسن خان بك وحسين بك وهما أميران من عائلته وأرسلهما أسيرين إلى بغداد فنفيا باديء الأمر إلى الحلة ثم شنقا	...	١٢٠٠هـ ١٧٨٥م	-	-
٢٨- عثمان باشا. الأخ الأكبر لعبد الرحمن باشا	...	١٢٠١هـ ١٧٨٦م	-	٢
٢٩- إبراهيم باشا (أيضاً)	...	١٢٠٣هـ ١٧٨٧م	-	١

		عام	مدة الحكم	
			شهر	سنة
٣٠- نواب عبد الرحمن باشا	...	١٢٠٤هـ ١٧٨٩م	-	٨
٣١- إبراهيم باشا (أيضاً) تفشى في عهده ما سمي بالطاعون الصغير	...	١٢١٢هـ ١٧٩٧م	-	٥
٣٢ـ عبد الرحمن باشا (أيضاً)	...	١٢١٧هـ ١٨٠٢م	-	٢
مات إبراهيم باشا في الموصل خلال حملة علي ، باشا بغداد على (سنجار) وقد خلفه علي باشا وتوفي في عام	...	١٢١٧هـ ١٨٠٢م	-	-
شق عبد الرحمن باشا عصا الطاعة على علي باشا وطعن بيده محمد باشا. باشا السليمانية عند انسحابه من بغداد، وبعد التغلب على خالد باشا في (كوى سنجاق) مباشرة. وجاء باشا بغداد إثر هذه الحوادث بنفسه، ونصب خالد باشا في السليمانية ، فهرب عبد الرحمن باشا إلى إيران	...	١٢١٨هـ ١٨٠٣م	-	-
٣٣- خالد باشا	...	١٢١٩هـ ١٨٠٤م	-	-
٣٤- رجع عبد الرحمن باشا من إيران. وتغلب على جنود الأتراك الاحتياط والكرد في (زه ري بار). وأسر سليمان، كهية بغداد	...	١٢٢١هـ ١٨٠٤م	-	-

		عام	مدة الحكم	
			شهر	سنة
٣٥- أجبر عبد الرحمن باشا على الهروب من السليمانية وقد نصب الأتراك - وهم تحت أمرة سليمان كهية الذي أصبح الآن باشا بغداد - سليمان باشا نجل إبراهيم باشا[1]	...	١٢٢٣هـ ١٨٠٨م	٣	-
٣٦- نصب عبد الرحمن باشا نفسه مرة أخرى سيداً على كردستان اتفق شهزاده كرمنشاه مع الأتراك ضده وأجبره على الانسحاب إلى (كوى سنجاق) التي أحاط بها الإيرانيون. وقد فكوا الحصار عنها بعد شهر وأربعة أيام.	...	١٢٢٦هـ ١٨١١م	-	٢
كان ذلك عام ١٢٢٤ ورجع عبد الرحمن باشا إلى السليمانية				
وفاة عبد الرحمن باشا	...	١٢٢٨هـ ١٨١٣م	-	-
٣٧- نواب محمود باشا. النجل الأكبر لعبد الرحمن باشا، خلف والده وهو الأمير الحالي	...	١٢٢٨هـ ١٨١٣م	-	-

(١) وهذه كانت سنة ١٨٠٨ الميلادية وهي التي وصلت خلالها بغداد.

تواريخ وحوادث لها علاقتها بتاريخ كردستان

(راجع الصفحتين ٢١٤ و٢١٥)

الحادثة	هجري	ميلادي
قهر القوات التركية والإيرانية المتحالفة لسليمان بك واضطراره على الهروب من كردستان والالتجاء إلى (استانبول) ...	١١١٠هـ	١٦٩٨م
قهر بكر بك	١١٢٠هـ	١٧٠٨م
حصار بغداد	١١٣٠هـ	١٧١٧م
استيلاء الأتراك على (همدان)	١١٣٥هـ	١٧٢٢م
قتل خانه باشا، باشا كردستان	١١٤٥هـ	١٧٣٢م
وقوع معركة طوبال (الأعوج) عثمان باشا	١١٤٤هـ	١٧٣١م
حصار الموصل	١١٥٤هـ	١٧٤١م
هروب خالد باشا، باشا كردستان إلى (أورفه)	١١٥٥هـ	١٧٤٢م
وفاة خالد باشا في (أورفه)	١١٥٦هـ	١٧٤٣م
ثم تغلب على يكن باشا، القائد التركي	١١٥٦هـ	١٧٤٣م
قتل نادر شاه	١١٥٨هـ	١٧٤٥م
وفاة عادل باشا	١١٦١هـ	١٧٤٨م
وفاة إبراهيم باشا	١١٦٢هـ	١٧٤٨م
بدء حكم سليمان باشا، باشا بغداد وقتل سليمان باشا، باشا (كوى سنجاق)، من قبل سليمان باشا، باشا بغداد ...	١١٦٤هـ	١٧٥٠م
قتل سليم باشا. باشا (قالاجوالان) في بغداد	١١٧١هـ	١٧٥٧م
تفشي الطاعون الكبير	١١٧١هـ	١٧٥٧م
تغلب باشا بغداد على محمود باشا الباباني في (نارين)	١١٧٦هـ	١٧٢٦م

اغتيال سليمان باشا	١١٧٨هـ	١٧٦٤م
تفشي الطاعون الثاني (الصغير)	١١٨٧هـ	١٧٧٣م
قتل سليمان باشا، باشا بغداد	١١٧١هـ	١٧٥٧م
أسر أحمد باشا. في أحمد (كلوان)	١١٨٧هـ	١٧٧٣م
أسر علي مراد خان من قبل أحمد باشا	١١٨٨هـ	١٧٧٤م
مجيء شفيع خان، لمساعدة محمد باشا	١١٨٨هـ	١٧٧٤م
مجيء كلب علي خان ـ وتغلب محمد باشا على خسرو خان	١١٩١هـ	١٧٧٧م
وقوع الهزة الأرضية في (تبريز)	١١٩٤هـ	١٧٨٠م
ذهاب محمد باشا وأحمد باشا إلى كركوك	١١٩١هـ	١٧٧٧م
تغلب أحمد باشا على محمد باشا	١١٩١هـ	١٧٧٧م
وفاة أحمد باشا	١١٩٢هـ	١٧٧٨م
وفاة كريم خان شاه إيران	١١٩٢هـ	١٧٧٨م
وفاة عبد الله باشا، باشا (زهاو)	١١٩٣هـ	١٧٧٩م
بداية حكم محمود باشا، جد الباشا الحالي	١١٩٢هـ	١٧٧٨م
قتل رضا قولي خان	١١٩٧هـ	١٧٨٢م
هروب محمد باشا المخلوع إلى إيران ورجوعه وقتله مع رئيس آخر اسمه عمر باشا من قبل محمود باشا تحت الشجرة الكبيرة في (قالاجوالان)	١١٩٤هـ	١٧٨٠م
بداية حكم إبراهيم باشا	١١٩٧هـ	١٧٨٢م
إنشاء مدينة السليمانية ثانية	١١٩٩هـ	١٧٨٤م

قتل محمود باشا	...	...	١١٩٨هـ ١٧٨٣م
بداية حكم عثمان باشا	...	...	١٢٠١هـ ١٧٨٦م
وفاة عثمان باشا	...	...	١٢٠٣هـ ١٧٨٨م
وقوع زلزال في السليمانية	...	...	١٢١٧هـ ١٨٠٢م
وفاة سليمان باشا، باشا بغداد وعقبه علي باشا	...	...	١٢١٧هـ ١٨٠٢م
وفاة إبراهيم باشا	...	...	١٢١٨هـ ١٨٠٣م
بداية حكم فتح علي شاه، شاه إيران الحالي	...	...	١٢١١هـ ١٧٩٦م
خرج عبد الرحمن باشا على طاعة علي باشا ـ وقتل محمود باشا، باشا (كوى سنجاق) وتغلبه على خالد باشا، باشا (آلتون كوبري) وعلى أثر ذلك سار علي باشا من بغداد من فوره فتغلب على عبد الرحمن باشا في (ده ربه ند)	...	...	١٢٢٠هـ ١٨٠٥م
مجيء خالد باشا إلى السليمانية وتسلمه الحكم	...	...	سنة واحدة
وقوع معركة (ده ربه ند) الثانية تحت إمرة سليمان باشا الصغير، باشا بغداد[1]	...	...	١٢٢٣هـ ١٨٠٨م
وقوع معركة (كفري)	...	...	١٢٢٦هـ ١٨١١م
قتل سليمان باشا، باشا بغداد	...	...	١٢٢٥هـ ١٨١٠م
رجوع عبد الرحمن باشا إلى السليمانية نهائيًا	...	...	١٢٢٦هـ ١٨١١م

(١) هذه هي السنة التي وصلت بها بغداد.



۴۱۶

الملحق الخامس

معلومات مستقاة في (أحمد كلوان)
عن الطرق المؤدية إلى أماكن مختلفة
في منطقة (قزلجة) إلى (زه هاو)

		ساعة	ملحوظات
إلى (سووره جو) في (شهر زوور) ويلفظها الكرد شاره زوور		٦,٥	بلاد ذات تلال، ليس فيها جبال عالية يقتضى اقتحامها
باني خيلان	...	٦,٥	القسم الأول من الطريق يمر بسهل (شهر زوور) وعند اقترابك من (باني خيلان) تجتاز جبلاً تصل من بعده إليها، حيث تصب في نهر ديالى عدة جداول تسيل من كردستان.
زه هاو	...	١٠	سهل (باجه لان).
		٢٣	

* * *

من (احمد كلوان) إلى (كرمنشاه) بطريق شاميان

ملاحظة: إن هذا أقصر الطرق التي تتجه من كردستان إلى (كرمنشاه) وأحسنها انبساطاً وهو يمر بكامله تقريباً في خانق بين جبلين.

		ساعة	ملحوظات
ساولاوا	...	٦	في منطقة سنه، في وادٍ على طوال الطريق
بالينكان (باه وكاف قارسيتان)	...	٥	على امتداد الوادي.
كرمنشاه	...	١٠	طريق منبسط
		٢١	

ويصف الكرد هذا الطريق بأنه أحسن الطرق الملائمة لمرور العشائر منه، مع عوائلهم وأثقالهم وقطعانهم. إلخ.

* * *

المعلومات المستقاة في (سنه) عن الطريق من (سنه) إلى (همدان)

				فرسخ
ده هكه لان	...	...	...	٦
كوروه	...	...	...	٦
حه ما قيسي	...	...	...	٦
همدان	...	...	...	٦
				٢٤

إلى (كرمنشاه)

				فرسخ
كوروورك	...	...	...	٥
كام ياره	...	...	...	٥
كرمنشاه	...	...	...	٧
				١٧

إلى (تبريز)

	فرسخ
باقلاباد	٦
كيله كه بورد	٦
ساقز	٩
كوول ته به	٦
ميان دوآو	٨
لوركله ر	٩
آق ته به	١١
تبريز	١٢
	٦٧

إلى (مه راغه)

	فرسخ
هه له ده ره	٥
ديوان ده ره	٥
قابلان تو	٥
صفا خانه	٤
صايين قلعة	٧
ديزة	٦
مه راغه	٤
	٣٦

❋ ❋ ❋

الطريق من (سنه) إلى (همدان) كما صحح استناداً إلى مذكرات المستر (به ل لي نو)

		كما يقال	في الحقيقة
ده ككيلان	...	٧ فراسخ	٩ ساعات و٥٥ دقيقة
كووربا	...	٥ فراسخ	٧ ساعات و١٥ دقيقة
حه ماقيسي	...	٥ فراسخ	٦ ساعات و٢٠ دقيقة
همدان	...	٥ فراسخ	٧ ساعات و٣٠ دقيقة
		٢٢ فرسخاً	٣١ ساعة

* * *

الملحق السادس

تفاصيل خاصة بطوبوغرافية كردستان وقد جمعت من أوثق المصادر في السليمانية وقورنت باعتناء مع المعلومات التي أدلى بها أشخاص عديدون

من (أحمد كلوان) إلى نالباريز - باء فارسية - مارين:

بمضيق (تاريه ر)	...	٣ ساعات
إلى (جوتان) «جفتان - جيم فارسية» من أعلى التلال	...	٢ ساعتان
إلى كل عمبر - خورمال الحالية - مركز (شهر زوور)	...	
إلى (كل عمبر) في منتهى جبال (أورمان: - هه ورامان)	...	٨ ساعات بطريق مستوٍ

من (كل عمبر) إلى (خواجال؟) ساعتان بوادٍ يمر في جبال (آورومان - هه ورامان).

من (كل عمبر) باتجاه غربي إلى (حلبجه) ساعتان بطريق تتسلط عليها الجبال أيضاً وهي تنفصل من (جووان روو) بنهر (ديالى) الذي يسمى هناك بنهر (سيروان) ومن (باني خيلان) - مضيق ديالي - بالجبل أو السلسلة التي تؤلف الحدود الغربية لسهل (السليمانية).

ويفصل ديالى (آورامان - هه ورامان) عن (شاهوو). وتعد جبال (آورومان) قسماً من (شاهوو) الأصلية.

طريق المسافرين في (شهرزور)

من السليمانية إلى:

آربه ت «عه ربه ت»	...	٤ ساعات	فيها خرائب كبيرة والخرابة المسماة بـ(قيز قلعه سي) تقع بين (كريزه) ـ كاف فارسية ـ و(آربه ت). وتقع كل من (بيستان سورور وياسين تبه[١]) بالقرب منها.
كريزه	...	٤ ساعات	
حصار	...	٢ ساعتان	
كل عمبر	...	٢ ساعتان	من السليمانية إلى (كل عمبر) وهي مركز (شهرزور).

١٢

و(كل عمبر) قريبة من جبل (أزمر) أو (كويزه ـ زاء فارسية).

ويتصل نهر (كل عمبر) بـ(تانجه رو) والاثنان يصبان في (ديالى).

---

(١) وجاءتا في الأصل (ده ستان زوور) و(يارين ته به) غلطاً ـ المترجم.

ويتشعب من (باني خيلان) طريقان الأول إلى (زه هاو) والآخر إلى (زه نكه باد) ماراً بـ(ديزي ياره ش) ـ (خاني جه به ن) ـ جيم فارسية ـ (زه نكه باد) ـ على ضفاف (ديالى).

من السليمانية إلى (باني خيلان)

من السليمانية إلى (ده ربه ند فه قه ره	...	٥ ساعات مجتازاً (تانجه رو)
كه وره قه لا ـ وهنا بعض الخرائب	...	٤ ساعات
باني خيلان	...	٣ ساعات
		١٢ ساعة

من (حلبجه) إلى (باني خيلان) خمس ساعات في وادٍ أو ممر اسمه (ده ربه ندى خان).

من (حلبجه) إلى (ده ربه ند فه قه ره) ست ساعات.

* * *

ـ من باني خيلان إلى (زه هاو) ـ

هه رسكه ل(؟)	...	...	١ ساعة واحدة
هورين	...	...	٢ ساعتان
سه رقه لا	...	...	٤ ساعات
زه هاو	...	...	٣ ساعات
			١٠ ساعات

* * *

من (زه هاو) إلى (كرمنشاه)

(زه هاو) إلى (بيشه اوو ـ باء فارسية)(؟)	...	...	٣ ساعات
سووره دزه	...	...	٣ ساعات
كرند	...	...	٣ ساعات
ثم إلى (كرمنشاه).			٩ ساعات

* * *

من السليمانية إلى (كرمنشاه) بطريق (حلبجه)

من (حلبجه) إلى (خانه شوور)		٧ أو ٨ ساعات	تقع (حلبجه) بالقرب من جبل يتشعب من (شاهو) يفصله (ديالى) عن (جووان روو) وهو يجري بين تلال (حلبجه) و(جووان روو).
دشته اوور	...	٣ أو ٤ ساعات	
دشته ليل	...	٣ ساعات	
دشته مرده	...	٣ ساعات	
زمكان	...	٢ ساعتان	وهناك معبر فوق ديالى إلى (جووان روو) وهو جبل يصل ما بين الضفتين.

ثم يمضي مارًّا بوادٍ أم ممر إلى سهل (ماه ده شت). ومن (زمكان) إلى (كرمنشاه) ١٤ ساعة.

ويسمى هذا الطريق الطريق الأوسط وطريق (زه هاو) هو الطريق الأسفل أما الطريق الأعلى فيدعى كما هو مدون في أدناه ويمر بـ(آوره مان) و(جووان رو): ـ

		ساعة
من (جه مي خواجايي) إلى (طويله)	...	٢
نه وسوود	...	١$\frac{1}{2}$
ديشه	...	٦
باوه ـ باه فارسية	...	٢$\frac{1}{2}$
قه لاي جووان روور	...	٨ أو ٩
ومنها بطريق (ماه ده شت) إلى (كرمنشاه)		١٢

هذا وهنالك طريق آخر إلى (كرمنشاه) ينعطف من الطريق الأسفل

على مسافة ساعتين ونصف ساعة من هذا الجانب من (زه هاو) إلى (دشته مرده) مارًّا بـ(بزميراوه).

و(بزميراوه) مصيف أو مرعى (زه هاو) وهي في (شاهوو). ويأتي من بعدها (ره زاو ـ زاء فارسية) ثم (طاووق). وكل هذه الأماكن هي في (شاهوو) أو (زاغروس).

و(شاهوو) هو ذلك القسم من (زاغروس) الذي يفصل باشوية (قالا جوالان) في كردستان التركية من كردستان الإيرانية.

هذا ولا يزال هنالك طريق آخر إلى (كرمنشاه) يمر بـ(قزلجة) إلى (صالياوا) واسمه طريق (شاميان) وقد جاء ذكره في الجدول الثاني من الطرق إلى (قزلجة).

ويمتد (قه ره داغ) بعد أن يمر من (ده ربه ند) ليؤلف جبال (خال خالان) في (كوى سنجاق).

ممرات زاغروس بين كردستان البابانيين وإيران

١ـ كاران ـ ك. فارسية ـ الطريق إلى (سنه) وهو الممر الواقع في النهاية الجنوبية.

٢ـ سوور كيو. يتشعب الطريق إلى (سوور كيو) من طريق (كاران) عند جسر (عصر آباد).

٣ـ كه لي با ـ ك. فارسية.

٤ـ ناو خووان.

٥ـ بيشان (؟) ـ ب. فارسية ـ من (بيستان) إلى (بانه).

٦ـ (كه لي بالين) من (بانه) إلى (بايين ده ره) ـ ك. فارسية.

٧ـ كه لي خان ـ ك. فارسية.

ثم ينعطف (زاغروس) إلى شرقي (سه رده شت) وغربي (صاووق بولاق)[1] ثم إلى (سيكه نه).

---

(١) وتلفظ هذه (صاووج بولاق)، أما الاسم الشائع ترخيماً بين الأهلين فهو (صابلاغ). - المترجم.

فهرس المحتويات